ا. ب. تشيكوف

تأليف

ف. يرميلوف

نقله الى العربية

الدكتور عبد القادر القط و الأستاذ فؤاد كامل



أ. ب. تشيكوف

لم يكن في طفولتي طفولة

تقلبت الحياة بأنطون بافلوفتش تشيكوف من غلام يعمل في « بقالة » أبيه في الريف الى معلم صبية فقير في أسرة تنتمي الى الطبقة المتوسطة الى طالب طب الى كاتب يمد الصحف الفكاهية الرخيصة بقصص مسلية ، الى اديب ذي شهرة عالمية فيما بعد . والذي يتدبر أمر تلك الحياة المختلفة الاطوار يؤخذ قبل كل شيء بطبيعة بارزة فيها ، هي تلك العقبات الضخمة التي كانت تعوق نمو ما كان لدى صاحب هذه الحياة من موهبة .

وكان لابد لكي يجتاز تلك العقبات أن يجند دائما وبدون وهن كل ما لديه من قوى روحية وارادة صارمة نحو الكفاح في سبيل الخلق الفني .. وكأنما كانت الحياة تمتحن تشيكوف على الدوام لتثبت انه أهل للعبقرية فبثت في طريقه من الحبائل الماكرة ما كان حريا أن يقتنص كثيرا غيره ممن هم أضعف منه ارادة وان كانوا موهوبين مثله ، كأخويه الكاتب الكسندر والرسام نيكولا . فقد كان كلاهما ذا موهبة عظيمة ولكنهما لم يستطيعا أن يدركا أن الموهبة تغدو قليلة الشأن أو لا شأن لها على الاطلاق أن لم تقترن بكفاح دائم يضمن لها البقاء ، من كفاح لا يفتر وعمل جاهد دائب وصفات جوهرية أخرى كثيرة .

وقد دفع تشيكوف ثمن كل ما حققه ، من صحته وعمله الشاق المتصل ووحدته وجهاده الذي لم يهدأ لحظة في سبيل تدريب نفسه واعدادها . وهو جهاد كان يتطلب منه أن يعبىء كل ما لديه من قوى روحية ، وليست قصة حياته وعمله — ولم تكن الحياة عنده سوى العمل — الا قصة الموهبة وقوة الارادة في انتصارهما على ما تصادفان من عقبات .



المنزل الذى ولد فيه تشيكوف فى تاجنروج

ولد أنطون بافلوفتش تشيكوف فى (تاجنروج) فى السابع عشر من شهر يناير عام ١٨٦٠ . وكانت أسرة تشيكوف غنية بالمواهب الفطرية يكاد يتفجر ينبوع النبوغ الصافى فى كل فرد من أفرادها . وكان جده بيجور ميخائيلوفتش تشيكوف فلاحا من مقاطعة فورونيز وعبدا من عبيد الاقطاعي تشيرتكوف والد تشيرتكوف تلميذ تولستوي المعروف . وكان بيجور ذا ذهن رائق وجلد كبير وقدرة على التنظيم والادارة . ولكنه كان جافيا مستبدا ، كثيرا ما تعتاده نوبات من الغضب الجامح .

ولم يكن له فى الحياة من مأرب الا حلم راح يعمل فى اصرار لكى يحققه ، مقترا على نفسه فى كل شيء . وكان هـذا الحلم أن ينـال الحرية لنفسـه ولابنائه . وقد تحقق له حلمه ، فاشترى حريته وحرية زوجته وأولاده الثلاثة بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل . وهو مبلغ لا يسـتهان به فى تلك الأيام . ولم يبق لديه بعد ذلك ما يحرر به ابنتـه ، ولـكن السيد تعطف ومنحها حريتها .

ولم يلبث بعد ذلك أن عمل مديرا لضـياع الكونت بلاتوف ابن اتامان بلاتوف بطل ١٨١٢ الشهير . ومع انه قد قاسى أهوال العبودية فانه لم يتخل عن الايمـان باستعباد الآخرين وظلمهم (١) ، وقد جمع بيجور ميخائيلوفتش الى هذا الطبع العنيف صـفات لم تكن تتناسب معه ، فقد كان ذا خيـال خصب يبدو بين حين وآخر بين سطور رسائله . فقد كتب مثلا الى ابنه ــ والد كاتبنا ــ يقول :

« عزيزى المهذب بافل بيجوروفتش » مع أن بافل هذا لم يكن يمت الى الرقة بأدنى سبب بل كان فى الحقيقة يفوق أباه فى طغيانه الجموح . ولعل بيجور ميخائيلوفتش قد أدرك أن نفس ابنه تنطوي على نزعة حالمة خفيـة لم يفطن لهـا الآخـرون . ومهمـا يكن من شيء فـلا بد أن أبنـاء بافل بيجوروفتش قد أحسوا بأن كلمـة « الرقيق » هذه لا تلائم

---

(١) وقد ظل تشيكوف يذكر طوال حيـاته أن جده كان المحامى المتحمس لنظام الاسترقاق .

أباهم أدنى ملاءمة ، فقد كانوا يعـــرفون « رقة » أبيهم حـق المعرفة . اذ كتب أنطون بافلوفتش الى اخيه الكسانلر خلال (عام ١٨٨٩) يؤنبه فيه على سوء معاملته لزوجته وأطفاله يقول فيه :

« أرجو أن تذكر أن الاستبداد والكذب قد حطما شباب والدتك ، وان الاستبداد والكذب قد شوها طفولتنا الى حد يصعب معه أن اتذكره دون أن يصيبنى الفزع والغثيان . تذكر هذا الفزع والغثيان اللذين كنا نحس بهما كلما ثار غضب والدنا على المائدة لان الحســـاء كان كثير الملح أو كادا سب والدتنا ودعاها حمقاء . . . ان الاســـتبداد جريمة لعينـــة . . لعينـــة . . . »

وقد لعب الاستبداد دورا خطيرا فى حياة عدة أجيال من أسرة تشيكوف . فقد كان بيجور ميخائيلوفتش وابنـــه بافل بيجوروفتش ثم حفيده الكساندر بافلوفتش ميالين جميعـــا الى التحكم وفرض ارادتهم على الآخرين دون رحمة أو هوادة على أن هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون أجيالا ثلاثة فى الوقت نفسه ذوى خيال قوى ملحوظ . ومع أن بافل بيجوروفتش — والد كاتبنا — كان يحترف التجارة فانه كان فى أعماقه فنانا

ولم تكن حياته كبائع عند كوبلين التاجر الشهير — الذى كان أيضا عمدة تاجنروج — لا تختلف كثيرا عن حياة غيره من الباعة الذين صورهم أوستروفسكى فى مسرحياته ، ثم أنطون بافلوفتش تشيكوف نفسه بعد ذلك فى قصته « ثلاثة أعوام » فقد كان عليه أن يعمل منذ مطلع الفجر حتى المساء محاولا أثناء ذلك أن يرضى العمـــلاء على اختـــلاف ألوانهم بضروب الابتســـام والخضوع والملق ، وقد يجد نفسه أحيانا مضطرا أن يتقبل بعض اللكمات بنفس راضية ، وكان عليه أن يحمل نير هذا الذل لكى يقتصد قليلا من المال . فقد كان له فى حياته — كما كان لابيه من قبل — هدف خاص يسعى اليه . كان

يريد أن يخلص نفسه من ذلك الذل ويظفر بحياة حرة مستقلة وكان يحلم بأن يصبح صاحب حانوت هو نفسه . وبفضل مثابرته العجيبة استطاع فى النهاية أن يحقق حلمه فافتتح فى عام ١٨٥٧ حانوت بقالة وألحق به قسما « للخردوات » .

ولكن بافل بيجروفتش لم يكن يستطيع — رابيه — ان يمضى فى طريقه تحت سيطرة فكرة واحدة بل كانت تقوم فى سبيله نزعته الفنية الكامنة فى أعماق نفسه .

وكان متعدد المواهب ، فتعلم بنفسه العزف على الكمان، وقد ورث أنطون تشيكوف عنه حبه للموسيقى . وكان الى جانب ذلك يمارس الرسم بالزيت لذلك قال أنطون بافلوفتش متحدثا عن نفسه وعن أخوته وأخواته : « لقد ورثنا موهبتنا من ابينا وأخلاقنا من امنا » .

وكان بافل بيجروفتش ينشد الاتساق والجمال فى حياته اليومية ولكن نقص ثقافته لم يتح له أن يعبر عما لديه من طاقة ومواهب الا فى صور شاذة . وكان شغله الشاغل فرقة الترنيم الكنسية التى كونها وكرس لها كثيرا من وقته مما كان يصرفه عن الاهتمام بتجارته . وقد استطاع بمثابرته العنيدة أن يجعل من تلك الفرقة خير فرق المدينة جميعها . وكان يختار أفرادها من بين الحدادين أما الاصوات العليا والمتعددة فكان يؤديها أبناؤه أنفسهم .

وفى تلك الفرقة — لا فى تجارته — كان يتمثل همه الحقيقى فى الحياة .

أما أبناؤه ، فكانوا يجدونها لعنة انصبت على حياتهم . فقد كتب الكساندر أخو تشيكوف فى مقال له بعنوان : « أنطون تشيكوف مرتم الفرقة الكنسية » يقول :

« مسكين انطون . لشد ما عانى وهو غلام صغير ضعيف الصدر لم يوهب أذنا موسيقية ولا صوتا قويا . وكم من الدموع قد إذرفت إثناء التدرب على الترنيم وكم من نوم

الطفولة البرىء قد بدده ذلك التدريب الذى كان يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل . لقد كان بافل بيجروفتش دقيقا صارما فى كل ما يتعلق بالصلوات الكنسية . فاذا أقيمت صلاة صباح فى مناسبة دينية كبيرة أيقظ أطفاله فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا وساقهم الى الكنيسة مهما تكن حالة الجو .. وكان يعتقد اعتقادا عميقا انه حين يضطر أبناءه الى الغناء فى الفرقة الكنسية انما يؤدى عملا خيرا من أعمال التقوى . وكان لذلك لا يستمع الى نصح أو اقناع فى هذا السبيل » .

وقد ظل الاخوة تشيكوف طوال حياتهم يبغضون التعليم الدينى بما فيه من تقديس ونفاق وعبودية . لذلك يقول تشيكوف ان أى تعليم دينى يذكره بشاشة يرى الناظر اليها وجوه أطفال بريئة تبتسم ابتسامات عذبة فى الظاهر ، بينما تخفى وراءها عذابا واستشهادا . وقد كتب عن هذا يقول : « لقد نشأت أنا نفسى نشأة دينية وتعلمت تعليما دينيا بما فيه من ترنيم فى فرقة الكنيسة وقراءة فى الانجيل والمزامير وشهود منتظم للصلاة ومشاركة فى طقوس الهيكل وقرع النواقيس . فماذا كانت نتيجة ذلك كله ؟ انى لاذكر أن طفولتى كانت بائسة حزينة ومع ذلك فلست أجد فى نفسى الآن أى أثر للشعور الدينى . وكنت أنا واخواى حين نقف معا فى الكنيسة لنرتل « اسمعوا صلواتى » بينما ينظر الينا كل من هناك فى انفعال وهم يغبطون أبوينا نشعر كما لو كنا مذنبين صغارا يؤدون طوال الوقت أشغالا شاقة »

وهكذا تحول طموح بافل بيجروفتش نحو الجمال والخير الى النقيض وأصبح ذلك الطموح مصدرا للألم والعذاب . وبالطريقة نفسها تحول حبه للنظام والاتساق فأصبح منبعا لشقاء أطفاله ولو تتبعنا جانبا من حياة أسرة تشيكوف بعد أن انتقلت من تاجنروج الى موسكو لاستطعنا أن نعرف شيئا عن « منهجه التعليمى » .. فقد اضطر بعد أن بارت تجارته بوارا تاما الى

أن يهرب سرا من دائنيه الى موسكو . وهناك عاشت الاسرة عيشة الفاقة فى بيت حقير فى حى متواضع معظم سكانه من العاهرات ، فى شارع دراشفكا بالقرب من مبدان تد و اأز ـآ . والتحق الكساندر ـ أكبر ابنائه ـ بكلية العلوم واتخذ لنفسه مسكنا مستقلا . اما انطون فقد بقى فى تاجنروج حتى يتم دراسته الثانوية .

وفى موسكو ايضا أصر بافل بيجروفتش على النظام الذى كان يتبعه فى تاجنروج . فعلق على الحائط بيانا بهذا العنوان :

« نظام العمل والواجبات المنزلية لاسرة بافل تشيكوف المقيمة فى موسكو » . وجاء فيه : ـ

« نيكولا تشيكوف السن عشرون عاما ينهض من فراشه بين الخامسة والسابعة حسب ما يراه وتبعا لما يمليه عليه ضميره .

« ايفان تشيكوف » السن سبعة عشر عاما . ينظر فى أمور البيت حسب النظام المبين .

« ميخائيل تشيكوف » أحد عشر عاما ونصف . و « ماريا تشيكوف » أربعة عشر عاما . يحضران بانتظام صلاة المساء فى السابعة ، والصباح فى السادسة والنصف ، والضحى فى التاسعة والنصف .

وضع هذا النظام وأقره رب الاسرة وعلى أفرادها تنفيذه كل فيما يخصه .

رب الاسرة
بافل تشيكوف

وكل فرد لا ينفذ هذه التعليمات سيؤنب لاول مرة تأنيبا شديدا دون أن يسمح له أثناء ذلك بالبكاء . ومع أن هذا النظام يحمل فى ظاهره معنى الدعابة فان ايفان حين اهمل فى

أداء « واجباته المنزلية » تلقى من أبيه ذلك «التأنيب» الموعود في صورة ضرب مبرح لم يملك معه أن يحبس صراخه . وهرع الجيران ليروا ما حدث وهدد صاحب البيت بطرد الاسرة اذا تكرر منها مثل ذلك العمل الفاضح .

وليس من العسير اذا كانت تلك طريقة بافل بيجروفتش في تربية أبنائه وقد كادوا يصبحون رجالا أن نتصور اى لون من المعاملة كانوا يلقون منه فيطفولتهم . لذلك روى الكساندر بافلوفتش أن أول سؤال وجهه أخوه أنطون الى زميل له في المدرسة كان : « ايضربك ابواك كثيرا ؟ » فلما أجابه انه لا يضرب قط ، عجب أنطون لذلك أشد العجب .

وقد ترك الضرب في نفس أنطون وهو صغير أثرا اعمق مما تركته أى تجربة اخرى حتى لقد ظلت ذكراه عالقة بمخيلته طيلة حياته وقد قالذات مرة لمدير المسرح الشهير دانشنكو :

« أتدرى انى لم أستطع قط أن أغفر لابي جلده اياى » . وقد ترك هذا التأديب الابوى في روح الصبى قبل جسده جروحا عميقة لما كان يجد في ذلك من امتهان لكرامته كانسان

لذلك كان قول تشيكوف : « لم يكن في طفولتى طفولة » ذا دلالات كثيرة . فان نظام حياته الذى كان يشبه الاشغال الشاقة الى حد بعيد لم يكن يناسب حياة طفل بأية حال . فقد كان حانوت والده يفتح من الخامسة صباحا الى السادسة في المساء ، ولم يكن يستأجر الا بائعا واحدا . ولهذا كان كثيرا ما يلقى العبء على أبنائه . وهكذا كان نهارهم موزعا بين الحانوت ثم المدرسة ثم الحانوت مرة أخرى ، ثم التدريب على الترنيم الذى لا ينتهى والصلوات الطويلة فيالكنيسة والبيت ، على السواء . وفوق ذلك كله كان عليهم أنيتعلموا بعض الحرف الخاصة فكان أنطون مثلا يعد نفسه ليكون « ترزيا » كما كان عليهم كذلك أن يقوموا ببعض « الاعمال المنزلية » .

وهكذا فرض على انطون الصغير منذ سنواته الاولى أن يتعلم شؤون التجارة وحساباتها وان يقوم بما يستلزمه ذلك من ارضاء للعملاء . وبراعة فى تطفيف الموازين والمقاييس وغير ذلك من الوان الغش البسيط على حد تعبير اخيه الكساندر فى مذكراته .

كذلك كانت طفولة تشيكوف . طفولة مليئـــة بالعقوبات الجسدية المهينة والعمل المتصل الشاق والحاجة الدائمة الى النوم ، وهى بهذا تختلف عن تلك الطفولات السعيدة الشاعرية التى صورها فى قصصهم كتاب من الطبقة الاروستقراطية مثل تولستوى ، واكساكوف ، والكس تولستوى فى قصــــته : « طفولة نيكيتا » .

وقد كتب تشيكوف الى الناقد تيخونوف يشكره لثنــائه الجميل على مسرحيته « ايفانوف » فقال :

« لقد كانت طفولتى خالية من العطف حتى ما ازال الى اليوم انظر الى العطف كأنه شىء غير مألوف ، شىء ليس لى به خبرة كبيرة من قبل » .

على أنه من الخطأ ان نقول عن حياة أسرة تشيكوف انهـا كانت سلسلة متصلة من الالم والاسى . فما ينبغى ان ننسى ما كان للام يفجنيا ياكوفلفنا من اثر فى تخفيف ذلك الجـو كما يجب الا نعتقد ان بافل يجوروفتش لم يترك فى نفـوس أطفــاله الا آثارا ســـيئة فحسب . ومهما يكن من شىء فقد حاول أن يغرس فى نفـوس أطفـــاله منذ سنيهم الاولى حب العمل والنظام والشعور بالواجب والمسئولية . حقــا لقـد كانت طريقتـــه فى تحقيق ذلك جـديرة بأن تثـير نفـورهم واشمئزازهم من كل عمل أو نظام ، وهو ماحدث الى حد ما بالنسبة الى ابنيه الكبيرين الكساندر ونيكولا . ولكن انطون قد استطاع مع ذلك ان يستخلص من الشر خيرا . وقد ظل

شعوره نحو أبيه رغم ما كتبه عنه من عبارات تفيض بالكآبة والاسى شعور الاحترام والمحبة . لقد كان باقل بيجروفتش يطمح الى ان يكون ابناؤه مثقفين ثقافة حقة . وكان يشعر انه هو نفسه كان خليقا لو قدر له أن يظفر بمثل تلك الثقافة ان يؤدى دورا نافعا فى حياة الانسانية . لذلك اراد لابنائه ان يصيبوا فى حياتهم من النجاح ما لم يقدر له فأرسلهم جميعا الى المدارس الثانوية وعين لهم أستاذ موسيقى واتاح لهم ان يتعلموا اللغات الاجنبية فى سن مبكرة فاستطاع ابناؤه الكبار ان يتحدثوا الفرنسية بطلاقة وما زالوا فى العقد الثانى من حياتهم .

ومع ذلك فان ما كان من خير فى طبع بيجروفتش وموقفه من أطفاله قد افسدته سوقية الطبقة المتوسطة وشذوذها وأساليبها المستبدة كما شوهته الحاجة وشظف العيش .

ولم يغب عن فطنة الصبية الصغار طباع اهلهم الشاذة ، من مثل أبيهم وعمهم متروفان . فقد كان أنطون واخوته الكبار يتميزون بمقدرة فائقة على الملاحظة واحساس حاد بما يثير الضحك وغريزة عميقة يدركون بها الزيف والتصنع . وقد كانت سخريتهم الدائمة من كل ماهو شاذ توشك أن تكون موهبة فطرية لم تتطور بعد ولم تع ماحولها كل الوعى ولكنها مع ذلك تحس احساسا قلقا بما يتهددها من أخطار ومما هو جدير بالذكر ان اول قصة نشرها تشيكوف «رسالة من اقطاعى مثقف » (١٨٨٠) تقوم على تقليد ساخر لاسلوب جده بيجور ميخائيلوفتش وأسلوب عمه متروفان وهى رسالة تتميز بالحذلقة والامية معا كما تتميز بمحاولة كاتبها أن يخلع على حوادث الحياة اليومية العادية طابع الجلال والضخامة .

وكانت سخرية تشيكوف واخوته من طباع أبيهم وعمهم الشاذة احدى وسائلهم التى كانوا يحاولون أن يحاربوا بها

سوقية الطبقة الوسطى ، عدوهم الاول . وقد كانت السوقية وحدها هى التى تشوه ما كان فى نفس ابيهما وعمهما من خير ونقاء . وتبدو النظرة السوقية والذوق السوقى عند أفراد تلك الطبقة فى تقديسهم واجلالهم للحياة اليومية وفى محاولتهم ان يستروا الحقيقة المزرية البشعة لحياتهم التى تدور حول المال . وعن ذلك يقول انطون تشيكوف فى رسالة كتبها عام ١٨٨٨ .

« لقد ولدت ونشأت وتعلمت وبدأت الكتابة فى جو كان المال يلعب فيه دورا خطيرا الى حد مهين . وقد كان لهذا الجو أسوأ الاثر على نفسى » . والحق ان السوقية تهتم اهتماما كبيرا بمحاولتها التستر على الحقيقة المخزية وتتخذ من ذلك وسيلة الى الرضى بها . لهذا كان تشكوف منذ طفولته يمقت الكذب فى جميع مظاهره . وقد راينا فى خطابه الذى كتبه الى أخيه ألكساندر كيف كان يكره الاستبداد والكذب . وقد كان يحس بما فى ترنيم الفرقة الكنسية من زيف فى الوقت الذى كان كل الحاضرين يصغون فى انفعال الى اصوات الصبية الملائكية بينما يشعر أولئك الصبية كأنهم مذنبون قضى عليهم بالسجن . وكذلك احس بزيف الحماسة التى كان يندفع اليها بسهولة ابوه وعمه واستطاع أن يدرك فى وقت مبكر ان الحياة من جوله لم يكن فيها ما يغرى بالحماسة قط . ففى كل دقيقة منها كان يرى كيف يمتهن الناس ويهانون وكيف تساء معاملة الاطفال ويخدع العملاء عن نقص الموازين بالملق والابتسام . وكذلك ادرك تشيكوف منذ وقت مبكر ان هذا اللون من الحياة لا يمكن ان يحتفظ ببقائه الا بالزيف ، فكره الزيف فى جميع صوره بما فى ذلك الحماسة الزائفة والعاطفية المبتذلة التى تخفى وراءها الغلظة والقسوة بين الناس بعضهم وبعض . ذلك لانه كان يحس فى كل ذلك سيكوليجية العبودية .

حتى المدرسة كان يرى فيها عدوا لجريته أقوى مما يلاقيه في البيت من استبداد . ومع أن مدرسة تاجنروج كانت مدرسة نموذجية من وجهة نظر وزارة التعليم القيصرية ولكنها في الحقيقة كانت مصنعا لتخريج العبيد .

وكل من قرأ تشيكوف يعرف « الرجل الذي يعيش في قوقعة » كما يتمثل في المعلم بليكوف . وكان المشرفون على مدرسة تاجنروج الثانوية من هذا الطراز الذي يعيش في قوقعات . وقد استعان تشيكوف الى حد ما في رسمه لصورة بليكوف بما كان يعرفه عن ديكانوف احد مفتشي تلك المدرسة . وقد كتب الكساندر تشيكوف في مذكراته يقول :

« لقد غادر كثير من زملائي المدرسة وفي نفوسهم مرارة . وقد اعتدت انا نفسي أن احلم طول الليل بالامتحانات الرهيبة وقسوة الناظر والاساتذة . ولم تفارقني تلك الاحلام حتى بعد ان بلغت الخمسين . وما أذكر اني شعرت بالسعادة يوما واحدا من أيام حياتي في تلك المدرسة . »

أما تشيكوف فكتب في احدى رسائله (عام ١٨٨٦) يقول : « ما زلت احيانا احلم بأيام المدرسة وبأني لم استذكر دروسي وبأن المدرس سيمتحنني فيها »

والحق انه لابد ان تلك المدرسة الثانوية كانت صورة اخرى للسجن ما دامت أحلامها الرهيبة قد ظلت عالقة بأذهان تلاميذها هذا الزمن الطويل وبهذه الصورة الحادة

وهكذا حاولت حقائق الحياة أن تسترق تشيكوف فأحاطت به من كل الجهات كما أطبق عليه العدوان من كل جانب ولكنه كان كلما ازداد ضغط هذه الحقائق عليه يزداد وعيا واصرارا على الدفاع عن كرامته كانسان .

بشائر النبوغ

كان أنطون منذ طفولته وصباه الباكر يلجأ عن غير وعى الى روح الفكاهة يدفع بها عن نفســـه كل ما يثــير الحزن والكآبة .

وكانت روح الفكاهة عندالاخوة تشيكوف حادة الى درجة عجيبة . وبرغم ما كانت عليه من براعة وجرأة فانها كانت مع ذلك تتسم بالطيبة وحب الحياة والناس . وكانت مخائل النبوغ والموهبة المبدعة تبـــدو فى كل دعاباتهم وفكاهاتهم . وبرغم ما كانوا يتلقون من الحياة من لطمات فانهم قدواجهوها بكثير من الثقة والابتسام كأنما كانوا يؤمنون بأن الحياة أعجز من ان تقهر الضحك والبهجة . وقد امتاز هؤلاء الاخـــوة بالحيوية والنشاط برغم الحانوت والمدرسة وفرقة الغنـــاء وضرب أبيهم ، بل برغم كل شيء . وهـــكذا كانوا ينـارون لانفسهم من الحياة بالسخرية منها . وكان انطون الصـــغير بارعا فى الارتجال يستطيع أن يبدل ملامحه وصوته فى سرعة خارقة فيتقمص شخصية طبيب اســـنان وراهب ومدرس عجوز واحدا بعد الآخر . وكان مولعا بوجه خاص بتقليـــد شخصية من يجتاز امتحانا لوظيفة « الشماس » . فـــكان اخوه الكساندر يقوم بدور الاسقف الممتحن . ويتحـــدث ميخائيل عن دور أخيه انطون فى هـــذه التمثيلية الصـــغيرة فيقول : كان يمد عنقه الى الامام فسرعان مايبدو مغضنا كأنه عنق رجل عجوز ثم يغير نبرات صوته تغييرا تاما ويبـــدأ فى ترتيل قوانين الكنيسة امام أخيه فى صوت مرتجف وهو فى أثناء ذلك يهتز من الخوف ويخطىء اخطاء متصـــلة فى الاداء

... ولكن المحنة تنتهي الى خاتمة سعيدة حين يخاطبه الاسقف بقوله : قم فأنت شماس .

ولسنا ندرى موقف أبيهم الورع من ذلك المشهد وامثاله واغلب الظن انه لم يكن يعلم بأمرها .

وكان انطون مولعا كذلك بتقليد حاكم المدينة وهو يشهد الاحتفال « بيوم القيصر » فى الكنيسة بمشيته المختالة وما كان تبدو عليه من فخر بمنصبه الحكومى ورضى ساذج عن حياته

ومن الادوار الاخرى التى كان يجيد تقليدها دور الموظف الحكومى الكبير وهو يشترك فى رقصة رباعية فى حفلة رقص رسمى . ونستطيع أن نجد فى قصص تشيكوف التى كتبها بعد ذلك كثيرا من النماذج لهؤلاء الموظفين الكبار بشواربهم المشذبة ووجوههم الذليلة . وكان يحلو لتشيكوف ان يقوم بدور طبيب الاسنان فى تمثيلية « جراحة الاسنان » فيمسك بملقط الفحم ويحاول ان يخلع سنا من فم أخيه الكساندر . وبعد عذاب طويل يخرج الملقط من فم « المريض » وفى طرفه سدادة من الفلين . ويعرضها أنطون على الحاضرين فيضحجون بالضحك . ونستطيع ان نلمح فى تلك التمثيلية ظلالا من قصته الشهيرة « جراحة » .

وكان انطون كذلك يجيد التنكر . وقد تنكر ذات يوم فى زي شحاذ وذهب الى بيت عمه متروفان حاملا ورقة يصف فيها حياته البائسة . ولم يستطع العم ان يتعرف على ابن اخيه وتأثر تأثرا شديدا بما كتبه تشيكوف فى تلك الورقة وتصدق عليه .

ومن المؤسف أن تلك الورقة لم تصل الينا فلا بد انه استطاع أن ينفذ بها الى قلب عمه وان يظفر بأول أجر له كمؤلف وممثل معا .

لكن ذلك كله لم يكن الا مجرد اقنعة مسرحية ومجـــرد تمثيل يتســلى الاخوة به وينفقون فيــه ما لديهم من طاقة ولكنهم لم يكونوا يقنعون بهذا المسرح الخاص بل كانوا جميعا ـ وبخاصة انطون ـ يتوقون الى ان يكون لهم مسرح حقيقي يستطيعون ان يمثلوا فيه مسرحيات حقيقية . وقــد كان المسرح أحب شيء الى تشيكوف فى طفولته وسنى صباه .

ولم يكن يسمح لتلاميذ المدرســة الثانوية ان يذهبوا الى المسرح دون اذن كتابى من ادارة المدرســة . وكان المفتش دياكونوف كثيرا ما يرفض هذا الاذن لانه لا يحب المسرحية المعروضة ويرى فيها خطرا على الصغار . ومع ذلك فقــد كان انطون يذهب الى المسرح حتى بغير اذن . وكان أحيــانا يغير ملامحه حتى يبدو أكبر سنا من تلاميذ المدارس . وقد تأصل فى نفسه حب المسرح حتى أصبح لا يكاد يطيق الحياة بدونه . وكان فى الثالثة عشرة حين ذهب الى المسرح لاول مرة حيث شاهد اوبريتا « هيلين الجميلة » ثم شاهد بعد ذلك هاملت ومسرحيات آوستروفسكى وعرضــا مسرحيــا لرواية كوخ العم توم .

وكانت مسرحية « المفتش العام » لجوجول اول مسرحية اشــترك فى تمثيلها أنطون الصبى . وقــد أعدها الاخــوة تشيكوف وفريق من أصدقائهم الهواة .وقام أنطون فيها بدور حاكم المدينة . ولاقت المسرحيــة نجــاحا شــجع الممثلين الصغار على ان ينظموا مسرحا « حقيقيــا » دائمــا فى بيت دزوسى أحد زمــلائهم فى المدرسة اتخذوا لذلك صالة كبيرة وغرفة للممثلين وأعدوا له كثيرا من الادوات والملابس المسرحية.

كان المسرح هو الحب الاول لانطون تشيكوف . وقد ظل طيلة حياته يعود دائما الى حبه الاول رغم ما كان يقسم فى كثير من الاحيان انه لن يكتب للمسرح مرة أخرى .

وقد قام بأولى تجاربه الادبيــة فى تلك الفترة التى كان

متحمسا فيها للمسرح ، فشارك وهو ما زال فى السنةالرابعة- بالمدرسة الثانوية فى مجلة خطية كان يصدرها أحد التلاميذ فى الفرق العليا .

وفى عام ١٨٧٥ ذهب اخوته الكبار الى موسكو لطلب العلم فالتحق الكساندر بالجامعة ونيكولا بمدرسة الفنون . وكان رحيلهم حدثا جللا فى حياة أنطون . اذ كان بينه وبين اخوته صداقة عميقة قوية .

وقد حاول الاخوة فى هذه المناسبة ألا يظهروا شيئا من العاطفية المفرطة التى كانوا يمقتونها جميعا وبخاصة انطون. فاكتفوا من التعبير عن حبهم العميق بعضهم لبعض بشيءمن الدعابة والفكاهة . ولكن الحب شيء لا يمكن ان يخفى فهو يبدو فى كل كلمة من كلمات مراسلاتهم وفى انشغال كلمنهم بشئون الاخر ومشكلاته وفيما كان يقوم بينهم من تفاهم مشترك عميق . ولم يكن أحد يستطيع ان يقوم عندتشيكوف مقام اخوته ولا ان يمنحه ذلك التعاطف الفنى الذى لا بد منه لكل فنان وبخاصة الفنان الناشيء ، ذلك التعاطف الذىيشيع من حوله جوا مشرقا لا تفوته فيه فكرة أصيلة او دعابةطيبة أو تشبيه نابض بالحياة .

وكأن الاخوة تشيكوف يعرفون كيف يخلقون هذا الجو الفنى اذ كان ثلاثتهم يمتازون بتلك الخصلة الجميلة التى تجعلهم قادرين على أن يدركوا كل دعابة. وقد كان تشيكوف يقدر هذه الميزة تقديرا عظيما ويعدها من بين الخصال الانسانية العالية . يقول الكاتب ايفان بونين عن ذلك : كان تشيكوف يرى فى قدرة المرء على الدعابة ميزة كبرى ويقدر من يستطيعون ادراكها تقديرا عظيما . ولا يرى خيرا فىالذين لم يؤتوا هذه الموهبة وان كانوا نموذجا للحكمة والمعرفة

وافتقد أنطون اخوته افتقادا شديدا بعد أن اعتاد صحبتهم والحياة معهم كل يوم ، الى حد انه بدأ يكتب لهم صحيفة



عائلة تشيكوف ١٨٧٥

فكاهية سماها « المتلعثم » وكان يرسلها اليهم بانتظام فى موسكو ، ولكنا مع الاسف لم نظفر بعدد واحد من اعدادها .
وهكذا لعبت الفكاهة حتى فى تلك الايام المبكرة دورا ضخمــا فى حياة ذلك الصبى الذى قدر له فيما بعد ان يكون من اعظم كتاب الفكاهة والسخرية . وقد بدا كاتبنا الشــاب فأزاح النقاب عن غير وعى ــ عن كل ما هو مضحك او وضيع فى خصومه الالداء ــ الاستبــداد والعبــودية والزيف والذوق السوقى ــ فاستطاع بذلك ان يدرك أن الانسان ليس عاجزا عن قهرها كما كان يظن الناس .

وداعاً أيها البيت
وداعاً أيتها الحياة القديمة

كان يدور فى نفس انطون الصغير تطور خطير ترك فى حياته جميعها أبلغ الاثر . كان يقرأ كثيرا ويفكر كثيرا . ومع انه كان مرحا يحب معاشرة الناس فانه كان يحرص على استقلال ذاته حرصا شديدا ويغار عليها من تطفل الاخرين .

وفى كلمة « الحرية » كانت تتلخص كل آمال تشيكوف الصغير . وهو فى هذا يشبه جده الذى مضى يقتصد مبلغا صغيرا عاما بعد عام ليشترى حريته فى النهاية . وكذلك فعل أبوه فاقتصد يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى يظفر بتجارة « مستقلة » ولكن تشيكوف كان يدرك مع ذلك أن جده واباه وعمه لم يستطيعوا ان يصبحوا رجالا احرارا فى الحقيقة اذ كانت العبودية قد تأصلت فى نفوسهم تأصلا يستعصى على الاصلاح ، واستطاع أن يدرك منذ البداية ان ما كان فى نفوسهم من ميل الى الاستبداد يرجع الى تلك الطباع المتأصلة لديهم ، من خضوع للعبودية وبعد عن احترام الاخرين وعن تقدير كرامة الانسان .

وقد كانت الحرية تعنى عند أنطون تشيكوف شيئا اخر . كانت تعنى التحرر من عادات الطبقة الوسطى ومشاعرها ومبادئها وتقاليدها السوقية وعبوديتها وحبها للمال ، وكانت تعنى الخلاص من تلك الصفات التى كانت قد غرست فى نفوس أبناء جيل بعد اخر حتى اصبحت تجرى فى عروقهم مجرى الدماء . وهكذا بدأت مثل الحرية تنمو بالتدريج فى نفس تشيكوف الشاب .

وكان للسنوات التي تخلفيها في تاجنروج ما بين ١٨٧٦-١٨٧٩
اثر بالغ على قواه الروحية الكامنة . فان أمه لم تلبث ان
لحقت مع طفليها الصغيرين ميخائيل وميشـــا بزوجها في
موسكو . وبعد ذلك بقليل رحل اخوه ايفان ايضا . وتعرضت
حياة الاسرة حينذاك لتغيير كبير مفاجيء . فبعد أن كانت
أسرة ميسورة الحال أصبحت تعاني كثيراً من الفقر والحاجة
وأصبح افرادها في موسكو ينامون جنبا الى جنب على أرض
الغرفة الرطبة وبداوا الي جانب ذلك يعانون غدر الاصدقاء
فقد وعدهم سيليفانوف ذلك الموظف القامر الذي كان يقطن
بيتهم في تاجنروج أن يسدد دين رب الاسرة . وقد بر حقا
بوعده ولكنه في الوقت نفسه استولى على بيت تشيكوف لقاء
ما دفع .

ولا شك ان تلك الصور الكثيرة التي تتردد في كثير من
اعمال تشيكوف عن وداع المرء لبيته الذي نشأ فيه هي من
آثار تلك التجربة التي لقيهـــا في شبابه . وقد ظلت تلك
التجربة القاسية محفورة في نفسه مدى الحياة . وفي ذلك
يقول الناقد روسكيني في كتـابه « أنتوشاتشيكونتى » : ان
قصة تشيكوف « مآسى الآخرين » التي يصور فيها حال أسرة
فقيرة اضطرت الى بيع بيتها وممتلكاتها ليست في الحقيقة الا
وصفا لبيت تشيكوف في تاجنروج . وكان أول ما لفت أنظار
السكان الجدد ـــ في تلك القصة ـــ « ما خلفه السكان السابقون
من آثار : جدول دراسة كتبته يد طفل وعروس بغير رأس
وعصفور يرفرف فوق النافذة بحثا عن بعض الفتات وعبارة
كتبت على الحائط تقول : « ناتاشا بنت حمقـــاء » .. وغير
ذلك . وهكذا لم يكن من سبيل الى محو آثار مآسى الآخرين
الا بكثير من الطلاء وورق الحائط واعمال النجارة » . وفي
هذه القصة كما في سائر قصـــص تشيكوف تعبر أصـــغر
التفصيلات عن معان كثيرة لا تحد . فذلك العصفور الذى لم
يعد أحد يفتقده ومع ذلك فهو يرفرف كعادته فوق النـــافذة
التماسا لرزقه المعهود يرسم صورة معبرة عن أسلوب حياة

قد تحطمت ولم يعد لها وجود في ذلك البيت ، حياة أصبحت غريبة بعد أن كانت تبدو شيئا طبيعيا ثابتا من قبل . وكذلك تقدم سائر التفصيلات جوانب من تلك الحياة التي تلاشت بعد أن كانت قوية نابضة فأصبحت الآن باردة جامدة لا معنى لها ولا يفتقدها أحد .

ومهما يكن من أمر ما كان يخيم على تلك الطفولة من كآبة فقد كان فيها مع ذلك جوانب حبيبة الى القلب خلفها أصحابها وراءهم في بيتهم بتاجنروج . وكان لا بد لسيليفانوف المالك الجديد من كثير « من الطلاء وورق الحائط وأعمال النجارة » قبل أن يمحو ما تركته مأساة الآخرين من آثار .
وكان على أنطون أن يمضي في حياته بذلك البيت في غربة يزيد من احساسه بها أنه كان بيته في يوم من الايام . وقد منحه المالك الجديد ركنا يعيش فيه نظير ما كان يعطيه لابن أخيه الصغير من دروس . وقبل تشيكوف ذلك الوضع على كره منه اذ لم يكن له ملجأ غير هذا .

على أن ذكريات تشيكوف عن تلك التجربة لم تكن كلها خالصة للحزن على ما فقد من حياته القديمة في ظل أسرته وبيته ، فقد أحس حينذاك بشيء يشبه ما يجد المرء في الحرية من متعة ، شيء يشبه ما أحست به « أنيا » بطلة « بستان الكرز » وهي تودع ذكريات الطفولة وبستان الكرز القديم وكل حياتها الماضية بقولها : « وداعا أيها البيت ، وداعا أيتها الحياة القديمة » ولئن كان دارسو تشيكوف السابقون قد تحدثوا كثيرا عن وصفه لالم الفراق في كثير من أعماله فانه في الحق قد رسم صورا أكثر بكثير من هذا لما يجده المرء من متعه في مفارقته لحياته القديمة .

وطالما حلم تشيكوف بالخلاص من استبداد أبيه ومن حانوته البغيض والحياة الخانقة التي كانت تحياها أسرته . وقد تحقق له أخيرا ذلك الحلم ، وسعت اليه الحرية متنكرة

وراء نقاب من الاسى والضر والمهانة والفاقة . ولكنها على أية حال كانت الحرية .

ومنذ ذلك الحين بدأ تشيكوف يواجه متاعب تلك المرحلة الجديدة من حياته ، مرحلة الشباب . وقد استطاع أن يواجهها برجولة . ومع أن ذلك الفتى الفقير الذى لم يتجاوز السادسة عشرة قد أصبح ــ بما حل فى حياته من كوارث ليس أقلها فرار أبيه من وجه دائنيه ــ موضع السخرية من شباب المدينة العابثين فانه استطاع مع ذلك أن يحتفظ بعزته وكبريائه . والى هذه الحقيقة ترجع قدرته على الصمود أمام سيليفانوف المالك الجديد فقد حافظ معه على استقلاله فى هدوء وصلابة ولكن فى غير صلف أو تحد . ولم يستطع سيليفانوف أن يزدرى ذلك الفتى الودود المتزن الطبع الميال الى الدعابة . وسرعان ما بدأ يعامل ذلك المدرس الصغير معاملة الند ويدعوه فى احترام باسمه واسم أبيه : « أنطون بافلوفتش » .

ولا يعرف دارسو تشيكوف الا قليلا عن حياته المستقلة هذه فى تاجنروج وان كان من المؤكد انه قد قضى تلك السنوات يدرس ويتثقف فى وعى وعزم . ويتضح ذلك من خطاب مؤرخ فى أبريل ١٨٧٩ ارسله أنطون وهو بعد فى التاسعة عشرة الى أخيه ميخائيل وعمره حينئذ أربع عشرة سنة يقول فيه :

« أخى العزيز ميشا .. جاءنى خطابك وأنا فى غصة من سأم قاتل واقفا ببوابة البيت لا أجد ما أعمله الا التثاؤب ولك أن تحكم كيف فرحت بخطابك الطويل فى تلك اللحظة .. ان خطك حسن ، ولم أعثر فى الخطاب على غلطة نحوية واحدة ولكن شيئا واحدا فى خطابك لم يعجبنى : لماذا وقعته بامضاء « أخوك التافه الذى لا شأن له » ؟ .. أو تعتقد حقا الا شأن لك ؟ أن الناس يختلفون يا أخى ميشا ، ويجب أن تتعلم كيف تحتفظ بكرامتك بين الناس ، انك انسان شريف اليس كذلك ؟

اذن فلتخمل لنفسك من الاحترام ما هو جدير بانسان شريف ولتعلم أن الانسان الشريف لا يمكن أن يكون تافه الشأن . وينبغى الا تخلط بين التواضع الكريم وبين الشعور بالتفاهة »

فاذا عرفنا أن هذه السطور قد كتبها شاب اعتاد من قبل أن يجلد ويضرب ويخضع لكل من هو اقوى أو أغنى منه قليلاً ، أدركنا مدى ما بلغه مفهوم تشيكوف للكرامة الانسانية من نضج . وسنرى انه قد بدأ يعتصر العبودية من نفسه قطرة قطرة منذ وقت مبكر حتى اذا بلغ التاسعة عشرة اتخذ من اخيه الصغير موقف المعلم وراح يلقنه كيف يحارب بدوره كل ما فى نفسه من آثار تلك العبودية .

وهكذا بدأت تتشكل بالتدريج حياة تشيكوف الفنان الذى كان الكفاح فى سبيل كرامة الانسان من أهم بواعثه على الكتابة ولما كان قد اعتاد أن يحافظ على استقلاله وحرية نفسه ضد تطفل الآخرين فانه لم يعقد مع أحد أواصر صداقة متينة رغم انه كان دائما زميلا كريما يبذل اية تضحية فى سبيل الصداقة . وكان لذلك يرتاب فى كل ما يبدو انه يهدد حريته ولازمه هذا الشعور حتى آخر حياته (١) . ولا شك أن ذلك راجع الى ما عاناه من كبت حريته فى البيت والمدرسة .

وكان تشيكوف مشغولا حينذاك بالمشكلات الخلقية والجمالية . وقد وضع لنفسه قوانينه الخلقية الخاصة . ولكنه لم يشغل نفسه فى تلك الفترة بالسياسة فقد صرفته عن ذلك اقامته الطويلة فى تاجنروج تلك المدينة النائية التى كانت قد فقدت اهميتها الاقتصادية السابقة كما صرفه ما كان حوله من مظاهر حياة الطبقة المتوسطة وانعدام الصلات المشتركة الوثيقة بينه وبين الناس .

---

(١) حتى فى شبابه كان يتوق الى أن يكتشف بنفسه من اسرار الاشياء دون أن يعتمد على معونة الغير ، كما انه كان يدافع عن استقلاله بحدة عنيفة .

وقد لازمه هذا الموقف السلبي من السياسة حتى الى ذلك الوقت الذى اكتملت فيه نزعته الى الالحاد والمادية .

ولا بد لمن يريد أن يدرك سر هذا الموقف السلبي أن يدرس الاحوال والظروف التى كونت شخصيته فى صباه ومطلع رجولته . على أن من المؤكد أن السوقية التى كان يمقتها تشيكوف منذ صباه قد دفعته الى اتخاذ ذلك الموقف .

ولم يكن العقد السابع من القرن التاسع عشر فى روسيا يمتاز قط بالعزوف عن السياسة فقد كانت «النارودية» (١) الى ذلك الوقت حتى مقتل القيصر الكساندر الثانى عام ١٨٨١ حركة ثورية ولم تكن قد بدأت تظهر فيها النزعات اللبرالية التى تمثل مصالح الموسرين من ملاك الارض . ولكن تشيكوف لم ينسق وراء تلك الروح الثورية سواء وهو فى المدرسة أو فى الجامعة . وقد انقضى العقد السابع من القرن دون أن يبدأ فى الاهتمام بالسياسة . فلما جاء العقد الثامن دخلت الى حياته عوامل جديدة معقدة لم تتح له أن يشارك فى السياسة مشاركة فعالة كما سنرى بعد .

على أن مبادئه الخلقية قد تأثرت مع ذلك بالحركة الديموقراطية والادب الروسي التقدمي وبخاصة أعمال شيدرين وتيرجنيف . كما تأثرت ببغضه لسوقية الطبقة الوسطى مما دفعه الى الاهتمام بالاتجاهات السياسية .

وكانت اهم المميزات الروحية عند تشيكوف وهو فى التاسعة عشرة عمق الشخصية والشجاعة والادراك الواضح الناضج للمشكلات الاخلاقية . وقد جاء فى خطابه الى أخيه ميخائيل الذى اقتبسنا بعضه من قبل قوله : « سررت سرورا

---

(١) « النارودية » نزعة من نزعات الطبقة البرجوازية الصغيرة فى الحركة الثورية الروسية ظهرت ما بين العقدين السادس والسابع من القرن الماضى .

شديدا حين علمت انك تقرأ .. عود نفسك على القراءة فستجد فيهـا بمضى الوقت متعة كبيرة .. هل أسـتـدرت مدام « بيتشر سـتو » دموعك حقـا ؟ لقـد قرأت كتابها منـذ وقت مضى ثم أعدت قراءته منـذ ستة أشهر بروح علميـة فشعرت بما يشعر به المرء حين يسرف فى أكل الزبيب !.. انى انصحك ان تقرأ هذه الكتب : دون كيشوت (فى طبعته الكاملة من سبعة أو ثمانية اجزاء) وهو كتاب عظيم من تأليف « سرفانتس » الذى يقف على قدم المساواة مع شكسبير . كما أنصح اخوتى أن يقرءوا كتاب تيرجنيف « دون كيشوت وهملت » ان لم يكونوا قد قرءوه بعد . وان كنت تريد أن تقرأ كتاب رحلات ممتعا فاقرأ كتـاب جونشاروف «الزورق بالادا » ولاشك ان قصة هاريت بيتشر «كـوخ العم توم» رغم ما تنطوى عليه من غاية نبيلة ورغم أهميتها فى الكفاح من أجل تحرير الزنوج تفيض بالعاطفية المفرطة ويشيع فيها الرثاء لهؤلاء « الصغار » بدل النضـال القوى فى سـبيل الحرية والكرامة » . لذلك تركت فى نفس تشـيكوف كما يقول ما تتركه عند المرء أكلة ذات طعم مسرف فى الحلاوة ! ..

وكان على الشاب أنطون ـ حينذاك ـ أن يواجه مشكلات كثيرة . فلم يكن مضطرا الى أن يكسب قوته ويدفع نفقات مدرسته فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يعين أسرته التى كانت تحيا حياة الفاقة فى موسكو . ولم يكن يعذبه اكثر من تفكيره فيما كانت تقاسيه أمه . وقد كتب اليه أخوه الكساندر يقول :

« ان حياة أمنا تذوب بالتدريج كما تذوب الشـمعة . واختنا قد اشتد بها المرض ولزمت الفراش . ولا شك انك ستدرك ما فى نفسى من أسى لكل هذا ! »

وباع أنطون ما تبقى من أثاث البيت وجد فى اعطاء الدروس الخاصة ليستطيع أن يرسل بعض المال الى موسكو . والف الانتظار المهين لاجره الضئيل واحتمـال نظر آباء تلاميـذه

في ازدراء الى حذائه الممزق . بينما هو يتـــوق الى كوب من الشاي كان يظفر به أحيانا ويمضي بدونه أحيانا أخرى .

ومع أن تلك الظروف القاســـية لم يكن فيها ما يبعث على النشاط أو التفاؤل . فقد بذل انطون ما فى وســـعه ليدخل البهجة الى نفس ابيه وامه بما كان يبث فى رسائله من فكاهة ولكنه لم يبلغ من وراء ذلك الا ايذاء شعور والدته . فقــد كتبت اليه تقول :

« تلقينا منك خطابين مليئين بالفكاهات وكان كل ما لدينا فى ذلك الوقت أربعة كوبكات للخبز وزيت المصباح .. كنـا نتوقع أن ترسل لنا بعض المـال . وكم يؤلمنا أنك وايفان لا تصدقان ما نقول . ان ماشا ليس لديه معطف للشتاء وأنا بغير حذاء . وهكذا نضطر الى البقاء فى البيت ! .. »

وكان تشيكوف بالطبع يصدق كل ما تقوله أمه ، ولـــكنه لم يكن فى وسعه أن يبذل أى مزيد من العون . وقد قضى أبوه وقتا طويلا دون أن يظفر بعمل وكان الكساندر يعـين الاسرة ــ حينذاك ــ بشيء قليل . أما نيكولا فقد كان من المستحيل أن تتوقع الاسرة منه شيئا . وتقول الام عنـــه فى رسالتها الى انطون : « أن لدى نيكولا كثيرا من الاعمال التى يستطيع لو أنجزها أن يكسب مالا وفيرا ولكنه يبدد وقته فى الزيارات كل يوم حتى أنه لم يرسم صــــورة واحدة طول الشـــتاء » .

وكان الكساندر ونيكولا ــ وقد أصبحا طالبين ــ يمرحان فيما أصابا من حرية كذلك ، ولكنها ــ للاسف ــ كانت حرية غامضة مشكوك فى أمرها . فقد كان الاخوان الكبيران يتوقان كما كان يتوق أخوهما انطون الى أن ينفضا عنهما كل أجواء تاجنروج السوقية ، فبدآ يثوران على اســـتبداد أبيهما . وأصبحت تاجنروج عندهما رمزا لكبت الارادة والاستبداد والعمل القهرى . فبدا لهما أن الانطلاق وحرية العمل لا يمكن

أن يتلاءما مع ذلك النظام الدقيق الصارم . وقررا أن يسيرا على هواهما ويفعلا ما يريدان . وكان نيكولا يفهم الحرية على انها مجرد الثورة على تاجنروج فى كل شىء ، ولم يكن مفهومها عند الكسـاندر يختلف كثيرا عن ذلك . وغاب عنهمـا أن البوهيمية ليست الا وجها آخر من وجوه السوقية . ولم تكن كلمات الام عن نيكولا فى رسالتها الى أنطون من أنه « يبـدد وقته فى الزيارات كل يوم » تعنى مجرد الزيارة بل كانت تنطوى على كثير مما يبعث فى قلبها الالم والمرارة . فقد كان الاخوان كلاهما يسرفان فى الشراب الى حد يفقدان معه كل مظهر من مظاهر الانسانية الكريمة حتى انتهى بهما الامر الى الادمان المتصل .

وهكذا راحت الام تنتظر مقدم أنطون أعز أبنائها اليهـا بمزيج من الامل والخوف .

« انى أضرع الى الله أن تأتى الينا سريعا ولكن أباك يقول انك حين تجىء ستنفق وقتك أنت ايضا فى الزيارات دون أن تعمل شيئا . أما فنيشكا فتقول انك تحب حيـاة البيت والعمل ولست أدرى ايهما على حق ! اكمل دراسـتك فى تاجنروج باسرع ما تستطيع وعجل بالقـدوم أستحلفك بالله لقد سئمت انتظارك . وعليك أن تلتحق بكلية الطب فنحن لا نحب عمل الكساندر . وأريد أن أقول لك انك اذا كنت تحب العمل ستجد فى موسكو دائما ما تعمله وستكسب مالا وفيرا .. اننى لا أستطيع أن أصرف نفسى عن الاعتقاد بأن حياتى ستكون خيرا مما هى الآن بعد قدومك » .. كذلك احست الام احساسا غرزيا ان انطون انسـان يمكن الاعتماد عليه . ولكن الاب كان قد فقد كل أمل فى أبنائه . وكان حينذاك قد وجد عملا فى مكتب تاجر يدعى « جافريلوف » وعاش بعيدا عن أسرته مع رفاقه من الموظفين . ولم يكن يزور الاسرة الا فى أيام الاجازات ولم يكن أجـره يزيد على ثلاثين روبل فى الشهر وكانت زوجته تكسب قليلا من المال بين حين وآخر من حياكة الملابس » .

رب الأسرة

قضى أنطون الصيف بأكمله في تاجنروج بعد تخرجه من المدرسة الثانوية يحاول أن يظفر بالاعانة التى كانت البلدية تمنحها لواحد من أبناء المدينة ليتم تعليمه في الجامعة ومقدارها خمسة وعشرون روبلا شهريا . وظفر أنطون بالاعانة وقبض مكافأة أربعة أشهر مقدما . وهكذا وجد في يده مائة روبل كاملة . واستطاع الى جانب ذلك ان يساعد أسرته بان أحضر معه زميلين ليقيما معه لقاء مبلغ خاص . ولم يلبث أن انضم اليهما ساكن ثالث فانتقلت الاسرة الى مسكن جديد من خمس غرف في الشارع نفسه . وهكذا كان قدوم أنطون قدوما ميمونا على أسرته . والتحق أنطون بكلية الطب ولم يلبث الا قليلا حتى بدأ يكتب للصحف الفكاهية . وبذلك بدأ مرحلة من الحياة مليئة بالعمل المتصل كل يوم . وكانت كلية الطب تعد من أشق الكليات في الجامعة لما تستلزمه من جهد كبير يختلف عما كان يبذله الطلاب في الكليات الاخرى ككلية الحقوق مثلا التى كان الناس يطلقون على طلابها على سبيل الدعابة «الكسالى» . وكان انطون يحب دراسة الطب ويجل أساتذته الذين كانوا يضمون صفوة العلماء في روسيا حينذاك من أمثال زخارين سكيلو سوفسكي . واقبل تشيكوف على الدراسة في جد ولكنه كان يجد مشقة كبيرة في التوفيق بينها وبين كتاباته للصحف الفكاهية . ولم تلبث تلك الكتابات ان أصبحت المورد الاول للاسرة . وكان انطون قد تعود وهو في تاجنروج أن يبعث الى اخيه الكساندر بكل ما يدور في خاطره من دعابات وأقاصيص فكاهية وغير ذلك ليرى رأيه فيها ويرسلها الى بعض الصحف . وكان الكساندر حينئذ قد أصبح كاتبا يبشر بمستقبل كبير ينشر كتاباته في الصحف

الفكاهية بأسماء مستعارة مختلفة أهمها « أجافبود يدنسنين»
ولم يتوان الكساندر عن نشر كتابات أخيه فى بعض الصحف
وكان دائم التوجيه له ينصحه بما ينبغى أن يقرأ من كتب ،
وأرسل أنطون مسرحية اليتيم ــ أولى تجاربه الادبية الجادة ــ
الى أخيه فمزقها بنقده اللاذع شر ممزق ، ولما استقر أنطون
فى موسكو بدأ أخوه يساعده على نشر كتاباته فى مجلاتها تحت
أسماء مستعارة كثيرة من بينها « اخو اخى » وهو توقيع يدل
على دور أنطون الثانوى بالنسبة لاخيه .

على أن أحب أسمائه المستعارة اليه كان « انتوشا تشيكونتى » وهو اسم كان قد أطلقه عليه مدرس ظريف فى مدرسة تاجنروج .

وأخذت قصص انتوشا تشيكونتى تذاع بين الناس يوما بعد يوم حتى أصبح أصحاب الصحف يتنافسون عليها .
وهكذا انقلبت الآية واصبح أنطون هو الذى يعين الكساندر .
وجاء اليوم الذى اضطر فيه الكساندر بمزيج من الحزن والفخر باخيه أن يعترف للاخ الصغير بتفوقه سواء من الناحية الادبية أو الخلقية . وشيئا فشيئا أخذ انطون وهو فى التاسعة عشرة يحتل مركز رب الاسرة وناصحها وعائلها الاول
وكان يحلو لامه دائما أن تروى كيف انتهى انتوشا الى هذا الوضع . وعن ذلك تقول الكاتبة « تاتيانا كوبرنك » كان يلذ لى أن أجلس معها فى غرفتها أصغى اليها وهى تتحدث عن ذكرياتها ، فقد كانت هذه الذكريات تنتهى دائما الى شىء عن أنطون فاذا هى تذكر مثلا باعجاب وحب تلك اللحظة التى لا تنسى حين جاءها انطون ــ وهو لما يزل طالبا صغيرا ــ فقال لها : « اسمعى يا أمى ؛ ساكون انا المسئول منذ اليوم عن مصروفات ماشا المدرسية (وحتى ذلك اليوم كان بعض الاخيار يقومون بدفع تلك المصروفات) وتمضى فى حديثها فتقول : « ومنذ ذلك اليوم بدأت الامور تسير سيرا حسنا .
وكان أول ما يشغله أن ينفق على كل شىء بنفسه وان يكسب

ما يكفينا جميعا . ولن أنسى بريق عينيه وهو يقول: « سادفع هذا يا أمي ! وكانت عيناها هي تلتمعان حين تقول ذلك وتتجمع في ركنيها تلك الغضون الصغيرة ـ التي كانت تخلع على ابتسامة تشيكوف ما عرفت به من جمال ..

أجل ! لقد أصبح الشاب استاذ الاسرة جميعها . حتى أبوه قد بدأ يتأثر دون أن يشعر بمبادئه الاخلاقية . وقد عرفنا كيف كان بافل بيجروفتش صلبا كالصخر . وقد اتخذ أول الامر من أنطون الصغير وأخويه موقف الساخر وحاول أن يقيم نظام تاجنروج القديم مرة أخرى وأن كان مركزه لم يعد قويا كما كان من قبل بعد أن ألقى عبء اعالة الاسرة على عاتق انطون . ولكن أنطون راح في غير ضجة يحارب كل يوم عادات تاجنروج وتقاليدها . وكان في هذا لا يقل صرامة عما كان عليه أبوه في تنفيذه لمنهجه التعليمي . وعن هذا يقول أخوه ميخائيل : « . . . . . . » وأصبحت ارادة انطون هي النافذة . وأصبحنا نسمع في بيتنا كل يوم عبارات حادة قصيرة لم نألفها من قبل من مثل ، هذا غير صحيح .. ينبغي ان نكون منصفين ـ لا تقل كذبا ، وغير ذلك .

ويخلع تشيكوف على كل من يحب من ابطاله كراهيته للكذب فيجعلهم يألمون لادنى انحراف عن الحق أو ميل الى الزيف ألما لا يقل عن الالم الجسماني الحاد . ففي قصة « حياتي » يقول العجوز الذي يشتغل بطلاء البيوت « الحشرة تأكل العشب والصدأ يأكل الحديد والكذب يأكل الروح » ومن المأثور عن تشيكوف نفسه قوله : « أن من يكذب انسان غير نظيف » .

وبدأ الشاب تشيكوف ـ دون أن يدور بخاطره أنه سيصير يوما كاتبا كبيرا ـ صراعا لا شعوريا في سبيل موهبته وحقه في الخلق والابداع ليحطم بدون هوادة كل آثار العبودية في نفسه ونفوس من يحبهم . وقد كان هذا الصراع في ذلك الوقت مقصورا علي تحرير ذاته فلما حان الوقت لكي يفكر

فى شخصيته ككاتب أدرك بوضوح أن ذاته كانســان وذاته ككاتب ليستا الا وجهين لحقيقة واحدة .

وقر فى نفسه انه سيظفر بنصر عظيم لو استطاع أن يلقن أباه أراء جديدة بدل أرائه القديمة . ولم يكن يستطيع طبعا ان يخلق أباه خلقا جديدا ولكنه مع ذلك قد نجح الى حــد بعيد . فقد بدأ أبوه يحس بالخزى من ماضـيه وما كان فيه من استبداد مما يشهد بما كان لدى تشيكوف الشاب من ملكة تربوية عظيمة . وقد رأينا كيف كتب تشيكوف الى أخيه الكساندر يذكره بما كان يشعران به من « فزع وغثيان حين كان أبوهما يثور على المائدة لان الحساء كان كثير الملح أو حين كان يسب أمهما ويدعوها حمقــاء . وقد جاء فى هــذه الرسالة بعد ذلك جملة عابرة يقول فيها : « ولــكن أبانا لا يستطيع الآن أن يغفر لنفسه ذلك الاستبداد » . ومــع أن أنطون لم يبين فى خطابه السر فى ذلك التحول فقد استطاع الكساندر أن يقرأ بين السطور ما كان أنطون يشعر به من فخر لانه استطاع أن يحقق بحزمه الصارم اللبق ذلك التحول الخطير فى نفس انسان كابيه تعود طول حياته السـابقة على التحكم والبعد عن التسامح ونشأ فى ظل تقاليد من العبودية واستبداد الطبقة المتوسطة .

ونستطيع أن ندرك مقدار ما بذله أنطون فى سبيل ذلك من طاقة روحية وصبر عظيم بما جاء فى رسالة له الى زوجتــه أولجا التى كانت ممثلة فى مسرح موسكو يقول : « تقولين انك تغبطينني على طبعى الهادىء وأحب أن أذكر لك انى بفطرتى عنيف حاد الطبع ولـكنى روضت نفسى على أن أتحــكم فى مشاعرى لانى أومن ان أى انسان شريف لا ينبغى أن يطلق لمشاعره العنان . ويعلم الله كم اقترفت من سلوك شائن . ولا تنسى أن جدى كان من أشد انصار العبـودية تحمسـا »

ولا يستطيع المرء الا أن يعجب من هــذا الأعتراف فان صورة « الدكتور تشيكوف » الوديع اللبــق المتواضع ، قد

انطبعت فى نفس كل انسان حتى ليصعب علينا أن نتصوره « عنيفا ، حاد الطبع ، يسلك سلوكا شائنا ! » . ولكننا نعرف عنه انه كان دائما يعنى ما يقول ولا بد لنا أن نصدقه فى هذا الصدد وبخاصة اذا ذكرنا ان العنف وحدة الطبع كانا من مميزات آل تشيكوف الواضحة . ومن المحتمل مع ذلك ان يكون قد بالغ في الحكم على نفسه لما كان ياخذها به حينذاك من صرامة .

ومما يجدر بالذكر أن قصته « أناس متعبون » التى تصف خصومة مروعة بين والد وولده كانت فى أول الامر تنتهى نهاية مختلفة لم يرض عنها المؤلف فيما بعد . فقد كانت القصة تنتهي بالصلح بين الاب وابنه ويتساءل الابن فى عجب : « كل شيء فى الحياة له ثمنه . حتى المشاعر الانسانية والرقة والطبع والرحمة كلها لا ينالها المرء الا عن طريق التضحية وبعد أن يتلقى من الحياة كثيرا من الدروس الاليمة » .. والحق أن فى هذا القول كثيرا مما ينطبق على المؤلف نفسه. فقد كان كثير من الناس يخطئون فيظنون رقته ضعفا على حد· كانت تلك الرقة تنطوى على قوة انسان استطاع أن ينتصر فى صراعه مع عدو خطير ، الا وهو نفسه .

ويؤكد هذه الحقيقة ما جاء عن تشيكوف فى مذكرات أصدقائه . فقد كتب شيجلوف صديقه فى بطرسبرج يصف ما طرأ على كيانه الروحى من تحول فقال : « كان يبدو انه قد أصبح انسانا آخر . فقد كانت تعرض له فى أول الامر ابان شبابه القوى ونجاحه المتصل لحظات يبدو فيها على شيء من التقلب والصلف الذى يبلغ أحيانا حد الغلظة .. ولكنه تحول فأصبح أكثر ميلا الى التفكير وأشد عمقا فى كتاباته ولباقة فى حديثه وتحفظا فى سلوكه مع الآخرين » .

ويقول كاتب آخر كان يعرف تشيكوف حق المعرفة هو بوتابنكو : « لا زلت احفظ كثيرا مما كتب تشيكوف من مذكرات . ولا شك ان تلك المذكرات قد كتبها صاحبها بنية خالصة وشعور صادق . على أن الذين يفهمون تشيكوف على ضوئها لا بد أن يروا فيها صورة شخص لا يبدو انه قد

خلق من لحم ودم كالآخرين ، أو صورة قديس نبذ كل ما فى النفس الانسانية من ضعف وأهواء وخطايا ! »

ولكن تشيكوف لم يكن ملاكا ولا قديسا بل انسانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . ولم يكن استواء شخصيته واتزانها اللذان أدهشا كل من عرفه الا نتيجة صراع نفسى مرير وأكاليل من الغار استحقها بكثير من الجهد وبذل فى سبيلها كل وقته وطاقته .

وفى الحياة أناس رزقوا اتساقا جسمانيا كبيرا يبعث فى النفس شعورا رائعا بالجمال وهكذا كانت روح تشيكوف . كانت تنطوى على كل شيء ، على الفضيلة والخطيئة معا . ولو كانت قد تفردت بالخصال الطيبة فحسب ، لاصبحت ذات جانب واحد ، شأنها فى ذلك شأن الروح التى تنفرد بالرذيلة وحدها . والحق أن السماحة والتواضع قد وجدا فى نفس تشيكوف جنبا الى جنب مع الكبرياء والطموح . كما اجتمعت فى نفسه روح العدالة مع الميل الى الخير . ولكنه كاى انسان حكيم كان يعرف كيف يتحكم فى جوانب ضعفه الى حد تكتسب فيه طبيعة الفضائل » .

ومعنى ذلك بتعبيرنا المعاصر أن تشيكوف لم يفرق بين الذاتى والموضوعى ، بل جمع بين كفاحه ضد السوقية فى نفسه وأسرته وحياته الشخصية وبين كفاحه ضد كل ما يمتهن الكرامة الانسانية بوجه عام . ولم تكن « ثورة » تشيكوف مجرد دعوى أو تظاهر بل صراعا متصلا مع أساليب الطبقة المتوسطة فى الحياة ، بدأ أول الامر فى نطاق اسرته ثم امتد بعد ذلك الى أعماله الادبية . ولقد كانت رعايته لاسرته تتطلب منه قوة هائلة وكفاحا مستمرا . وفى تلك الايام كان الشاب تشيكوف الذى لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة يدرك أنه عائل الاسرة الوحيد الذى يقع على كاهله مسئولية حياتها المادية والروحية على السواء . ولم يكن قد فقد الامل بعد فى أخويه الكساندر ونيكولا كانسانين موهوبين يمكن أن يكون لهما مستقبل كبير . وكان عليه أن يكافح كفاحا طويلا فى

سبيل دوهبة أخوية وكرامتهما .لانسانية باصلاح ما كان في نفسيهما من ضعف . ولكن شعورا خفيا جعله يدرك حتى في ذلك الوقت انه الشخص الوحيد الذى يجب أن يفكر في أمر الاسرة .. فيعيد السلام الى نفس أبيه ويحرره في شيخوخته من وظيفته المهينة عند التاجر جافريلوف ، ويهىء الراحة لامه ويدفع نفقات تعليم اريا وميخائيل ويعمل من أجل اخوته الآخرين .

وقد حمل كل تلك المسئوليات دون أدنى شعور بالتذمر أو الاسف على شبابه الذى كانت تلتهمه هموم الحياة اليومية بل ظل محتفظا بمرحه وروحه العالية مما يذكرنا بما كان عليه بوشكين من تفاؤل واشراق . وقد كتب وهو في السابعة عشرة من عمره الى ابن عمه كالوجا يقول : « انى أحب المرح على اختلاف ألوانه ، أحب الحفلات الروسية البهيجة بما فيها من رقص وغناء وشراب » . على أن شرب الخمر لم يتخذ عنده قط طبيعته المسرفة الجامحة عند أخويه الكبيرين فقد كان يميل الى الاعتدال في كل شيء . وكان الى جانب ذلك مغرما بالغناء الجماعي يهوى صحبة « العذارى الرقيقات والنساء الناضجات » ويحب النزهات الطويلة سيرا على الاقدام الى غير غاية خاصة ، ويجد في الطبيعة بهجة تبعث كل ما في نفسه من قوى . وكان واسع الافق في نظرته الى الاشياء ينظر الى الحياة بكل ما لدى الشباب من أمل وتفتح . ولعل قولهم : « خلق للسعادة » لا ينطبق بحق على أحد من الكتاب كما ينطبق على الشابين بوشكين وتشيكوف . ومع ذلك فقد قدر لتشيكوف أن يكتب عن زوال السعادة أعمق مما كتب أى كاتب روسى آخر . ولكن ذلك الموضوع شأنه شأن سائر موضوعات تشيكوف الكبيرة كان لا يزال مغلفا في ضباب الغيب .

وقد دفعته مسئولياته نحو أسرته الى الكتابة الدائبة

المتصلة ، اذ كان أجره على ما يكتب غاية فى الضآلة . ولا شك أن الاسراف فى الانتاج فيه خطر كبير على المواهب الشابة التى لم تكد تبدأ فى النضوج وطالما انضب كثيرا من منابع الالهام عند كثير من الكتاب .

وكان هناك خطر آخر يهدد موهبته . ذلك انه لم يكن فى مبدأ الامر يعلق أهمية كبيرة على أعماله الادبية بل كان يعدها أقل شأنا بكثير من دراسته العلمية . كما كان أمام تلك الموهبة اخطار أعظم من ذلك كله تتمثل فى روح العصر حينذاك وفى طبيعة الصحف الفكاهية التى قدر لتشيكوف أن يبدأ فيها طريقه الادبى .. ..

فى تلك الأيام الماضية البعيدة

كان العقد الثامن من القرن التاسع عشر فترة ركود اجتماعى فى روسيا يتمثل فيها انتصار الرجعية بغلظتها وصلفها . فقد كانت فترة انتقال أعقبت هزيمة النارودية وبدأت الماركسية والحركة العمالية الثورية خلالها فى النضوج

وكانت جهود النارودية فى استمالة اتباع لها من بين الفلاحين قد فشلت ، اذ لم يكن اصحابها انفسهم يفهمون شيئا عن حياة هؤلاء الفلاحين ومشكلاتهم . وكذلك لقيت محاولتهم الوقوف وحدهم ضد الاوتوقراطية دون سند من الجماهير نفس المصير . وفى أول مارس عام ١٨٨١ اغتال أحد أفراد « ارادة الشعب » القيصر اسكندر الثانى . فكان فى ذلك نهاية الحركة النارودية الثورية اذ بدأت مرحلة من الانحلال انتهت فيها الى مجرد المناداة بالمبادىء الليبرالية العادية . فقد استغلت الرجعية مقتل القيصر فى اقامة حكم ارهابى فى جميع أنحاء روسيا وهكذا حكم البلاد باسم الكساندر الثالث يوبد ونستوف .. تلك الشخصية الرهيبة التى كانت مثالا مجسدا لدكتاتورية الاقطاعية المتعطشة للدماء والكبت الرأى العام فى جميع صوره وللنفاق الذى يثير النفور والاشمئزاز .

وبعد اعدام قادة « ارادة الشعب » وفشل محاولة اغتيال الكساندر الثالث التى دبرتها تلك الجماعة التى كان ينتمى اليها الكساندر بوليانوف (أخو لينين) زاد طغيان الرجعية عنفا ووحشية . وقد وصف تشيكوف بعد ذلك هذه الفترة فى قصته « رجل فى قوقعة » فقال : « انهم يخافون أن يتحدثوا بصوت مسموع ، أو يكتبوا الرسائل أو يتخذوا

الاصدقاء أو يقرءوا الكتب أو يمدوا يد العون الى الفقراء او يعلموا الاميين » .. ولم يكن العقد الثامن مجـرد فترة من الركود الاجتماعى بالطبع . فمع أن لينين قد شبهها بالسجن فانه هو نفسه قد عاد فوصـفها بقوله : « لم يمر فى تاريخ روسيا فترة يمكن أن يصدق عليها القول انها كانت نقطة تم فيها التحول الفكرى ، كما يصدق على تلك الفترة ابان حكم الكساندر الثالث ... فقد بذل فى أثنائها المفكرون التقدميون فى روسيا جهودا ضخمة فى سبيل خلق الفلسفه الاشتراكية الديموقراطية ، والحق انه لا ينبغى أن ننكر الدور الثـورى الذى قامت به الفترات الرجعية . فنحن نعلم أن طبيعة التطور الاجتماعى تتغـــير من عصر الى عصر وأن الفترات الحافلة بالنشـاط السياسى الكبير عند الجماهير تعقبها فترات من الهدوء الظاهرى تبدو فيها تلك الجماهير ساكنة أو نائمـة بعد أن أجهدها طول النضال والظلم والحرمان بينما يأخـذ التفكير التقدمى سبيله الى التطور السريع ويجمع العقـل الانسانى أشتات الدروس التى تلقاها من الماضى ليبنى منها نظاما ومنهجا جديدين للبحث والتفكير .

والحق أن الرأى العام التقـدمى والعلم والفن قد أثرت جميعها ثراء عظيما فى ذلك العقد الثامن . ففى عام ١٨٨٣ تكونت أول جماعة ماركسية باسم « تحرير العمال » وكتب بليخانوف أعماله الفلسفية . ولم يكن بد لتشـيكوف من أن يتأثر فى تطوره الروحى بما ظهر فى تلك الفترة من انتـــاج كأعمال مندليف وتمريازيف ورسوم سيريكوف وريبين الرائعة وموسيقى تشايكوفسكى ورمسى كورساكوف الخالدة .. فقد شاركت كل هذه الاعمـــال فى خلق الجوهر الحقيقى لتلك الفترة التى نشأ فيها كاتبنا .

ومع ذلك فقد كان كل شىء فى ظاهر الحياة السـياسية يبدو ــ حينذاك ــ نائما مظلما مليئا باليأس وبخاصة فى نظر الشباب من مثقفى الطبقة الوسطى من أمثال تشيكوف أولئك

الذين تبددت اوهامهم عن السياسة حتى قبل ان يستطيعوا ان يكونوا لانفسهم شيئا من تلك الاوهام .

وقد بدا تشيكوف مستقبله ككاتب فى وقت كانت الصحافة تعانى كبتا لم يسبق له مثيل . فقد كان هم بوبدونوستيف ان يكبت الصحافه ويخنق الرأى العام خنقا كاملا . وكان يهدف على حد قول صديقه الصحافى الرجعى ليونتييف أن « يجمد » روسيا . فبدا ضغطه على الصحف بروح يسيطر عليها التعصب والانحراف ، وكان من اهم ما اقترفه من جرائم فى حق الصحافة الروسية اغلاقه لمجلة أوتشيستفنيا زابسكى تلك المجلة التقدمية التى كان يصدرها سالتيكوف شدرين . وهكذا بدا الناس ينظرون الى العقد السادس من ذلك القرن — حين كانت الحركة التقدمية الديمقراطية فى أوجها والصحف الحرة تظهر بانتظام رغم مطاردة الرقابة المتصلة — كانه شيء موغل فى البعد يوشك أن يكون كالاساطير . إفقد غير بوبدونوستييف وجه الصحافة الروسية فلم يبق من الصحف الا منشورات الحركة الشعبية الحرة بما فيها من حذر واعتدال والصحف الذليلة من مثل نوفويا فرميا (العصر الحديث) التى كان يصدرها سوفورين .

رقصة اليعسوب

كان الرواج العظيم الذى نعمت به الصحف الفكاهية الصغيرة خير معبر عن طبيعة ذلك العصر . فقد كانت تنتشر وتتكاثر فى موسكو وبطرسبرج بسرعة عجيبة وكانت أسماؤها تدل على طابعها مثل ستريكوزا (اليعسوب) وأسكولكى (متفرقات) وبوديلنك (المنبه) ورازفلشينا (التسلية) وكثير غيرها لا تختلف عنها الا فيما تحمل من أسماء .

وكانت طبيعة تلك المجلات الاسبوعية وحجمها الصغير يتطلبان كتابات قصيرة وعبارات مختصرة لتكتب تحت الرسوم الكاريكاتيرية ، وقصصا صغيرة لا تتجاوز العشرة أسطر وحوارا قد لا يتجاوز سطرين اثنين . وكان الرقيب يصادر أية عبارة صغيرة يشتم منها أية نزعة تحررية ، مما اضطرت تلك المجلات الى أن تركز موضوعاتها حول التجار المخمورين وأفراح الطبقة المتوسطة والازواج المستضعفين والزوجات المتقلبات والمخنثين من الفتيان وما أشبه ذلك .

وكانت القصص والمسرحيات القصيرة والرسوم الكاريكاتورية تستقى مادتها من حياة سكان المدن ، كالباعة وصغار الموظفين ورجال البريد والصرافين والمحامين والاطباء والفنانين والممثلين والمدرسين وغير ذلك . وترجع كثرة تلك الصحف الفكاهية كما قلنا الى سياسة بوبدونوستيف فى تكميم الصحافة الجادة والى حقيقة أخرى هى أن المدن كانت قد بدأت تتطور تطورا سريعا وتصبح ذات شأن كبير فى حياة البلاد ، وأخذ سكانها يتزايدون تزايدا مستمرا ونشأت طبقة جديدة من المثقفين الشعبيين نجد نماذج من أفرادها فى كثير من الاعمال الادبية المعروفة كقصة « المعطف » لجوجول و « الفقراء »

و « المظلومـون المحتقـرون » و « الجريمـة والعقـاب » لديستويوفسكي وحكايات بوميالوفسكي وقصص جارشين .

على أن الادب التقدمي الديموقراطي الذي يتخذ أبطاله من حياة العامل العادي لم يكن قد ظهر في تلك المدن بعد . ومع أن بوميالوفسكي في العقد السادس وجارشين في العقد الثامن كانا يمثلان هذا اللون من الادب ، فان أدبهما لم يستطع أن يرقى الى مستوى الاعمال الفنية الكبيرة . وقد استبد اليأس ببوميالوفيسكي أمام حمـلات الرجعيـة العنيفة فراح يغـرق يأسه في الخمر حتى قضت عليه وهو في الثامنة والعشرين . أما جارشين ذو الضمير الحي والحساسية المفرطة والكيان النفسي الهش فقد انتهى به الامر الى الجنون وقضى على حياته بيده بأن قذف بنفسه من قمة سـلم دون أن يترك كثيرا من الانتاج اذ كان لا يزال في الثالثة والثلاثين .

وكان قد ظهر من بين الجماهير حينذاك قراء يتعطشـون الى أدب يجدون فيه أنفسهم ويهديهم الى الطريق الصحيح في الحياة . ولكنهم لم يظفروا بما يروى غلتهم الا أعمال كتاب من معاصري تشيكوف مثل بارانتسفتش وسنيجلوف التي كانت تصور حياة أولئك القراء الجدد من وجهة نظر الطبقة المتوسطة السوقية . وبدل أن يجد القارىء الديموقراطي ما كان يظمأ اليه من أدب حقيقي لم يجد الا صـحفا رخيصـه مبتذلة تقدم في الظاهر ما يطلبه بالكتابة عن الحياة اليومية ولكنها لم تكن في الحقيقة الا شيئا تافها بالنسـبة الى تلك المطالب . ومع ذلك فقد أقبل هؤلاء القراء على تلك الصـحف في نهم ، راجين أن يجدوا فيها غـذاء لنفوسهم وان يظفروا بشيء ذي قيمة بين تلك الفكاهات السخيفة والدعايات المبتذلة . ومهما يكن من أمر تلك الصحف فانها كانت على أية حال تكتب عن الحياة اليومية « للرجل العادي » . ومـع أن كل تلك اليعاسيب لم تزد على أن تمس سـطح الحيـاة باجنحتها الضعيفة فان ما كان يسـمى حينذاك بالادب الجاد لم يكن بأكثر منها عمقا .

مولد مجدد

البطة الدميمة

كان من سخريات التاريخ ان يظهر من السلم الخلفى لتلك الصحافه الرخيصه بالذات خصم خطير لكتاباتها المبتدله التافهه وعدو لدود لما سماه لينين « الحياه الروسيه القديمه اللعينه ــ حياه العبوديه والاوتوقراطيه » وكان ذلك الخصم هو الكاتب المقتدر الجديد الذى كان يخفى شخصيته حينئذ تحت اسمه المستعار « انتوشا تشيكونتى » . ولم يكن ذلك الكاتب قد بدا يعى بعد ما فى كتاباته من تجديد ولكنه كان مع هذا يختار أبطاله من بين العمال وصغار الموظفين والفلاحين أو « الرجال العاديين » بعبارة أخرى . ولم يدر بخلد تشيكوف حين بدأ يكتب فى الصحف الفكاهية أنه سيكون رائدا من رواد التجديد . على أن القوى الخفية الخالقة والافكار الديموقراطيه الساميه عن مثل الحق كانت تدفعه باصرار الى الامام . وهكذا بدأت القصص الظريفة التى كان يكتبها أنتوشا تشيكونتى تحفز القارىء الى التفكير وتثير فى نفسه كثيرا من المشاعر الغريبة . فقد كان القارىء يجد فى تلك القصص نفس المواقف والاجواء والشخصيات بل حتى نفس الفكاهة التى اعتاد أن يجدها فى كتابات المؤلفين الآخرين من محررى صحيفتى « بودلنك وأوسكولكى » . ومع ذلك فقد كانت قصص ذلك الكاتب رغم ما بينها وبين قصص سائر الكتاب من تشابه كبير شيئا جديدا آخر . كان كل شىء فيها يبدو وكأنما مسته عصا ساحر أو روح شاعر فغيرت من طبيعته المألوفة ومع أن المؤلف كان فى الظاهر لا يخرج عن حدود الادب الفكاهى العادى ويحافظ على المستوى المعروف لادب التسلية فانه كان يجعل من القصة القصيرة درة فنية متألقة . واستطاع فى نطاق تلك الحدود أن يأتى بمعجزات من الخلق الجديد .

وهكذا أصبحت تلك الصحف الفكاهية الصغيرة تربة لبذرة العبقرية المجيدة .

فكيف انبعث ذلك الموقف الجديد الغريب ! وكيف تمت تلك المعجزة ؟ . .

كانت أقوى علاقات تشيكوف بالصحف حينئذ علاقته بصحيفة « أوسكولكى » ورئيس تحريرها نيكولا ليكين الذى بدأ حياته الأدبية وهو شاب ـ فى العقد السادس من القرن ـ بكتابة مقالات وقصص قصيرة للصحفيتين الشهيرتين ـ سوفرمنيك واسكرا . وكانت قصصه تدور حول حياة التجار والطبقة المتوسطة فى الريف ، اذ كان خبيرا بتلك الحياة . . فقد نشأ فى أسرة من التجار واشتغل بالتجارة هو نفسه زمنا ما . وكان على صلة بنكراسوف وبوميا لوفسكى وشتنكوف وأوسبنسكى . ولكن العقد السادس بأحداثه العاصفة كان قد انقضى وأصبح فى أذهان الناس كالاساطير . ولم يحل العقد الثامن حتى أصبح ليكين يمتلك أوسكولكى . تلك المجلة الواسعة الانتشار . وكان فى حياته الخاصة وفى ادارته لتلك المجلة مثالا للتاجر فى سعة حيلته وتقتيره . وقد أحس احساسا غرزيا بأنه يستطيع أن يفيد فائدة كبيرة من ذلك الطالب المجد صاحب تلك الكتابات الفكاهية الطريفة . فحرص على ألا يكتب تشيكوف فى صحف أخرى وحاول أن يستخرج من موهبته الخصبة أكبر قدر من الانتاج . ولم يكن يدفع له أجرا كبيرا ولكنه كان يزيد الاجر قليلا بين حين وآخر حتى لا يستجيب « انتوشا تشيكونتى » لاغراء المنافسين من أصحاب الصحف .

وسرعان ما أصبح تشيكوف معينا لا ينضب فى خدمة ليكين فقد كان ذا مقدرة خارقة على العمل لا يكاد يحجم معها عن أداء أى شىء يرى أنه لا بد أن يؤديه . فكان يؤلف عبارات

لتكتب تحت الرسوم الكاريكاتورية ويقدم طرائف لا حصر لها ويبتكر موضوعات للرسوم ويكتب أقاصيص ومسرحيات صغيرة ويحرر قسما سماه « متفرقات من حياة موسكو » . وقضى فى عمله هذا خمسة أعوام كاملة . ورغم غيرة ليكين فقد كتب تشيكوف فى تلك الاثناء لعدد من المجلات الاخرى فى أول الامر ثم بدأ بعد ذلك ينشر فى الصحف اليومية أيضا وقد دهش كل من حوله لانتاجه الغزير ولم يخل هو نفسه من دهشة له . ولم تكن فكاهاته تختلف فى شيء عن فكاهات غيره من الكتاب . وكانت قصصه القصيرة مجرد بسط لتلك الفكاهات أو رواية لبعض الاحداث الواقعية الطريفة . وهذا هو بعينه ما كان يتطلبه منه ليكين حتى لقد عد قصته « أثر فنى » نموذجا ينبغى ان يحتذيه سائر من يكتب فى مجلته وكتب الى المؤلف يقول : « هذا هو بالذات ما تحتاجه المجلة الفكاهية » .

وقصة «اثر فنى» قصة ساذجة تتجلى فيها بالطبع براعة تشيكوف ولكنها مع ذلك لا تعدو أن تكون حادثة طريفة تجرى على تقاليد الفكاهة فى تلك المجلة . وهى تدور حول انتقال شمعدان برونزى من يد الى يد . وكان ذلك الشمعدان « عملا فنيا جميلا » . ولكن موضوعه خارج على الاخلاق الى درجة كبيرة . وقد أهداه مريض الى طبيب اعترافا بفضله عليه وأبدى أسفه الشديد لانه لم يستطع أن يجد نسخة اخرى منه لتكون هديته كاملة . ولم يشأ الطبيب وهو رب أسرة أن يحتفظ بمثل ذلك الاثر الفنى فحمله الى صديق له ممثل . ولم يجد الممثل بدوره من اللياقة أن يحتفظ بمثل ذلك الاثر فباعه لتاجر تحف قديمه وباعه هذا فى النهاية الى والدة المريض . وهكذا يعود المريض مرة أخرى الى الطبيب حاملا فى زهو ذلك الشمعدان نفسه وهو يظن أن الطبيب سيسر حين يجد لديه زوجين اثنين من هذا الاثر الفنى !

وليس فى القصة كما نرى بعد تلك المفارقة شيئا ذا قيمة ولكن ليكين لم يكن يتوقع من تشيكوف ولا يريد منه شـيئا يختلف عن هذا . ولم يكن ليكين يأبى أن ينشر انتوشـا تشيكونتى فى المجلات الاخرى فحسب بل كان الى ذلك يشك فى أية قصة يحس فيها شيئا جديدا أو غير مألوف ، شيئا من طراز ما يكتب فى « أوسكولكى » ولكنه ليس مثـل تلك الـكتابات تماما .. وهو فى هـذا يشبه البط فى قصـة هانز اندرسون المعروفة « البطة الدميمة » حين ظن أن الاوزة بطة مشوهة الخلق .

وقد أراد ليكين أن يعوق تطور تشيكوف ويحتفظ به فى حدود فكاهة صحيفته ، ولم يتخل عن أمله ـ شأنه شـأن البطة الام ـ فى أن « يتحسن انتوشا تشيكونتى بمرور الزمن» ولم يدر بخلده قط أنه يشهد مولد كاتب كبير وتطوره نحو النضج والكمال .

ومضى ليكين يحاول جاهـدا أن يبقى تشيكوف فى تلك الحدود التى يستطيع هو أن يفهمها واستعان على ذلك بكثير من وجهاء بطرسبرج ثم تجاوز ذلك الى التهديد فزعم له أن الرأى العام فى تلك المدينة لم يكن راضيا عن قصصـه التى يخرج فيها على تقاليد أوسكولكى « صحيفته » ومن الطريف انه كان أحيانا يخطىء خطأ شائنا فيعد بعض قصص تشيكوف مثالا لما ينبغى أن ينشر فى أوسكولكى على حين يكون تشيكوف قد خالف فى تلك القصص بالذات أسلوب المجلة المعروف .

ومن أمثلة ذلك ثناؤه الكبير على قصة تشيكوف «اهمال» وقوله عنها أنها « من الاطايب اللذيذة » اذ لم يرى فيها الا موضوعها الفكاهى وحده .

وهذه القصة ذات طابع خاص يهمنا من حيث موضـوع هذا الكتاب فانها ترينا كيف ولد فنان كبير من خلال الحدود

الضيقة لتلك القصص القصيرة فى الصحف الفكاهية الرخيصة

والشخصية الاولى فى قصة « اهمال » هى شخصية بيوتربتروفتش ستريشين « الرجل الذى سرق حذاؤه الجديد فى العام الماضى » وكان أرملا تقوم على شئون بيته عانس صارمة الطبع هى أخت زوجته . وذات مساء عاد ستريشين من حفل تعميد وهو يحس بحاجة الى مزيد من الشراب . وعثر فى دولاب المطبخ على زجاجة (جاز) ظنها فودكا وشرب منها كأسا كاملة . وأدرك ما حدث فهرع الى أخت زوجته وقد استبد به الالم وتوقع الموت فأيقظها وأخبرها بما وقع .

ـ داشا ـ لقد ... شربت جازا ..

ـ كلام فارغ ـ مستحيل أن يكونوا قد قدموا اليك جازا

ولكنها حين تتأكد من صدق قوله لا تبدى نحوه أى مظهر من مظاهر العطف والرثاء لما كان يجد من ألم بل تنقض عليه بتانيبه وتقريعها المزير لانه أراد أن يشرب الفودكا دون اذن سابق منها . وينـدفع ستريشين الى الخارج ليبحث عن طبيب ويمضى من عيادة الى أخرى فيقال له مرة ان الطبيب ليس بالبيت ويقال له انه نائم ، مرة أخرى . ويذهب الى الصيدلية فيؤنبه الصيدلى لانه يوقظ الناس فى مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل ولا يقدم له هو الآخر اى عون .

وفى غمرة اليأس يؤمن ستريشين ان اجله قد حان فيلقى بنفسه على فراشه ويكتب وصيته ويروح ينتظر الموت حتى الصباح . وفى الصباح نراه يشرح لداشا ـ كيف نجا وعلى فمه ابتسامة تفصح عن سعادة رجل فات الموت بمعجزة فيقول « ما دام المرء يحيا حياة نظيفة منتظمة يا عزيزتى داشا فلن يؤذيه سم قط » وتجيبه داشا وهى تتنهد فى حزن وتفكر فى نفقات البيت « لا بد ان البائع قد خدعني واعطاني

جازا من نوع رخيص مع انى قد دفعت له كوبكا ونصفاوكان عليه أن يعطينى أجود نوع - يالى من مسكينة !- أيها الظلمة ليحرقكم الله فى جحيمه .. يا كفرة .. » وهكذا تمضى فى شكواها وسبابها .

وفى هذه القصة يجد القارىء كل ما اعتاد ان يجده فيما ينشر من قصص فى مجلة « اوسكولكى » . فكم من كاتب تندر بما يمكن أن يقع فى حياة ربات البيوت المتسلطات ، والمخمورين من الرجال . ولكن كل تلك المعانى العادية قد استحالت فى قصة انتوشا تشيكونتى الى مزيج من الفكاهة والمأساة يصور فى صدق حياة رجل وحيد وما فيها من وحشة . وقد غاب ذلك عن ليكين ولم ير فى القصة الا عنصر التسلية وحده ولم يستطع أن يدرك حقيقة ذلك النموذج الانسانى الذى قدمه الكاتب فى صورة داشا بعقليتها الضيقة ونظراتها المسمرة واهتمامها البشع بالتفاهات . وهكذا حدق ليكين أمامه بنظرات مسمرة كما فعلت داشا ولم ير فى القصة الا هذا الجانب التافه . ومضى تشيكوف فى تجديده وقد عرف كيف يعبر عن أعمق الافكار ويخلق اقوى الصور فى ذلك الاسلوب «المسف» الذى عرفت به الطرائف والقصص القصيرة الفكاهية .

وقد بدا ذلك التجديد أول الامر فى صورة متواضعة تتسق فى صدق مع طبيعة تشيكوف الادبية والانسانية معا . فلم يطمح كاتبنا الى القيام بثورة أدبية بل اكتفى بأن وصف مناظر من الحياة اليومية فى قصص كتبها للصحف الفكاهية وحافظ فيها على كل قواعد اسلوبها « المسف » ولكن تلك المناظر المتواضعة من الحياة اليومية تعد من الروائع العالمية حتى اليوم .

وقد اختلط الامر حينذاك على كثير من القراء والنقاد فاعتبروا تشيكونتى واحدا من بين الكتاب المكثيرين العاديين الذين كانوا يكتبون أدبا للتسلية المحضة ، على أن قراء

آخرين من أصحاب الحس المرهف قد أدركوا انهم أمام شيء جديد لا يشبه ما اعتادوا أن يقرءوه الا فى ظاهره فحسب ٠

ولو قد استجاب أنتوشا حينئذ الى ليكين لما استطاع قط ان يصبح تشيكوف الذى نعرفه . وقد ظن ليكين انه يستطيع ان يؤثر على انتوشا تشيكونتى لما كان بين حياتيهما من تشابه كبير . فقد نشآ فى بيئة واحدة وجمعتهما كراهية الادب الارستقراطى اذ كان كل منهما يعد نفسه من صميم الشعب . وطالما انكب تشيكوف فى صباه على قراءة قصص ليكين وطمح الى أن يكتب مثلها . وقد ظل حتى بعد ذلك يعجب بما لدى ليكين من قوة الملاحظة وما فى تصويره للحياة العادية من لمسات شخصية جميلة . ومن هذه الناحية الادبية الخالصة يمكن أن نعد ليكين ممهدا لظهور تشيكوف ككاتب قصة قصيرة . على ان تشيكوف قد استطاع مع ذلك ان يستشف حقيقة ليكين فيدرك أن تلك الطيبة الظاهرة كانت تنطوى على حد تعبير تشيكوف عنه فى احدى رسائله « على برجوازى صميم »

وهكذا اتخذت العلاقة بين تشيكوف وليكين طابع الصراع وكان صراعا ذا دلالة عميقة فقد كان ليكين قد تفرد بهذا اللون من القصة القصيرة الصغيرة ثم جاء تشيكوف فانتزع منه ذلك التفرد ٠

وكذلك أدخل تشيكوف هذا اللون « الشعبى » الى ادب الطبقة العليا وحرره فى الوقت نفسه من سوقية الطبقة المتوسطة وبرهن على ان القصة القصيرة الصغيرة ليست مجرد اداة للسخرية من السكرين من التجار بل يمكن ان تعبر عما هو أسمى من ذلك كما تعبر القصة القصيرة الطويلة أو الملحمة الشعرية أو الرواية . وهكذا خلق تشيكوف هذا اللون الفنى خلقاً جديداً ٠

وتلك هى طريقة كل مجدد . يأخذ ما تفرضه عليه الحياة

فيكيفه ويديره فى نفسه ليستخرج منه بعد ذلك شيئا جديدا .

وكانت الحياة تهدد موهبة تشسيكوف النامية بان تخنقها الاعشاب السامة فى متل أسلوب ليكين وما كانت تقتضيه طبيعة تلك القصص الفكاهية التى تجمدت على قوالب ثابتة واستقرت داخل حدود لا تتعداها . وكان تشسيكوف يئن تحت وطأة مطالب ذلك اللون الفنى الذى يتمثل فى قصص ليكين . ونصادف فى معظم رسائله حينذاك كثيرا من الشكوى المريرة اذ تضطره تلك المطالب الى أن يغفل فى قصصه كل ما يبث فيها روح الحياة . وليس اشد خطرا على موهبة ناشئة ولا أعظم ضررا لها من ذلك الموقف . ولكن تشيكوف عرف مع ذلك كيف يستخلص شيئا نافعا من تلك الظروف الضارة وأكره نفسه على « الخضوع » لمطالب ذلك اللون الفنى وراح يشكل من خلاله فى عناد مادته المستعصية واخذ يدرس دراسة طويلة مستانية طبيعة القصة القصيرة وما فيها من امكانيات وخضع هذا اللون الفنى فى النهاية لارادة العبقرية فاصبحت المادة طيعة فى يد الفنان الكبير .

وفى تلك القصص القصيرة الصغيرة عرف تشيكوف كيف يصور حياة انسان بأكملها ويوضح التيار الرئيسى لتلك الحياة . فارتفعت بذلك القصة المتناهية القصر الى مستوى الملحمة وأصبح تشيكوف بهذا خالق شكل جديد من أشكال الادب .. هو القصة القصيرة الصغيرة التى تحتوى عناصر القصة الطويلة والرواية كما يحتوى المحلول ما يذوب فيه !.. واستحال ما كانت تفرضه عليه الضرورة من اختصار وحذف ورفض الى أسلوب فنى جديد . وفى رسائل تشسيكوف ومحادثاته ومذكراته كثير من العبارات التى تدل على ايمانه بطبيعة هذا الفن كمثل قوله : « الايجاز أخو الموهبة » و « فن الكتابة هو فن الايجاز » و « أن تجيد الكتابة » معناه أن

تجيد الاختصار» و « انى أعرف كيف أتحدث بايجاز عن الموضوعات الكبيرة » .. والعبارة الاخيرة تقدم تعريفا دقيقا لجوهر تلك البراعة التى بلغها تشيكوف فى ذلك الفن .

والذى يقرأ قصص انتوشا تشيكونتى يؤخذ بما بلغه صاحبها من نضج مبكر . فقد أستطاع تشيكوف أن يصبح أستاذا فى فنه فى مدى لا يتجاوز أربع سنين . والحق أن من يكتب قصصا مثل « المسىء » و « فتاة من البيون » لا يمكن الا أن يكون أستاذا ناضجا . وتشيكوف يشبه من هذه الناحية بوشكين وليدمنتوف فى نضجهما المبكر .

وقد بلغ تشيكوف ذلك النضج بالجهد والعمل الدائب حتى ليقرر معاصروه أنه قد نبذ حياته المرحة الخالية من الهموم منذ تلك الفترة الباكرة حين كان يكتب فى مجلة أوسكولكى .

وقد كتب أحد معاصريه عن ذلك يقول : لم يكن تشيكوف ابنا من أبناء الحظ المدللين ولكنه ظفر بما ظفر به من نجاح عن طريق « الاعمال الشاقة الطويلة » على حد تعبير الصحفى بيلين فى احدى رسائله الى . وكان يعمل سكرتيرا لمجلة أوسكولكى وقد عرف تشيكوف قبل أن أعرفه »

وكلمة « الطويلة » هنا لا تعنى مجرد الزمن الطويل بل تعنى الدأب والمثابرة . وكما عرف تشيكوف كيف «يضغط» قصصه القصيرة لتحوى أكثر ما يمكن أن تحتوى . عرف كذلك كيف يبسط الزمن ليتسع لكل ما يريد أن يفعل لكى تضيق الشقة بينه كأديب ناشىء وما كان يطمح اليه من أستاذية ونضج . وبهذا بدأت ألوان من صميم الحياة تظهر فى قصصه . وعن ذلك يقول مكسيم جوركى :

« ان الجمهور الكريم يقرأ « فتاة من البيون » فيضحك لها دون أن يفطن الى ما فيها من مفارقة حين يسخر سيد ثرى من انسان وحيد يحس بالغربة نحو كل الناس والاشياء ، والحق انى اكاد أسمع فى كل قصة من قصص تشيكوف

الفكاهية تنهيدة خفيضة عميقة صادرة عن قلب انسان خالص نقى . . فقد أوتى تشيكوف قدرة لم يؤتها أحد على أن يفهم «فتات» الحياة وما تنطوى عليه من مآس وينفذ الى صميمها ببراعة وعمق . وما استطاع كاتب كما استطاع هو أن يكشف لمواطنيه فى قسوة وانصاف عما فى حياتهم من فوضى تنشرها السوقية المبتذلة المخزية » .

وتستطيع أن تجد حتى فى بواكير قصصه صورة صادقة « للرجل العادى » ودفاعا عنه . ففى قصته « الكبش والعانس » مثلا تذهب فتاة بائسة الى سيد تظهر عليه آيات الشبع ذى ملامح مشرقة يتجلى فيها ما كان يعانيه من ملال أليم بعد الغداء ، وتتوسل اليه أن يمنحها تصريحا مجانيا تسافر به فى القطار الى بلدتها لتعود أمها المريضة . وكانت قد سمعت انه يتصدق أحيانا بتلك التصريحات ، ويجد السيد الكريم فى ذلك فرصة للتسلية ، فيسأل الفتاة عن مكان عملها وأجرها وصلاتها الشخصية ، وتصارحه الفتاة بكل أحوالها حتى لقد قرأت عليه خطابا كانت قد تلقته أخيرا من والديها . ويطول الحديث بينهما حتى تدق الساعة الثامنة فينهض « السيد الكريم » قائلا :

« لقد آن أن أذهب الى المسرح . الى اللقاء يا ماريا بينيموفنا » .

وتسأل الفتاة وقد نهضت كذلك : « هل لى أن آمل ؟ »
ــ تأملين ماذا ؟ . .

ــ أن تعطينى التصريح بالطبع ! .

ويضحك السيد ضحكة عالية مرحة ويخبرها انها قد أخطأت المسكن وانه ليس رجلها المقصود . فان السيد الذى يمنح تلك التصريحات يقطن فى الطابق العلوى . وتصعد الفتاة الى الطابق العلوى فيقال لها : « لقد رحل الى موسكو فى السابعة والنصف » . هكذا كانت سوقية الاثرياء بما فيها من ازدراء

غير كريم « لصغار الناس » تلك السوقية ألتى وجـدت فى شخص أنتوشا تشيكونتى عدوا لدودا لا ينثنى .

ويرسم تشيكوف صورا للحياة العادية فيعرض أشـد ألوانها قتامة وأكثر ملامحها بشاعة ببساطة يسيرة تثير فى نفس القارىء شعورا بما فى الحياة المعاصرة من هذه القتامة والبشـاعة . وبذلك استطاع أن يدنو من نفس القارىء ويصبح شيئا جوهريا بالنسـبة الى « الرجل العادى » الذى كان يلتمس أدبا يجد فيه تصويرا لحياته الشاقة . على أن كاتبنا نفسه لم يكن يدرى حقيقة قيمته عند ذلك القارىء بل كان يحس بوحشته وغربته بين الناس . فقد وجـد تشيكوف نفسه فى الاعوام الاولى لاشتغاله بالـكتابة بين طائفـة من الصحفيين واجراء الصحافة البرجوازية والادباء التافهين . وقد كتب فى ذلك الى أخيه الكساندر يقول : « أن يكون المرء صحفيا يعنى ـ على أحسن تقدير ـ أن يكون وغدا » . وكان يشعر بالاسى اذ يجد نفسه واحدا « من تلك الطائفة » يختلط بهم ويستمع اليهم ويحس انه « قد أوشك أن يكون وغدا » ويمضى فى رسالته الى أخيه فيقول : « على أنى ساعتزلهم ان عاجلا أو آجلا فانى لم أشتغل بالصـحافة الا لقدرتى على الانتاج الغزير . ولكنى لن أموت صحفيا » .

ولم يكن اعتزال تلك البيئة أمرا سـهلا . فكم من أناس شرفاء لا تنقصهم المقدرة ولكن كانت تنقصهم الموهبة أو قوة الارادة لم يستطيعوا أن يعتزلوها فانهارت أخلاقهم بالتدريج تحت وطأة ما حولهم من سوقية أو أدمنوا الخمر فقضت على حياتهم وما زالوا فى مطلعها . كذلك مثلا كانت نهـاية الشاعر «بالمين» صـديق تشيكوف . وكان بالمين يمثل روح العقد السادس أصدق تمثيـل فنظم الشـعر على طـريقة نيكراسوف وكأن الرقيب يعده واحـدا من «الحمـر» ويقـول عن شعره انه يقطر سما . وكان مهذبا ذا طبع رقيق يمقـ

السوقية والغلظة أشد المقت ويكاد يشبه تشيكوف فى تلك الميول . وقد استمد تشيكوف بعض ملامح قصته « العنبر رقم ٦ » من ملاحظته لحياة بالمين . وكتب عنه الى صديقه بيلين يقول :

« ان بالمين نموذج للشاعر ان كنت تؤمن أن للشاعر نموذجا شخصية شاعرية تستبد به الحماسة الدائمة وتعتمل فى ذهنه موضوعات وأفكار لا تنتهى . ولن تشعر بالسأم قط اذا جلست اليه . حقا أنك ستضطر الى الاسراف فى الشراب بينما تتحدث معه ولكنك من ناحية اخرى ستكون على يقين أنك لن تسمع كلمة كذب واحدة أو عبارة سوقية ولو طال حديثكما فاستغرق ثلاث ساعات أو أربع . وذلك شىء يستحق أن يشمل المرء قليلا فى سبيله » .

ولو ذكرنا كيف كان تشيكوف يزدرى الكذب والسوقية — وقد كان يعثر بهما فى كل خطوة فى البيئة الصحفية — لادركنا ما كان يجد من متعة فى الحديث الى رجل مهذب صادق ذكى ذى طبع شاعرى مثل بالمين . ولكن ذلك الرجل ظل ينحدر من يوم الى يوم وظل اسرافه فى الخمر يزيد ويزيد حتى مات فى شبابه ولما تظهر كل امكانياته أو يحقق ما عقد عليه من آمال .

ولم يكن لتشيكوف من الاصدقاء من يستطيع حقا أن يفهم أعماله الادبية ويقدرها قدرها . لذلك لم يجد فيما كان يوجه الى تلك الاعمال من نقد الا مزيدا من الاحساس بالوحشة والتفرد . فاذا أخذنا لذلك مثلا ناقدا من أكبر النقاد فى الحركة النارودنية فى العقد الثامن هو ميخائيلوفسكى فسنجد انه لم يرفى تشيكوف الشاب الا كاتبا موهوبا من كتاب أدب التسلية لا يميزه عن سواه الا ما فى أعماله من اخلاص وصدق . ومن الغريب أن يسود هذا الرأى عن تشيكوف

حتى بعد أن نشر قصص « الحرباء وجندى البوليس بريشبييف وفتاة من البيون ؟ .

وقد قاد النقاد الى هذا الخطأ ذلك الطابع العام الذى كان يسود مجلة «اوسكولكى» حيث كانت نظهر قصص تشيكوف وأسلوب تشيكوف الذى كان يشبه فى الظاهر أحيانا سائر الكتابات الفكاهية الرخيصة المألوفة .

ومع ذلك فقد كان تشيكوف يحس حتى فى تلك نفترة احساسا شديدا بمسئوليته أمام القارىء رغم انه كان لا يزال مشغولا بدراسته فى الطب ولم يكن قد بدأ يعد الادب حرفته الاولى . حقا لقد كانت تلك المسئولية لا تزال بعد فى نظره مجرد اخلاص فى كتابة القصص الفكاهية . ولكن ذلك الاخلاص فى ذاته يدل على طبيعة تشيكوف الجادة مهما يكن العمل الذى يكتبه صغيرا متواضعا . وقد عبر عن شعوره بالمسئولية ككاتب فكاهي فى قصة بعنوان « ماريا ايفانوفا » كتبها عام ١٨٨٣ .

وهى قصة تبدو غريبة بعض الشيء من تشيكوف الذى كان يكره القصص العاطفية والقصص الواعظة . ولكنه فى تلك القصة قد أحس بالحاجة الى أن يعبر عن نفسه لقارئه . وهاك بعض ما جاء فيها :

« نحن معشر الكتاب الفكاهيين جميعا أناس مثلكم تماما ، مثل اخوتكم واخوانكم واصدقائكم . لنا ما لكم من أعصاب وقلوب . يعترينا الخوف المروع أحيانا كما يعتريكم ونهتم للاشياء نفسها التى تثير الهموم فى نفوسكم . وصدقونى حين أقول لكم اننا معشر الكتاب الفكاهيين نستطيع أن نألم مع ذلك لاغلاق مستشفى للاطفال فى موسكو مثلا أو لشيوع الرشوة بين المواطنين حتى بعد أن قرءوا كتابات جوجول . وقد يبلغ ذلك الالم أحيانا حدا عظيما يمس صميم قلوبنا . ولكننا لو استكنا لهذا الالم وتوقفنا عن الكتابة حتى يفتتح

مستشفى جديد فسيكون فى ذلك نهاية الادب الفكاهى بوضعه الراهن . وذلك ما لا ينبغى أن يحدث أيها القراء الكرام . فقد يكون هذا الادب شيئا صغيرا تافها وقد لا يبعثكم على الاغراق فى الضحك ولكن مع ذلك يؤدى وظيفته ولن نستطيع أن نتخلى عنه . فلو قد فعلنا وتركنا مكاننا فى المعركة لاحتله فى الحال المهرجون والمزيفون .. لذلك أجد من واجبى أن أكتب مهما تكن الظروف وان أجيد ما أكتب قدر الطاقة » .

ونلاحظ مما جاء فى هذه القطعة أن تشيكوف كان حتى فى تلك الفترة يعتبر مشاركته فى تحرير الصحف الفكاهية ضربا من المعارك ، يحارب فيه ضـد الكذب والسوقية ويشـعر بمسئوليته نحو القارىء ــ ذلك « الرجل العادى » الذى كان حبيبا الى قلبه ــ ويحس بأن من واجبه أن يخلق من الفكاهة شيئا نبيلا .

لم يرض ليكين عن التجاء تشيكوف الى القارىء على هذا النحو فى قصة « ماريا ايفانوفا » فرفض نشرها وكتب اليه يقـول :

« لم أجد من المناسب أن أنشر قصتك « ماريا ايفانوفا » ، فقد كتبتها بطريقة ذاتية واضحة لا تلائم سياسة أوسكولكا فأرجو المعذرة » .

ولم يكن ليكين يريد الا أن يسلى القارىء ولعله قد أحس فى حديث تشيكوف الذاتى الى ذلك القـارىء تعريضا به هو نفسه .

الساخر

لم يكن الصراع بين ليكين وتشيكوف مقصورا على ما ذكرنا. ولكنه كان الى جانب ذلك صراعا ضد الجانب الساخر من موهبة تشيكوف ، ضد تلك الموضوعات الجدية العميقة التى كانت قد بدأت تظهر فى أعمال الكاتب الشاب الاولى لتصور بطولة « الرجل العادى » ، وتدافع عن قضيته . وكانت حملات تشيكوف الساخرة هذه امتدادا لتقاليد روائع الادب الروسى حينذاك كما تتمثل فى أعمال جوجول وشدرين .

ولقد تضمنت الفترة الاولى لنمو الملكة الخالقة لتشيكوف أغراضا فنية ثلاثة واضحة كل الوضـــوح . وقد مر تطور تشيكوف الفنى حينذاك بمراحل ثلاث . فقد كان فى أول الامر يشيع فى قصصه وهزلياته الفكاهة المرحة . وفى نفس الوقت اتخذت السخرية فى كتاباته طابعا واضحا متميزا . وما أن حل منتصف العقد الثامن حتى بدأ ينشر قصصا لا يمكن أن تدخل فى نطاق الفكاهة والسخرية . قصص حاول الكاتب فيها أن يغلب الفن على مشاعره الخاصة ويخفف من حـــدة الفكاهة والسخرية حتى يستطيع القارىء أن يجد فيها صورة من واقع الحياة الروسية بجميع ألوانها . وهكذا كانت تلك القصص مزيجا من عناصر الشعروالمأساة والفكاهة والسخرية. ولكن العنصرين الاخيرين لم يعودا يظهران بشكل واضح بل أصبحا يختفيان وراء الموضوعات الجادة الاخرى .

وقد بدأ ميل تشيكوف الى السخرية فى أول قصة كتبها وهى قصة « رسالة من اقطاعى مثقف » . وفى عام ١٨٨٠ حين ظهر اسم تشيكوف فى الصحف لاول مرة نشرت قصة

بتوقيع تشيكونتي فى صحيفة ستريكوزا بعنوان « التفاح » .
وتبدو النزعة الديموقراطية عند الكاتب ـ وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين ـ واضحة كل الوضوح فى تلك القصة . فقد وصف فيها ما كانت تنطوى عليه نفوس الاقطاعيين من بشاعة وخواء يثيران الاشمئزاز . اذ فاجأ أحد هؤلاء الاقطاعيين فى بستان له فتى وفتاة متحابين من أهل القرية واكتشف أن الفتى قد قطف لحبيبته ثمرة تفاح من احدى الاشجار . وتفتق ذهن الاقطاعى تريفون سيميونوفتش عن طريقة يعاقبهما بها عقابا مزدوجا . فأكره الفتاة على أن تجلد خطيبها والشاب على أن يضرب خطيبته . ولا شك أن المتعة التى وجدها فى تلك العقوبة كانت تنبع من انه استطاع أن يحطم بها العواطف الانسانية ويبصق على روحى هذين الانسانين ويمتهن فيهما كرامة الانسان .

وانحنى السيد الى الفتى والفتاة بعد أن بلغ منهما مقصده وقال يودعهما :

« تستطيعان أن تنصرفا الآن يا عزيزى . وسأرسل اليكما هدية من التفاح فى حفل زواجكما » .

وانصرف الفتى والفتاة ، هو الى اليمين وهى الى الشمال فلم يلتقيا بعدها قط .

ومع أن هذه القصة من عمل كاتب مبتدىء ، فاننا لا نستطيع أن نصفها بالضعف وان كان تشيكوف قد أسقطها من أعماله . فقد وصف فيها الكاتب الاقطاعى تريفون وتابعه كابروشكا وجو القصة جميعه وصفاً قوياً مؤثرا يجعل للقصة دلالة كبيرة اذ تكشف النقاب عن تلك الروح الاجتماعية التى بدأ بها المؤلف حياته . وهى الى ذلك تعيننا على فهم ما طرأ بعد ذلك على تشيكوف من تطور فنى . فقد غلب عليها صفتان تخلص منهما تشيكوف فيما بعد ، هما معالجته

المشكلة معالجة مباشرة وتدخل شخصيته فى القصة تدخلا واضحا . ولاشك أن تلك القصة تختلف في طريقتها اختلافا تاما عن أعمال تشيكوف الناضجة التي حاول فيها أن ينقل صورة الحياة كما هى بكل ما فيها من واقع وصدق دون أن يتدخل بشخصه في القصة الا فى أضيق الحدود ، وهكذا كانت الآراء والاحاسيس تنبع فى تلك القصص من طبيعة الشخصيات والموضوع ومما يستخلصه الفنان من واقع الحياة . أما قصة « التفاح » فقد كتبت عن وعى لتعبر عن موضوع يريد المؤلف أن ينقله الى القارىء فيصور من خلاله بشاعة الاقطاع . ولذلك يبدأ المؤلف قصته بهذا التعبير الصريح المباشر عن سخطه على تريفون سيميونوفتش فيقول :

« لو كانت الدنيا غير الدنيا وكانت الاشياء تسمى بأسمائها الصحيحة لما سمى تمريفون سيميونوفتش باسمه هذا بل كان من الاولى أن يطلق عليه اسم من أسماء الخيل او البقر ، فالحق انه كان حيوانا . وانى أسأله هنا أن يوافقنى على هذا القول . ولا شك انه لن يغضب ان بلغه مطلبى هذا فان ما يتحلى به من ادراك سليم سيدفعه الى موافقتى بل لعله يرضى أكثر من هذا فيرسل الى هدية من التفاح فى الخريف تعبيرا عن شكره لانى لم أنشر اسمه كاملا بل اكتفيت بذكر اسمه واسم أبيه . ولن أحاول هنا أن أصف كل فضائل تريفون سيميونوفتش وحسبى ان اروى عنها هذه الحادثة وحدها » .

ويمضى الكاتب فيخبر قراءه كيف كان تريفون ككل أبناء عشيرته ، ينفذ القانون بنفسه ، ثم يواجههم بهذا السؤال المباشر : « أترون هذا جديدا عليكم ؟ ان كان جديدا فاعلموا أن هناك أناسا لا يرون فى ذلك شيئا من الغرابة بل يجدونه شيئا عاديا مألوفا » .

وتنهى القصة بتقديم بعض الحقائق عن « موقف تريفون من اخوته فى الانسانية » ثم يلخص المؤلف القصة بما يتصل بأولها فيقول :

« هكذا يسرى تريفون عن نفسه ملال شيخوخته . وهو فى هذا ليس شاذا فى اسرته . فمن عادة بناته مثلا أن يربطن البصل على قبعات الزائرين من « الطبقة الدنيا » أو يكتبن بالطباشير على ظهور السكارى منهم كلمة « حمار » أو «مغفل» . أما ابنه ميتيا فقد بذ أباه فى الشتاء الماضى فلطخ بالقار باب ضابط متقاعد لانه رفض أن يعطيه جروا من فصيلة «الولف» .. فكيف يمكن بعد ذلك أيها القراء أن نعدوه انسانا شريفا ؟ .. »

والقصة كما نرى مليئة بما فى نفس الشباب من حنق وسخط صادق ومؤلفها يدعو القارىء فى اخلاص الى أن يشاركه هذا السخط على ما فى نفس ذلك الاقطاعى من فساد وتعفن ويعجب لانه ما زال يعيش فى أمن ورخاء ويدعوه الناس « تريفون سيميونوفتش » بدل أن يطلقوا عليه اسم « الحيوان » . ولا ينسى بعد ذلك كله أن ينبه القارىء الى أن تريفون هذا ليس مجرد شخص بل هو رمز الى طبقة كاملة من الناس .

ولم يستطع كاتبنا الناشىء أن يدرك أن كل تلك التفصيلات التى قدمها عن حياة أسرة تريفون لا علاقة لها قط بموضوعه من الناحية الفنية وانها لا يمكن أن تثير فى نفس القارىء أى انفعال وانه كان يمكن أن يستغنى بجانب واحد منها فيه كثير من الحياة والايحاء . وذلك حين جرت شنكا ابنة تريفون الجميلة لتدعو أباها الى الشاى وهى تضحك ضحكا عاليا معبرة عن سرورها « بدعابة أبيها الصغيرة » مع الفتى والفتاة

وكذلك لم يستطع الكاتب الشاب أن يدرك أن التعبير

المباشر الصريح عن سخطه عما فى الحياة من فساد بشع لا يمكن أن يثير نفور القارىء من ذلك الفساد بقدر ما يثيره ايحاءه الخفى الذى يشيع فى النص كله . فقد صور المؤلف الاقطاعى كأنه وحش مخيف بعيد كل البعد عن الانسانية مما يحمل القارىء على الاعتقاد بأنه فرد شاذ بعينه لا يمثل ظاهرة كبيرة . وذلك عكس ما أراد المؤلف .

ولم يستطع المؤلف أيضا أن ينقل الى القارىء سخطه على أن المجتمع ما زال يدعو تريفون باسمه بدل أن يسميه « بالحيوان » . ذلك لانه اقتصر على وصفه لخصال تريفون البشعة دون أن يقدم الى القارىء شيئا من مظاهر الاحترام التى كان يلقاها فى المجتمع رغم هذا . ولتأخذ لذلك مثلا ما فعله تشيكوف بعد ذلك فى قصته « فى الحضيض » . فقد صور فيها احترام الارستقراطيين والسادة لاكسينيا رغم انهم كانوا يعلمون علم اليقين أنها قتلت وليد ليبا لانه كان يقف فى طريقها الى ما تريد ومع أن تشيكوف لم يعبر عن شىء من شعوره هو فى هذه المرة بل اكتفى بمجرد وصفه لما كانت تلقاه اكسينا من احترام فقد استطاع أن يثير عواطف القارىء ويبعث فى نفسه النفور والاشمئزاز .

وقد أطلنا الحديث عن هذه القصة غير الناضجة لنبين ضخامة التطور الفنى الذى اجتازه تشيكوف الكاتب الساخر فى مدة يدعو قصرها الى العجب اذ لم تزد على ثلاث سنوات أو أربع استطاع خلالها أن يصعد من مثل تلك القصة الى قمم عالية كقصته (الحرباء) و (فى العربة) و (القناع) و « الجاويش بريشبييف » . ولو قارنا بين قصة « التفاح » وبين أعمال تشيكوف بعدها لاتضح لنا الخط الذى كانت تسير فيه موهبة الكاتب الفنية نحو التطور ، ليخلق لنفسه أسلوبا خاصا به . فقد اختفت من تلك الاعمال التى بلغت حدا أكبر من النضج ما كان فى قصة « التفاح » من تعبير

مباشر عن سخط المؤلف على ما فى الحياة من قبح واتخذ المؤلف فيها موقفا محايدا استطاع أن يثير القارىء من خلاله على بشاعة الواقع الذى كان يصوره فى تلك القصص. وليس معنى هذا بالطبع أن على كل كاتب أن ينهج ذلك الطريق أو أن تدخل المؤلف فى القصة بآرائه وأحاسيسه لا بد حتما أن يضعف عمله الفنى . ولكن هذا الطريق كان شيئا مفروضا على تشيكوف بحكم ظروفه وطبيعة ملكته الفنية .

وتبدو النزعة الديموقراطية «الشعبية» فى أوضح صورها فى تلك القصص الساخرة التى كتبها تشيكوف فى أولى فترات حياته الفنية . وقد كانت كلمة « الشعبية » هذه من أحب الكلمات الى نفس تشيكوف كما كانت أحب شخصياته اليه تلك الشخصيات الشعبية التى تمثل « الرجل العادى » من عامة الشعب . ويشع هذا الشعور « الشعبى » فى قصة « فى العربة » بشكل واضح . وتتلخص القصة فى أن فتاة ريفية قدمت الى بطرسبرج لزيارة بعض أقاربها من السادة الاثرياء وتخرج الفتاة مع ابنتى عمها فى نزهة فى عربة عمها المستشار برندين . وفى الطريق تسأل ابنتى عمها أسئلة تحرجان لها كل الحرج لما فيها من سذاجة وجهل بقواعد اللياقة : فتشير مثلا الى السائق ثم تسأل :

ـ كم يتقاضى سائقكم ؟

ـ أظنه يتقاضى أربعين روبلا فى الشهر .

ـ حقا ؟ ان أخى سيريوشا يعمل مدرسا ولا يتقاضى الا ثلاثين ! هل تبلغ الاجور هنا حقا هذا الحد من الارتفاع ؟

وتزجرها زينا قائلة :

ـ لا تسألى مثل هذه الاسئلة يا مرنوشا ولا تطيلى التلفت حولك هكذا فان ذلك شىء لا يليق .

ويسأل البارون درونكل ــ وكان مع الفتيات فى العربة ــ :

ــ أريد أن أعرف رأيكن بكل صراحة يا آنساتى : ايعجبكن تيرجنيف ؟

ــ آ ... طبعا، تيرجنيف .

ــ شىء عجيب ــ كل من أسأله يقول انه يحبه ولكنى .. لست أدرى سببا لذلك . اما أنى غبى واما انى اشك فيما أقرأ أكثر مما ينبغى . ولكن كل هذه الضجة حول تيرجنيف تبدو لى مع ذلك شيئا مبالغا فيه أن لم يكن مضحكا . صحيح أنه يكتب فى اسلوب سهل فيه بعض الحياة أحيانا ، وصحيح أنه ذو فكاهة طيبة ولكن .. ليس لكتاباته ميزة خاصة ، فهو يكتب كغيره ممن يكتبون مثل جريجوريفتش ، وكرايفسكى . انا لا أنكر أن تيرجنيف كاتب مجيد ولكنى لا أستطيع ان اقول انه يأتى بالمعجزات كما يزعم الناس . انهم يقولون عنه انه قد فتح عيون الناس على واقع حياتهم وخلق فى روسيا ضميرا سياسيا . غير انى لا أرى في ادبه شيئا من ذلك .. شىء عجيب ! ..

وترد عليه زينا قائلة :

ــ آ .. ولكن هل قرأت قصته «ابلوموف» (١) ؟ انه يحمل فيها على نظام الرق ..

ــ هذا صحيح .. وأنا نفسى ضد هذا النظام ولكن الامر لا يستحق كل هذه الضجة !

وتهمس مرفوشا الى زينا :

ــ أسأليه بالله أن يلزم الصمت !

وتنظر زينا الى الفتاة الساذجة فى دهشة فترى عينيها لا تكادان تستقران على وجه حتى تتحولا الى وجه آخر ، وقد التمع فيهما بريق مخيف كأنما تبحث صاحبتهما عن انسان

---

(١) وجه الطرافة هنا أن «ابلوموف» كما يعرف كل روسى ــ من تأليف جونشاروف .

تصب عليه جام كرهها وازدرائها وكانت شفتاها ترتجفان من الغضب ، وتهمس اليها زينا :

ـ هذا لا يليق يا مرفوشا ـ انك تبكين !

ويمضى البارون فى حديثه :

ـ ويقولون أيضا انه أثر تأثيرا كبيرا على تطور حياتنا الاجتماعية ـ فما مظاهر ذلك التأثير ؟ .. لست أستطيع أن أرى منها شيئا فهو لم يؤثر فى أنا مثلا ..

وتكون العربة قد عادت الى بيت برندين بعد أن دارت «السوقية» دورة كاملة حول نفسها فتقف وكأنها لم تعد تطيق صبرا على حديث البارون درونكل . ولاشك أن قول البارون . أن تيرجنيف لم يؤثر عليه ، فيه كل الحق . فما كان لتيرجنيف أن يؤثر على أمثال « درونكل وبرندين » وغيرهم من الارستقراطيين السادرين فى جهالتهم .

وقد يبدو للقارىء ـ لاول وهلة ـ ان وقوف العربة أمام دار برندين لا يعنى شيئا غير بيان هذه الحقيقة المادية ولكننا لو أمعنا النظر فى القصة ونهايتها لتكشفت لنا كثير من الدلالات النفسية . فقد كان المؤلف يستطيع أن يجرى أحداثها فى غرفة الجلوس بمنزل برندين مثلا ، وكان يستطيع أن يختم القصة بقوله ان العربة استمرت فى طريقها فى شارع نيفسكى . ولكن القصة فى هاتين الحالتين لم تكن لتنتهى هذه النهاية الكاملة الموفقة التى تبرز تلك الدائرة المغلقة التى تدور فيها سوقية تلك الطبقة حول نفسها . لذلك كانت العربة ضرورية للوصول الى هذه النهاية . والحق أن نهايات كثير من قصص تشيكوف توحى ايحاء خفيا بما يريد المؤلف . وتلك قمة الفن . ووقوف العربة أمام دار برندين ينهى الطريق أمام تيارين متوازيين ، تيار السوقية الذى كان يتمثل فى حديث البارون درونكل وتيار السخط الذى كان يثور فى نفس

القروية الشابة . ولو لم تقف العربة لانفجر ما كان فى نفسها من كراهية وازدراء فأغرق العربة الوادعة ــ ولكن تشيكوف أراد أن يكون موضوعيا فلم يعبر فى قصته عن كراهية أو ازدراء أو غضب أو محبة عند تلك الفتاة القروية بل اكتفى بمجرد عرض صورة من الحياة ، وان كنا ندرك مع ذلك بجلاء انه كان يأخذ جانب الفتاة . وكم كان تشـيكوف موفقا فى التعبير عن ذلك الازدراء الشعبى نحو البارون درونكل بوجهه اللامع وملابسه الانيقة وقبعته ومعطفه الازرقين . أجل فقد كان الازدراء أبرز سمات قصص تشيكوف السـاخرة .. فسخريته ليست كسخرية جوجول بما فيها من مرح صاخب ووعيد مجلجل ولا كسخرية شدرين بغضبها الهائل الرائع على أن ذلك لم يضعف من سخريته ولم يحل دون أن يقضى بها على أعدائه . ولكل طريقته . فسخرية شدرين تغلب عليها طبيعة الجدل وكأنها ضرب من البحث فى الظروف التى يعالجها المؤلف . أما سخرية تشيكوف فتتمثل عادة فى صور من الواقع لا تهدف الا الى رسم الحياة رسما أمينا صادقا . ومع ذلك فقد كانت لا تقل تأثيرا عن سخرية جوجول . فكما استخدم جوجول العربة ليتم فيهـا مصرع تشيرتوكوتسكى تلك الشخصية التى لا تنسى كذلك اسـتخدمها تشـيكوف ليصور فى جولتها خـلال طريق نفيسكى مصرع كل درونكل وكل برندين .

ونحن لا نستطيع فى هذا الصدد أن نوافق كثيرا من النقاد على رأيهم فى كثير من نهايات قصص تشيكوف وانها تجىء فى كثير من الاحيان غامضة غير حاسمة كأنها تقف بالقارىء عند أعتاب النهاية ولا تتجاوزها . صحيح أن قصص تشيكوف كثيرا ما تنتهى نهايات غير حاسمة لا ترسم حلا للمشكلة ولا تقترح مخرجا من تلك السـوقية التى كان يزدريها . ولـكن تلك القصص فى الوقت نفسه تعبر فى سياقها تعبيرا واضحا عن

موقف المؤلف من هذه السوقية ، ونهاياتها تجيء حينئذ خاتمة طبيعية رغم بعدها عن اليقين ورغم عجز الشخصيات أو المؤلف نفسه عن أن يحل تلك المشكلات المتعارضة القائمة فى واقع الحياة .

وتهدف كثير من قصص تشيكوف الساخرة الى الكشف عما فى نفس المثقفين الموظفين من رضى بالذل والمهانة . وفى قصة « القناع » نموذج للسخرية المريرة من ذلك الموضوع . وتتلخص القصة فى أن مليونيرا من كبار رجال الصناعة كان يشهد حفلة رقص تنكرية فى النادى الكبير بالمدينة وشرب حتى ثمل فاندفع الى غرفة القراءة حيث كان هناك فريق من المثقفين بعضهم منهمك فى قراءة الصحف وبعضهم قد استولى عليه النعاس أو « الاستغراق فى التأمل » على حد تعبير مراسل صحف موسكو وبطرسبرج الخاص ولم يعرف المثقفون المفكرون رجل الاحسان الكبير لانه كان يلبس قناعا . واحسوا بأنهم قد اهينوا اذ اقتحم عليهم هذا الدخيل صومعتهم الفكرية المقدسة . وزاد من سخطهم أن ذلك الدخيل قد بدأ يوجه اليهم عبارات قاسية مهينة طالبا اليهم أن يتركوا الغرفة ليجعل منها معرضا لبعض النساء العاريات وتلا ذلك مشادة حامية . وكم كانت دهشة السادة المفكرين وارتباكهم حين نزع السيد قناعه وتبادل المثقفون نظرات حائرة وغاض الدم من وجوههم وراح بعضهم يهرش قفاه .. وصاح فيهم بيانيجوروف بعد لحظة :

ـ الا تريدون أن تنصرفوا ؟

وخرج السادة المثقفون على أطراف أصابعهم دون أن ينبسوا بكلمة ! ..

واخذوا يذرعون أنحاء النادى وقد استبدت بهم الكآبة والشعور بالاثم وراحوا يتهامسون وكأنهم يشعرون بأن كارثة توشك أن تقع . وسمعت زوجاتهم وبناتهم أن بيانيجوروف

قد « أهـين » فخيم عليهن الصمت وبـدأن ينصرفن الى بيوتهن واحدة بعد الاخرى . وتوقف الرقص . ولكن كم كان سرور المثقفين وقد وقفوا ينتظرون خروج بياتيرجوروف من غرفة القراءة حين رأوه يعود وقد أنساه سكره الشديد كل ما حدث ، ودخل غرفة الرقص فجلس الى جانب العازفين وبدأ يغفو على أنغام الموسيقى الى أن مالت رأسه على صدره فى النهاية وعلا شخيره .. وصاح المشرفون على الحفـل :

« كفو عن العزف فقد نام بيجورنليتش » . تقـدم بليبوخين فهمس فى أذن المليونير :

ــ أتحب ان أوصلك الى البيت يا سيد بيجورنليتش ؟

وكان جواب بياتيجوروف أن مط شفتيه كانما يطرد ذبابة عن وجهه .

وأعاد بليبوخين السؤال :

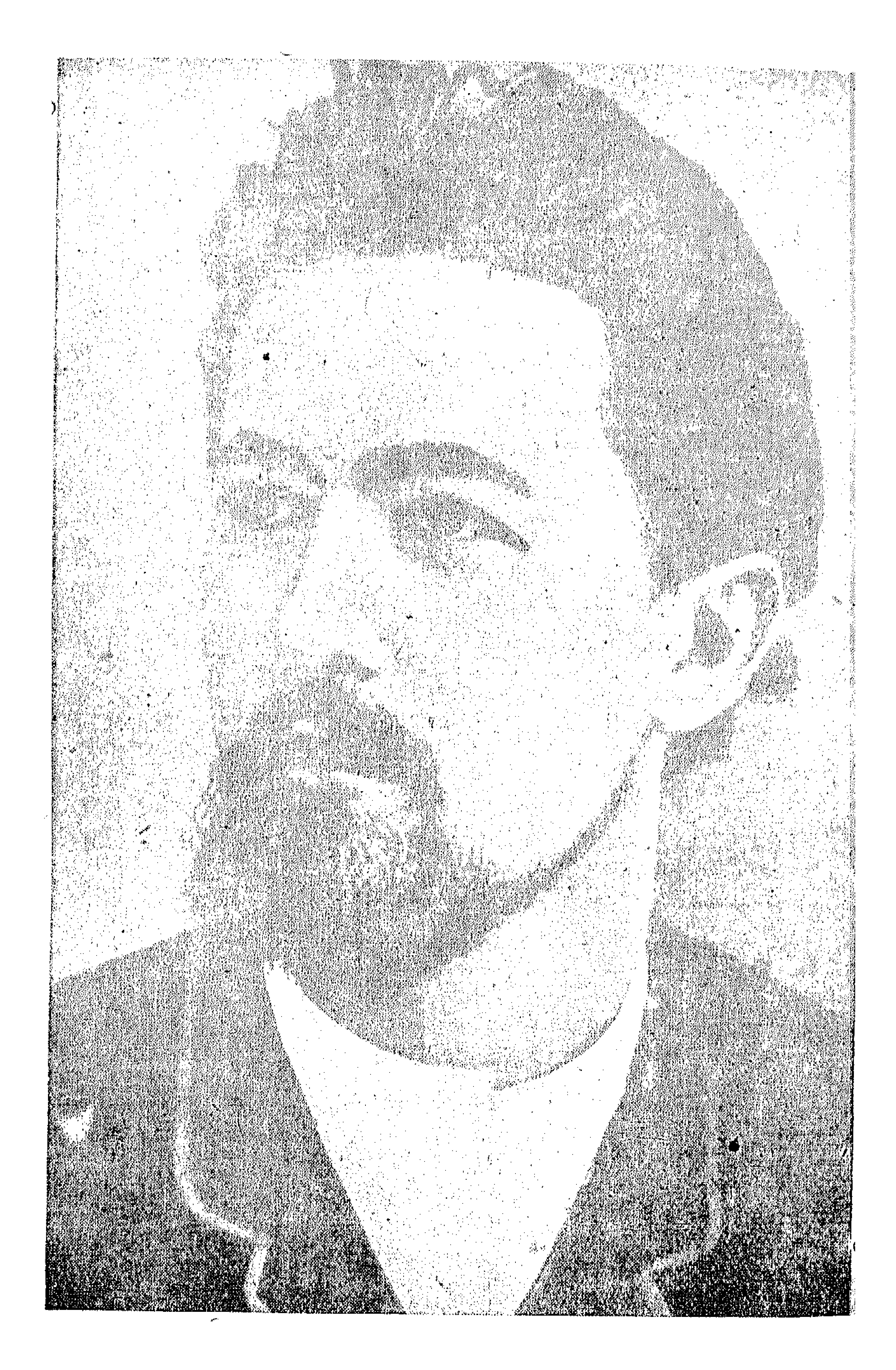
ــ أتحب أن أوصلك الى البيت ام اطلب لك عربتك ؟

ــ هه ! ماذا ؟ أهو انت ؟ ماذا تريد ؟ .

ــ أن أوصلك الى البيت ــ لقد آن ان تعود !

ــ البيت ؟ أريد أن اذهب الى البيت .. خذنى الى البيت !
وأشرق وجه بليبوخين وشعر برضى عميق وأخذ بيـد المليونير فساعده على النهوض . وهرع سائر المثقفين وقد علت وجوههم ابتسامات عريضة وتعاونوا فى اقامة المواطن النبيل وحملوه فى عناية فائقة الى عربته .

وقال شيتياكوف فى مـرح بالغ : « ما كان يسـتطيع أن يخدع عدداً كبيراً من الناس هكذا الا فنان موهوب حقاً اننى فى دهشة يا بيجورنيليتش ــ لا أستطيع أن امنع نفسى من الضحك ، حتى الآن ــ هنا ها ها ! صدقنى انى لم أضحك قط فى المسرح كما ضحكت هنا الليلة ــ يا لها من دعابة عميقة الاغوار ! لن أنسى هذه الليـلة ما حييت ! » وبعد أن ودع



المثقفون بياتيجوروف عاد اليهم ابتهاجهم وطمأنينتهم وقال شيستياكوف مزهوا فرحا : « لقد صافحني ـ انه ليس غاضبا كما كنا نظن ! »

وتنهد أحدهم قائلا: « نرجو هذا ـ انه وغد أثيم وهو مع ذلك ولي نعمتنا . فعلينا أن نلزم جانب الحذر »

وموضوع هذه القصة ذو دلالة كبيرة . ومع أن الحادثة التي روتها يمكن أن تعد حادثة نادرة الى حد ما ، فان الكاتب قد استطاع من خلالها أن يكشف لنا عن مقدار الهوان الذي تنطوي عليه نفوس هؤلاء « المثقفين » المحترمين من خريجي الجامعات الذين يمثلون صفوة المجتمع . ولو شبهناهم في طباعهم بالخدم والاتباع فلن يكون في ذلك شيء من المغالاة لانهم في الحقيقة لا يختلفون عن هؤلاء الخدم الا بأسماء مهنتهم .
وقد لاحظنا أن كلمة «المثقفين» قد ترددت كثيرا في القصة وكانت في كل مرة تقرع آذاننا قرعا عنيفا وكان حديث شستياكوف بوجه خاص موفقا كل التوفيق فقد استطاع المؤلف أن يمزج فيه بين طباع الخدم و «الثقافة» في عبارات تمثل هذا النوع من الناس تمثيلا صادقا ولا تسمع الا من أمثالهم كقوله : « يا لها من دعابة عميقة الاغوار ! »

ولا تكاد قصص تشيكوف تخلو من تصوير ما في نفوس المثقفين الموظفين من ذل ومهانة . ففي قصته « السيدة صاحبة الكلب » نراه يكشف عن طبيعة تلك السيدة بعبارتين قصيرتين احداهما على لسانها لولاهما لظلت مجرد امرأة في زحمة الطريق فتقول : « لا شك أن زوجي رجل شريف محترم ولكنه مع ذلك فيه طباع الخدم ومع اني لا أدري كنه عمله الحكومي فاني أعرف حق المعرفة انه خادم ؟ .

ويعود زوجها الى المدينة حيث تقيم ويراه جوروف معها في المسرح ويقول عن ذلك :

« كان فى صحبة انا سيرجيفينا رجـل طويل نحيـل ذو شارب صغير . وكان يهز رأسه فى كل خطـوة كأنما يحيى انسانا ما . لا بد أن يكون هذا هو زوجها الذى قالت عنه ذات يوم فى ثورة وغضب انه خادم . والحق انه كان يشـبـه الخدم الى حد بعيد بقوامه النحيل وشعر عارضيه القليـل والبقعة الصلعاء الصـغيرة فى قمة رأســـه . وكان يبتسم ابتسامات راضية بينما تتألق على صدره شارة لاحـدى الجمعيات العلمية تشبه ما يلبسه الاتباع من شارات فوق أزيائهم . ولتلك الشارة دلالة كبيرة فى القصة فان قارئها حين يتتبع بخياله أولئك الســادة وهم يرقون سـلم المسرح أو يهبطون منه أثناء الاســـتراحة ويرى على صـــدورهم تلك الشارات المختلفة يدرك انهم جميعا اتباع يمكن أن يسلكوا ذلك السلوك المهين الذى رأيناه من المثقفين فى قصة « القناع » لو وجدوا فى الظروف نفسها . فلم تكن كل ثقافتهم ووقارهم ورتبهم الا قناعا لا يكاد يخفى حقيقة طبعهم الوضيع . وقد مزق تشيكوف عنهم ذلك القناع كما فعل جوجول فى قصـــته « غرفة الاستقبال » التى حشد فيها الاتباع جنبا الى جنب مع الارستقراطيين من موظفى بطرسبرج . والحق أن كثيرا من روائع تشيكوف الساخرة مثل « موت موظف صـغير » و « البدين والرفيع » و « تزكية لا بد منها » و « الحرباء » و « جندى البوليس بريشبييف » .. كلهـا يمـكن أن تقرن الى أعمال شدرين وجوجول الساخرة . ومما هو جـدير بالملاحظة أن تشـــيكوف يلجأ عن وعى فى ســـخريته بتلك الشخصيات الى شيء من المبالغة . فلا شك أن موت ذلك الموظف الصغير من الخوف لانه تصادف أن عطس على رأس الجنرال الاصلع صورة كاريكاتورية قصد بها تشـيكوف أن يبرز واقع الحياة بما فيــه من مهـانة ووضـاعة . على أن سخرية تشيكوف تبلغ قمتها فى قصتيه «الحرباء» و « جنـدى

البوليس بريشبييف » . وقد ظهرت القصة الاخيرة فى المجلة وتحت عنوانها هذه العبارة : « مشهد من الحياة » مما يوحى بأنها لا تعدو أن تكون مجرد وصف من الاوصاف المعتادة لجندى متقاعد من رجال البوليس مولع بتعليم « العامة الجهلاء » . ولكن « هذا المشهد من الحياة » قد رسم صورة لشخصية كلاسيكية احتلت مكانا مرموقا بين أشهر الشخصيات الروسية والعالمية فى الادب الساخر . فاصبح بريشبييف فى شهرته الذميمة هذه كشخصيات جوجول الشهيرة من امثال سوباكيفتش ونوزدريوف . ومع ذلك فان بريشبييف ليس شخصية فى مسرحية أو رواية طويلة بل شخصية فى قصة قصيرة بالغة القصر . وهكذا أصبحت « البريشبييفية » رمزا للجهل والغرور . والتسلط الاحمق والرغبة فى امتهان كل كرامة أو موهبة انسانية ، وقد رأى معاصرو تشيكوف فى بريشبييف الى جانب هذا رمزا لكل القوى الرجعية فى ذلك العصر ، تلك القوى التى كانت تعمل على أن « تجمد » الحياة فى وطنهم . وان المرء ليعجب من تلك الاستاذية التى بلغها مثل ذلك الكاتب الشاب ، ولكن حبه للحرية وبغضه للطغيان قد مكناه من ان يبلغها فى حدود ذلك الاطار الفنى المتناهى فى الصغر .

وكل ما يمكن ان يقال عن النماذج البشرية التى خلقها جوجول يمكن أن يقال أيضا عن نماذج تشيكوف . فهل كان كل الاقطاعيين مثلا على غرار بلوشكين (١) فى الحقيقة ؟ . انهم بلا شك لم يكونوا جميعا كذلك . ومع هذا فان جوجول بتصويره لبشاعة تلك الشخصية وسخريته منها قد استطاع أن يقدم الينا فى عمل فنى بالغ القسوة شخصية نموذجية تمثل جوهر ما كان فى النظام الاقطاعى من فساد وتعفن .

(١) بلوشكين اقطاعى من شخصيات رواية جوجول «أرواح ميتة» . وقد أصبح اسمه رمزا للبخل .

بمثل هذا يمكن أن يقال عن بريشبييف ، فلم يكن كل رجال البوليس على هذه الشاكلة ولكن هذا المتفرد قد استطاع أن يجسد روح نظام البوليس بكل عسفه ورجعيته .

وكذلك يمكن ان تقف قصة « الحرباء » جنبا الى جنب مع أعمال جوجول وشدرين . فبطلهـا يمثل كما تمثل شخصية بريشبييف روح ذلك العصر وما فيه من انتهازية وانحراف وعبودية . وهكذا أصبح اوشوميلوف رجل البوليس العادى شخصية نموذجية ذات دلالة اجتماعية كبيرة .

وقد كتب تشيكوف ذات مرة الى ليكين يقول انه يغبطه لانه سبقه الى الحياة فشهد العقد السادس من القرن حين كان الكاتب يستطيع أن يتنفس بمزيد من الحرية دون رقيب يؤول كل كلمة يكتبها وحين كان الادب الساخر يستمتع بجو طليق . ولا شك أن تواضع تشيكوف لم يتح له أن يقدر انتاجه حق قدره . فقد اعاد بهذا الانتاج فى ظل ارهاب بوبيدونوستيف الى الادب الروسى الساخر كل تقاليده المجيدة . واستطاع فى مجلتى ستريكوزا ورازفلشينا ان « يزعزع النظام الاجتماعى » على حد تعبير رقباء بوبيدونوستيف . وبهذا أصبح تشيكوف حتى فى أولى سنوات انتاجه رمزا لقوة الشعب الروسى المعنوية ورمزا للادب الروسى الذى أمكنه حتى فى ذلك العصر الحالك أن يشق طريقه تحت أقسى الظروف ليمضى فى كفاحه ضد الكذب والظلم وليقيم فى المجتمع دعائم الحق والحرية .

وتتضمن تلك الفترة المبكرة من حياة تشيكوف الفنية الى جانب القصص الخالصة للفكاهة الساخرة أعمالا أخرى تختلط فيها الفكاهة بالمهزلة والسخرية والمأساة فى نسيج فنى متكامل ويعبر فيها الكاتب بمجرد بسمة حزينة عما فى

الحياة اليومية من مفارقات وبشاعة ووضاعة وسوقية .
ويمكن أن نجد مثالا لذلك فى « حفلة الزفاف » وهى مسرحية من فصل واحد استغل فيها المؤلف قصة كان قد كتبها قبل ذلك بعنوان « جنرال فى حفلة زفاف » . ويمكن ان نطبق على هذه المسرحية ما كتبه تشيكوف عن الطريقة الفنية التى اتبعها فى مسرحيته « ايفانوف » : لقد ختمت كل فصل كما لو كان قصة قصيرة . فكان الفصل يسير هادئا منتظما ثم يواجه المشاهد فجأة بلطمة تذهله » . وعلى هذا النحو كانت خاتمة « حفلة زفاف » حين يتكشف لنا سر دعوة ريفنوف كارلوف الى تلك الحفلة . فقد قبل هذا الجنرال حضور الحفل لانه كان يشعر بالوحشة فى بيته . ولكن يدرك فجأة ان أصحاب العرس لم يدعوه دعوة عادية بل « استأجروه » ليحضر الحفل نظير خمس وعشرين روبلا كانوا قد دفعوها الى شاب ليسلمها اليه حتى يكون فى حفلهم احد الجنرالات . وفى وسط هذه الدوامة من السوقية والابتذال العجيبين لا نسمع شيئا يدل على أى شعور انسانى الا فى هذه الكلمات القليلة « يا للشناعة ، يا للوضاعة

أن يهان رجل فى مثل سنى على هذا النحو ــ أن يهان بحار وضابط عظيم بهذه الصورة . ما أبشع هذا وما أشنعه ! » .

وقصة « جنرال فى حفلة زفاف » أضعف من المسرحية من الناحية الفنية فقد اكتفى المؤلف فيها بسرد مشاعر الجنرال فى قوله : ــ

وحول الرجل العجوز بصره من وجه اندريوشا الذى علته حمرة الخجل الى وجه مضيفته فأدرك كل شىء وزال من رأسه فجأة كل أثر للخمر .. ونهض من المائدة فجر خطاه الى الصالة وارتدى معطفه وخرج ولم يشهد بعدها حفلة زفاف قط .

أما فى المسرحية فقد ابرز المؤلف شعور الجنرال بالمهانة

ومغادرته للمائدة وما اعتراه من حيرة من خلال الحركة المسرحية الناجحة ومن خلال تصويره لما حدث فى الحفل بعد ان غادره الجنرال . فقد بلغ فيه السخف والغلظة السوقية أشدهما منذ تلك اللحظة ونسى الحاضرون ما لقى كائن انسانى من هوان فى غمرة الضجيج الاحمق وكأن شيئا نابيا لم يحدث منذ لحظة . وتسأل أم العروس الشاب الذى كان قد أخذ على عاتقه ان « يستأجر » الجنرال عما فعل بالخمسة والعشرين روبلا . وفى هذا الموضع من القصة يتضرج وجه الشاب خجلا حين يكتشف أمر خدعته وانه قد استولى على النقود لنفسه ، أما فى المسرحية فانه لا يشعر بأى حرج بل يكتفى بأن يحاول صرف الحاضرين عن حديث « لا ضرورة له » وان يغرق ذلك الحديث فى ضجة الحفل :

نيوتين : ما فائدة الكلام فى مثل تلك التوافه ؟

أمن الحتم ان تفسدوا متعتنا بما لا طائل وراءه ؟ (فى صوت عال) فى صحة الشباب ! هيا أيها العازفون ـ اعزفوا عاليا ! (تعزف الاوركسترا مارش) فى صحة الشباب !

زميوكيتا : انى أختنق ! أريد هواء طلقا ! لا أستطيع ان أتنفس بجوارك ! يالك (فى مرح بالغ) يا لك من امرأة عظيمة امرأة عظيمة !

(ضجة عامة)

صديق العريس ـ (محاولا أن يسمع الحاضرين صوته فى خلال الضجة) سيداتى سادتى ـ فى هذا اليوم ...

ويكاد يسمع المشاهد فى موسيقى المارش انتصار الجهالة والغباء يغرق الحديث المحرج عن « التوافه » فقد كان فى الموسيقى نفسها شىء من ذلك الغباء المرح .

وكان تشيكوف كثيرا ما يحمل بعض الكلمات او الشخصيات او الظروف معانى مزدوجة . وكلمة « التوافه » فى مسرحيتنا

هذه من ذلك القبيل فانها من ناحية تشير الى الخمسة والعشرين روبلا التى استولى عليها الشاب وتشير من ناحية أخرى الى ما لحق الجنرال من اهانة . وقد كانت الناحية الاولى فى نظر الشاب وأم العروس وسائر الحاضرين أهم بكثير من تلك الاهانة ، فانهم قد ذكروا على الاقل مبلغ الخمسة والعشرين روبلا على حين لم يشر أحد منهم بكلمة الى انصراف الجنرال فقد كان انصرافه شيئاأدنى من التوافه ... لا شيء على الاطلاق .

وهكذا نرى ان خاتمة المسرحية الصغيرة كانت أقوى من خاتمة القصة القصيرة . وليس معنى هذا ان الجنرال نفسه كان فى المسرحية شخصا أفضل منه فى القصة . فقد كان سلوكه فى الحفل على جانب كبير من السخف فنراه يكاد يذوب من التأثر لانه لقى هناك أحد البحارة ، ونراه يتخيل انه بين أصدقاء حقيقيين ، وتدفعه أثرة الشيخوخة الى أن يحتكر الحديث طول الوقت فى عبارات غامضة تميز طريقة خاصة فى الكلام . ومع ذلك فان هذا السلوك بعينه هوالذى يخلع على المسرحية طابعها الفكاهى . ويبرز المؤلف تحذلق الطبقة المتوسطة وقيمها الخلقية عن طريق هذين التيارين المتوازيين ، تيار العبارات الغامضة المضحكة التى كان يتفوه بها الجنرال وتيار المغالاة فى مظاهر الاحتفال كما تتمثل فى الانخاب الكثيرة التى أعدت من قبل . ومع ذلك فقد كان الجنرال ـ بكل سوءاته ـ انسانا له عواطفه ومشاعره التى تمثل ما فى النفس الانسانية من كرامة .

وفى مونولوج « أضرار التدخين » يتناول تشيكوف ذلك الموضوع المطروق ـ شخصية الزوج المغلوب على أمره ـ فيحيله الى ما يكاد يرتفع الى مستوى المأساة . فان الزوج رغم ضعف ارادته ورغم ما يلقاه من زوجته من سوقية صارخة جعلته انسانا لا شخصية له ، لايزال يشعر أنه

« فوق كل هذا » ، ونراه يذكر « انه كان من قبل شـابا ، ذكيا ، يذهب الى الجامعة وتنطوى نفسه على آمال عراض» ونستطيع أن نجد فى تلك الشخصية ملامح من « الاخـوات الثلاث » .. فنحن نسمعه يقول مثلا : أين الان كل ذلك ؟ اين ماضى حين كنت شابا مزحا ذكيا ، حين كنت أحلم أحلاما كبيرة وأفكر افكارا نبيلة ، حين كان الحاضر والمستقبـل مشرقين بمـا فى نفسى من أمل ؟ » وتذكرنا تلك العبـارات بمثيلات لها فى مسرحية تشيكوف . وكذلك كان هذا الرجل كما كان ايفان ايفانوفتش فى « الاخوات الثلاث » طالبـا فى الجامعة من قبل ، بل لقد كان يطمع فى أن يكون اسـتاذا فى الجامعة . ولكنه صار ـ كما صار ايفـانوفتش ـ « زوج امرأته » تلك المرأة التى كانت تشبه زوجة ايفان كل الشبه بوقاحتها وغبـائها وعدوانها السـوقى ، امـرأة « كالوحش المفترس » كما وصفها ايفان . وقد انتهى الامر بالرجلين الى مصير متشابه فأصبح كل منهما ألعوبة فى يد زوجته وفقد كلاهما شخصيته وانسانيته .

وفى قصة « ضجة » نصـادف شخصـية تشـبه هاتين الشخصيتين متمثلة فى نيكولا سيرجيفيتش الذى كان عجينة طيعة فى يد زوجته كذلك . ونستطيع أن نرى فى زوجتـه فيدوسيا نيوخينا اختا روحية لنتاليا ايفانوفا فى « الاخوات الثلاث » ولمدام نيوخينا فى مونولوج « اضرار التدخين » . فقد كانت غليظة الاحساس حادة الطبع مستبدة سـوقية الحديث ، فأمكنها بذلك كله ان تستولى على كل ما كان لدى زوجها الضعيف الارادة من ثروة . ونستطيع ان نجد نموذجا من صفاتها الذميمة هذه فى ذلك التفتيش الذى أمـرت باجرائه فى البيت بحثا عن حلية كانت قد فقدتها . وقـد دفعتها غلظة احساسها الى ان تأمر بتفتيش غرفة ماشـنكا المربية الشابة تلك الفتاة الخجول الحالمة التى لم يـكن قـد

.مضى على فراغها من دراستها الا زمن قصير . وحين يدع الزوج زوجته في وجل على تعريضها المربية لهذا الهـــوان تجيبه زوجته بقولها :

ـ « انا لم أقل أنها سرقت الحلية . ولكن اتستطيع انت ان تقول على وجه التأكيد انها لم تسرقها ؟ انى لا اثق بهؤلاء المثقفين المعوزين ثقة كبيرة . »

ـ لم يكن ينبغى ان تفعلى هذا يا فيدوسيا . حقا ما كان ينبغى لك هذا ـ عذرا يا فيدوسيا ولكن القانون لا يخول لك ان تفتشى الناس

ـ لست أعرف شيئا عن قوانينكم هذه ، كل ما أعرفه ان حليتى قد اختفت وأريد ان اعثر عليها ! ثم تقرع الزوجة بشـوكتها على طبقها وتقول وقـد التمعت عينـاها ببريق الغضب :

ـ خير لك أن تأكل عشاءك وتشغل نفسك بما يهمك .

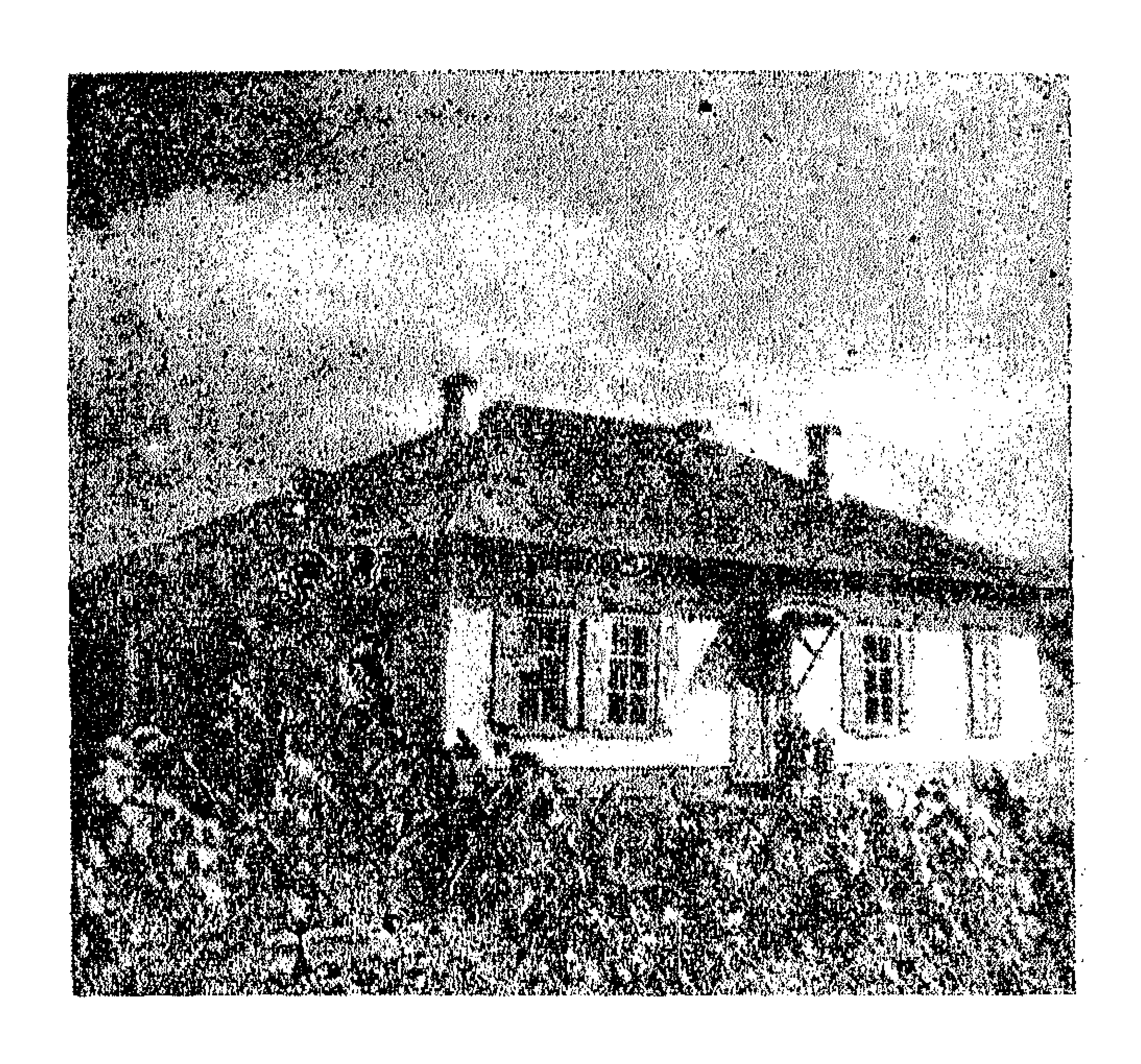
ولم يزد نيكولا على ان خفض بصره وتنهد فى أسى .

والحق ان هناك اوجه شبه كثيرة بين فيدوسيا فاسيليفينا وناتاليا ايفانوفا . فنحن نسـمع ناتاليا تقول لانفيسـا التى نشأت الاخوات الثـلاث فى رعايتها وعمـلت فى خدمتهن فى البيت ثلاثين سنة حتى بلغت الثمانين :

كيف تجرؤين ان تجلسى فى حضرتى ؟ انهضى ، اغربى عن وجهى ! »

وحين تؤنبها أولجا على تلك الغلظة وقد اسنولى عليهـا الذهول وتقول انها لا تطيق ان يعامل اى انسان هذه المعاملة القاسية لا تستطيع ناتاليا ايفانوفا حتى ان تفهم ما تقول . وينتهى المشهد بما يمثل روح فيدوسيا فاسيليفنا :

ناتاشا ـ لابد أن نصل الى اتفاق يا أولجا . أنت تعملين فى مدرستك وأنا ارعى شئون البيت . فاذا وجهت كلاما ما الى الخـــدم فان ذلك يعنى انى أفهم ما اقول . انى افهم ما اقول . . ! هذه اللصة العجوز ـ هذه العجوز الخبيثة ! (تضرب الارض بقدميها) هذه الساحرة لابد ان تخرج من هنا غدا ! واياك ان تعارضينى ـ اياك ان تجرؤى !



المنزل الذى عاش فيه تشيكوف سنة ١٨٩٠
فى ألكساندروفسك ـ شاخالنسكى ..

وليست مدام نيوخينا وناتاليا وفيدوسا فاسيلفنا الا نماذج من نمط واحد وصورة لما كان للسوقية من سلطان رهيب فى حياة المجتمع حينذاك ، تلك السوقية التى كانت تدمر كل ما هو حى انسانى نقى . وهكذا اصبح مبدأ تشيكوف الفنى ان يمزج الفكاهة بالسخرية فى بناء درامى يفيض بروح المأساة . وقد بدأ تشيكوف حياته الادبية ككاتب فكاهى ساخر وختمها على هذا النحو بمسرحيته الكوميدية الرائعة « بستان الكرز » وقد ظل دائما مخلصا لملكته الفنية الفكاهية الساخرة . لذلك كان تقسيمنا أعماله الى ثلاثة ألوان شيئا تعريبيا لان تلك الالوان كثيرا ماتلتحم فى نسيج واحد متكامل .

الكاتب الكبير

فى ربيع ١٨٨٦ وقع فى حياة تشيكوف حادث كان له أعظم الاثر فى تطور احساسه بمسئوليته ككاتب فقد جاءه خطاب من الكاتب الجليل جريجوروفتش مؤلف كتاب « انطون البائس » ذلك الكتاب الذى ظفر فى وقته بشهرة عظيمة ، وصديق كثير من مشاهير الكتاب حينئذ من أمثال بلنسكى ودستيوفسكى . وقد حيا الكاتب فى خطابه نبوغ تشيكوف وعبر عن تحمسه الشديد له وأوصاه ان يحترم موهبته ولا يبددها فى التفاهات ، وان يدخر طاقته « لاعمال ادبية حقيقية » وتنبأ له بمستقبل عظيم .

وقد عرفنا كيف كان تشيكوف ينظر الى أى عطف يظفر به كأنه شيء غير مألوف ، وعرفنا كذلك كيف كان يحس بالوحدة وكيف كان ينظر الى كتاباته فى شيء كبير من التواضع يصرفه عن ادراك قدرها الحقيقى . وها هو ذا الآن كاتب معترف به من الجميع يرسل خطابا يفيض بالعطف الابوى اليه وهو الكاتب العادى الذى لم يزد على كتابة نتف من الادب الفكاهى . فلا عجب أن كان لذلك الخطاب اثر هائل فى نفسه . وأجاب عنه بخطاب جاء فيه :

عزيزى المحبوب ، يا رسول السماء

لقد كان لخطابك وقع بالغ فى نفسى ، حتى لقد كدت ابكى من شدة التأثر — لقد نفذت كلماتك الى صميم قلبى حتى لاسير الآن بين الناس كالمأخوذ . ولست أستطيع ان اعلم ان كنت حقا أستحق منك كل ذلك التقدير العظيم ولكنى أكرر أن ذلك التقدير كان مفاجأة مذهلة لى .

واذا كنت حقا كما تعتقد صاحب موهبة تستحق الاحترام فانى اقدم امام قلبك النقى مشاعر التوبة والندم لانى لم احترم تلك الموهبة . لقد كنت أشعر أن لدى بعض الموهبة ولكنى لم اكن اظن انها ذات قيمة كبيرة فان بعض الاسباب الخارجية المحضة تدفع بالمرء أحيانا الى ان يظلم نفسه ويشك فى قدرها اشد الشك . وفى حياتى كثير من تلك الاسباب . فطالما أثار فى نفسى الشكوك فى قيمة ما اكتب كل من حولى من الناس ونصحونى الا أهجر مهنتى الحقيقية فى سبيل تلك الكتابات العادية . ومع أن لى فى موسكو مئات من الاصدقاء من بينهم كثير من الكتاب فانى لا اذكر ان واحدا منهم يقرأ كتاباتى أو ينظر الى كفنان .. وقد استقر فى نفسى خلال تلك الخمسة أعوام التى قضيتها فى التنقل بين مكاتب الصحف . ان أدبى ليس ذا قيمة كبيرة وأصبحت اومن برأى من كنت ألقى من الناس هناك من أن قصصى ليست من طراز غير عادى . هذا هو السبب الاول . أما السبب الثانى فهو انى أهتم بمهنتى كطبيب اهتماما كبيرا فانا لذلك موزع بين الادب والطب . وقد ذكرت لك كل هذا لا لابرىء نفسى لديك من خطيئتى الكبيرة ، فقد كنت حتى الآن لا أولى فنى ما هو جدير به من عناية واخلاص . ويعلم الله لم كنت أحاول جاهدا الا اتبسط فى رسم الشخصيات والاجواء الحبيبة الى نفسى ؟ ولم كنت أخفيها وأسد أمامها الطريق الى الظهور .

ثم يقول جوابا على نصيحة جريجوروفتش بألا يبدد ملكته فى التفاهات والادب الفكاهى الرخيص ولو جاع فى سبيل ذلك : « ليس يهمنى أن أجوع . فطالما جعت من قبل . ولكن الامر لا يخصنى وحدى» .

ولم يقل لجريجوروفتش انه كان العائل الوحيد لاسرة كبيرة وانه لم يكن يرضى أن يفرض عليها الجوع والحرمان .

وقد قسى تشيكوف فى هذا الخطاب على نفسه قسوة بالغة كعادته . ولا بد لنا ــ ونحن نعلم عنه هذه النزعة ــ أن ننظر الى ذلك الخطاب نظرة ناقدة ولا نأخذ كل ما جاء فيه مأخذ التسليم . ولا ينبغي أن ننسى أن تشيكوف كان قبل أن يجيئه هذا الخطاب قد أبدع كثيرا من الروائع وبلغ احساسه بمسئوليته ككاتب حدا بعيدا من النضج .

وقد جاء خطاب جريجوروفتش فى وقت كان تشيكوف قد بدا يدرك بالفعل حقيقة موهبته الفنية الخالقة . ولعل أهم ما جاء فى جوابه تلك العبارة التى يعترف فيها بأنه كان يحتفظ عن غير وعى بأحب الصور والشخصيات الى نفسه لمستقبل قد يجىء بعد . وهذا دليل على انه كان قد بدأ يحس بما لديه من موهبة وامكانيات كبيرة . فالخطاب فى الحقيقة لم يزد على أن وضح ما كان قد بدأ هو يحس به وقوى من ايمانه بملكته وفنه .

وفى عام ١٨٨٥ بدأت تظهر قصص تشيكوف التى لم تعد الفكاهة أبرز صفاتها . ومنذ عام ١٨٨٧ اختفت من كتاباته القصص الفكاهية المحضة فلم تعد تظهر الا نادرا . وبدأت الفكاهة منذ ذلك الحين تلعب فى أدبه دورا جديدا . فقد كان يلجأ اليها اما لكى يبرز عنصر المأساة ويقويه واما ليصل الى نقيض ذلك فيخفف من حدة المأساة بابتسامة حكيمة مشرقة .

وهكذا دخل فن تشيكوف فى مرحلة جديدة اكتسبت فيها أعماله طابعا مكتملا ، فلم تعد الفكاهة فيها شيئا منفصلا قائما بذاته بل أصبحت تخضع لطبيعة الموضوع وبناء القصة .

ومع أن ذلك يصدق على كثير من أعماله فى المرحلة الاولى الا انه كان فى تلك المرحلة يعد نفسه كاتبا فكاهيا قبل كل شىء . أما الآن فقد أخذ على عاتقه ــ بوعى كامل ــ أن يرسم الحياة بكل الوانها ومظاهرها المختلفة وهكذا تحول انتوشا تشيكونتى الى تشيكوف .

وحتى لو فرضنا أن هذا التحول الكبير لم يطرأ على إعمال سيكوف أو تخيلنا أنه توقف عن الكتابة لسبب أو لآخر بعد الخمسة أعوام الاولى فاننا مع ذلك لن نملك الا أن نعترف بأن فنانا عظيما وساخرا ممتازا قد ظهر على مسرح الادب الروسي واختفى عن ذلك المسرح قبل الاوان . ولو استطعنا أن نتخيل أن تشيكوف لم يترك شيئا ذا قيمة فى فن السخرية وانه اقتصر على كتابة الفكاهة الخفيفة المرحة فستعترف حتى فى تلك الحالة بأن الادب الروسى قد قدم الى العالم كاتبا فكاهيا من الطراز الاول . وقد كان بونين على حق حين قال : « لو لم يكتب تشيكوف الا « موت حصان قبل الاوان » و « قصة حب موسيقار » لامكننا مع ذلك أن نقول أن ذهنا رائعا قد ومض لحظة فى سماء الادب الروسى ثم اختفى . فما يستطيع أن يبتكر فكاهة جيدة ويرويها رواية موفقة الا انسان بالغ الذكاء حاد الفكر » .

على انه كان من حظ الادب الروسى أن استطاعت موهبة تشيكوف أن ترقى الى قمم فنية جديدة وأن تظل غير راضية عما حققت ، طامحة الى التحليق فى آفاق جديدة وموضوعات مبتكرة مهمة .

ومن بين القصص الناضجة التى كتبها تشيكوف فى مرحلته الجديدة قصة بعنوان « محنة » (١٨٨٥) . وقارىء هذه القصة يجد فيها ما يجد فى قراءته أو مشاهدته لمأساة حقيقية من الحياة .

« كان الخراط جريجورى بتروف معروفا فى حى جاليتشينو بأنه صانع بارع وسكير كبير معا . وذات يوم حمل زوجته المريضة الى المستشفى ، وراح - فى خياله - يحدث امراته ويقول لها انه سيهدى الى الطبيب الذى سيمنحها الشفاء علبة سجائر فخمة من خشب الزان المنقط .

« وكان الطريق وعرا تراكمت عليه الثلوج وران عليه

الضباب . وتذكر انه عاش مع زوجته ماتريونا أربعين عاما بدت له كأنها انقضت فيما يشبه النوم المخمور ، فى فاقة وعراك وخصام . وأراد ان يقول لزوجته انه ليس فى الحقيقة على هذا الشر الذى طبع سلوكه معها خلال تلك السنوات الاربعين وأنها فى الحقيقة احب مخلوق الى نفسه . ولكن الاوان كان قد فات فان الثلج على وجهها لم يعد يذوب !

وبكى الخراط — وبدا له أن أحداث الحياة تجرى بسرعة فائقة ، فانه لم يكد يبدأ الحياة مع زوجته العجوز ويكشف لها عن قلبه وما يحمله لها من حب حتى قضت نحبها .. آه ، لو كان يستطيع أن يبدأ حياته من جديد !

ومضى فى طريقه وقد استحالت تأملاته الى حلم غائم ، ثم افاق فوجد نفسه فى المستشفى وسمع الطبيب يخاطبه بقوله :

« استودع الله ذراعيك وساقيك فقد تجمدت .. لا .. لا — لا ينبغى أن تبكى — لقد قضيت حياتك كاملة فاشكر الله عليها . لقد بلغت الستين فيما أرى ولم يعد لك فى الحياة مأرب ! »

— وامصيبتاه ! وامصيبتاه ! يا سيدى الطبيب .. وددت لو إستطعت أن اعيش ستة أعوام أخرى ! ..

— ولم ؟

— لم يكن الجواد جوادى وعلى أن أرده لصاحبه . وعلى كذلك أن أدفن زوجتى العجوز — ما اسرع ما تجرى أمور الحياة ! سيدى الطبيب ! بافل ايفانيتش أريد علبة سجائر من أجود ما لديك من خشب الزان المنقط ..

وغادر الطبيب الغرفة وهو يلوح بيده .

وفى هذه القصة البالغة القصر تمر أمام أعيننا حياة انسان بأكملها كأتم ما يمكن أن تجىء فى رواية طويلة ، وما كان أسرع انقضاؤها ! ان الخراط نفسه لم يلحظ قط انها انقضت

« ما أسرع ما تجرى أمور الحياة ! » عباره واحدة تلخص كل ما فى القصة من عناصر المأساة .

وهكذا استطاع المؤلف أن يكشف لنا فى بساطة قاهرة عن سلطان القدر الذى لا يلين وعن تلك السلسلة من الاحداث القاسية التى تتخلل طريق الحياة اليومية الرتيبة . ولا شك أن القصة تستمد قيمتها الفنية من وصفها لتلك الكوارث الفاجئة التى تطرأ على سير الحياة العادية لان تلك الكوارث هى النقطة التى تمتزج فيها الفكاهة بالمأساة فيصبحان شيئا واحدا . فالجواد يجر قدميه الى المستشفى بصورة آلية رغم أن المرأة قد ماتت ، والخراط يمضى فى تفكيره حتى تتركز أفكاره — بصورة آلية أيضا — حول علبة السجائر الفاخرة التي اعتزم أن يهديها الى الطبيب رغم أن زوجته قد ماتت ويديه قد تجمدتا من الصقيع . وفى هذه القصة الصغيرة مأساتان أولاهما موت الزوجة العجوز وفقد الخراط فجأة لساقيه ويديه . وقد أكد المؤلف فى نفس القارىء ما كانت تجرى به الحوادث من سرعة رهيبة بتلك المصيبة التى حاقت بالخراط نفسه ولما يكد يصدق مصيبته بفقد زوجته .

وقد فطن بالمين بفطرته الشعرية الدقيقة الي قيمة القصة فكتب الى المؤلف يقول : « فى اعتقادى أن هذه أحسن قصة كتبتها ، فانها صورة صادقة من الحياة تترك فى نفس قارئها أثرا غريبا هو مزيج من المتعة والحزن ، تماما كما تمتزج الفكاهة بالاسى فى حياة الناس »

وهذا المزج — أو بالاحرى الاتحاد الكامل — يتحقق فى أعمال تشيكوف ببساطة طبيعية وطريقة غير مباشرة لا يدرى القارىء معهما أيضحك أم يبكى . وقد أصبحت تلك الصفة فيما بعد اهم مميزات مسرحياته وطالما اختلف مخرجو مسرحياته وما زالوا يختلفون — حول هذا السؤال : أهذه المسرحية كوميديا أو مأساة ؟ ذلك لانهم كما قلنا لم يكونوا يدرون أيضحكون أم يبكون .

ولهذا السبب كان تشيكوف لا يهتم كثيرا بتعريف اللون الفني الذى تندرج تحته مسرحياته . فقال عن «النورس» انها كوميديا مع كل ما فيها من عناصر المأساة وسمى « الاخوات الثلاث » مأساة رغم أنه قد اعتبرها أحيانا من الكوميديا أو الفودفيل فى بعض الاحيان . فقد كان تشيكوف يؤمن بأن المأساة والكوميديا لا يمكن أن تنفصل احداهما عن الاخرى انفصالا حاسما اذ انهما فى الحقيقة وجهان لظاهرة واحدة من الحياة لها جوانبها الكوميدية وجوانبها الاخرى الحزينة . لذلك يمكن فى رأى تشيكوف أن تعد أى ظاهرة مأساة أو كوميديا فى وقت واحد .

وقد بدأ يتضح ما أحدثه تشيكوف من تجديد لا يجارى فى الاسلوب ، فى قصصه التى كتبها عام ١٨٨٥ . وهذه القصص تتميز بأن المؤلف لم يكن يلح فيها على الجانب الفكاهى الغالب على موضوعها فى الحياة بل كان يمزج فيها بين هذين الجانبين المتقابلين كما رأينا فى قصة « محنة » . ولو عدنا الى الحوار الذى دار فى تلك القصة بين الخراط والطبيب فسنرى أنه قد استحال — دون أن يدرك القارىء — من حديث بين مريض وطبيب الى حديث بين الانسان والقدر . ولنذكر ماذا طلب الخراط من الطبيب ؟ انه يضرع اليه أن يغفر له خطاياه التى اقترفها فى حياته وأن يمنحه خمس سنوات أو ست ليعيش فيها ويعمل . ويسأله الطبيب ، وقد استحال الى صورة مجسدة للقدر : (ولم ؟) كأنما كان يستطيع أن يجيب سؤل الرجل ويرد عليه عمره الذى انقضى . والقارىء لهذا الحوار لا يشك لحظة فى أن من حق الطبيب أن يغفر أو لا يغفر وأن يمنح الرجل ما طلب او يمتنع عن ذلك . ولا ريب انك اذا فكرت فى هذا كله سيجد الابتسام طريقه الى شفتيك ، ولكن أتراك تشعر فى هذا الابتسام بأدنى ابتهاج ؟ هكذا كانت فكاهة تشيكوف الآسية ،

يعمد الى الغريب او غير المألوف فيصوره ببساطة واضحة خالية من كل تأكيد أو تعبير مباشر ، فينقل بذلك صورة من الحياة على حقيقتها كأنما يريد أن يوحى الى القراء عن طريق هذه البساطة بما يقع فى حياتهم من أحداث غريبة أو غير مألوفة تحدث كذلك دون أن يحسبوا بمقدمها أو يلحظوا فى مبدأ الامر ان شيئا قد حدث من شأنه أن يقطع تيار الحياة العادى ويحطم ما ألفوه فى تلك الحياة ، تماماً كما تسلل الحزن الرهيب الى حياة الخراط فى بساطة وخفاء .

ولا شك أن تشيكوف قد بذ كل من سبقوه ، بتلك القصة المليئة على صغرها بالمعانى الفلسفية والنفسية والفنية العميقة حيث تمتزج الفكاهة بالمأساة امتزاجا يضطر القارىء الى التفكير فى أمر الحياة والناس وأمره هو كذلك وسيجد كل من يقرأ تلك القصة نفسه مدفوعا الى التفكير فى قول الخراط « ما أسرع ما تجرى أمور الحياة » .. أجل فالحياة لا تمتد الى ما لا نهاية كما كان يخيل الينا أيام الشباب وعلينا أن نعمل ، فنفعل كل ما هو انسانى مشرق بالخير قبل أن ننتهى الى مصير الخراط المسكين الذى لم يجد فسحة من الوقت ليفعل كل ما كان جديرا بان يجمل حياته ويجعلها أكثر خيرا وانسانية .

ونستطيع أن نطبق على هذه القصة ما جاء فى تحليل الرسام ريبين لقصة « العنبر رقم ٧ » وهى من أنضج ما انتجته عبقرية تشيكوف اذ كتب ذلك الفنان العظيم الى المؤلف يقول :

« ما أروع ما تتركه هذه القصة فى نفس قارئها من أثر ! ان من الصعب أن يفهم المرء كيف أمكنك أن تخلق من هذه القصة البسيطة العادية التى لا تكاد تعتمد على حادثة ما ، هذه الصورة الانسانية المؤثرة العميقة الرائعة . حقاً انك لعملاق ! »

ومن أجود القصص التى كتبها تشيكوف فى تلك الفترة قصته « موجع القلب » وفيها يروى المؤلف قصة يونا سائق

عربة الاجرة العجوز ، فقد مات ولده وخلف فى نفسه حزنا عميقاولكنه لم يجد حوله من يبثه هذا الحزن وحاول مرارا أن يتحدث بما يشعر به من أسى الى من كانوا يركبون عربته من رواد الليل فقام فى وجهه فى كل مرة سد من الاعراض وقلة الاهتمام . ولكنه كان لابد أن يزيح عن قلبه ما ينوء به وقد صور المؤلف هذا الشعور قصيرا قويا معبرا حتى ليكاد يحس القارىء احساسا جسمانيا بما كانت تفيض به نفس السائق من حزن يكاد يقتله . وفى النهاية لا يجد أمامه من يبثه بلواه الا حصانه :

« .. فلنفرض أن كان لك مهر صغير ومات فجأة ! .. الا يحزنك موته ؟ »

ويمضغ الحصان تم يصغى ثم يرسل أنفاسه على يد صاحبه .. ويتشجع يونا ويروى للحصان القصة بأكملها . والجو هنا يختلف عنه فى قصة « محنة » ، فليس هنا كارثة عنيفه ولا قضاء صارم ، ونهاية القصة تبعث فى نفس القارىء ابتسامة حزينه رقيقة . وبينما نزيد الفكاهة من حدة المأساه فى قصة «محنة» نراها هنا على النقيض تخفف من هذه الحدة وتعطى القصة طابعا موسيقيا يؤكده منظر الليل وحزن السائق الرقيق . وليس بين قصاص العالم من يدانى تشيكوف فى قدرته على تصوير الجوانب الفكاهية من الحياة بكل ألوانها العديدة وظلالها الخفية . ومع ذلك ففكاهته ذات طابع قومى واضح بما فيها من رقة وصرامة وسعة تمثل جوهر النفس الروسية .

وتنبع هذه الفكاهة عند تشيكوف من حبه العميق الدائم « للرجل العادى » كالخراط جريجورى بتروف أو سائق العربة الوحيد الحزين .

وفى عام ١٨٨٦ أنتج تشيكوف كثيرا من الروائع مثل أنيوتا وأجافيا والكابوس والضجة ، وصداقة سيد وفتاة

الكورس والمدرس وفى المحكمة ، وأعقب تلك القصص فى عام ١٨٨٧ بقصصه خصمان وبولينكا والجهل وفيروشكا و فولوديا والسعادة . .

وكانت موضوعات الكاتب الشاب تزداد كل يوم تنوعا وسعة . ويرجع ذلك الى حد كبير الى انه بعد تخرجه من الجامعة عام ١٨٨٤ كان قد زار مدينة فوسكر سبنسك ، وتسمى الآن استرا ، بالقرب من موسكو حيث كان أخوه ايفان يشتغل بالتدريس فى مدرسة المدينة . ثم تكررت زيارة تشيكوف وأسرته الى تلك الناحية وأصبحوا يمضون أجازة الصيف هناك حتى عام ١٨٨٧ . وكانوا يستأجرون لمقامهم بيتا فى ضيعة بابكينو .

وقد لعبت تلك المدينة كما لعب بابكينو دورا كبيرا فى حياة تشيكوف . فقد نبع فى نفسه هناك حبه لمناظر روسيا الوسطى ذلك الحب الذى جعل منه وصافا ممتازا للطبيعة فى الريف الروسى . وهناك عرف كثيرا من الناس على اختلاف مهنهم واعمالهم وتفتحت أمامه دنيا بأكملها من حياة الفلاحين والاطباء وملاك الارض والموظفين والمدرسين والضباط . واقبل على كل ذلك يدرسه فى حماسة وينقب من خلاله عن الحقيقة . ولم يكن تشيكوف فى دراسته هذه مجرد مراقب أو متفرج فقد اشتغل بعض الوقت رئيسا لمستشفى زيمستفو الذى لم يكن يبعد كثيرا عن فوسكر سبنسك . وقد أتاح له ذلك أن يتصل بالفلاحين اتصالا مباشرا فتكشفت أمامه حياة القرية الروسية فى تلك الايام بما فيها من مآس واستطاع بما حصل من معرفة عميقة بها أن يكتب قصصه الرائعة من أمثال « محنة » ولولا ما اكتسب من خبرة فى عمله بذلك المستشفى لما أمكنه أن يكتب قصصا كقصصه المعروفة « جراحة والهارب وحكاية مملة » وكثيرا غيرها تدور حول شخصية الطبيب والمستشفى . ولولا خبرته الكبيرة بالحياة فى تلك

الناحية لما استطاع أن يكتب قصته « القبلة » بما فيها من جو شعرى رقيق ولا مسرحيته « الاخوات الثلاث » وقد كانت كلتاهما تستلزمان معرفة كبيرة بحياة الضباط .

وكان تشيكوف يحرص على حضور جلسات المحكمة فى زفينجورود ويشهد بنفسه فى بعض القضايا ويحضر عمليات التشريح . ونذكر فى هذا الصدد قصتيه « الجثمان وعند التشريح » .

وفى بيت بابكينو التقى تشيكوف بالرسام الروسى الشهير ليفيتان وكان يشبه كاتبنا فى ولعه بمناظر الريف حول موسكو ، وقامت بينهما أواصر صداقة متينة .

وكان مستشفى زايمستفو الذى يعمل به تشيكوف تحت ادارة الطبيب المشهور أرخانجلسكى يساعده كثير من شباب الاطباء الذين أصبح بعضهم من المشاهير فيما بعد . وكان هؤلاء الشباب يجتمعون بعد الفراغ من عملهم فى حجرة استاذهم ويتناقشون فى مشكلات الادب والعلم . وفى ذلك يقول ميخائيل أخو تشيكوف : « كانوا يتحدثون كثيرا فى الآراء السياسية المتحررة ويتناقشون فى خير الانتاج القصصى والعلمى المعاصر . وكان اسم شدرين يتردد دائما على ألسنتهم . أما أعمال تيرجنيف فقد كانت تقرأ مرة بعد اخرى ! »

وقد مر ميخائيل فى قوله هذا على تلك الحقائق مرورا عابرا ولم يعلق أية أهمية عليها . ولكن هذا التحمس لشدرين وتيرجنيف والحديث عن الآراء السياسية المتحررة كانا لا بد أن يتركا أثرهما فى نفس تشيكوف . وبخاصة اذا عرفنا أن شدرين وتيرجنيف كانا من أحب الكتاب اليه منذ نشاته الادبية . وقد عرف تشيكوف خلال تلك السنوات بما لا يقبل الشك أن مهنته الادب لا الطب . ومع انه قد ادرك حقيقة ما لديه من موهبة فانه لم يكن يفكر فى الشهرة بقدر

ما كان يفكر فى مسؤوليته ككاتب يستطيع أن يؤثر فى نفوس الناس فينفعهم نفعا كبيرا أو يضرهم ضررا بالغا . وقد عبر عن احساسه هذا فى قصته « فى البيت » من خلال حديث وكيل النيابة الى نفسه بقوله :

« ما أقل الذكاء والحق واليقين حتى فى تلك الالوان من النشاط الانسانى ذات الامكانيات الكبيرة كالتعليم والقانون والادب ! .. »

ولا شك ان هذا هو رأى الكاتب نفسه عبر به عن احساسه بمسؤوليته نحـو القارىء . وقد أراد تشيكوف « بالذكاء والحق واليقين » أن يكون العمل الفنى الخالق واضحا دقيقا يتمثل فيه موقف الكاتب وآراؤه التى يريد أن ينقلها الى قرائه . وهكذا بدأ تشيكوف كفاحه الدائب ليكون لنفسه موقفا فى الحياة وايمانا بمبدأ عام . وهكذا وجد نفسه يغوص كل يوم فى أعماق الحياة أكثر من ذى قبل وأخذت براعته الفنية تنمـو نمـوا متصـلا ... وكان يقضى الخريف والشتاء فى موسكو ويزور بطرسـبرج من حين الى آخـر فجمع الى خبرته بالحياة فى المدن الريفية خبرة واسـعة بالحيـاة فى المدن الـكبرى وظهرت آثار ذلك فى قصصه تلك التى يصف فيها بأسلوبه الهادىء الموضوعى فى الظاهر جوانب الحياة فى المدينة الكبيرة بكل ما فيها من شقاء ومآس وكل ما تنطوى عليه من جروح متعفنة تكمن تحت بريق المظاهر .

وفى قصة « النوبة » يصف تشيكوف الحياة فى دور البغاء بموسكو بروح الباحث الموضوعى البعيد عن التحيز . ومع ان دستيوفسكى قد كتب عن فظائع البغاء صـفحات خالدة فى قصته « الجريمة والعقـاب » فانه لم يكن يعبـر فى تلك الصفحات عن شعوره بهذه المحنة الانسانية الخاصة بقدر ما كان يعبر عن آلام الانسانية وعما يلقاه الانسـان من مهانة بوجه عام . لذلك يشـعر قارىء دستيوفسكى بفيض من

دموع البشرية وآلام الانسانية جمعاء أكثر من شعوره ببشاعة البغاء نفسه . فالبغاء لا يرتبط في ذهن قارىء تلك القصة بصورة سونيا مارميلادوفا . أما تشيكوف فانه يتناول موضوعا خاصا ويعالج جانبا محددا من جوانب الواقع ، فيصف رتابة الحياة اليومية في دور البغاء وما فيها من آلية بشعة ارتاع لها بطل القصة الطالب فاسيلييف الذى رسم تشيكوف من خلاله صورة للكاتب جارشين بحساسيته الزائدة نحو الشقاء والألم .

(وقد كتب تشيكوف هذه القصة لكى تنشر ضمنها مجموعة من المختارات فى ذكرى جارشين) .

ولعل أروع ما فى القصة ما جاء فى وصف « أسلوب » دور البغاء وذوقها الخاص حين يقول الكاتب :

« ومضى فاسيلييف فى صحبة بعض أصدقائه الطلبة من من بيت الى بيت فرأى فيها جميعا سوقية متشابهة لا يمكن وصفها وبخاصة فى « ذوقها » الصارخ الغليظ . وأدرك فاسيلييف من نظرة الى الاثاث والملابس هناك . ان الامر ليس مجرد نقص فى الذوق ولكنه شىء يكاد المرء يسميه ذوقا أو حتى أسلوبا خاصا لشارع س . شىء لا يوجد الا هناك. شىء كامل فى بشاعته كأنما جاء عن وعى وقصد ولم يجىء بطريقة تلقائية عارضة .. وأدرك أن كل شىء هناك قد جاء كما أريد له أن يكون حتى لو ارتدت امرأة واحدة من النساء هناك ملابس جميلة أو علقت على الحائط صورة فنية ذات ذوق لفقد الشارع بأكمله طابعه الخاص . ويريد المؤلف بهذا انه لو وجد أى شىء له صفات الانسانية طريقه الى هناك ـ حيث يوطأ كل شىء انسانى بالاقدام ـ لبدا قلقا نابيا كأنما هو ذوق فاسد واهانة صارخة لاسلوب ذلك المكان . فهناك يجب أن يكون كل شىء بشعا سوقيا ثقيلا لا يذكرك بوجود حياة انسانية . ومع ذلك فان هناك أشياء انسانية وجميلة

ايضا ! ففوق هذه القذارة الكريهة التى تصفها القصة يتطاير أول ثلج يسقط فى الشتاء فيبعث الاحلام الصافية الرقيقة العذبة ، ويتساءل فاسيلييف في عجب : « كيف أمكن أن يسقط الثلج على شارع مثل هذا ؟ اللعنة على تلك البيوت »

ومنظر الثلج هنا رمز الى ما فى الحياة من نقاء وجمال وهو يذكرنا بما يمكن أن تكون الحياة عليه من صفاء ويخفف من حدة ذلك الجو الكئيب حيث تقترف ابشع جريمة ضد ذات الانسان وضد الانسانية بوجه عام . وهكذا يبدو الثلج فى أول القصة ونهايتها وكأنه اللحن الرئيسى فى مقطوعة موسيقية . فنرى فاسيلييف ورفاقه الطلبة يسيرون فى شارع تفرسكوى فى ساعة متأخرة ذات مساء وقد راح أحدهم يغنى أغنية جميلة ، ثم يبدأ الثلج فى السقوط . وكان فاسيلييف « يحب الثلج .. وضوء المصابيح على جانبى الطريق وآثار الاقدام الواضحة التى خلفها المارة على الثلج الجديد ، ويحب ما فى الهواء من شفافية وطراوة لا يجدها المرء الا مرتين اثنتين كل عام ، مرة حين يغطى الثلج وجه الطبيعة ومرة فى الايام المشرقة أو الليالى القمرية فى الربيع حين تبدأ الثلوج فى التكسر والذوبان على صفحة النهر » . ولكن هذا الجو المشرق النقى لا يلبث أن يستحيل سريعا الى جو كئيب بغيض يثير فى النفس أشد الحزن لما تراه من امتهان للحياة . وفى هذه القصة يبدو بوضوح حب تشيكوف للطبيعة وشغفه بوصف مناظرها وما كان يشيعه ذلك فى أعماله من روح شعرية جميلة .

والطبيعة تذكر تشيكوف دائما بما يمكن أن تكون عليه حياة الانسان وما يجب أن تكون عليه من جمال . وهو يتخذ من وصفها وسيلة للحكم على الحياة كما هى بما فيها من فساد وانحراف وينفذ من خلالها الى وصف الحياة كما يجب أن تكون حين ينتصر الجمال والخير فى النهاية .

ومع أن تشيكوف كثيرا ما يقارن فى أعماله بين الطبيعة وحياة الانسان فانه لا يغض قط من قدر الانسان ولا يوازن قط بين حياته التافهة العابرة وبين ما فى الطبيعة من خلود وجلال . ولكنه يقصد من خلال وصفه للطبيعة أن يذكرنا بما فى النفس من جمال دائم لا بد ـ مهما تخنقه الظروف ـ أن ينتصر فى آخر الامر . وتتجلى فى هذه القصة كذلك كثير من المميزات الهامة الاخرى لاعمال تشيكوف . ولا شك أن أهم تلك المميزات رسم المؤلف للملامح الخلقية فى شخصية البطل . فالبطل يشعر بمسئولية شخصيته نحو ما فى الحياة من فظائع ومهانات وهو بدافع من هذا الشعور لا يحاول أن يحل مشكلاتها الفردية الصغيرة فحسب بل يكافح لكى يعالج مشكلاتها الاجتماعية الكثيرة ويتطلع الى أن يغير تلك الحياة من أساسها . ولكنه فى الوقت نفسه يدرك فى مرارة ما فى نفسه من ضعف ويحس بعجزه عن أن يجيب عن هذا السؤال : « ماذا ينبغى أن أفعل ؟ » . ويدفع هذا الاحساس بأبطال تشيكوف الى اليأس والى ما يشبه الجنون أو حتى الى الانتحار كما فعلت كاتيا بطلة « حكاية مملة » حين عجزت عن أن تجد جوابا لسؤالها « ماذا ينبغى أن أفعل ؟ » . وحين أحست احساسا أليما بعجزها عن أن تجد لنفسها « فكرة عامة » تمضى على هديها فى الحياة . وكذلك انتحرت زينايدا فيودوروفنا « بطلة » قصة رجل مجهول بدافع عن هذا الاحساس .

وقد أحس فاسيلييف بأن عليه واجبا شخصيا أن يجد حلا لتلك المشكلة البغيضة ، وبدا له ـ لسبب ما ـ أن عليه أن يحل تلك المشكلة فى تلك اللحظة بالذات وبأى ثمن وكأنما كانت تلك المشكلة تخصه هو وحده دون سائر الناس .
واستجمع كل قواه ليتغلب على ما ثار فى نفسه من يأس وجلس على حافة السرير ورأسه فى يديه وبدأ يفكر فى طريقة يمكن

ان ينقذ بها كل هؤلاء النسوة اللاتى رآهن فى ذلك اليوم ..
وأدرك فى مرارة بعد أن استعرض كل ما خطر بباله من حلول انها حلول لا غناء فيها بل ليست حلولا على الاطلاق. ولنفرض انه تزوج واحدة من هؤلاء البغايا فماذا تراه يفعل من أجل مئات الآلاف الاخريات) وخطر له أن يصير واعظا يحدث الناس عن تلك القضية غير انه ما لبث أن أدرك أن الوعظ وحده لا يكفي وانه لا بد أن يقترن بالعمل . ولكن ماذا يعمل؟ ماذا ؟ ذلك ما لم يستطع فاسيلييف أن يهتدى اليه . لقد كان من هذا الصنف من الناس الذين يحسون بالظلم الاجتماعي وما يوجه الى كرامة الانسان من اهانة احساسا شديدا كأنها موجهة اليهم هم أنفسهم . وقد تحدث تشيكوف فى وصفه لملامح بطله النفسية عن فكرة جديدة ممتازة هى ما سماها « الموهبة الانسانية » فقال : « قال أحد أصدقاء فاسيلييف عنه انه كان انسانا موهوبا . والمواهب تختلف فى طبيعتها فهناك الموهبة الادبية والمسرحية والفنية ، ولكن موهبته كانت من نوع خاص ، كانت « الموهبة الانسانية » . فقد كان لديه احساس عجيب بالالم فكانت تنعكس على نفسه آلام الناس كما يعكس الممثل إشارات شخصياته ونبرات أصواتهم . وكان منظر الدموع يثير بكاءه واذا عاد مريضا شعر بآلام المرض وبدت عليه أعراضه واذا شهد اعتداء على انسان أحس بأن هذا الاعتداء واقع عليه هو نفسه فيهرع الى نجدة هذا الانسان رغم انه يحس فى داخل نفسه بخوف شديد يشبه خوف الاطفال . وكانت آلام الآخرين تخزه وتثير انفعاله فتفضى به الى حال من الغضب الجامح ! .. » وقد كان لدى تشيكوف نفسه قدر كبير من هذه الموهبة الانسانية والى هذا يعود نجاحه ككاتب وطبيب معا . ومما هو جدير بالذكر أن تشيكوف الطبيب كان يصر على أن من الضرورى الا يقتصر فحص الطبيب لمريضه على الاعراض الموضوعية للمرض وحدها بل لابد أن يتعدى ذلك الى دراسة أفكار المريض

وعواطفه وكيانه النفسي . وتلك هي النقطة التي كان يلتقي فيها تشيكوف الكاتب بتشيكوف الطبيب .

ولا شك ان فاسيلييف بهذه الصورة شخصية من شخصيات تشيكوف النموذجية وهو في الوقت نفسه ـ كما ذكر تشيكوف ـ شخصية من طراز جارشين . وقد كتب تشيكوف في احدى رسائله عن هذا الطراز فقال انه طراز يتعاطف معه تعاطفا عميقا لانه يشبهه الى حد بعيد . ومع ذلك فان هناك حدا واضحا يفصل بين تشيكوف ومن هم على شاكلة جارشين . فقد كان تشيكوف يدرك ان هؤلاء الناس مهما يبلغوا من الذكاء والجاذبية وعلو القدر لا يمكن ان يكونوا من القادة الموجهين ولا يمكن ان يصمدوا أمام حقائق الحياة البشعة . ولذلك لا يجوز ان نلتمس عندهم جوابا لهذا السؤال المهم : ماذا ينبغي ان نفعل ؟ » لانهم من « الضعف » بحيث لايستطيعون الاجابة عليه . ولا شك أن بطل « الزهرة القرمزية » التي كتبها جارشين شخصية ممتازة استطاعت أن تتشرب كل آلام البشرية ولكن ايمانه بضرورة استئصال الشر من الحياة تحول عنده الى فكرة طاغية مستبدة أعجزته عن الكفاح العملي الذي كان لابد منه لتحقيقها . أما تشيكوف فانه يبحث عن شخصيات يقترن في نفوسها العطف والالم ويدفعانها الى العمل . غير انه لم يقدر له العثور على تلك الشخصيات في واقع الحياة . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ان تشيكوف يتخذ موقفا فريدا من شخصياته الحبيبة الى نفسه فهو يعطف عليها عطفا رقيقا خجولا ولكن هذا العطف يمتزج دائما بالشك في أمرها وتصوير نقائصها مما يشيع في القصة طيف ابتسامة مريرة يبعثها ادراكه ان تلك الشخصيات لا تستطيع رغم حبه لها ان تغير شيئا من نظام الحياة القائم . وفي نهاية قصة « النوبة » مثال على ذلك . فان كل كفاح فاسيلييف

المرير وعذابه النفسي ينتهيان بأن يصف له الطبيب المورفين وغيره من المسكنات مع أنه كان قد تعاطاها من قبل .
« ووقف على افريز الشارع لحظة وقد استغرق في التفكير ثم القى السلام على أصدقائه وسار في انكسار نحو الجامعة »

وهكذا بقيت المشكلة كما هي لم تظفر بحل وستظل دائما كذلك ، وأحس فاسيلييف « بالخجل » من تلك النوبة من العطف والحماسة التي أعترته دون ان تغير شيئا أو تنتهي الى شيء . وهكذا بقي سؤاله « ماذا ينبغي ان نفعل لنضع حدا لما يقترف ضد كرامة الانسان من مهانة فاضحة ؟ » بغير جواب . ومع ان نهاية القصة غائمة غير حاسمة فانها مع ذلك قد انتهت الى نتيجة واضحة كل الوضوح اذ حكمت حكما مبرما على واقع الحياة وتضمنت مغزى مهما هو ان على الانسان ان يسعى بأي ثمن ليجد حلا لمشكلاته وان يتخذ خطوات عملية في سبيل ذلك . وليس عبثا اذن ما لقى فاسيلييف من عذاب نفسي ولا ما يلقاه غيره من ذوي «الموهبة الانسانية » من عذاب . صحيح أن نظام الحياة الفاسد لن يتغير على أيديهم ولكن آلامهم وبحثهم عن الحل الصحيح وسعيهم الى العمل وادراكهم الا جدوى من الحلول الفردية الصغيرة كل ذلك له أبلغ الاثر في تطور المجتمع نحو الحل النهائي لمشكلاته الرئيسية .

لقد أحب فاسيلييف وأمثاله الانسانية حبا صادقا يشعرون به في صميم أنفسهم ولا يكتفون معه بالحديث عن النظريات بل يفكرون تفكيرا جديا في العمل . وهم في هذا يخالفون كل المخالفة شخصيات دستيوفسكي الذين يعبدون الآلام البشرية عبادة عاطفية محضة !

وقد تساءل استروف في مسرحية « العم فانيا » :

« ... ترى هل سيذكرنا بخير اولئك الذين سيعيشون بعدنا بمائة عام أو مائتين ويقدرون لنا ما بذلنا لكي نمهد لهم

الطريق ؟ » ولا شك أن الجواب على هذا السؤال سيكون بالايجاب لو سأله فاسيلييف وأمثاله ممن رزقوا « الموهبة الانسانية »

هذا من حيث موضوع قصة « النوبة » أما من حيث شكلها فحسبنا ان نقول ان أحدا غير تشيكوف لم يكن ليستطيع أن يجمع فى صورة واحدة بين أغلظ جوانب الحياة وأشدها قتامة وبين رقة الشعر واشراق الموسيقى . وقد كتب تشيكوف الى الشاعر بليشييف يقول عن هذه القصة « انها قصة لا تصلح قط للقراءة بجوار المدفأة . فهى بعيدة كل البعد عن ذلك الجو الشاعرى » . ولكنه لم ينصف قصته بهذا القول . فانها ـ كقصة ذات طابع موسيقى عميق بما فيها من تصوير شعرى لمنظر المدينة فى الليل وسقوط الثلج الابيض النقى .

ولا شك ان تشيكوف قد أحس بما فى موضوعه من جدة و « غلظة » اذا قيس بموضوعات ترجنيف وغيرها من الاعمال الادبية التى اصطلحنا على تسميتها بالادب « الارستقراطى » ولسنا نريد بهذه الكلمة ان هذا الادب كان يدافع عن مصالح الارستقراطيين الضيقة ولكنا نريد انه نبع وتطور فى ضياع الاقطاعيين والسادة .

وقد كان موقف تشيكوف من أدب « تيرجنيف موقفا معقدا كل التعقيد . كان يعجب به ويخالفه فى الوقت نفسه . كان يعجب بما فيه من شعر وموسيقى وأسلوب أنيق ولكنه لم يرض عن موضوعاته البعيدة عما كان يحبه تشيكوف من تصوير لحياة الطبقة الدنيا بما فيها من قتام و « غلظة » .

ومع أن تشيكوف لم يعد ينشر قصصه فى تلك الفترة تحت اسم انتوشا تشيكونتى فانه لم يتخل عن القيم الفنية التى حققها فى كتاباته الاولى بمجلة اوسكولكى بل ظل وفيا لاسلوبه الفنى الذى ابتكره لنفسه ، ولم يكتف بالمحافظة على

شعاره القائل بأن « الايجاز قرين النبوغ » فحسب بل زاد ايمانه به الى حد كبير فأصبحت كتاباته أكثر اختصـــارا ومغزاها أشد عمقا ، وازداد أسلوبه فى الوقت نفسه وضوحا وصفاء .

وقد ابتكر تشيكوف طريقة جديدة فى وصف المنـــاظر الطبيعية فنبـذ منهج تيرجنيف الذى يعتمــد على الوصف الكامل المفصل واستعاض عنـــه بالاكتفاء بصـــفة واحدة أو ميزة بارزة . وقد أوضح هذا المبدأ فى رسالة بعث بها الى أخيه الكساندر قال فيها ان الكاتب يستطيع بمجرد اشارة الى ما تلقيه عجلات الطاحونة المائية من ظلال وما يلتمع على زجاجة مكسورة فوق سد الطاحونة من ضوء أن يرسم صورة الليلة قمرية . وهذا هو عين ما فعله الكاتب فى وصفه لليـلة مقمرة فى قصته « الذئب » . وفى مسرحية « النـــورس » نستمع الى الكاتب الشاب تريبليف يعبر عما كان يشعر به من غيرة نحو تريجونين الكاتب الناضج بقوله « لقد ابتـدع تريجونين لنفسه منهجا خاصا فى الكتابة . والكتابة لذلك شىء يسير لديه . فتراه يصف التماع الضوء على زجاجة مكسورة وانعكاس الظل من عجلة الطاحونة المائية واذا بك أمام صورة كاملة لليلة مقمرة .. »

وكذلك نبذ تشيكوف الطريقة التقليـدية فى تقـــديم الشخصيات بذكر تاريخ حياتهم الكامل وحياة آبائهم وحتى أسلافهم فى بعض الاحيان قبل ان تبدأ تلك الشخصيات فى الظهور من خلال أحداث العمل القصصى . فأبطال تشـيكوف يفصحون دائما عن انفسهم من خلال العمل والحركة ، أو من خلال الافكار والعواطف المتصلة اتصالا وثيقا بهمـا على الاقل . وكاتبنا من هذه الناحية من أشد الادباء محـافظة على تقاليد المذهب الموضوعى الذى يعتمد فى دراسة النماذج

الانسانية على سلوك تلك النماذج وتصرفاتها . وهكذا خلق تشيكوف منهجا جديدا فى القصة . ومع انه كان يدرك حقيقة ما قام به من تجديد وما أدخله على الادب من أساليب مبتكرة فقد ظل ينظر الى قيمته ككاتب نظرة فى غاية التواضع . ففى عام ١٨٨٨ منحته اكاديمية العلوم نصف جائزة بوشكين على مجموعة من القصص كان بعضهم قد ارسلها الى الاكاديمية دون علمه . وكتب اليه لازاريف جروزنكى الذى فاز بنصف الجائزة الآخر يهنئه فرد عليه تشيكوف برسالة جاء فيها :

« لا شك ان هذه الجائزة ذات قيمة كبيرة لا بالنسبة الى وحدى بل بالنسبة الى سائر الكتاب . ويسعدنى انى قد مهدت الطريق أمام الآخرين لكى يكتبوا أدبا جادا . ويزيد من سعادتى ان نيلى لتلك الجائزة قد جعلهم أكثر أملا فى الظفر بها كذلك . ولا شك ان كل ما كتبته سينسى بعد خمس سنوات أو عشر ولن يبقى الا ما مهدت من طريق . وهذا هو كل مالى من فضل » .

فهو هنا يرى ان كل ميزته انه استطاع أن يدفع المجلات الشهرية الى ان تفتح صفحاتها للقصة القصيرة « الشعبية » وقد كانت هذه المجلات قبله تنظر الى تلك القصص نظرة ازدراء وتعدها تافهة غير أدبية . ولاشك أن تشيكوف كان على حق فيما ذكر عن ميزته تلك . ولكنه كان متواضعا على عادته فلم يذكر خدمة اسمى قدمها الى الادب الروسى والاداب العالمية حين جعل للقصة القصيرة الصغيرة اعتبارا لا يقل عن اعتبار الاشكال الادبية الكبيرة .

وبذلك كله أصبح تشيكوف خير مصور لطبقة المثقفين الشعبيين ذوى النزعات الديمقراطية فى روسيا ، تلك الطبقة التى ظهرت وتطورت مع نشأة النظام الرأسمالى وتطوره السريع . ففى أعماله تنعكس أحوال تلك الطبقة بقوتها

وضعفها ، فنرى من ناحية ما كان لديها من ميول ديمقراطية صادقة وبغض للطفيليات التى تعيش على أعمال الآخرين ، وانصراف عن خدمة مصـالح الاقطاعيين والارستقـراطيين والبرجوازيين ، ونرى من ناحية أخرى انحراف تلك الطبقة عن طريق الثورة ، ذلك الانحـراف الذى يميز المثقفين من البورجوازية الصغيرة وينتهى بهم دائما الى الخضـوع للنظريات الانسانية المجردة .

والحق أن تشيكوف كان فى تلك الفترة قد سبق هـؤلاء المثقفين الى التطور فى نواح كثيرة . وقد قال جوركى فى هذا الصدد :

« لقد كان الكتاب الروس القدماء أوسع أفقا من معاصريهم من المثقفين وكانوا أصدق رأيا من تلك النظريات السياسـية التى كان يؤمن بهـا هؤلاء المثقفون » . وهو قـول ينطبق على تشيكوف كل الانطباق .

أصدقاؤه وخصومه

كان تشيكوف كما رأينا حريصا على تصوير حياة «الرجل العادي» الذى كرس من اجله حياته وفنه وظل الى آخر عمره يشعر نحوه بمسئولية كبيرة . وقد أخذت صورة هذه الحياة تزداد دلالة وعمقا بما بلغته موهبة تشيكوف الفنية من تطور ونضج .

وكانت نزعة تشيكوف الاخلاقية والاجتماعية والديمقراطية كثيرا ما تختفى تحت سطح من الفكاهة الخفيفة المرحة ووراء ذلك الاسلوب الذى اصطنعه الكاتب لنفسه ليبدو فى الظاهر محايدا حريصا على الموضوعية كل الحرص . ولكن حب الكاتب الشديد لذلك الرجل العادى من الطبقة العاملة وازدراءه لخصومه من سوقية وفراغ وطفيلية كانا يبدوان تحت ذلك المظهر الخارجى من التحفظ والموضوعية فى كل سطر وفى كل كلمة .

ونستطيع أن نفهم منهج تشيكوف الفنى وطبيعة الشخصيات التى كان يعدها من أصدقائه وتلك التى كان يعدها من أعدائه اذا حللنا قصته « الخصمان » . وهى قصة تصور أحزان الدكتور كيريلوف والسيد ابوجين وتستمد قيمتها من التقاء مأساتى هذين الرجلين .

كان الدكتور كريلوف قد مات له ابن فى السادسة من عمره بالدفتريا فى الوقت الذى هربت زوجة أبوجين مع عشيقها . وكانت الزوجة قد تظاهرت بالمرض وارسلت زوجها الى الطبيب ثم انتهزت هذه الفرصة وغادرت البيت

وكان الحزن قد استبد بالدكتور كيريلوف فأصبحت كل

افكاره وحركاته شيئا آليا واصبح عاجزا عن التفكير والكلام.
ويصل أبوجين فجأة الى باب الطبيب فيتوسل اليه أن يرحل معه الى ضيعته ــ وكانت على بعــد كبير ــ لينقــذ زوجتــه « المحتضرة » ولكن الطبيب لا يفهم فى اول الامر مما يقول شيئا . ثم يدرك بعد ذلك قصــده فينبئه بأنه لا يستطيع الذهاب معه لان ابنه قد مات وهو لهذا لا يمكنه ان يتــرك روجته المريضة وحدها فى البيت . ويزداد أبوجين ضراعة ويرجوه ان يظهر شيئا من « البطولة » ويوافق كيريلوف فى النهاية وحين يصلان الى الضيعة يكتشف أبوجين خيـــانة روجته فيستولى عليه الذهول . ويصيح قائلا : يالها من وضاعة ، يا لها من خسة ! . ان الشيطان نفسه لم يــكن ليأتى هذه الفعلة الشنيعة . ترسلنى فى طلب الطبيب لكى يخلو لها الجو فتفر مع ذلك الافاق ! وددت لو أنهـا كانت قد ماتت ؟! لن استطيع أن انسى ذلك ما حييت !»

وكان كريلوف فى تلك الاثناء فيما يشبه الغيبوبة ، ولكن كلمات أبوجين ترده شيئا فشيئا الى صوابه ويبدأ فى ادراك معناها . » ويشد الطبيب من قامته وتطرف عينــــاه وقد اغرورقتا بالدموع . ثم يخاطب أبو جين بقوله :

« معذرة ، ولكنى أريد أن أفهم معنى كل هذا . لقد مات ولدى ، وزوجتى فى البيت وحدها تعانى غصص حزن فاجع .. وانا نفسى لا أكاد أقوى على الوقوف بعد أن امضيت ثلاث ليال لم أذق فيها طعم النوم .. وماذا أجد هنا بعد كل هذا ؟ أجدنى أقوم بدور فى مهزلة سخيفة ! .. لست أدرى ما معنى هذا كله ! »

ولكن أبوجين لا يسمع مما يقول الطبيب شيئا ويمضى فى نواحه وشكواه ويروى لكريلوف قصة حبه . وأخيرا يفيق الطبيب من غيبوبته افاقة تامة فيحس ان هقد اهــين اهانة كبيرة ويخاطب أبوجين قائلا :

« لماذا تقص على كل هذا ؟ انه شيء لا يهمني ولن أصغى اليك ! » . وعلا صوته واخذ يضرب المنضدة بقبضته وهو يقول : « لا حاجة لى بأسرارك التافهة ، كيف تجرؤ أن تحدثنى عن مثل تلك السخافات ؟ أتظن أن ما لقيت من اهانة لا يكفى بعد ؟ أتظنني خادما تستطيع اهانته بهذه البساطة ؟»
ويؤخذ أبو جين بثورة الطبيب ويتقهقر عنه وقد أخذ يحدق نحوه فى دهشة . ويمضى الطبيب فى ثورته : « لماذا جئت بى الى هنا ؟ لقد تزوجت لانه لم يكن لديك ما تفعله غير هذا واغلب الظن انك قد مثلت هذه الميلودراما للسبب نفسه ، ولكن ما دخلى أنا فى كل هذا ؟ ما دخلى فى أمورك العاطفية ؟ دعنى وشأنى ! »

ويجيب أبو جين وقد تضرج وجهه : « معذرة ، ولكنى لا أفهم معنى ثورتك هذه ! » . وهنا يجىء دور أبو جين ليخرج من تلك الحالة النفسية التى لا يرى المرء فيها الا احزانه فحسب اذ يسمع جواب الطبيب : « معناها أن من الوضاعة أن تعبث بعواطف الناس على هذا النحو .. انى طبيب وانتم تعتبرون الاطباء وغيرهم من العاملين الذين لا تفوح منهم رائحة العطر والبغاء خدما واتباعا لكم . ولك أن تعتقد ذلك كما تشاء ولكن ليس من حقك أن تتخذ من انسان معذب العوبة تلهو بها .. »

ويصيح أبو جين محتجا : « لا بد أن تكون مجنونا ! يا له من شعور غير نبيل ! انى أنا نفسى شقى معذب و .. و .. »

يردد الطبيب قوله فى ازدراء : « شقى معذب ! لا تفه بهذه الالفاظ فانك لا تعرف عنها شيئا » . ويقف الرجلان وجها لوجه وقد راح كل منهما يوجه الى الآخر أقذع السباب . ولعلهما فى حياتهما — حتى فى أحوال الهذيان — لم يتفوها بمثل تلك العبارات السخيفة الجارحة .

وقد يخيل الى القارىء انه هنا أمام قصة موضوعية الى

أقصى حد يصور فيها المؤلف انسانين متحضرين استبد بهما الحزن فدفعهما الى الانانية وجعل كلا منهما عاجزا عن أن يفهم الاخر وأثارهما الى حد السباب والمهاترة • ومع أن كلا منهما كان لديه من الاسباب العميقة ما يبرر حـــزنه فان كيريلوف كان أكثرهما حدة وبعدا عن الانصاف أثناء تلك المعركة الكلامية البذيئة • فلا شك أن اتهـــامه لابوجين بأنه قد جاء به ليلعب دورا فى مهزلة سمجة لم يكن صحيحا فقد كان أبو جين حين ذهب لاستدعاء الطبيب يعتقد أن زوجته مريضة مرضا شديدا بحق .

ومع ذلك فان كل هذا ليس الا شيئا ظاهريا وطبقة على سطح القصة تغطى دلالاتها العميقة التى لا يمكن أن تعرفها على حقيقتها الا بعد تحليل دقيق لجوانب القصة المختلفة وما فيها من لمحات شاعرية متفرقة تتضافر لتكسبها قيمتها الفنية الكبيرة . ونستطيع أن نفهم المغزى العميق لهذه القصة اذا وضعنا الصورتين اللتين رسمهما المؤلف لاحزان كيريلوف وأبو جين .

وهاك الصورة الاولى :

« لم يكن فى الحجرة هذا الجو البغيض المنفر الذى يقترن عادة بالموت . بل كان فيما يسودها من هدوء وما يبدو على الام من سكينة وعلى وجـــه الاب من ذهول روعة الحـــزن الانسانى التى تجد طريقها سريعـــا الى نفس من يراها وان عجز المرء مع ذلك عن وصفها ، كأنها لحن موسيقى جميل . وران على الغرفة سكون مهيب وكأنما كان كيريلوف وزوجته يحسان الى جانب حزنهما الثقيل بما فى موقفهما من جمال وشعر . لقد انقضى شبابهما ولم يعودا يستطيعان انجاب أطفال بعد . فقد كان الطبيب فى الرابعة والاربعين وخـــط الشيب رأسه وبدت عليه دلائل الكبر . وكانت زوجته النحيلة السقيمة فى الخامسة والثلاثين . ان ولدهما اندريه لم يكن ولدهما الوحيد بل الاخير كذلك . »

وهذه هي الصورة التي رسمها تشيكوف لحزن أبو جين بعد أن اكتشف فرار زوجته مع عشيقها . انه يعود الى حجرة الجلوس حيث كان ينتظر الطبيب ليدخل الى غـرفة المريضة .

« كان أبوجين يقف بباب الغـرفة ولـكنه كان انسانا آخر غير ذلك الذي ترك الغرفة منذ دقائق . كانت آثار النعمـة والاناقة المترفة التي رأيناها عليه من قبل قد اختفت وبدا في وجهه وحركات يديه ووقفته شيء منفر يوشك أن يكون مزيجا من الرعب والالم الجسماني . لم يكن في حزنه روعة ولا شعر ولا موسيقى . فان جمال المشاعر الانسانية كان من حق كيريلوف وحده . ومع ذلك فلم يكن كيريلوف نفسـه جميلا بل كان كما وصفه تشيكوف « عادي الملامح ضئيل البنية خشن المظهر . وكانت شفتاه الغليظتان وانفه الاقنى ونظراته الآسية الشاردة توحي بكثير من الجفوة والصرامة . وكان شعره الاشعث وخداه الغائران وشيبه المبكر وشحوب وجهه وحركاته المرتبكة تفصح عن فقر وحرمان طويل وعن السأم من الحياة والعزوف عن الناس . وما كان الناظر اليه ليستطيع أن يتخيل أن مثله يمكن أن يكون زوجا وأن يبكي ولدا له قد مات » .

وعلى النقيض من ذلك كان أبو جين وسيما ، تبدو عليه مخايل من يعيش عيشة بوهيمية حرة .. كان يبـدو في سترته الضيقة وشـعره الكث ووجهه الممتلىء أرستقراطيا « كالاسد » . ومن الغريب ان هذا المظهر القـوي لم يزد على ان كشف عن سوقية أبوجين . فما كان بينه وبين الاسد من شبه الا مجرد المظهر » . ان كيريلوف وزوجته ظلا صامتين لم يبكيا تحت وطأة الحزن . اما هو « فقد راح يبكي ويعول » .. ولا شك أن تشيكوف كان في صف كيريلوف وان لم يفصح

عن ذلك لما نعرف عنه من ميل الى التحفظ وكراهة للافصاح عن مشاعره الخاصة .

وقد كان أبو جين مخلصا حين توســـل الى الطبيب أن يذهب معه ولكن عباراته كانت تبدو « متكلفة مصنوعة لا تناسب الجو الذى كان يســود بيت الطبيب .. » . كانت الالفاظ التي وصف بها أبوجين خيانة زوجته ، ألفاظاً مبتذلة مصطنعة فلم يملك كيريلوف الا أن يرى فيها اهانة موجهة اليه

فالقصة اذن ليست قصة انسانين متحضرين يوجه كل منهما الى الآخر اهانات لا مبرر لها بقدر ما هى قصة الحزن الانسانى النبيل الذى تمتهنه السوقية .

وهكذا نأخذ بالتدريج فى فهم أناقة أبو جين على حقيقتها فنعرف انها أناقة سطحية وطلاء زائف ، لا يلبث ان ينكشف فى أول لحظة يتعرض فيها لتجربة قاسية فيبدو ما تحته من طبيعة جافية وخواء روحى ...

ان المشاعر الإنسانية من حق أولئك الذين ترتبط حياتهم بالعمل وحدهم ـ وقد كان كيريلوف فى ثورته يتحدث عن « جميع العاملين » . ويشعر القارىء من حديثه انه يقوم رمزاً لكل العمال من الرجال والنساء فى روسيا هؤلاء الذين يحسون احساسا عميقا بكرامة الانسان ويمقتون الفـــراغ والتطفل والعيش على حساب الآخرين . فى حيـــاة أولئك العاملين وحدهم يتمثل ما فى الحياة من جمال وموسيقى وشعر . وبهذا يوحى المؤلف الى القارىء أن يزدرى الجمال السطحى ويرى فيه امتهانا لكل ما هو انسانى جميل .

وببصيرة الفنان النافذة يدرك تشيكوف ان ما يبدو على كيريلوف وأمثاله من جفاء وخشونة لما يلقون من جهد العمل والفقر ليس الا شيئا سطحيا يخفى تحته ما فى طبيعتهم من جمال حقيقى بينما لا تعدو أناقة أبوجين وطباعه المهذبة ان تكون مجرد مظهر براق .

وهكذا نرى أن كيريلوف لم يكن فى ثورته بعيدا عن الانصاف الا فى الظاهر فحسب . وندرك أن أبوجين رغم أنه قد ذهب الى الطبيب بنية حسنة معتقدا أن زوجته مريضة حقا لم يكن على حق حين ألقى بالطبيب الحزين فى ذلك الجو السوقى القبيح الذى كان يعيش هو فيه · ويؤكد فيما فى القصة من تفصيلات ، سوقية أبوجين وحياة طبقته الطفيلية وما كان فى حياة كيريلوف من اعتزاز بكرامة الانسان . ولنأخذ مثلا وصف المؤلف لانتظار الطبيب عودة أبو جين فى حجرة الجلوس .

« جلس كيريلوف فى المقعد الوثير واخذ ينظر الى أصابعه وما علق بها من آثار حامض الكربون . ونظر الى ساعة الحائط التى استرعت انتباهه بدقاتها فرأى بجوارها ذئبا محنطا يبدو فى ضخامته وبدانته مثل أبو جين نفسه » .

وبهذه التفصيلات العابرة ـ كالاشارة الى يدى الطبيب وما بهما من آثار العمل وتلك المقارنة البارعة بين أبوجين وذلك الذئب البدين ـ يفصح تشيكوف عن ازدرائه للكسالى والمتطفلين وحبه « للرجل العادى » العامل .

والكاتب كما نرى لا يكشف عن حبه وكراهيته بأسلوب سردى مباشر بل يشيع ذلك فى روح العمل الادبى كله كتيار خفى . وهو لا يفرض على القارىء ما فى عمله الفنى من حقائق تفرض نفسها بنفسها ، بل يحاول أن يخفف من حدتها بعض الشىء · وهكذا نراه يقول: «ان ما دار فى نفس كيريلوف وهو عائد الى بيته من عواطف وافكار كان يتسم بالقسوة وقلة الانصاف .. فقد راح يلعن أبو جين وزوجته وبابشنسكى وكل من يعيشون فى الغيوم الوردية المعطرة الى أن امتلأ قلبه بالكراهية واتخذ من هؤلاء الناس موقفا غير عادل .

« وسينقضى الزمن وتنقضى معه أحزان كيريلوف ولكنه لن ينسى قط ما وقع عليه من ظلم الى أن يموت ! »

وهكذا يحاول تشيكوف بعد أن رسم صورة فاضحة لابو جين وصب عليه كل ازدرائه أن يخفف من حدة غضبه واحتقاره مدفوعا الى ذلك بشعور « الليبراليه » السائد حينذاك ومع ذلك فان محاولة التوفيق هذه لا تزعزع من ايماننا برأى كير يلوف فى أولئك الذين يعيشون فى « الغيوم الوردية المعطرة » . ولم يلبث تشيكوف أن نشر بعد قصة « الخصمان » عام ١٨٨٩ قصة أخرى بعنوان « الاميرة » .. تشبه فى مضمونها وشخصياتها قصة « الخصمان » الى حد بعيد . وفيها يرسم المؤلف المفارقة بين شخصية طبيب يكاد يكون صورة من كيريلوف وشخصية الأميرة الجذابه الانيقة ذات الطبع الشاعرى التى تذكرنا بأخت أبو جين . وكان الطبيب قد اشتغل وقتا ما بضيعة الأميرة ثم استغنت عنه . ولكنه مع ذلك لا يحجم عن أن يقول لها رأيه فيها فيخبرها أن شعور الحب لا وجود له فى حياتها وانها تكره الرجال والنساء على السواء : « حياتك كلها تقوم على هذه الكراهية ، تكرهين صوت الناس ووجوههم ووقع خطاهم .. أعنى انك تنظرين الى الناس كما كان نابليون ينظر اليهم ، كأنهم مجرد حشو للمدافع . على أن نابليون كان له قصد ما يدفعه الى ذلك أما أنت فلا شيء لديك قط الا الكراهية ! .. أتريدين بعض الحقائق ؟ .. بكل سرور ! .. الآن يعيش على الصدقة فى قريتك ثلاثة طهاة أفقدتهم أبصارهم حرارة المواقد فى مطبخك بينما تنظرين أنت واصدقاؤك الى كل من يعيش فى ضيعتك الكبيرة على انهم خدم واتباع وتفرضون عليهم من العبودية ما يفقدهم كل كرامة انسانية . لقد طردت من هذه الأرض أطباء ومعلمين ومثقفين من كل لون واضطررتهم الى أن يحترفوا من الأعمال ما يخزى كل انسان شريف

والمشرفون على ضيعتك الواسعة لا هم لهم بالليل والنهار الا أن يجلبوا لك من المال ما يرضيك على حساب الفلاحين الكادحين . ان الانسان العادى لا كرامة له فى أرضك على الاطلاق ! .. »

وهكذا يدافع هذا الطبيب كما دافع الدكتور كيريلوف عن « الانسان العادى » سواء كان من العمال او المثقفين ويكشف عن سوءات الأميرة وحدها بل عن سوءات حياة الاقطاعيين جميعا بما فيها من خواء وطفيلية ، وفى هذه القصة ينفض تشيكوف عن عدوه كل مظاهر الجمال والشعر الخارجية بقسوة أشد من قسوته فى قصة « الخصمان » فيثير فى نفس القارىء شعور الاشمئزاز من تلك الأميرة الطفيلية الجميلة حتى تصبح عنده مخلوقا كريها يثير النفور رغم جمالها وأناقة مظهرها ، ولا تستطيع الأميرة بالطبع أن تفهم ما يقول الطبيب فقد كان كمن يلقى اللآلىء أمام الخنازير ! .. وحين يعتذر اليها الطبيب فى اليوم التالى بقوله : « لقد انقدت لمشاعر الحقد والكراهية فقلت كثيرا من الهراء وأرجو منك الصفح والمعذرة » . « تبتسم الأميرة ابتسامة حلوة وترفع يدها الى شفتيه فيقبلها وقد تضرج وجهه » . انها تؤمن بطيبة قلبها وفتنتها وتعتقد أن مجرد لقائها يسعد الناس . وهى من الغباء بحيث لا تكاد تذكر ما قاله الطبيب بالأمس أو تدرك أن مجرد حياتها تقوم على تحطيم حياة كثير من الرجال والنساء .

والطبيب فى قصة « الخصمان » لا يعتذر لخصمه بل يعتذر المؤلف عنه . أما فى قصة « الأميرة » فالأمر يختلف اذ يقدم الطبيب اعتذاره الى عدوه دون أن يفصح المؤلف عن موافقته فانه هنا لا ينظر الى مشاعر الطبيب على انها « ظالمة لا ينبغى أن ينطوى عليها قلب انسانى » . لذلك كان الطابع

البارز فى قصة « الأميرة » هذا الموقف الصارم نحو من تمثل طبقة الطفيليين .

وكم كان تشيكوف موفقا حين أوضح كلمتين اثنتين (تضرج وجهه) أن اعتذار الطبيب لم يكن صادقا وانه اضطر اليه لحاجته فى حياته الى الأميرة . فقد تضرج وجهه وهو يقبل يد الأميرة التى امتدت اليه فى رشاقة لاحساسه بما فى هذا الموقف من مهانة ولشعوره بالخزى اذ اضطر الى أن يقول عن تلك الآراء النبيلة التى اعتنقها طول حياته انها « هراء » .

ومن الشخصيات الأخرى التى تمثل « الرجل العادى » عند تشيكوف بطل قصة « المدرس » التى كتبها عام ١٨٨٦ . والقصة تتحدث عن فيودور سيسويف الذى كان يشتغل بالتدريس فى مدرسة لأحد المصانع . وكان مريضا بالسل وقرر الأطباء انه لن يعيش أكثر من أسبوعين ولكنه لم يكن يدرى أن النهاية قد أصبحت قريبة الى هذا الحد . وهو لذلك يذهب كعادته كل عام الى المأدبة التقليدية السنوية التى كان يقيمها مدير المصنع بعد الانتهاء من امتحانات المدرسة . ورغم الطابع الرسمى لتلك المأدبة فقد كانت دائما تفيض بالمرح وتمتلىء بأطايب الطعام . وكان المدرسون ينسون فيها كل الفروق الاجتماعية ويستمتعون كما شاءوا بالطعام والشراب والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل ثم ينصرفون وقد ملأوا أبهاء المصنع بأصوات غنائهم وقبلاتهم . وكان سيسويف قد حضر قبل ذلك ثلاث عشرة مأدبة من هذا اللون واستمتع بها على النحو المذكور .

أما هذه المأدبة الرابعة عشرة فقد أفسدها وجوده فلم تعد مرحة ولا طويلة كسابقاتها ، اذ خلق سوء ظنه بزملائه وخصامه معهم جوا قضى على روح الفكاهه والمرح فيها . وكان يعتقد أن ليابونوف وهو مدرس بمدرسة أخرى قد أساء

معاملة تلاميذه في الامتحان • ووصل الى مكان الاحتفال بعد أن كانت المأدبة قد بدأت دون انتظار قدومه اذ لم يكن يتوقع أحد حضوره وهو على تلك الدرجة من المرض • ولم تكد عينه تقع على ليابونوف حتى مضى رأسا اليه وخاطبه قائلا :

ــ لقد اتيت عملا غير نبيل يا سيدى ! ان المدرس الشريف لا يمكن أن يملى الاملاء كما امليته أنت •

وأجاب ليابونوف عابسا :

ــ بالله هلا نسيت هذا الموضوع ! ألم تسأم الحديث عنه بعد ؟ ..

ــ أبدا أن بابكين لم يخطىء من قبل فى الاملاء قط . أنا أعرف لماذا أمليت بهذه الطريقة . لقد اردت ان يرسب تلاميذى حتى يظن الناس أن مدرستك خير من مدرستى . انى أعرف كل شىء !

ــ الا تتركنى وشأنى ؟ ماذا تريد منى ؟

ويتدخل المفتش ليصلح بينهما فيقول :

ــ كفى أيها الزميلان . ان المسألة أتفه من أن تثير حولها كل هذه الخصومة . ثلاثة أخطاء ، او لا اخطاء على الاطلاق ! .. ان هذا لا يعنى شيئا ! ..

ــ بل يعنى شيئا كثيرا . ان بابكين لم يخطىء من قبل فى الاملاء قط ! ..

ويرد ليابونوف فى غضب شديد :

ــ انه لا يريد أن يدعنى وشأنى ــ انه يستغل مرضه ليسىء الى الآخرين . ولكننى لن أقبل اساءتك يا سيدى سواء كنت مريضا أو غير مريض •

وهنا نلتقى مرة أخرى بتشيكوف فى طريقته الفنية الرائعة حين يضع شخصياته المحبوبة فى مواقف تبدو فيها على غير ما يحب ولكنها مع ذلك تظفر بعطف القارىء . فها هوذا

سيسويف يقف ليشرب نخبا فيتحدث عن الدسائس والمؤامرات التى ظلت تحاك حوله طيلة الاربع عشرة سنة التى قضاها فى التدريس ، ويعلن انه يعرف من كان يحوك تلك المؤامرات ولكنه يؤثر ألا يفصح عن أسمائهم حتى لا يفسد شهية الحاضرين للطعام . وحين ينتهى من حديثه ، يتنفس الحاضرون بمزيد من الحرية وكأنما رشت الغرفة بالماء البارد فزال عن هوائها ما كان فيه من فساد وركود . لقد جعل المرض من سيسويف شخصا لا يطيق الناس حضرته ولا حديثه ، ومع ذلك فنحن نحس بأن تحت ذلك المظهر الخارجى شخصا آخر غير سيسويف الذى نراه . شخصا يمثل المدرس الفذ ورجل التربية الموهوب .

ويدور الحديث حول مدرسة المصنع ويندفع جميع الحاضرين فجأة فى الثناء عليها وعلى سيسويف . ويقول المفتش :

« أعترف بكل اخلاص أن مدرستك معجزة بحق . ولا تظن انى أقول ذلك لمجرد ارضائك فانى لم أر فى حياتى مدرسة كمدرستك . لقد شهدت امتحاناتها فعجبت لما رأيت .. تلاميذ مدهشون ! يعرفون الكثير ويجيبون على البديهة ، ولا يستولى عليهم الخوف كتلاميذ المدارس الاخرى بل يتحدثون بحرية وصراحة .. ومن الواضح أيضا انهم يحبونك حبا كبيرا يا فيدور سيسويف . ان التربية تجرى فى دمائك، لقد ولدت لتكون مدرسا . لديك الموهبة الطبيعية والخبرة الطويلة والحماسة لعملك . وان ما يراه المرء من نشاطك ومعرفتك رغم ما تعانيه من مرض ليثير الدهشة والاعجاب .. وما أقدرك على ضبط النفس وما أعظم اخلاصك ! .. لقد قال أحدهم عنك بحق فى مجلس المدرسة انك تمارس مهنتك بروح الشاعر . نعم هذه هى حقيقتك : شاعر ! »

« وبدأ كل الحاضرين يتنون ثناء جما على مواهب سيسويف

الفريدة وكأنما انهار فى نفوسهم سد انطلقت من وراءه تلك الكلمات المخلصة المتحمسة التى يحبسها الناس فى صدورهم فى حالات صحوهم وحذرهم . ونسى الحاضرون حديث سيسويف القاسى وطبعه الحاد وما كان يعلو وجهه من عبوس .

« وشرب مدير المصنع الالمانى نخب مدرسه وأعلن أن ادارة المصنع تعرف كيف تقدر جهود العاملين وأنها قررت أن « تقوم لاسرة فيودور بما يلزمها » وانها « وضعت فى البنك منذ شهر مبلغا خاصا لهذا الغرض » .

« ونظر سيسويف الى المدير الالمانى فى حيرة ثم تحول بنظره الى زملائه وكأنما يسألهم : « لماذا تخصص ادارة المصنع هذا المال لاسرته وليس له هو ؟ وقرأ الحقيقة فى وجوههم ، وأجهش بالبكاء ! »

ويعود إلى البيت ويتدبر الامر فيرى انه ما كان ينبغى أن « ينتحب » على هذا النحو . « ان الامر لا يعدو أن يكون مجرد برد فى المعدة يسبب له ما يعانيه من سعال » . ولا يملك المرء الا أن يذكر تشيكوف نفسه فى هذا الصدد . فقد كان يحاول فى ذلك الوقت الذى كتب فيه تلك القصة ان يطرد عن ذهنه فكرة مرضه بالسل بهذه المغالطة نفسها !

« وطابت نفسه بهذا التعليل فخلع ملابسه على مهل وقضى وقتا طويلا ينظف حلته السوداء بالفرشاة ثم طواها بعناية وأعادها الى مكانها فى الدرج وأغلقه بالمفتاح . ثم خطا نحو مكتبه حيث تكدست كراسات التلاميذ فاختار من بينها كراسة بابكين وجلس يتأمل خط التلميذ الجميل وبينما كان هو ينظر فى كراسات تلاميذه كان الطبيب يهمس فى الحجرة المجاورة الى زوجته بأنه ما كان ينبغى لشخص لن يعيش أكثر من أسبوع على الارجح أن يحضر مأدبة عشاء ! »

وعنوان القصة يدل على مضمونها أصدق دلالة . فنحن نشعر أن بطلها مدرس يجرى حب التدريس فى عروقه

ونستطيع أن نتخيله مع تلاميذه فندرك أن التدريس هو المتعة الوحيدة فى حياته ونؤمن بأنه حقا شاعر فى مجاله التعليمي وبأنه لم يكن منساقا وراء تخيلاته حين تحدث فى المأدبة عن المؤامرات والدسائس وشهادات الزور .. لقد قال المفتش عن تلاميذه انهم ليسوا كتلاميذ المدارس الاخرى وان الخوف لا يسيطر عليهم بل يتحدثون بحرية وصراحة . وذلك يعنى أن سيسويف كان تربويا مجددا تعارضت آراؤه مع التقاليد التربوية المتبعة وكافح طويلا حتى أقرها وظفر بما ظفر به من تقدير . فلا عجب اذا كان قد تعرض فى كفاحه الطويل للمؤامرات والدسائس وشهادات الزور .

ولنا أن نتساءل : لماذا حرص تشيكوف دائما على أن يخفى حبه لابطاله ولماذا يضعهم فى مواقف تحقر من شأنهم أكثر مما ترفعه ؟ فالدكتور كيريلوف ذو مظهر خشن غير جذاب وسيسويف ذو طبع صارم حاد .. وهناك شخصيات ضعيفة وأخرى فظة وثالثة شاذة وغير ذلك !

لقد كان تشيكوف رغم كل هذا يحب أبطاله حبا عميقا فيه كثير من الحنان والرقة وكان دائما يشعر بمسئوليته نحوهم ونحو ما فى حياتهم من هوان وشقاء . وقد قال ذات مرة لجوركى فى هذا الصدد : « كلما رأيت مدرسا شعرت بالحرج لما يبدو عليه من خوف ومظهر زرى ولم اتمالك أن أحس انى مسؤول عن ذلك الى حد ما » . ولكنه لم يكن يستطيع أن يصورهم على غير حقيقتهم ولا أن ينسب اليهم من الوعى ما لم يكونوا قد ظفروا به بعد ، كما نجد بعد ذلك فى شخصيات جوركى . ومع ذلك فقد كان أبطال تشيكوف طليعة لابطال جوركى الذين يدركون هدفهم ويعرفون كيف يسعون الى تحقيقه .

وفى قصة بولينكا التى نشرها تشيكوف عام ١٨٨٧ يتمثل حبه الرقيق « للرجل العادى » وبطلاها هما نيكولا تيموفتش

وهو بائع فى أحد محلات الاقمشة ، وبولينكا التى جاءت تبحث عن بعض القماش للخياط الذى تعمل عنده . ويلتقيان فى المحل فيتظاهران بالحديث عن أنواع الاقمشة المختلفة وهما يخفيان عمن حولهما حقيقة حديثهما الذى كان يدور حول حياتهما ومستقبلهما . لقد كانا من قبل حبيبين ولكن بولينكا تعشق الآن أحد الطلاب عشقا عنيفا يخيفها لحدته فهى تلتمس النصيحة عند نيكولا .

ويمضيان فى حوار درامى ملىء بعناصر المأساة بما فيه من معان مزدوجة قصدا بظاهرها أن يسمعها من حولهما وأراد أن يناقشا مأساة حياتهما بما وراء الظاهر من معان خفية . ولو تركا وشأنهما لتحدثا عن شؤونهما الخاصة حديثا عاليا وربما بكى أحدهما أو ثار ولكنهما فى موقفهما الحرج لم يجرؤا على الافصاح عن عواطفهما حتى بنظرة واحدة حزينة قد تكشف لمن حولهما عن حقيقة موقفهما . وهكذا تخلع همساتهما وتحفظهما ونظراتهما المختلفة على حديثهما توترا غير عادى :

ـ اذن فأريد بعض الريش

ـ الريش هو « مودة » هذه الايام . واحب ألوانه لون عباد الشمس واللون الاصفر ـ لدينا مجموعة كبيرة منه . وماذا تنوين أن تفعلى ؟ أعلم انك تحبينه ولكن الى أين سينتهى بكما هذا الحب ؟ أتعتقدين انه سيتزوجك ؟ أنا أعلم أنه غير مسموح للطلاب بالزواج . وعلى أية حال فهل تعتقدين أن قصده شريف ؟ أما أنا فلا اظن ذلك . ان هؤلاء الطلاب لا ينظرون الينا على أننا مخلوقات آدمية .

وجمال هذه القصة يرجع الى ما فيها من انتقالات سريعة بين الحديث عن البيع والشراء وبين الحديث عن مشكلة البطلين العاطفية ، « لدينا مجموعة كبيرة منه . وماذا تنوين

أن تفعلى ؟ .. انه ريش حقيقى وليس غابا ملونا .. أتنوين أن تخرجى معه الليلة ؟ »

ـ نـ .. نعم .

وبولينكا تعلم أن الطالب لا يحبها وأن تيموفتش ينطق بالحقيقة المريرة اذ يتنبأ بفشلها معه .

هكذا كانت مأساة هذين « الانسانين العاديين » تيموفتش يحب بولينكا حباً صادقاً بينما هى مفتونة بذلك الطالب وطباعه غير المألوفة وذكائه الذى يبدو بالنسبة لها شيئا بعيد المنال .

والحق أن لتشيكوف براعة خارقة فى أن ينفذ الى جوهر الموضوع الذى يتحدث عنه فيرسم لنا جو القصة رسما واقعيا صادقا نحس معه اننا فى ذلك المحل نرى أكداس البضائع على رفوفه ونسمع حوار المشترين والبائعين ونتنفس الهواء الذى يتنفسون . ونحس وراء هذا كله بحب تشيكوف « للرجل العادى » ذلك الحب الذى رأيناه فى كثير من قصصه والذى دفعه الى أن يكتب فى عام ١٨٨٨ مقالة بعنوان « المنافقون فى موسكو » دافع فيها عن قضية عمال المحلات التجارية وحمل على ادارة البلدية فقال ان « ثلثى أعضائها من التجار لذلك ألغت القانون التى كانت قد سنته من قبل ليحدد ساعات العمل يوم الاحد وأيام الاجازات . وهكذا عادت الحوانيت تفتح ابوابها احدى عشرة ساعة أو اثنتى عشرة فى أيام الآحاد والاجازات » . وقد سخر تشيكوف من حجة أصحاب الحوانيت وزعمهم أن الباعة حين يجدون لديهم هذا الفراغ الطويل سيرتادون الحانات وأماكن اللهو فقال : « أن من يسمع هذا القول يظن أن أصحاب الحوانيت أنفسهم من القديسين »

ثم يلخص القضية فى عبارة يمكن أن تجرى مجرى المثل فيقول : « ان ألف عصفور أو أرنب سيىء الخلق خير من ذئب تقى ! »

ونستطيع من خلال قصة «الجرادة» التى كتبها تشيكوف عام ١٨٩٢ الى جانب قصة « الخصمان » أن نتبين أى الشخصيات كانت أحب الى نفسه كما نستطيع من خلالها أن ندرك عقيدته الاجتماعية التى تشيع فى كل أعماله وان نفهم خصائصه الفنية فى تلك الاعمال .

وقصة « الجرادة » قصة رجل عادى هو الدكتور ديموف وهو رجل قوى شجاع يزيد من احساسنا بقوته وشجاعته عطفه وطبعه الرقيق وبساطة تلك الصفات التى تؤكد ما لديه من قوة الارادة والقدرة الخارقة على العمل والمثابرة لكى يصل الى ما يقصد من هدف ، والاخلاص الشديد للبحث العلمى .

وقد حدث فى حياته نفس المأساة التى حدثت لابو جين فى قصة « الخصمان » فقد خانته زوجته التى كان يحبها حبا صادقا ينبع مما فى نفسه من نقاء واخلاص . ولذلك كان حزنه بخلاف حزن أبوجين ذا طابع انسانى عميق .

وكانت زوجته « الجرادة » امرأة لا هم لها الا البحث وراء رجل عظيم تربط حياتها به . وكانت فنانة هاوية جميلة ، يحيط بها دائما كثير من الوجهاء والمشاهير من فنانين وممثلين وكتاب . ولكنها كانت دائماً ظمأى الى رجل عظيم جديد .

وفى وسط تلك المجموعة الضخمة من المشاهير كان زوجها الدكتور ديموف يبدو انسانا عاديا قليل الشأن ولم يكن زواجها منه أو اعجابها به الا مجرد نزوة عابرة تدل على ما فى نفسها من تقلب وسطحية ، تماما كاعجابها بعامل التلغراف الذى حضرت هى وصحابها حفلة زواجه لا لشىء الا ليدفعوا عن أنفسهم بعض ما يشعرون به من فراغ وسأم . وقد عبرت لزوجها عن هذا الاعجاب بقولها : « شاب وسيم . ان فى وجهه معانياً من القسوة والتوحش حتى ليصلح أن يكون موضوعا لصورة رائعة »

وبنفس الاسلوب كانت تتحدث عن زوجها الى من فى حجرة استقبالها من زوار :

« انظروا جميعا الى جبهته ! أرنا جانب وجهك ياديموف ! انظروا ، ألا ترون فيه وجه نمر بنغالي ، وتعبيرا حلوا كذلك الذى نراه فى وجه الظبى ؟ »

ولم يكن عامل التلغراف وديموف الا مجرد لعبة تتسلى بها دون أن تدرك أن اللعب تتحطم بددا اذا لم يتناولها المرء برفق ، تماما كما تحطمت حياة ديموف . لقد كانت أولجا ايفانوفا وصحابها ينظرون الى ديموف على انه مجرد انسان طيب لا يمكن أن يقرن الى أمثالهم من المشاهير .

ولكن حين تصيبه عدوى الدفتيريا ويموت بعد أن امتص الصديد من حلق طفل مريض نسمع أحد زملائه الدكتور كورستليف يقول لاولجا ايفانوفا فى مرارة وحسرة :

« لقد مات لانه ضحى بنفسه ! أية خسارة خسرها العلم بموته ! لقد كان بالمقارنة الينا رجلا عظيما ممتازا . ما كان أعظم موهبته ! » . ويمضى كورستليف فى حديثه وهو يعصر يديه من الالم : « يا الهى ! لو عاش لكان عالما عظيما .. عالما ممتازا ! .. »

ويغطى كورستليف وجهه بيديه وقد استبد به اليأس ثم يواصل حديثه وكأنما يصب غضبه على انسان ما : « وما كان أعظم خلقه ! نفس نقية رحيمة صافية كالبلور ! لقد خدم العلم ومات فى سبيله . كان يعمل ليل نهار دون أن يشفق على نفسه ! »

على أن الدفتيريا لم تكن السبب الأول الذي قضي على حياة ديموف قبل أن تكتمل بل كان هذا المرض مجرد حليف لاولجا نفسها ، اذ لم تستطع أن تدرك أن الرجل العظيم الذى انفقت حياتها فى البحث عنه كان يعيش الى جانبها وغاب عنها ما كان فى شخصية ديموف من جمال وعظمة وعجزت عن أن ترى فى العادى شيئا غير عادى .

وقد عبر تشيكوف من خلال رسمه لشخصية ديموف

عن اعجابه الشديد بالمخلصين من العلماء الروس الذين كانوا يعملون فيجد وتواضع فيسبيل اسعاد أبناء وطنهموفيسبيل رقي الانسانية بوجه عام . وقد أشـــار الى هذا الطراز من العلماء فى مقاله الرائع الذى كتبه بمناسبة موت بريشيفالسكى فقــال :

« ان مبادئهم السـامية وطموحهم العظيم الذى يتطلع الى خدمــة العلم والنهــوض بالوطن ، وان مثابرتهم وادراكهم لاهــدافهم التى لا يصرفهم عنها خطــر أو أغراء ، كل ذلك يجعلهم فى نظر الشعب أبطالا تتجسد فيهم قوى نفســـية فريدة ..

« ولئن كان فى المجتمع كثير من أولئك الذين ينفقون أوقاتهم فى مناقشة التشاؤم والتفاؤل أو كتابة القصص التافهة لمجرد ازجاء الفراغ ودفع الســأم ، أو فى العبث واللهو ليثبتــوا ازدراءهم للحياة ، ولئن كان فى المجتمع كثير من أهل الشك والنفوس المريضة والجزويت والفلاسفة والاحرار والمحافظين فانفيوجود أمثالهؤلاء العلماء المخصلينبرهانا حيا علىانهناك أيضا أناسا من طراز آخر يستطيعون ان يقوموا بأعمال البطولة بما فى نفوسهم من ايمان وما فى عقولهم من صفاء وادراك ..

« واذا كان للشخصيات الطيبــة التى يخلقها الادباء فى قصصهم قيمة تعليمية واضحة فلا شــك أن للشخصيات الطيبة التى تخلقها الحياة نفسها قيمة تعليمية مضاعفة .. فللعلماء من طراز بريشيفالسكى قيمــة فريدة لان حياتهم وأفعالهم وخلقهم وأهدافهم من الوضوح بحيث يستطيع أن يفهمها حتى الاطفال . فمن المعروف انه كلما زاد المرء اقترابا من الحقيقة زادت بساطته ووضوحه وأصبح النأس اكثر قدرة على فهمــه »

ولذلك حرص تشيكوف على أن يبرز من صفات الدكتور ديموف خلقه المتين ومثابرته ومعرفته الواســعة وطبيعته

البسيطة الصريحة . وكان كاتبنا بطبعه ومنهجه الفنى ونظرته العلمية الى الحياة من أكثر كتاب الروس اهتماما بتصوير حياة العلماء فى قصصه . وقد أحس العلماء بتلك الصلة النفسية القوية التى تربط بينه وبينهم فأحبوه وآثروه على غيره من الكتاب . وكان العالم الروسى الشهير تسيولكوفسكى يرى فيه زميلا فى المعركة ضد « الروتين » والركود والبغاء والجهل فى كل جوانب الحياة . وقد كتب أكثر من مرة يقول :

« أود ان اكون فى العلم مثل تشيكوف فى الادب » . ومما كتبه فى هذا الصدد قوله :

« لقد تشعبت العلوم وكثرت المؤلفات عن كل فرع منها حتى أصبحت أكداسا ضخمة يستحيل على أى ذهن انسانى أن يستوعبها . ومع ذلك فمن المستحيل على الانسان أن يكون لنفسه مبدأ عاما عن الحياة دون أن يكون له المام بحقائق تلك العلوم أو معرفة عامة بطبيعة الكون . لذلك أود ان أكون فى العلم مثل تشيكوف فى الادب ، فأكتب مقالات قصيرة يمكن أن يفهمها القارىء العادى وأقدم اليه فيها الحقائق الجادة المنطقية عن طبيعة الكون » .

وهكذا نرى أن تسيولكوفسكى كان كتشيكوف وأبطاله يبحث عن « مبدأ عام » فى الحياة . وقد استطاع بذلك أن يرتفع بنفسه من مدرس بسيط فى مدينة صغيرة نائية فيصبح عالما روسيا كبيرا ويحقق كثيرا من التجديد والاختراع .

وشخصية الدكتور ديموف كتشيكوف نفسه شخصية ديموقراطية تجمع بين خصال الرجل الشعبى والانسان المثقف الموهوب . وتبدو ديموقراطيته وبساطته فى كثير من جوانب القصة وتفصيلاتها . أما أولجا ايفانوفنا فامرأة من طراز كان تشيكوف يمقته أشد المقت ، طراز المتطفلين على الفن . وقد رسم الكاتب نموذجا آخر من هذا الطراز فى

« حكاية مملة ») عام ١٨٨٨ (يتمثل فى الكساندر جنيكر الذى استطاع عن طريق حبه لليزا طالبة الموسيقى أن يتردد على بيت أستاذها .

« ومع انه كان لا يستطيع الغناء أو العزف فقد كان على صلة بهذين الفنين وكان دائم التردد على أكاديمية الموسيقى يعرف كل أعلامها ويقوم بدور المضيف فى الحفلات الموسيقية وكثيرا ما كان يبدى آراء خاصة فى الموسيقى وكنت ألاحظ حينذاك أن جميع الحاضرين كانوا يسرعون الى موافقته على ما يقول . وكما يتطفل انســـان على الاثرياء كذلك يتطفل آخرون على العلم والفن . وقد كان جنيكر من هؤلاء المتطفلين وقد أكون أسأت الحكم عليه لانى لست موسيقيا ولانى لست على صلة وثيقة به ولكن منظره وهو واقف بجوار البيانو فى اعتداد الاستاذ العليم بكل شىء يثير مع ذلك ريبتى »

وهذه اشارة بارعة من تشيكوف فان أى فنان حق لايمكن ان ينظر الى لوحة فنان آخر أو يستمع الى موسيقاه بغرور وكبرياء وكأنما يقول : « انى أفهم كل ذلك جيدا ! » وهو لا يثرثر عن الفن لانه يدرك ما فى الفن من مشقة وجهد . أما أمثال جنيكر فانهم يعرفون كل شىء لسبب بسيط هو انهم لا يعرفون شيئاً على الاطلاق . انهم سطحيون فارغو النفوس لا يهتمون بشىء الا بأنفسهم ، وهم يستغلون طبيعة الفنانين العاطفية فيتعلقون بأذيالهم ويظفرون عن طريق ذلك بمكانة فى المجتمع على حساب جهد الآخرين » .

ومع ان أولجا ايفانوفا من هذا الطراز فانها من لون آخر . فقد كانت امرأة قبل كل شىء . وهى فى بحثها عن مشاهير الرجال لم تكن تسعى الى مصلحة خاصة وان كنا مـــع ذلك لانستطيع ان نخليها من الدافع الشخصى . لقد كانت تحب ان تكون شخصية لامعة وسيدة لمن يحضرون صالونها تملى عليهم ذوقها الخاص وتعتقد انها تفيدهم بذلك وتنفعهم .

وقد كانت بهذا أشد خطرا فى تطفلها على الفن من جنيكر اذ كان لديها بعض المعرفة بفروع الفن المختلفة وقدر من الذوق والعلم بالادب الى جانب جمالها وأناقتها . وهى تتخذ من كل ذلك سلاحا تتحكم به فيما يحيط بها من فنانين وتملى عليهم ارادتها وذوقها ، وبخاصة على ريابوفسكى ذلك الفنان الناشىء الذى كان قد بدأ يظفر ببعض الشهرة . وكانت تريد منهم أن يكتبوا اهداء أعمالهم باسمها ويعدوها ملهمتهم ومعلمتهم وربه نعمتهم . ولكنها مع ذلك مثل جنيكر لا تدنو من فن الادنسته ولا تستخرج من الفنانين الا صفاتهم السطحية المحضة . لذلك لم تلتفت الى موهبة زوجها ونبوغه ولم تدرك أنها كانت تعيش جنبا الى جنب مع ذلك الرجل العظيم الذى طالما بحثت عنه . وحين تسمع أحد الحاضرين يقول عنه بعد موته «أجل لقد كان رجلا ممتازا » تعود بذاكرتها الى حياتها معه بكل تفصيلاتها الدقيقة فتدرك انه كان حقا رجلا ممتازا ، غير عادي « رجلا عظيما » . وتدور الارض بها ويخيل اليها أن الجدران والسقف والمصباح كلها تنظر اليها فى سخرية وكانما تقول : « لقد فاتتك الفرصة » ..

ولاشك أن من أقوى مواقف القصة بل لعله يكون أقواها ذلك الموقف حين يعود ديموف الى البيت بعد أن قدم رسالته العلمية :

« وذات مساء بينما كانت تلقى على نفسها نظرة أخيرة فى المرآة قبل ان تذهب الى المسرح دخل الغرفة ديموف . وابتسم اليها ابتسامة مودة ونظر الى عينيها كما اعتاد ان يفعل من قبل وقد تألق وجهه ثم قال وهو يجلس : « لقد قدمت رسالتى »

وسألته أولجا : « وهل أعجبت الاساتذة ؟ »

وأجابها ضاحكا وهو يمد عنقه لتستطيع أن يرى وجهها فى المرآة اذ كانت لا تزال مولية ظهرها اياه تسوى شعرها للمرة

الاخيرة : « كل الاعجاب ! ومن المرجح الآن أن أعين أستاذا للباثولوجى العام » .

وكان يبدو من سعادته واشراق وجهه انه يستطيع أن يغفر لزوجته كل اهمالها السابق لو انها شاركته فرحته وشعوره بالانتصار . ولكنها لم تستطع حتى أن تدرك معنى الباثولوجى العام وكانت الى جانب ذلك تخشى أن تتأخر عن موعد المسرح فلم تعلق على قوله بكلمة . واستمر ديموف فى جلسته بضع دقائق ثم نهض وهو يبتسم كالمعتذر وغادر الغرفة .

لقد كان ديموف « الرجل العادى » شيئا لا وجود له بالمرة عند أولجا ايفانوفا وهى ترى نفسها محاطة « بالصفوة » من رجال المجتمع . ولذلك لم تستطع أن تقدر قيمة تلك اللحظة العظيمة فى حياته . وهكذا كشف تشيكوف عما فى نفسها من خواء وسطحية وما فى طبعها من غلظة وسوقية . ولم يصور ذلك من خلال خيانتها لزوجها بقدر ما صوره بهذا الموقف السلبى من نصر زوجها العلمى وقد وقفت صامتة جامدة أمام المرآة تسوى شعرها للمرة الاخيرة . لقد كانت نظرة أولجا الى الحياة والفن نظرة سطحية زائفة تتمثل فى شغفها بالجمال والفن ، ذلك الشغف الذى لا ينبع من احساس انسانى صادق بل من مجرد التظاهر والفراغ والسعى وراء الجاه . وقد رمز تشيكوف بثوبها الاصفر وخطوطه الشاذة المتقابلة الى حياتها وما كان فيها من أنانية وانحراف وجمال زائف ليؤكد انها بحرصها على هذا الجمال السطحى قد حرمت المجتمع من شىء عظيم مشرق وحطمت حياة مجيدة جميلة بحق .

وقد كتب الرسام ريبين عن قصة « الجرادة » ما يمكن أن ينطبق على كثير من أعمال تشيكوف فقال :

« لا يستطيع المرء أن يتصور كيف أمكن لهذه القصة

القصيرة بموضوعها العادى أن تنتهى الى هذا المعنى الانسانى الكبير بما فيه من صدق وعمق »

وهكذا استطاع تشيكوف أن يتطور بأولجا ايفانوفا من مجرد سيدة مجتمع تافهة الى شخصية ذات دلالة انسانية واجتماعية كبيرة . وقد يتخذ الشر أحيانا مظهرا كبيرا كما فى ليدى ماكبث وقد يبدو أحيانا أخرى فى مظهر صغير وقد يستطيع أن يحقق أهدافه وقد يفشل فى ذلك ولكنه فى كلتا الحالتين يقوم بدور القاتل الذى يغتال ما فى الحياة من جمال وخير . فليست أولجا ايفانوفا أو ناتاشا فى مسرحية « الاخوات الثلاث » رغم المظهر الصغير الذى يبدو به ما كانتا عليه من شر بأقل شرا من ليدى ماكبث .

وقد استطاع تشيكوف من خلال علاقة الحب بين أولجا ايفانوفا وريا بوفسكى أن يصور فكرة « العادى » و « غير العادى » عند أبناء تلك الطبقة . فأولجا ايفانوفا تنشد العظمة فى غير العادى وتعتقد أن الرجل العظيم لا بد أن ينتمى الى « الصفوة » التى تمتاز عن الجماهير « العادية » . امتيازا كبيرا . وهى فى خيانتها لزوجها تعبر عن ازدرائها للرجل « العادى » وتمجيدها للصفوة المختارة من أبناء المجتمع .

وقد اتسمت علاقتها بريا بوفسكى بطابع السوقية منذ البداية . ولكن السوقية هنا ليست سوقية جافية غليظة لا ! انها تختفى فى حذر خلف مظهر من الجمال والشعر . لذلك حرص تشيكوف فى هذه القصة على وصف المناظر الطبيعية وصفا مطولا ليكشف عن تفاهة العلاقة التى كانت قد بدأت تتطور بين الرسام وتلك المرأة المعجبة بفنه ، التى كانت تطمع هى نفسها أن تصبح فى يوم ما فنانة شهيرة . وقد لاحظنا من قبل فى حديثنا عن قصة « النوبة » كيف يستخدم تشيكوف وصف الطبيعة ليبين المفارقة بين ما فى الطبيعة من جمال وبين ما فى الحياة الانسانية من قبح ، ورأينا

أن تلك المفارقة ليس لها أدنى علاقة بتلك النظرية « الكونية » التى تقارن بين الطبيعة والانسان مقارنة مجردة لتقرر تفاهة شأن الانسان الفانى أمام جبروت الطبيعة وضخامتها وخلودها

فتشكوف لا يستخدم ما فى الطبيعة من جمال و جلال وغموض وحكمة خافية كما استخدمها كثير غيره من الكتاب ليغض من قدر الانسان أو يبين أن حياته وسلوكه وقيمه الخلقية ليست الا باطل الاباطيل اذا اعتبرنا طبيعة الكون العظيم غير المحدود . وعنده أن جمال الطبيعة لا يحقر شأن الانسان بل يرفعه الى ذلك المستوى الجمالى الذى لا بد أن يتحقق يوما هنا فى عالمنا الجميل خلال الحياة الانسانية وعلاقات الناس بعضهم ببعض . وجمال الطبيعة يذكره دائما بما فى صلات الناس من قبح وظلم وتفاهة وينبهنا الى ما ينبغى عليهم من العمل لبناء حياة جديدة جميلة . ومن هنا تنبع قيمة وصف الطبيعة فى أعمال تشيكوف بما فيه من شعر وعمق ودلالات انسانية كبيرة .

لذلك لم يكن يرضى تشيكوف عن تلك الاعمال الادبية التى يصف فيها أصحابها ما فى الكون من جلال وغموض لكى يبينوا أن الانسان يستحيل أن يرقى الى عظمة الطبيعة . وهو يربط بين هذه الفلسفة التى كانت تقدسها التقاليد الادبية حينذاك وبين هؤلاء الذين يعيشون عيشة مبتذلة راضين عن أنفسهم وعن حياتهم . ونستطيع أن نجد مثالا من ذلك فى قصته الطويلة « حياتى » .

« .. ووقفت عند بوابة البيت أرقب المارة .. وكان الليل قد بدأ يهبط وبدات النجوم تتألق فى السماء . وفى تلك اللحظة خرج أبى يتأبط ذراع أختى وعلى رأسه قبعته العالية القديمة وسمعته يقول لاختى وهو يشير الى السماء بمظلته التى طالما استخدمها من قبل فى تأديبى : « انظرى الى السماء ان أصغر هذه النجوم عالم بأكمله ! فما أحقر شأن الانسان بالقياس الى الكون ! » . وكان يقول ذلك وكأنما هو سعيد كل السعادة بحقارة الانسان .. »

ومن الطبيعي أن يعجب بهذه الفلسفة أولئك الذين يعيشون في رضى بحياتهم الوضيعة القذرة اذ يجدون فيها مبررا لما في حياتهم من بشاعة وقذارة ! ..

« .. وفي ليلة قمرية ساجية وقفت أولجا ايفانوفا على ظهر مركب في نهر الفولجا وأخذت تنظر تارة الى مياه النهر وتارة الى شاطئه الجميل . ووقف الى جانبها ريابوفسكي يقول لها ان تلك الظلال التى تراها على صفحة الماء ليست ظلالا بل هي حلم غامض جميل وانه يود لو استطاع أن ينسى كل شيء ويموت ويصبح مجرد ذكرى تحيط بها هذه المياه السحرية المتألقة وتلك السماء اللانهائية وهذه الشطآن الحزينة المغرقة في التفكير كأنها تحدثنا عن حقارة حياتنا وعن وجود آخر أسمى وأحفل بالجمال والخلود . ان الماضي تافه خال من كل معنى والمستقبل غامض مجهول . حتى هذه الليلة الساحرة لن تعود مرة أخرى بل ستنقضي وتصبح جزءا من الزمن الخالد . فلماذا نعيش اذن ؟ »

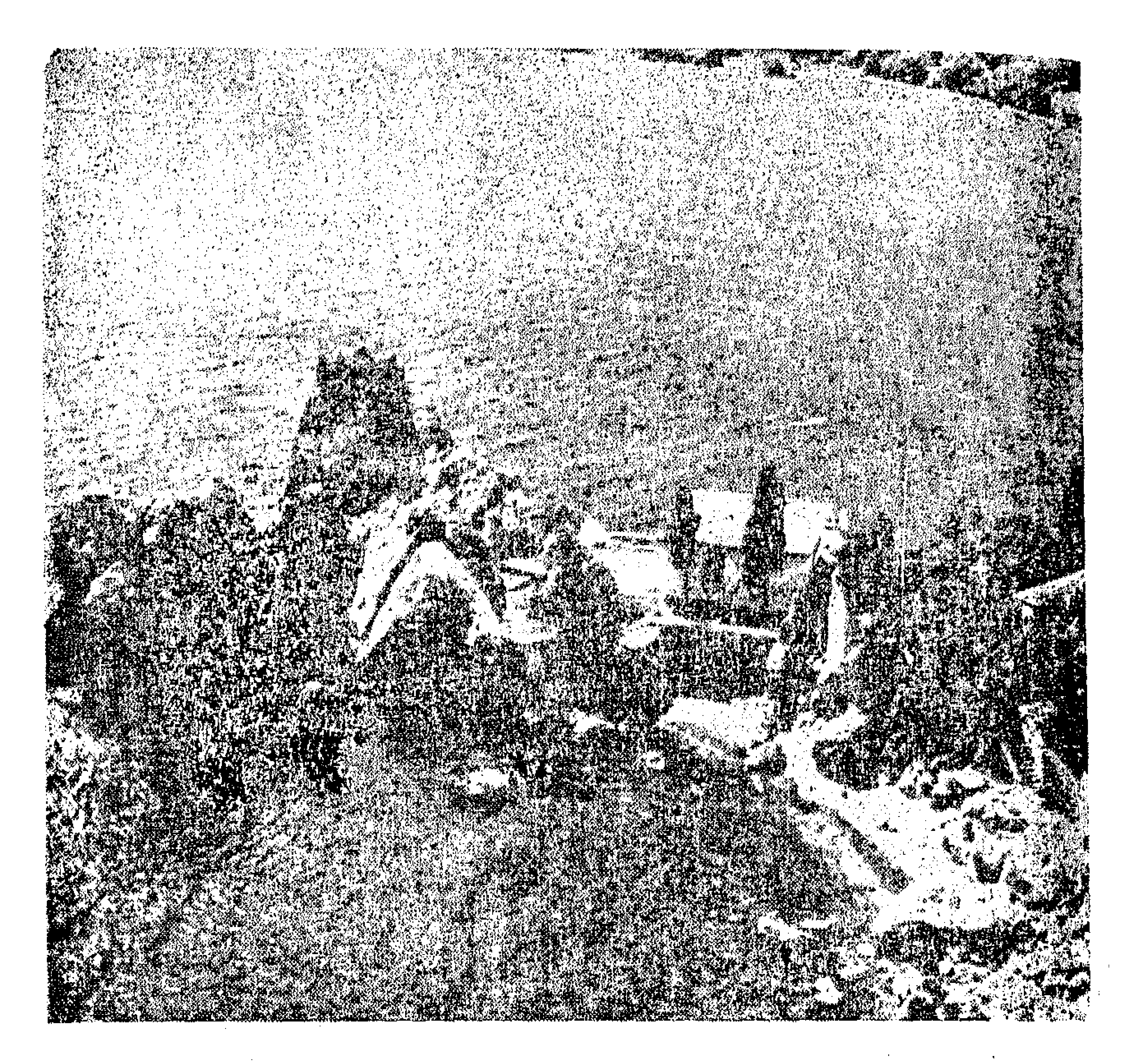
وقد استطاع ريابوفسكي بالطبع أن يعبر عن تلك الفلسفة بأسلوب أكثر براعة وتهذيبا من أسلوب المهندس الريفي في قصة « حياتي » ولكن جوهر حديثه الشعري لا يختلف كثيرا عن حديث ذلك المهندس . أن الطبيعة غامضة غير محدودة والانسان ضئيل تافه الشأن . وما دام الانسان صغيرا على هذا النحو وكل شأن في الحياة لا قيمة له فمن العبث أن يشغل المرء نفسه بأمر الفضيلة والرذيلة أو بأمر الحياة كلها على الاطلاق . وليس عليه اذن أن يطمح الى حياة كريمة نقية أو يحمل نفسه عبء المسئوليات الثقيلة وعبء الواجب والاخلاص .

وقد أراد تشيكوف في مبدأ الامر أن يسمى قصة الدكتور ديموف وزوجته « الرجل العظيم » وأرسلها بهذا العنوان الى مجلة سيفر (الشمال) ولكنه عاد فكتب الى صاحب المجلة يقول : « الحق انى لست أدرى ماذا أسمى قصتي هذه ! فلست راضيا عن عنوان « الرجل العظيم » ولا بد أن نجد لها

عنوانا آخر . وأظن أن « الجرادة » عنوان صالح لها فلا تنس أن تنشرها تحت هذا الاسم الجديد » . والحق أن عنوان « الرجل العظيم » لا يمثل روح تشيكوف وان كان يمثل روح القصة في اخلاص .

وهكذا نرى أن أحب شخصيات تشيكوف الى نفسه كانوا من الرجال والنساء العاديين وان كل فرد منهم ليس مجرد شخص بذاته بل هو قطاع من الحياة بأجوائها وأساليبها المختلفة . وقد أحس النقاد من معاصرى تشيكوف بما فى طريقته الفنية من جدة ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوها على وجه التحقيق أو يدركوا ما فيها من دلالة وخصوبة لذلك قال أحد هؤلاء النقاد ان « تشيكوف هو أول وآخر كاتب روسى ليس فى قصصه أى أبطال » وليس صحيحا بالطبع أن قصص تشيكوف ليس لها أبطال . ولكن الصحيح أن أبطالها لا يمكن ان ينفصلوا عن بيئاتهم التى يعيشون فيها . فالبطل عند تشيكوف هو الواقع نفسه ، وهو الحياة فى وطنه تلك الحياة التى كان أبطاله جزءا لايتجزأ منها . على عكس الابطال فى قصص من سبقه من الكتاب فقد كانوا يعلون على بيئاتهم ولا يمثلون حياة الجماهير .

لقد كان الكتاب من قبل يمثلون أبطالهم فى كفاحهم ضد حياتهم الاجتماعية السوقية الضيقة ، حياة الطبقة الارستقراطية ، لكى يصبحوا أكثر قربا من الشعب . ومن هذه الناحية أمكن أن يعتبر هؤلاء الابطال ممثلين للتيارات التقدمية والنزعات الاصلاحية فى المجتمع الروسى حينذاك . ولكنهم كانوا فى نظر أبناء الطبقة الارستقراطية التى ينتمون اليها بحكم مولدهم شواذا غير عاديين . وكان مقضيا عليهم من هذه الناحية ان يظلوا بمعزل عن الشعب . أما أبطال تشيكوف فانهم يجيئون من بيئات أكثر سعة وديموقراطية وقد كان الكاتب يدرك عن وعى طبيعة هؤلاء الابطال ويسعى جاهدا لكى يزيد من قدرته الفنية على تصوير واقع الحياة . وقد كتب فى هذا الصدد الى جوركى يقول أن شخصيات القصة ينبغى الا يكونوا متميزين منعزلين عن الجماهير . ثم



المنزل الذى عاش فيه تشيكوف فى جيرزوف ـ كريميا

يثنى فى رسالته على قصص جوركى « قصص من القرم » ، لان قارئها « يحس الىجانب احساسه بشخصياتها بالجماهير الشعبية التى يعيشون بينها وبالهواء والطبيعة والحياة التى يتحركون فيها وبكل شىء من حولهم »

وحتى فى أشد قصص تشيكوف قصرا نستطيع أن نحس بوجود الجماهير الانسانية التى تخرج منها شخصيات ونشعر بتيار الحياة المتدفق من خلال أعمال الفرد . ومعنى ذلك أن بطل تشيكوف الاول كان هو الحياة نفسها .

الكاتب الروسي.. ما هو النبوغ..؟

لم تكن الحقائق التى انتهى اليها تشيكوف فى اعماله حقائق ثورية بمعنى الكلمة ولكنه كان مع ذلك يدرك انه قد أدخل الى فن عصره عنصرا جديدا يمثل الادب الديموقراطى للطبقة المتوسطة الذى كان يختلف اختلافا تاما عن أدب الطبقة الارستقراطية وطبقة البرجوازية من أصحاب المبادىء « الليبرالية » ذلك الادب الذى كان يدعو الناس الى أن يرضوا بواقع عصرهم المرير . لذلك أحس تشيكوف بحاجته الى من يعضدونه فى حركته واخذ يكافح ليعلى من شأن كل الموهوبين من الكتاب الذين عمل معهم فى المجلات وربطت بينه وبينهم عواطف مشتركة واخلاص للادب الجاد العميق . وكان لهذا ينظر الى الادب باعتباره عملا جماعيا . وليس أدل على ذلك من رده على أديب من أصدقائه كان قد كتب يقول ان تشيكوف « فيل » بين جماعة من أقزام الحيوان . فقد جاء فى هذا الرد قوله : « فى اعتقادى ان أحدا منا لن يكون « فيلا » بين الاخرين واننا لن ننجح الا بالجهد المشترك لكل أدباء جيلنا . وحين يؤرخ الادب الروسى لن نسمى بأسمائنا بل سيطلق علينا « أدباء العقد الثامن او نهاية القرن التاسع عشر » . وهذه الفكرة تتمثل بوضوح فى أعمال تشيكوف الادبية . فليس بين شخصياته « أفيال » ضخمة . بل انه كلما ازدادت شخصياته قوة وتميزا كانت اكثر تعبيرا عن مشاعر عامة الناس من الافراد العاديين .

وقد كان العقد الثامن فترة عصيبة بالنسبة للكتاب فاختفى بعضهم وانحدر آخرون وأصاب السأم طائفة ثالثة فكفوا عن الكتابة . وكان تشيكوف يدرك حقيقة الصعوبات التى يعانيها الموهوبون من الكتاب الذين نشئوا من الطبقات الدنيا فى المجتمع . وقد كتب فى ذلك الى لازاريف جرونسكى حين نال جائزة بوشكين يقول :

« انني بورجوازي يطمع ان يعيش عيشة السادة . ولا شك ان أمثالي من الناس لا يستطيعون ان يحتملوا طويلا هذا الصراع بين نشأتهم وبين طموحهم بل يتقطعون كما يتقطع وتر كمان بولغ في شده . »

ويعبر تشيكوف عن هذا الشعور من خلال اليكسى لابتيف أحد شخصيات « الاعوام الثلاث » بقوله « لست استطيع ان أكيف نفسي حسب ظروف الحياة واتغلب عليها. ذلك لانى ولدت عبدا وحفيدا لاحد رقيق الارض . وما أكثر الذين يترددون في شعاب الطريق من أبناء طبقتى في سعيهم الى الطريق المستقيم » وليس مهما ان تكون هذه الكلمات قد جرت على لسان اليكسى لابتيف وارث الملايين عن أبيه الذى كان في مبدأ امره فلاحا بسيطا . فقد كان المؤلف ينظر اليه على انه نموذج للمثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة . وكان يدرك ما يحيط بهذه الطائفة من خصوم يتربصون بهم ويتمنون أن تتاح لهم أية فرصة ليشمتوا « بأبناء الطاهيات » هؤلاء ، وقد رسم في قصته « في الضيعة » صورة لاقطاعى كانت بناته أنفسهن يطلقن عليه لقب « الضفدعة » . وفي أثناء حديث هذا الاقطاعى مع قاض شاب كان يظنه « سيدا » اخذ يشرح له نظريته عن « الدم الازرق والطبقات الدنيا » ويدعوه الى أن يشترك في « الحرب الصليبية » ضد الطغام من أبناء الشعب » قائلا أن كل كبار الكتاب الروسيين من أمثال بوشكين وجوجول وليرمنتوف وتيرجنيف وتولستوى قد نشئوا من الطبقة الارستقراطية . أما المثقفون من أبناء الطبقة المتوسطة فانهم لم يقدموا شيئا يستحق الذكر . ثم يقول ساخرا :

« وما رأيك يا سيدى في هذه الحقيقة البليغة : في اللحظة التي يشق فيها أحد هؤلاء الطغام طريقه الى المناطق المحرمة عليه ، الى المجتمع الراقى والعلم والادب والطب والقانون ، تهب الطبيعة نفسها لتحمى حقوق الانسانية الراقية تعيلن

الحزب على القطيع . وما ان يخرج واحد من هذه الفئة عن حياته التى الفها حتى يعتريه السقم ويصيبه الانحلال والتدهور والجنون . ولن تجد من الامراض النفسية والجسدية فى أية طبقة ما تجده بين أبناء هذه الطبقة . انهم يهلكون كما يهلك ذباب الخريف ... فلنتعاهد اذن ان نقذف فى وجه من يدنو منا من أبناء هذه الطبقة بعبارات الاحتقار بمجرد رؤيته ونصيح فيه « مكانك صانع الاحذية ! » ويجيب الضيف بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من هذا لانه هو نفسه من ابناء تلك الطبقة الدنيا ويضيف قائلا : « لقد كان أبى عاملا بسيطا .. ولكنى لا أرى فى ذلك بأسا ... أجل لقد نشأت من الطبقة الدنيا وانا فخور بهذا »

ولم يستطع تشيكوف منذ صباه الباكر الا أن يفكر فى تلك الصعوبات التى تعوق كفاح الانسان فى سبيل الثقافة والخلق الفنى . وكان يدرك بوضوح ان التحول من بيئة اجتماعية الى اخرى والانتقال من الجهالة التى تكاد تشبه البربرية الى طبقة المثقفين ثقافة عالية تلك الطبقة التى تتركز حول الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية ، كثيرا ما تصحبه هزات نفسية عميقة وتوتر عصبى بالغ . وقد كان الموهوبون من أبناء الطبقات الدنيا يشعرون بما يقع على عاتقهم من مسئولية كبيرة تحتم عليهم أن يكونوا يقظين على الدوام وأن يكافحوا كفاحا متصلا فى سبيل حقهم فى الخلق الفنى وينموا مواهبهم بالثقافة والاطلاع . كان تشيكوف يدرك كل هذا منذ صباه الباكر ويريد للآخرين أن يدركوه كذلك . وقد كتب الى سيفورين فى يناير عام ١٨٨٩ هذه الكلمات التى قدر لها فيما بعد أن تصبح من مأثور الكلام .

ان المثقفين من ابناء الشعب يجدون أنفسهم مضطرين الى أن يشتروا بشبابهم مايرثه بالطبيعة الكتاب الارستقراطيون دون مقابل . لماذا لا تكتب قصة عن شاب كان أبوه من رقيق الارض . شاب اشتغل بالبيع فى أحد الحوانيت ثم بالغناء

فى الكنيسة ثم أصبح تلميذا فطالبا ونشأ على احترام السادة وتقبيل أيدى القساوسة وتقديس آراء الآخرين والتعبير عن عرفان الجميل ازاء كل لقمة يصيبها . شاب كان كثيرا ما يجلد وكثيرا ما يدور هنا وهناك فى حذاء ممزق ليعطى دروسا خصوصية ويضطر الى النفاق لا لشىء الا لشعوره بتفاهته وضآلة شأنه . وتستطيع أن تصف كيف عصر هذا الشاب من نفسه مشاعر العبودية قطرة قطرة حتى استيقظ ذات صباح جميل فاكتشف أن عروقه لم يعد فيها اثر لدم ذليل وأنها تفيض بدم انسانى حقيقى ... ؟

وفى هذه الكلمات تتلخص تجربة تشيكوف التى عاناها فى سبيل تثقيف نفسه ثقافة جديدة قبل ان يصل الى مستوى الإنسان بالمعنى الصحيح .

لذلك كان يدعو كل أحبائه ليشاركوه فى حربه ضد كل ما يمت الى العبودية بصلة فى نفوسهم . ولم يكن كفاحه لتحرير نفوس أخوته نابعا من مجرد حبه الاخوى لهم بل كان كذلك رغبة من « شعبى » أن يرى مزيدا من أبناء طبقته فى طليعة الثقافة الروسية .

ولكن الكساندر ونيكولا انحدرا من سيىء الى أسوأ . وقد كان تشيكوف فى كفاحه من أجل موهبتيهما يطمع قبل كل شىء فى أن يصبحا انسانين بالمعنى الصحيح . وكان يدرك ما يشعران به فى أعماقهما من كره لسوقية الطبقة المتوسطة التى كانت كلمة « تاجنروج » تقوم فى ذهنيهما رمزا لها ، ويعرف أنهما يعدان نفسيهما ثائرين يناضلان ضد كل ما يكبت حرياتهما . ولكنه كان الى جانب ذلك يدرك ما فى نفسيهما من ضعف وانهما على النقيض مما يزعمان لم يستطيعا أن يقهرا ما فى ضميريهما من مبادىء العبودية التى كانا يتخيلان انهما قد تخلصا منها بحياتهما الفوضوية العنيفة .

ولكفاح تشيكوف فى سبيل أخويه الكساندر ونيكولا دلالة

كبيرة تقدم صورة خفية لبعض ملامح شخصيته وهو لذلك جدير بأن نتحدث عن بعض جوانبه الخاصة :

كان الكساندر قد تزوج زواجا مدنيا بعيدا عن الكنيسة فأغضب ذلك أباه . وساء الكساندر أن يغضب ابوه لهذا الأمر وكتب اليه يحتج على موقفه من هذا الزواج ويحاول في نفس الوقت أن يقنعه بوجهة نظره . وكذلك كتب الى اخوته يشكو اليهم أباهم . وفي ابريل عام ١٨٨٣ كتب تشيكوف الى أخيه :

« لست أدرى ماذا تتوقع من أبينا وانت تعلم انه صلب كالصخر لا يمكن أن يتزحزح عن موقفه . ولعل ذلك هو سر قوته .. وكأنى بك لا تعلم هذه الحقيقة بنفسك ! يا لك من انسان غريب حقا ! ان المرء لا يتخلص من الاشواك عن طريق الاحتكاك بها بل بتجنبها . فدعه اذن يعتقد ما يحلو له فهذا من شأنه وحده وما دمت تعلم إنك على حق فامض فيه مهما يكن رأى الآخرين أو شعورهم . أن الاحتجاج في عزة هو ملح الحياة »

ويتقدير تشيكوف للقوة على هذا النحو ذو دلالة كبيرة . فمع أن آراء أبيه كانت تناقض آراءه فانه كان يقدر أباه لصلابته وحزمه . ثم هو يدعو أخاه الى ان يتمسك بآرائه بمثل صلابة أبيه . ولقوله أن الاحتجاج في عزة هو ملح الحياة اهمية كبرى لمن يريد أن يفهم نفسية تشيكوف . فان هذا الرأي يكمن وراء كل كتاباته ونستطيع أن نلمسه في كل أعماله التي يهاجم فيها ضعف طبقة المثقفين . وفي رأيه أن الاحتجاج الوجل المتردد لا قيمة له على الاطلاق وهو لا يدل الا على أن آثار العبودية في نفس صاحبه لم تقهر بعد .

وقد كان اهتمام تشيكوف بكرامة أخويه الانسانية اهتماما في الوقت نفسه بموهبته ككاتب ، وليس أدل على ذلك من أن أول نقد كان يوجهه الى قصص أخيه الكساندر انها كانت غير

خالصة من آثار العبودية . وقد أشار فى تلطف الى هذه الآثار فى خطاب كتبه الى الكسـاندر فى ابريل عام ۱۸۸۳ فسماها « الذاتية » ونصح أخاه بقوله :

« كن صادقا قدر الطاقة . ولا تجعل لنفسك بطل قصصك بل احتفظ بها فى المنظر الخلفى من الصـورة وحاول ان تنساها لمدة نصف ساعة من الزمان ، على الاقل ، لقد كتبت مثلا قصة عن شهر العسل صورت فيها عروسين فى حفلة عشاء وقد راحا يغنيان ويمرحان ويقبل كل منهما الآخر . ولكنك لم تزد على أن صورت هذا الشعور بالسعادة عند العروسين وكأنك لم تكن تفكر فى القارىء بل كان كل ما يعنيك أن ترسم تلك الصورة التى استهوتك . ولو قد فكرت فى القارىء لوصفت له العشاء ، وكيف كانوا يأكلون وماذا كانوا يأكلون ، ولوصفت له الطاهية وحدثته عن سوقية البطلة وهيامها المجوج برجلها المتخم البدين كأنه الاوزة المحشوة وقد ثبت « فوطته » تحت ذقنه . »

وتذكرنا هذه الرسالة الاخوية بحديث دار بين الاخوين لابتيف فى « الاعوام الثلاثة » . حين قال لابتيف لاخيه بعد قراءة مقال كان قد كتبه أخوه : « ولكنه هذيان كهذيان الخدم ليس غير ! » . على أن تشيكوف كان بالطبع أكثر لباقة وتلطفا ولكن ماينطوى عليه نقده لاخيه لا يختلف فى حقيقته عن هذه العبارة العنيفة . وقد أحس تشيكوف فى كتابات أخيه الكساندر بروح الطبقة البرجوازية وأدرك انه قد انساق وراء ادب ليكين ولم يستطع أن يقاومه واوشك أن يصبح كاتبا من كتاب هذه البرجوازية . وقد كان تشيكوف يحارب مذهب ليكين .

حتى فى نطاق أسرته نفسها .

ومع انه كان ينتقد « الذاتية » فى قصص أخيه فانه قد نصحه ان يظل فى فنه على طبيعته ولا يشوه ما فى نفسه من

خير أو ينحرف به . فقد كان يدرك أن فى نفس اخيه كثيرا من الخير والنقاء والموهبة ويعتقد أن فى امكانه ان يصبح كاتبا من الطراز الاول . ومما يدل على ذلك ما جاء فى خطاب أرسله الى الكساندر ردا على تهنئته اياه بعيد ميلاده :

- ان خطابك فنى الى درجة عجيبة ! الا ترى انك لو استطعت أن تكتب قصصا فى جودة رسائلك لكنت قد أصبحت منذ زمن بعيد كاتبا ضخما عملاقا ؟ .

والحق أن خطاب الكساندر كان شيئا ممتازا يدل على مدى ما كان لدى كاتبه من موهبة طبيعية . وهو ملىء بذكريات الطفولة ، يصف فيه الكساندر كيف أدرك لاول مرة أن أخاه الصغير انطون قد بدأ يصبح ذا شخصية مستقلة لا تتأثر بآرائه ، وكيف غلبه الحزن لذلك حتى أوشك على البكاء . وفى الخطاب الى جانب هذا لمسات فنية كثيرة وشىء غير قليل من الفكاهة وروح الشعر ويشيع فيه أسى رقيق لا يبدو فى كلمات بعينها ، ينبع من احساس الكساندر بأن انطون قد تفوق عليه بعد أن كان هو فى صباه متفوقا ينظر الى المستقبل فى ثقة ، وها هوذا قد دخل فى العقد الرابع من عمره دون أن يفعل شيئا يستحق الذكر . وهكذا تمتزج ذكريات طفولته الحزينة بأحزان رجولته الناضجة .

ولا شك أن تشيكوف قد استطاع أن يقرأ ما بين السطور فى خطاب أخيه فأدرك نقد أخيه القاسى لنفسه ولم يملك الا الاعجاب بالاسلوب الخفى الذكى المرح الذى عبر به أخوه عن هذا النقد .

ومعنى أن يكتب المرء قصصا فى جودة ما يكتب من رسائل هو أن يكون قادرا على التعبير عما فى نفسه كما فعل الكساندر فى خطابه ومع ذلك فلا يفرض نفسه على القارىء بل يدع له الفرصة لكى ينسى كل شىء عنه ويرى الحياة كما هى — الحانوت فى تاجنروج ، والطفولة بألعابها وخصوماتها من

خلال ما تفيض به نفس الفنان من موسيقى خفية تشيع فى القصة بأكملها .

ولو جمعنا آراء تشيكوف المتفرقة عن الفن ومسئولية الفنان مما عبر عنه فى كفاحه الطويل فى سبيل الدفاع عن مواهب أخويه وغيرهما من أصدقائه لظفرنا بمذهب كامل عن طبيعة الموهبة الفنية .

وقد كتب تشيكوف الى بليشييف فى شأن الكاتب الموهوب جيليا روفسكى فقال :

« انه يحس بما فى اعمال الآخرين من جمال ويدرك أن القصة الناجحة تعتمد قبل كل شىء على البساطة والصدق . ولكنه تعوزه الشجاعة لكى يكون هو نفسه بسيطا صادقا فيما يكتب » .

كان تشيكوف يتطلب الشجاعة من الفنان اذ كان يرى أن الموهبة هى الشجاعة .

ونحن نعلم ان الموهبة عند تشيكوف تتصل اتصالا وثيقا بالمشاعر الانسانية والمستوى الاخلاقى الرفيع . وقد جاء من ذلك فى قصته « أحاسيس عنيفة » التى كتبها عام ١٨٨٦ ضمن مجموعة خصصها للحديث عن الموهبة قوله ان الموهبة كعناصر الطبيعة فى قوتها ، انها كالاعصار الذى يستطيع أن يطحن الصخر فيحيله الى تراب ، انها قوة يمكن أن تخلق أو تدمر أى شىء . ولا شك انها تكون شيئا فى غاية الخطورة لو لم تقترن بالمشاعر الانسانية السامية . فالموهبة والاحاسيس الانسانية فى رأى تشيكوف لا ينفصلان ولا يمكن أن توجد أولاهما دون وجود الثانية .

وكان تشيكوف يسعى قبل كل شىء ليغرس فى نفوس اخوته تلك الصفات التى لا بد منها للانسان «حسن التربية» على حد تعبير تشيكوف سواء كان موهوبا أو غير موهوب . وقد شرح مبادئه الاخلاقية فى خطاب ارسله الى اخيه نيكولا عام ١٨٨٦ فقال :

« أنت تشكو دائما من أن الناس يسيئون فهمك ! .. وأوكد لك انى كأخ وصديق افهمك حق الفهم واقدر مشاعرك من كل قلبى .. انى أعرف صفاتك الطيبة كما اعرف اصابع يدى واحمل لهذه الصفات من التقدير العظيم قدر ما أحمل لك من الاحترام . واستطيع ان أردت أن أعددها لابرهن لك اننى أفهمك : فأنت فى رايى فى غـاية الطيبة والكرم والايـثار والاخلاص ، وانت لا تحمل حسدا ولا حقدا وتعطف على الحيوان والانسان على السواء .. ولديك بعد هذا كله ما ليس لدى الاخرين لانك انسـان موهوب »

كل هذه صفات ممتازة كان يقدرها تشيكوف خير التقدير ولكنها لم تكن تقاس فى نظره الى « حسن التربية » . لذلك يضيف فى خطابه قوله :

« ولكن فيك عيبا واحدا يسبب لك كل ما تشعر به من ضيق وحزن هو انك ينقصك « حسن التربية » . أرجو الا يغضبك قولى فان « الحقيقة أعظم الاصدقاء ! »

ويمضى تشيكوف فيقول : « ان الانسان الذى يربى تربية طيبة يحترم شخصيات الآخرين فيعاملهم برقة وتسـامح وأدب ومجاملة .. وهو (وتشيكوف يلمح هنا الى أخيه) .. لا يقيم الدنيا مثلا من اجل مطرقة لا يدرى اين وضعها أو قطعة من المطاط لا يستطيع أن يجدها . واذا عاش مع بعض الناس فانه لا يرى ذلك تفضلا منه واذا تركهم فانه لا يقول لهم : « من المستحيل أن يعيش المرء معكم ! » . وهـو يستطيع أن يحتمل الصخب والبـرد .. والدعابات ، ولا يضيق بوجود بعض الغرباء فى البيت .. ورحمته لا تقتصر على السائلين والقطط بل يدمى قلبه لما ينطوى تحت مظهر الحياة .. انه صريح يتجنب الكذب كما يتجنب المرء الوباء .. فالكذب امتهان للسامع والمتحدث على السواء . وهو يكره التظاهر الاجوف ولا يتيه على من هم دونه ، وليس ثرثارا

يفرض على الآخرين أسراره ومشكلاته الخاصة . انه لا يلتمس عطف الآخرين بامتهان نفسه ولا يستدر شفقة الناس لكى يلتفتوا اليه ويهتموا بأمره . وهو لا يشكو قائلا : « ليس هناك من يفهمنى ! » أو « لقد بددت موهبتى فى أشياء تافهة ! » .. فان ذلك شعور سوقى مبتذل .. انه بعيد عن الغرور ، ولا يخدعه البريق الزائف فيحرص مثلا على أن يتعرف الى وجهاء المجتمع .. وهو اذا قام بعمل صغير لا يختال أمام الناس مزهوا بحقيبة أوراقه (كان نيكولا فنانا) وكأنها تحتوى روائع الفن ، ولا يفخر بأنه يتردد على مجالس السادة دون غيره فان العبقرية الحقة تؤثر أن تبتعد عن الضوء وتبقى وسط الزحام ولا تحفل كثيرا بأن تعرض نفسها .. ألم يقل كريلوف ان البرميل الفارغ يحدث من الضوضاء ما لا يحدثه البرميل الملىء ؟ انه يحترم موهبته أن كان موهوبا ويضحى فى سبيلها بالامن والحب والخمر والغرور .. انه يعتز بها ويدرك أن على عاتقه أن يؤثر فى الآخرين ويعلمهم .. وهو لذلك ذو حس مرهف وشعور دقيق بالجمال والقبح فهو لا يرضى مثلا ان ينام دون أن يغير ملابسه أو يرى البق فى شقوق الحائط ، أو يتنفس هواء فاسدا او يمشى على أرض قذرة .. وهو يحاول أن يروض غرائزه الجنسية ويسمو بها ، فلا يتطلب من المرأة مجرد متعة الفراش واللذة الحيوانية أو الذكاء السطحى الذى يتمثل فى أن تكون قادرة على الكذب دون كلال . انه يتطلب منها ــ وبخاصة اذا كان فنانا ــ النقاء والرقة والانسانية والصفات التى تجعل منها اما صالحة .. وهو لا يريق الفودكا اينما ذهب ويتشمم أبواب الدواليب كما تفعل الخنازير .. ومع ذلك فقد يشرب أحيانا فى وقت فراغه او لمناسبة خاصة لانه يدرك ان العقل السليم فى الجسم السليم .

هكذا يكون الرجل المهذب . ولا يكفى لكى يبلغ المرء ذلك

المستوى أن يكون قد قرأ « أوراق بيكويك » او حفظ عن ظهر قلب بعض حوار « فاوست » .. بل لا بد له من الجهد المتصل والقراءة الدائبة بالليل والنهار .. ان كل لحظة في حياتك لها قدرها .

ويختتم تشيكوف خطابه الى اخيه بقوله : « انس كل شيء في حياتك الحاضرة وعد الينا . حطم كأس الفودكا وعد فاني انتظرك .. كلنا ننتظرك ! »

ولكن عبثا كان انتظاره .

كان تشيكوف يحب اخاه اصدق الحب ويحمل لموهبته أعمق التقدير . والحق ان اخاه كان فنانا بارعا وكانت رسومه الكاريكاتورية التي تمثل البرجوازية الصغيرة من التجار والطبقة المتوسطة من سكان موسكو في العقد الثامن تتميز بالصدق والواقعية والجمال الفني وهي لذلك تصلح مادة خصبة لدراسة روح ذلك العصر ، وهو في طبيعة موهبته يشبه تشيكوف الى حد كبير ، فليس في رسومه تلك الغلظة أو « الطبيعية » العارية التي نجدها في أعمال زملائه في مجلة ستريكوزا ، بل كان كانتوشا تشيكونتي يخلق الطبيعة الجافية خلقا آخر بما يبثه فيها من روح الشعر والفكاهة . وقد رسم نيكولا صورا لبعض قصص أنتوشا تشيكونتي . وجاء وقت كان الاخوة الثلاثة يعملون فيه معا بموسكو في الصحيفة الفكاهية زريتل . وكان أنتوشا سعيدا كل السعادة بهذا التعاون فقد كان يذكر بمرحهم ودعابتهم أيام الطفولة والصبى .

وجرب نيكولا أن يرسم لوحات كبيرة فجاءت كسائر أعماله براعة وفنا . ومع ذلك فقد مضى يبدد ملكاته في الشراب ولم يستطع تشيكوف الا أن يقف مكتوفا ينظر في الم وحسرة وغضب .

وفي غرفة صغيرة بأعلى البيت الذى كان يسكنه تشيكوف وسائر افراد أسرته بموسكو كانت تقوم لوحة كبيرة لم تكمل صورفيها نيكولا حائكة ملابس وقد غلبها النعاس في مطلع الصبح فانكفأت فوق عملها . ومن المرجح ان هذه اللوحة هي التي اشار اليها تشيكوف في خطاب أرسله الى أخيه في ابريل عام ١٨٨٣ فقال :

« ان نيكولا يمضي وقته في العبث . ان موهبة روسية كبيرة طيبة تتبدد وتفنى في غير طائل . لقد رأيت لوحته التي لم تتم بعد . وهو الآن منصرف الى متعه الرخيصة السوقية بينما تبقى لوحة ممتازة معلقة على الحائط دون أن تتم ! »

وموضوع هذه اللوحة يمثل اتجاه تشيكوف تمثيلا صادقا بما كان لديه من حب لعامة الناس وما في حياتهم من مشقة . وقد كان عبث نيكولا في نظر تشكوف يعني عجزه عن أن يدرك واجبه الذى تفرضه عليه موهبته نحو هؤلاء الملايين من عامة الشعب .

وقد كان هذا الخطاب من تشيكوف ـ على ما به من تحفظ ـ شيئا جريئا اذا قدرنا ما كان عليه نيكولا من غرور كبير وطبع حاد وبعد عن التسامح . والخطاب الى هذا معين فياض بالحكمة . فما كان أحكم تشيكوف حين فرق بين مواهب نيكولا « الطبيعية » التي لم يبذل في سبيلها أى جهد وبين تلك الخلال التي تحتاج الى أن يغرسها المرء في نفسه غرسا . فالثقافة هي ما يضيفه الانسان الى الطبيعية ويغيرها به في الوقت نفسه . والرجل المثقف والرجل المهذب شخص واحد في نظر تشيكوف ، لذلك لم يكن يستطيع أن يعد كل من تخرج في الجامعة مثقفا بالضرورة . وأن يكون المرء رحيما أو موهوبا كما كان نيكولا لا يحتاج الى جهد فانه يولد هكذا . ولكن لكي يكون المرء جديرا بما لديه من موهبة ولكي لا يصبح مجرد انسان موهوب ينبغي له أن يصقل ملكته وينميها ويعمل في سبيل ذلك عملا متصلا .

فالنبوغ فى الحقيقة ليس الا تثقيف النبوغ . ولكن نيكولا لم يكن يهتم بشيء من هذا اذ لم يكن يحمل اى تقدير لما لديه من موهبته . كان يقرأ قليلا ولا يعمل الا حين يهبط عليه « الالهام » وهكذا لم يكد يبلغ السابعة والعشرين حتى تجمدت ملكاته ، ووقفت عن التطور ..

أما الكساندر فكان على نقيض نيكولا ـ انسانا مثقفا . وكان لذاكرته العجيبة كأنه دائرة معارف تسير على قدمين . وكان كيميائيا موهوبا وذا معرفة كبيرة بالفلسفة والتاريخ واللغات . لذلك كان مشاهير العلماء يحرصون على أن يكون هو مندوب صحيفته فى جلسات الجمعيات العلمية لخبرته الكبيرة بأعقد مشكلات العلم . ومع ذلك فقد كانت تعوزه « الفكرة العامة » والنظرة المنهجية . لذلك يفتقد القارىء فى أعماله الهدف الكبير والحرارة والتطلع .

ومما يوضح رأى تشيكوف فى النبوغ سؤال بيلينا أندريفيا لسونيا فى مسرحية العم فانيا :

« أتعرفين ما هو النبوغ ؟ انه الشجاعة والعقل المتحرر والافق الواسع »

وقد كتب تشيكوف عن بليبين يقول :

« انه موهوب الى حد عظيم . ولكن ليس لديه ادنى معرفة بالحياة . وحيث لا تكون معرفة لا تكون شجاعة » . فالنبوغ اذن معرفة الحياة ، والنبوغ هو الشجاعة . وقد اعترف الكساندر لأخيه أنطون تشيكوف بأنه قليل الخبرة بالحياة . وقد يبدو ذلك غريبا بالنسبة الى مراسل فى صحيفة نوفويا فرميا احدى صحف العاصمة الكبرى تفرض عليه وظيفته أن يكون « عليما ببواطن الامور » ولكنه لم يكن يشارك فى الحياة بل كان يقف منها موقف المتفرج .

ان النبوغ هو الحرية او هو كما كتب تشيكوف « التحرر من سلطان الرغبات » ، ولا يعنى تشيكوف تلك الرغبات

العظيمة الخالقة التي لا وجود للنبوغ بدونها ولكنه يعنى الرغبات الجامحة البدائية .

غير أن أخوته كانوا مع الاسف عبيدا لرغباتهم وأهوائهم المتقلبة واسرافهم فى الشراب .

والنبوغ هو العمل ...

وقد كتب جوركى ـ الذى كان يقدر العمل والعاملين أعظم تقدير ـ يقول عن تشيكوف :

« لم ألق فى حياتى من يشعر شعورا عميقا شاملا بأهمية العمل كأساس للثقافة مثل انطون بافلوفتش » .

وقد كان العمل فى نظر هذين الكاتبين أهم شيء فى حياة الافراد والجماعة على السواء . ولم يكن شيء أجمل عندهما ولا أنبل منه .

ويروى بونين أن تشيكوف سأله عند أول لقاء لهما أن كان يكتب كثيرا . ولما أجابه بأنه لا يكتب الا قليلا علق بقوله :

« هذا شيء يؤسف له . ان علينا أن نعمل .. بلا انقطاع .. طول حياتنا ! » . وقد كان الالحاح على ضرورة العمل شيئا أثيرا لدى تشيكوف وكان كثيرا ما يردد قوله : « ان الكاتب الذى لا يعمل عملا متصلا فى ذلك الجو الفنى الذى يكشف عن حقائق الحياة لعين الفنان لا يلبث أن يحس بالفراغ والتفاهة ولو كان فى حكمة سليمان » .

وقد بدأ تشيكوف يروض نفسه على العمل المتصل منذ أن كان فى السادسة عشرة ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين حتى كان قد اكتسب تلك العادة فأصبحت من صميم كيانه . وبدأ حينئذ يحاول أن يدفع أخويه الى أن يروضا ارادتيهما ويكونا لنفسيهما تلك العادة . وكان دائم التأنيب لاخيه الكساندر لضعف ارادته وعجزه عن العمل الحق . وقد كتب اليه فى أبريل عام ١٨٨٦ يقول :

« كل القصص التى بعثت بها الى لارسلها الى ليكين كان

يشع فيها روح الكسل . أتراك كتبتها جميعا فى يوم واحد ؟ أنى لم أجد من بينها الا قصة واحدة جيدة أما سائرها فمليئة بالكسل والتفكير السريع والعمل التلقائى .. وهى لذلك لا قيمة لها .. سألتك بالله أن تكون أكثر احتراما لنفسك فلا تدع يديك تعملان اذا كان عقلك لا يشعر برغبة فى العمل . ولا تكتب أكثر من قصتين فى الاسبوع ، ونقحهما وراجعهما حتى تجيئا شيئا يستحق أن يكتب ! »

وفى رسالة أخرى يقول تشيكوف لاخيه وهو يرد اليه بعض قصصه :

« حاول أولا أن تجد عنوانا آخر لقصتك . ثم اختصرها يا أخى .. اختصرها الى النصف . وارجو الا تغضب حين أقول لك انى لا أعد القصة التى لا حذف ولا تبديل فيها قصة جيدة » . وقد استطاع تشيكوف رغم اشتغاله بعد تخرجه فى الجامعة بالطب والادب معا عدة سنوات أن يقرا كثيرا . ولم تكن قراءته مجرد نظر فى الكتب بل كانت دراسة عميقة دائبة . وقد أوصى أخاه نيكولا بذلك فقال :

« ان الفنان لا بد له من العمل المتصل فان هذا هو سبيله الوحيد الى البقاء »

ويقول تيخونوف عن تشيكوف وكان على صلة وثيقة به :

« كان تشيكوف يتميز بأنه دائم التفكير ، فى كل دقيقة ، بل فى كل ثانية . وسواء كان يصغى الى قصة ممتعة او يروى قصة بنفسه ، أو يتحدث الى امرأة أو يلاعب كلبا فانه كان لا ينقطع عن التفكير . وكان لذلك كثيرا ما يسكت عن الكلام فى منتصف جملة يقولها ، او يسأل سؤالا لا علاقة له بما يدور من حديث ، أو يبدو شاردا مشغول البال . وكان أحيانا يترك الحديث فجأة ليجلس الى احدى المنضدات فيدون على عجل بعض الخواطر فى قصاصات من الورق كان يحملها . وفى لحظات أخرى بينما هو ينظر الى محدثه اذا هو يبدو فجأة كأنه ينظر فى أعماق نفسه » . وفى ذلك يقول لشيجلوف :

« على الكاتب أن يعتاد ملاحظة نفسه ملاحظة واعية دائمة حتى يصبح ذلك طبيعة ثانية لديه » . وهكذا راض نفسه طول حياته ليكون كاتبا ، وكان دائما سيىء الظن بنفسه الى اقصى حد . وقد كتب الى الممثل سفوبودين يقول فى هذا الصدد :

« ان عدم رضى المرء عن نفسه من الخصال الجوهرية لكل فنان حق »

وكتب عام ١٨٨٩ يقول :

« لو قدر لى ان أعيش أربعين سنة اخرى فأقرأ واقرأ واقرأ وأدرب نفسي على اجادة الكتابة أعنى على الكتابة الموجزة لطلعت عليكم بما يروعكم ويذهلكم . أما الآن فلست الا قزما كالآخرين .. »

ولم يضعف مرور الزمن من سوء ظنه بنفسه بل لقد ازداد قوة حتى بعد أن أصبح كاتبا مشهورا . وقد جاء فى رسالة له الى سيفورين فى ديسمبر ١٨٨٩ : « لم أكتب بعد سطرا واحدا أراه ذا قيمة ادبية حقيقية . لا بد لى أن أدرس وأتعلم الاوليات فما زلت مؤلفا فاشلا ! »

وكان فى كل ما يتصل بالعمل قاسيا لا يرحم . وتتجلى هذه القسوة فى هذا التأنيب الذى وجهه الى ليكا ميزينوفا ــ التى كان شعوره نحوها مزيجا من الصداقة والحب ــ لانها لم تتم ترجمة كانت قد وعدته ان تقوم بها :

« يبدو انك لا تشعرين بأدنى الحاجة الى العمل المنتظم ، اياك أن تثيرى غضبى بكسلك مرة أخرى فلن اقبل منك أى عذر . انى ارفض كل عذر اذا كان الامر يتصل بعمل عاجل ووعد سابق »

وكان حكمه على الناس لا يكاد يقوم الا على موقفهم من العمل . ويظهر هذا فى ثنايا كثير من كتاباته . ورغم ما كان يحمل لاخويه من حب فانه كان يرفض أن يتأثر بشكاواهما الكثيرة من قسوة الحياة وسوء معاملة الناشرين ، وما كانا

يعانيانه من فقر وشعور بالمهانة والوحدة والسأم . وكان يدرك تمام الادراك ان أخاه يستحق ما كان يشكو منه من أن الناس يعدونه مجرد كاتب صحفي عادي .

اما هو فما شكا قط رغم ما كانت تفيض به حياته منذ طفولته الى آخر أيامه من عذاب وحرمان وصعاب مختلفة . وفي ذلك يقول جوركي :

« كتب تشيكوف في رسالة الى سيفورين يقول :

ـ ليس هناك شيء أكثر مدعاة الى السأم واشد بعدا عن الفن من الكفاح الرخيص في سبيل العيش ، ذلك الكفاح الذي يسلب الحياة كل متعة ويترك المرء في حال يرثى لها من العجز « وقد تمثل » الكفاح في سبيل العيش .. في شبابه في تلك المشاغل اليومية القبيحة الوضيعة من أجل قوته وقوت أسرته تلك المشاغل التي فرضت عليه أن يضحي بريعان شبابه وينفقه في قلق متصل لا تشوبه أية بهجة . ومن العجيب انه مع ذلك قد احتفظ بروحه المرحة وقدرته على الفكاهة »

ويقول في ذلك بونين أيضا :

« ان تحفظ تشيكوف برهان رائع على قوة شخصيته . فمن ذا الذي سمعه مرة يشكو ؟ وكم كان لديه من أسباب الشكوى ! لقد بدأ عمله وسط اسرة كبيرة ، وعانى الفقر طوال شبابه ، ولم يقتصر الامر على ذلك الاجر الضئيل الذي كان يناله لقاء عمله بل كان عليه أن يعمل في بيئة جديرة بأن تطفيء جذوة اى الهام ، في شقة ضيقة يسودها الضوضاء والصخب . واذا جلس الى المائدة لم يجلس اليها مع أسرته جميعها فحسب ، بل مع كثير من الطلبة القاطنين معهم ايضا وقد استمر يعاني جهد الفقر مدة طويلة بعد ذلك . ومع هذا فان أحدا لم يسمع منه كلمة تذمر لا لانه كان بليد الاحساس فقد كان يحيا حياة فيها كثير من البساطة النبيلة ويمقت القبح والسوقية ولكن لما راض نفسه عليه من الارادة وقوة الاحتمال . لقد ظل مدى خمسة عشر عاما يعاني آلام مرض خطير ساقه الى القبر في النهاية .. وكثير من المرضى يجدون

متعة فيما يهيؤه لهم المرض من شعور بالعطف ويلذ لهم ان يعذبوا من حولهم بشكواهم الدائمة وتذمرهم المتصــل . أما تشيكوف فقد أبدى أثناء مرضه وفى ساعاته الاخيرة شجاعة رائعة حقا ! . .

كان أحيانا يشعر بألم فظيع ولكن قلما شعر أحد من حوله بذلك . وقد تسأله امه أو أخته حين تلاحظ انه قد ظل جالسا طول اليوم فى مقعده مطبق العينين :

« أبك شيء يا انتوشا ؟ »
فيجيبها وقد فتح عينيه الصافيتين :

« أنا . . لا ، لا شيء ، غير صداع بسيط ! »

على أن هذه القوة هى الاخرى لم تكن فطــرية بأية حال بل لقد غرسها فى نفسه ونماها بالمران المتصل ودفع ثمنهــا من الجهد والتضحية التى فرض عليه طول حياته ان يبذلهــا فى سبيل اى شيء يناله .

كان تشيكوف يدرك أن الموهبة وحدها لا تكفى . ولكنه مع ذلك كان يدرك أن الموهبة شيء عظيم ويرى حتما على من رزقها أن يعمل لكى يتسق معها اتساقا كاملا ويصبح جديرا بها . عليه أن يخلص عقله ووجدانه من كل شــائبة ويرتفع بنفسه الى مستوى موهبته . وما دام هناك فرقة بين الانسان وموهبته فلن يتحقق له الا شيء من البراعــــة الهشة التى لا يمكن أن تسمو الى مرتبة النبوغ . وقد استطاع تشيكوف بما بذله من جهد هرقلى أن يحقق ذلك الاتســـاق الكامل بينه وبين موهبته . على حين عجز أخواه عن هــذا فتبدد ما كان لديهما من مواهب . وهكذا أصبح الكساندر الانسان الموهوب الطيب القلب مجرد صحفى عادى يقضى ايامه فى صحيفة نوفويا فيرميا فى سلبية مطلقة ورضى بالواقع بينما قطع تشيكوف صلته بهذه الصحيفة حين أصبحت اراؤه السياسية والاجتماعية لا تتفق مع اتجاهها ومستواها وقضى الكساندر شيخوخته فى وحدة كئيبة زاد من كآبتهــا

ما تكشف له فجأة فى السنوات التى سبقت الثورة من ان الناس ينظرون الى من يكتبون فى تلك الصحيفة نظرة احتقار وازدراء . ومات عام ١٩٠٣ فلم يشعر بموته أحد ولم يخلف وراءه الا بضع قصص ذات مستوى لا بأس به ، ورسائل كثيرة الى أخيه انطون يتجلى فيها ما كان يكمن فى نفسه من نبوغ . وفى حياته تتمثل قصة رجل لم يستطع أن يستغل موهبته فهجر العمل الفنى الخالق الى العمل التافه السطحى

أما نيكولا فقد كانت له قصة أخرى أحفل بعناصر المأساة فقد مات فى الواحدة والثلاثين بعد أن تحالفت الخمر والمرض عليه ، ورغم انه كان ذا موهبة اعظم بكثير من موهبة الكساندر فانه هو الآخر لم يستطع أن يستغل تلك الموهبة .

وكم كان فى تلك الفترة من أمثال الكساندر ونيكولا من الشباب الموهوبين الذين ضاعت ملكاتهم قبل أن يتاح لهـا الظهور والنضج ! وكان تشيكوف يحس بمسئولية كبرى نحو تلك الملكات الضائعة ويشعر بأن عليه أن يعمل فى سبيلها جميعا . وقد عمل كثيرا فى ذلك السبيل دون أن يتذمر أو يشكو ..

أوقات عصيبة

كان تشيكوف فى أواخر العقد الثامن يعانى أزمة نفسية شديدة رغم ما كان يبدو عليه من مظاهر الرضى والسعادة . وكان حينئذ يعيش مع أسرته فى بيت ذى طابقين كان قد استأجره وكان يتردد عليه كثير من الشباب فيعزفون على البيانو (الذى كان مستأجرا كذلك) ويغنون ويتحدثون فى حماسة وصخب فى الطابق العلوى بينما يجلس هو الى مكتبه فى الطابق الاول يكتب على ضجة الموسيقى والضحك . وقد يصعد اليهم احيانا فيشاركهم فى لهوهم وغنائهم . لذلك كانت حياته فى تلك الفترة تبدو مليئة بالمتع والبهجة .

وقد كتب فى هذه الاثناء قصتين من أكثر قصصه حياة وسعة ومن أحفلها بروح الشعر ، هما قصتا « السعادة » و « البرارى » .

وتشيع فى القصة الاولى روح من التأمل والحزن الوديع .

فالحياة حافلة بالسعادة ولكنها مدفونة فى أغوار الارض ، كتلك الكنوز الخفية فى أعماق « البرارى » . ولا يعرف أحد كيف يعثر عليها . يقول الراعى العجوز : « هناك سعادة ، ولكن ما قيمتها ، وهى مدفونة تحت الارض ؟ انها تتعفن هناك دون جدوى كأنها قشور القمح أو أبعار الغنم ! ان فى الحياة من السعادة يا بنى ما يكفينا جميعا ولكن احدا لا يستطيع أن يراها ! سينتهى الامر بأن يستولى عليها السادة أو الدولة . لقد بدأ السادة ينقبون عليها بعد أن شموا رائحتها . انهم ينفسون السعادة على الفلاحين ! والدولة أيضا مثلهم ، فقانونها ينص على انه اذا عثر احد الفلاحين على كنز فلا بد أن يبلغ عنه رؤساءه ! ولكن لا بأس ، فلن يجىء يوم يبلغ بنا فيه الحمق الى هذا الحد ! »

وضحك الراعى العجوز فى سخرية ثم جلس على الارض .

ويعبر تشيكوف فى هذه القصة فى صورة سياسية جديدة عن سعى الفلاحين الدائب وراء السعادة وايمانهم القديم بأن على الارض منهــا ما يكفى الجميــع لو لم يحتكرها الأثرياء والسادة .

ويستأنف الراعى حديثه وهو يهرش رأسه فى ارتباك :

« والحق انى حاولت انا نفسى العثور عليها ــ فعلت ذلك اكثر من عشر مرات فى حياتى ــ بحثت عنها فى مظانها ولكن يبدو أن تلك الكنوز كانت مرصــودة . لقد فتش عنها أبى واخى من قبل فلم يظفرا بشىء وماتا قبـــل أن يعثرا على سعادتهما . . »

« . . ويفيق « الملاحظ » من حلمه ويدفع براســه الى الوراء . . ثم يقول :

« هو ما تقول انها جد قريبة وجد بعيدة معا . . أن الحياة مليئة بالسعادة ولكننا لا نعرف كيف نبحث عنها ! »

ثم التفت الى الرعاة وقد بدأ فى ملامحه الخشنة مزيج من السخرية وخيبة الامل وقال فى بطء وهو يضع قلمه فى ركاب جواده : « وا حسرتاه ! سنموت دون أن نرى طلعة السعادة ودون أن نعرف كنهها . ربما عثر عليها شبابنا يوما ما أما نحن فينبغى أن ننسى كل شىء عنها »

ونهضت الحدآت وبدات تطير فوق الحقل فى صمت واحدة بعد الاخرى . ولم يكن يستطيع المشاهد أن يحس اى معنى فى طيران الطيور الكسول ولا فى الفجر الذى يطلع بانتظام يوما بعد يوم ولا فى تلك المساحة الشاسعة من البرارى الممتدة على مدى البصر .

ويطلق الملاحظ ضحكة حزينة ويقول متعجبا :

« يا الهى ! انظروا ! الى كل هذا ثم حاولوا أن تجــدوا السعادة فى ذلك العالم الكبير ! »

« الحياة مليئة بالسعادة ولكننا لا نعــرف كيف نبحث

عنها » .. عبارة يمكن أن تجد فيها شعارا لاعمال تشيكوف جميعها ، ومفتاحا لذلك الشعاع من التفاؤل العميق الذى يتخلل كل تلك الاعمال ، ولذلك الحزن العميق ايضا الذى تفيض به كتابات ذلك الفنان وتصويره لمشكلات تلك الفترة الانتقالية التي كان يعيش فيها . والحق أن قارىء تشيكوف يحس احساسا قويا بايمان تشيكوف بالسعادة ايمانا ثابتا يبلغ حد العناد . وبايمانه بأن الحياة ينبغى أن تكون جميلة نقية فى أرجاء العالم كله . وفى الوقت نفسه يشعر القارىء بما كان يثور فى نفسه من اسى لان طريق السعادة موصد أمام الناس لا يعرف أحد منهم « كيف يبحث عنها » ، ولا يدرون ماذا ينبغى أن يفعلوا ليظفروا بذلك الامل الذى يحنون اليه جميعا وتحن اليه « البرارى » الذى جعل منها تشيكوف رمزا للحياة . ان تلك المساحات الشاسعة المسحورة لا معنى لها بدون سعادة يعرف الناس طريقهم اليها ! كل شيء يتوق الى السعادة والى أن تكون لحياته معنى ومبدأ هام . ونلمس ذلك الحنين فى شخصيات تشيكوف جميعها اذ تنظر الى الاشياء جميعها فى تطلع وحزن كأنها تنتظر أن تتكشف عن ذلك الامل المنشود وهذا هو سر ما فى قصة « السعادة » من جو شعرى حافل بالموسيقى . فليس تساؤل الراعى والملاحظ فى تلك القصة الا نموذجا لذلك التساؤل الذى يستبد بشخصيات قصصه جميعا .

لكن نزعة الشك هذه عند تشيكوف تختلف اختلافا بينا من نزعة الشك الهدامة عند المنحلين من الكتاب . فالشك عنده شك نابض بالحياة ممزوج بالسخرية الرقيقة ينبع من رغبته فى العمل وادراكه أن توقعنا السلبى للسعادة وأملنا فى معجزة تحققها شيء ينتمى الى الماضى يجب أن ينبذ وينسى . وقد كان تشيكوف على حق حين يشبه أفكار الرعاة ــ فى قصة السعادة ــ باجترار الاغنام التى يرعونها بما فيه من غيبوبة وذهول . لقد كان يؤمن ان الناس يجب

أن يبحثوا عن طرق أخرى للسعادة ويومض لعينيه شـعاع يحمل الى نفسه معانى كبيرة رغم تألقه العابر ويوحى اليـه أن هناك حياة أخرى وطريقا آخر غير تلك الاحلام والافـكار الذاهلة : « لم تكن الشمس قد طلعت بعد ولكن القرى كانت تبين للناظر فى وضوح وكان التل البعيد يبدو فى الافق كقطعة من السحاب . ومن قمته يظهر السهل جميعه رتيبا ممتدا الى ما لا نهاية امتدادالسماء من فوقه ، وقدقامت عليه ضياع الاقطاعيين والالمان وما ينتثر بها من قرى . بل كان الراعى ذو البصر الحاد يستطيع أن يرى المدينة وما يمـر بها من قطارات . ومن هذا المكان وحده كان يمكن للرعاة أن يدركوا أن فى العالم حياة أخرى تختلف عن حياة البرارى الصـامتة والقرى القديمة . حياة لا صلة لها بالكنوز الدفينةأو التفكير الذاهل كاجترار الاغنام

وفى تلك القصة ــ التى تشبه قصيدة من الشعر المنثور ــ كثير من المعانى العميقة الجميلة التى لم يكن يستطيع المؤلف نفسه ــ لو أراد ــ ان يصوغها فى عبـارات منطقية جافة . حنين البرارى الجارف الى « معنى » يشيع فى مسـاحتها المترامية ، وصوت الحياة النابضة يصل الى الرعاة من بعيد دون أن يمتزج بحياة البرارى نفسها ، وهذا الحب الشاعرى العميق لاحلام الفلاحين عن السعادة . كل تلك معان تفيض بالشعر والفن والايحاء . وهى معان نجدها فى صور عديدة مختلفة فى معظم أعمال تشيكوف الناضجة حتى ليمكن أن نقول ان موسيقى « السعادة » افتتاحية موسيقية تتضمن كل الالحان الرئيسية عنـد هـذا الكاتب العظيم ذى النزعة الشاعرية الغالبة . وهى ألحان يشـيع فيها الاسى الخالص احيانا كما فى « قصة حزينة » ويمتزج فيهـا الحزن بالأمل أحيانا أخرى كما فى مسرحية « النورس » . على حين نسمع لحنا ذا وقع آخر فى قصة « عمل رسمى » و « السعادة » و « البرارى » : لحن فيه من الامتداد والغموض والجمـال

والشوق ما يمثــل ذلك الحنين الى نور عظيم يــكشـف عن « معنى » الحياة وغايتها.. انه لحن لا يسأل كالعــادة عن طريق السعادة بل يجيب عن هذا السؤال . أما « بســتان الكرز » و « العروس » ففيهما ذلك المزيج من الحزن والامل ولكن فيهما مع هذا شعورا قويا بأن النصر على الابواب .

وتشبه قصة « البرارى » قصــة « الســعادة » فى ذلك الاحساس الشاعرى القوى الذى يشيع فيها . انها أغنيــة بما فى الحياة من مباهج وبما فى الطبيعة من جمــال وما فى الوطن من خير . وفيها نرى صورة أخرى من تشيكوف ، صورة شاعر يتغنى بالبهجة والفرح . وقد ساعده على ان يستعيد فكرة الطفولة البريئة النقية عن الحياة انه كان قــد زار مسقط رأسه فى صيف عام ١٨٨٧ فاستطاع بذلك ان يجمع فى هذه القصة بين نظرة الطفولة ونظرة الفنان الناضج

وبطل القصة هو ييجوروشكا الصغير . اصطحبه عمه الى المدينة ليلتحق بمدرسة هناك . والقصة تفيض بحــرارة الشباب ومرحه وبما فيها من آراء وأحاسيس نقية رائعــة يشعر المرء فيها برائحة حشائش البرارى وازهارها الذكيــة ويشعر فى صميم كيانه بجمال الحياة وامتدادها اللانهائى . وهكذا يحيل المؤلف « البرارى » الى مخلوق رائع يحن الى السعادة حتى لنكاد نحس بصدرها يعلو ويهبط بما فيه من مشــاعر الحنين الذى يمثــل حنين الوطن جميعه الى هــذه السعادة . « ويمضى المرء فى طريقه ساعة بعد أخرى .... وتبدو أمامه قرية قديمة يخيم عليها الصمت ويرى تمثــالا حجريا لامرأة لا يدرى أحد من اقامه هناك ولا متى أقيم ، ويحف طائر من طيور الليل بجناحيه فجــأة فــوق الارض فتنبعث فى خاطر المرء كل أساطير البرارى القديمة وأحاديث المسافرين عنها والقصص الخرافية التى سمعها وهو طفــل من مربيته ، وعندها يجد فى صفير الحشرات والقرى الساكنة والتماثيل الغامضة والسماء الزرقاء وضوء القمر وانطــلاق

طيور الليل وفى كل مايراه ويسمعه صـورة للجمال المنتصر والشباب المتدفق والحياة النابضة وتستبد به رغبة ان ينطلق مع الطيور فى أجوائها . ولكن كل هذه الاحاسيس لا تخلو من شعور بالتوتر والحزن وكأن البرارى نفسها تدرك أن ... كل هذا الثراء والجمال ثروة مضيعة ... » .

وقد عبر بعض الكتاب قبل تشيكوف بوقت طويل عن ذلك الحزن وتلك المرارة التى كانوا يشعرون بها نحو هـــذا الثراء والجمال المضيع وصوروا أملهم فى أن يجىء يوم ينال فيه الفلاح الروسى حقه ويظفر بما ينشد من سعادة . وكأنما كان تشيكوف فى كتاباته تلك ينادى جوجول من وراء عشرات السنين التى تفصل بينه وبينه وكأنها امتزجت أحلام الكاتبين الكبيرين فى ترنيمه صلاة تمجد وطنهما وتبارك مستقبله .

يقول جوجول :

« ... واقف فى سكون وما زالت الحيرة تستبد بى وفوق رأسى سحب عاصفة ثقيلة لم تبدأ مطرها بعد وفى ذهنى دوار من تلك المساحة الشاسعة اللانهائية . ترى ماذا تخبىء تلك الافاق غير المحدودة من مستقبل : ؟ لا شك أن هـــذا هو الوطن الذى يجب ان تولد فيه الافكار غير المحـدودة ! نعم هنا فى هذا المكان الذى يمكن للفلاح فيه أن ينطلق كمايشتهى يجب أن يظهر هذا الفلاح ! البرية الجبارة تحتضننى وتملأ نفسى بقوة رهيبة . عيناى تلتمعان ببريق غير مالوف ... آه .. . كم تأتلق تلك المساحات المقدسة المجهولة من العالم! روسيا ! »

ويقول تشيكوف :

« كان الطريق المتسع الممتد يتعرج فوق البرارى وقـد هلاه الغبار فبدا فى لون رمادى . وأثار امتداده وسعته خيال يجوروشكا فطافت بخاطره كثير من القصص الخـرافية الغريبة . ترى من ذا يسير على هذا الطريق ومن ذا يحتـاج

الى كل هذه السعة ؟ وخيل اليه ان الفلاحين من العصور الغابرة ما زالوا كما كانوا ينهبون الطريق على ظهور جيادهم الضخمة . ورأى بعين الخيال وهو يحدق الى الطريق ست عربات طويلة كتلك التى كان قد رآها فى صور الانجيل تنطلق فى سرعة كبيرة جنبا الى جنب وقد شد الى كل عربة ستة جياد جامحة متوثبة ، وأثارت العجلات سحابة كثيفة من الغبار . أما السائقون فكانوا من أولئك الرجال الذين لايراهم المرء الا فى الاحلام او الخيال البعيد . وكم كانوا يتسقون مع هذا الطريق لو انهم كانوا موجودين حقا ! »

وكما يضيع فى البرارى من معان وجمال كذلك تضيع الطاقات الرائعة لرجال من أمثال ديموف تلك الشخصية الساخرة من شخصيات قصة « البرارى » . وقد كتب تشيكوف عنه فى احدى رسائله يقول « ان امثاله قد خلقوا للثورة » ولكن الثورة كانت لم تحن بعد وهكذا كتب على ديموف وكثير من أمثاله ان تضيع طاقاتهم وتتبدد .

كانت البرارى تنتظر شاعرها الذى يدرك جمالها ، ولكنها حينئذ لم تظفر الا بالاقطاعى فارلاموف بطبيعته العقيم وانصرافه الكلى الى ادارة أعماله وغفلته عما فى البرارى من جمال هو فى الحقيقة جمال الحياة . كان انسانا غليظا جافى الطبع يغدو ويروح وراء أعماله ويحلق فوق البرارى كما تحلق الطيور الجارحة !

ولم يكن بيجوروشكا قد راى فارلاموف من قبل « رغم انه سمع عنه وكثيرا ما حاول أن يتخيل صورته وكان يعرف انه يمتلك أرضا شاسعة وما يقرب من مائة ألف من الاغنام ومبلغا ضخما من المال . ولم يكن يعرف عنه أكثر من هذا ، الا أنه كان دائما « يرفرف » فوق تلك البقاع وأن الناس كانوا دائما يبحثون عنه

« وترفرف الحدأة قريبا من الارض وتحرك جناحيها

حركات موقعة ثم تحلق فجأة وتثبت فى الهواء دون حراك كأنها تتأمل رتابة الحياة ثم تصفق بجناحيها وتندفع كالسهم فوق البرارى فلا يعرف أحد لماذا تطير ولا أى شىء تريد . وفى الافق البعيد يبدو شراع طاحونة هوائية يدور ويدور ..»

ويربط تشيكوف بين حركات الحدأة فى طيرانها تلك الحركات التى تبدو بلا هدف وبين الحياة حين يعجز المرء عن ادراك غايتها اذا لم يدركها ككل متكامل فى ضوء الممارسة والتجربة كما رأينا فى قصة « السعادة » . وكذلك يحس القارىء أن فارلاموف يرفرف على تلك الانحاء كما ترفرف الحدأة ، فيبدو وجناحاه المشئومان غريبان على ما فى البرارى من جمال وبهجة .

والقصة الى جانب هذا مليئة بمواقف وشخصيات وحوار ووقائع ترتفع كلها الى مستوى الاحداث الكبار اذ يصورها المؤلف كما يراها ييجوروشكا فيخلع عليها تلك المتعة العظيمة التى يحسها المرء نحو ما يراه لاول مرة . ويصور المؤلف ما طرأ على نفس ييجوروشكا من تطور كبير أثناء رحلته فندرك بوضوح فى نهاية القصة كيف تغير ونضج عقله ووجدانه فبدأ بذلك مرحلة جديدة من مراحل حياته ونحس أن صورة البرارى هى صورة الحياة نفسها .

ويختتم تشيكوف القصة بقوله :

وأحس ييجوروشكا بين هؤلاء الناس أن كل ما صادفه فى حياته من قبل قد تلاشى كما يتلاشى الدخان فى الهواء . وتهاوى على المقعد فى اعياء وراح يستقبل تلك الحياة الجديدة الغريبة الذى يوشك أن يبدأها وتساءل وقد انتابته نوبة من البكاء المرير :

« ترى أى لون من الحياة ستكون ؟ »

وتلك نهاية من نهايات تشيكوف البارعة ، تصور ما ثار فى نفس بطل القصة من قلق وحيرة بعد أن ختم مرحلة من حياته

بكل مافيها من أفكار وعواطف وهم أن يبدأ حياة مختلفة كل الاختلاف . وهي تنقل الينا نفس الجو الذي يشيع في نهايات قصة « السيدة صاحبة الكلب » و « أستاذ الادب » و « العروس » .

وفي قصة « البراري » خير برهان على ذلك الحب الذي كان يحمله الكاتب لوطنه .وعلى هذا الادراك الشاعري النقي العميق للحياة وعلى ايمانه القوي بمستقبل أفضل لذلك الوطن .

وبدأت صفوة المجتمع الروسي تهتم بذلك الكاتب الشاب الذي أصاب حظا كبيرا من الشهرة . فزاره في بيته تشايكوفسكي زيارة مفاجئة سر لها سرورا عظيما اذ كان شديد الاعجاب بعبقريته الموسيقية . وقد أحس الموسيقي العظيم بأن بين فنه وبين ما يشيع في كتابات المؤلف الشاب من موسيقى صلة قوية ، تماما كما أحس الرسام ليفتان مثل تلك الصلة من قبل . ولم يكن تعارف أولئك الفنانين الثلاثة الكبار ـ تشايكوفسكي وليفتان وتشيكوف ـ مجرد مصادفة . فقد كانت أعمال كل واحد منهم تعكس روح العصر في صورة هادئة متأملة حزينة في ظاهرها ولكنها في أعماقها تضطرب بالعواصف والانواء .

وهكذا بدأ أن الحياة قد ابتسمت لتشيكوف . صحيح أن النقاد كانوا لا يكفون عن مضايقته ولكن الناشرين كانوا يتنافسون على مودته . وكان في رحلاته القليلة الى بطرسبرج يلقى كل ترحيب وتقدير ويسعى وجهاء المدينة الى التعرف به . وأصبح يحيط به معجبون كثيرون من الرجال والنساء من ممثلات وفنانين وفتيات ونساء جميلات ساحرات . وبدا أنه بعد أن قضى شبابه في فقر وقلق وجهد قد دخل مرحلة جديدة من النضوج مليئة بالحياة والشباب والنجاح والشهرة . وكانت صورة تشيكوف في نفوس من يعرفونه صورة انسان مرح منطلق خال من الهموم . وقد وصفه كورولينكو ـ وهو حينئذ في السابعة والعشرين فقال :

رأيت امامى شابا يبدو أصغر بكثير من سنه ، متوسط الطول ذا وجه بيضاوى وملامح واضحة متسقة ما زالت تحتفظ بنعومة الشباب . وكان فى وجهه شىء غير مألوف فلم استطع ان ادرك كنهه فى أول الامر على وجه التحديد ، عبرت عنه زوجتى حينئذ بقولها : « ان وجهه يبدو بلا شك وجه مفكر ولكن فيه مع ذلك شيئا يذكر المرء بشاب ريفى طيب القلب » . وكان هذا فى الحقيقة سر ما فى وجهه من جاذبية. حتى عيناه الزرقاوان بما فيهما من عمق وائتلاق كان يلتمع فيهما التفكير وسذاجة الطفولة فى وقت واحد . وكان مظهره واشاراته وطريقته فى الكلام تفيض بالبساطة كما تفيض بها كتاباته . وقد انطبعت فى نفسى عن تشيكوف فى هذا اللقاء الاول صورة انسان مرح منطلق وكأنما كانت تشع من عينيه تلك الفكاهة والبهجة اللتان تملآن قصصه . » وكذلك قالت عنه أخته ماريا بافلوفنا :

« كانت روح انطون المعنوية فى ذروتها فى عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ . كان دائما مرحا مقبلا على العمل لا ينقطع عن الدعابة ولا عن مخالطة الاصدقاء »

ومع ذلك فقد كانت هناك سحابة تخيم على حياته تلك التى كانت تبدو صافية سعيدة .

كان تشيكوف قد الف ان « يتعذب فى صمت » ولسنا نعنى بهذا انه كان يتظاهر بالمرح والبهجة فقد كان مرحه صادقا ينبع من احساسه بموهبته وقدرته على الخلق . ولكن أمواجا سوداء كانت تفور فى أعماق قلبه وتستبد به لحظات كان يسميها « سأما » على عادته فى تجنب الكلمات الرنانة التى تستدر العطف . وقول اخته انه كان حينذاك لا ينقطع عن مخالطة الاصدقاء يعنى أكثر من دلالته الظاهرة على المرح . فقد كان لذلك سبب أعمق من هذا . وقد كتب هو عن نفسه يقول : « لست أستطيع أن أعيش بدون رفقاء . فحين أكون وحدى يستولى على لون غريب من الخوف »

وكانت تطوف بخاطره رؤى تبعث على الكآبة من بينهـا

منظر السلم المظلم القذر الذى قذف الكاتب جارشين بنفسه من أعلاه . وقد كتب عن هذا الحادث يقول :

« من العجيب أنه كان يعلم انه سيرمى بنفسه من أعلى السلم قبل ان يفعل ذلك باسبوع وكان يعد نفسه لهذه النهاية الاليمة . يا للحياة الفظيعة ! وما أفظع ذلك السلم بظلمته وقذارته ! » لقد تحطمت حياة جارشين على جدران سجنه الصخرية ولم يكن هذا السجن سوى روسيا فى ظل ارهاب بوبيد ونوستيف . وكان تشيكوف يحبه اصدق الحب ويعجب اعجابا كبيرا بقصته « الزهرة القرمزية » . ولذلك ظلت صورته تظهر من حين الى آخر فى اعماله كما رأينا فى قصة « النوبة » وكما فى قصة « العنبر رقم ٦ » التى كتبها بعد انتحار جارشين بأربعة اعوام ورمز اليه فيها بشخصية جروموف بأعصابه المرهقة وحساسيته الزائدة نحو الالم وبنفسه الرقيقة التى تشبه فى نقائها نفس الطفل وكراهيته الطاغية للكذب والظلم وبسائر تلك الصفات التى خلعها تشيكوف من قبل فى قصة « النوبة » على الطالب فاسيلييف الذى كاد يجن لما رأى من هوان الانسانية .

ويصف تشيكوف شعور جروموف بطل « العنبر رقم ٦ » وهو مريض بقوله :

« وخيل اليه ان كل ما فى الحياة من الوان الاذى قد تجمعت خلف ظهره وراحت تطارده . »

وهذا ما كان يحس به جارشين احساسا عنيفا دفع به فى النهاية الى الانتحار . ولم يكن هذا الاحساس غريبا على كثير من سكان روسيا فى تلك الايام .

على أن تشيكوف لم يكن فى ضعف جارشين وأمثاله لا لانه خلق منيعا قويا بل لانه راض نفسه رياضة طويلة على القوة لتستطيع ان تقاوم حقائق الحياة البشعة دون ان تستسلم الى اليأس . ومع ذلك فقد كان يشعر بما كان يشعر به جارشين ومن على شاكلته وقد ساعده ذلك على أن يفهم تلك

النماذج الانسانية خير الفهم ويصورها فى قصصه بدقة وبراعة

اجل لقد كان تشيكوف شاعر الفرحة ومؤلف « البرارى » يضيق حينئذ بالحياة . ولم يكن ما ذكرناه كل ما يدفعه الى هذا الضيق بل كانت هناك أشياء اخرى تزيد من ضيقه .

كان دائم الشك فى نفسه يخشى أن تنتهى الى الخواء والعقم والى هذا الشعور الذى يسميه فى كثير من قصصه بالسأم . وقد كان هذا الشعور الغريب على شخص كتشيكوف يدفعه فى كثير من الاحيان الى الجمود والانصراف عن الكتابة والى ازدراء ما يكتب . وكان هذا الشعور أكبر خطر يهدد موهبته ويوشك ان ينتهى به الى الياس . فقد كان فى تلك الاعوام التى ظفر بها بالمجد والشهرة والسعادة الظاهرية يتساءل دائما بينه وبين نفسه لماذا يكتب وهل هو يكتب شيئا ذا قيمة حقا ام تراه مجرد عبث . كان هذا السؤال يقلقه ويضنيه لانه لم يكن واثقا أن ما يكتبه يهم الناس . وقد اعترف بهذا فى رسالة كتبها فى ديسمبر عام ١٨٨٨ الى سيفورين فقال :

« تعترينى لحظات يستبد بى فيها اليأس . ترى لمن أكتب ؟ .» أللجمهور ؟ وهو يعنى بالجمهور هنا القارىء البورجوازى والمثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة الذين وصفهم بأنهم « جهلاء غير مهذبين يقفون منا موقفا عدوانيا بعيدا عن الاخلاص والنبل » ويمضى تشيكوف فى اعترافه فيقول :

« لست أدرى ان كان الجمهور فى حاجة الى ما أكتب أم لا » . أما بورنين (١) فيقول : « ان هذا الجمهور ليس فى حاجة الى واما الاكاديمية فقد منحتنى جائزة كبيرة ، فكيف

---

(١) ف . ب . بورنين . ناقد رجعى من نقاد صحيفة نوفويا فيرميا .

لي أن أعرف وجه الحق ؟ ترى أينبغى أن أكتب من أجل المال ؟ ولكنى ألفت الا يكون لدى منه الكثير وهو لذلك لا يهمنى وحين اكتب من اجل المال وحده لا أحس بحافز قوى الى الكتابة . أأكتب من أجل الثناء ؟ ولكنى اضيق به . لقد رفعنى قراء الادب والطلبة والفتيات وغيرهم الى السماء بثنائهم على قصتى « النوبة » ومع ذلك فان أحدا غير جريجوزفتش لم يلتفت الى وصفى لسقوط الثلج لاول مرة ولو كان لدينا نقد أدبى بالمعنى الصحيح لتعزيت بأنى أقدم بكتاباتى مادة صالحة له سواء كانت هذه المادة جيدة أو رديئة. وقد يدفعنى ذلك الى الاخلاص فى العمل لانى اعرف حينئذ غاية لما أكتب ... أما الآن فانى وسائركتاب هذا الجيل لسنا الا مجرد مفتونين يؤلفون الكتب والمسرحيات لمتعتهم الخاصة. ولاشك ان المتعة شىء جميل ولكننا لا نشعر بها الا اثناء الكتابة ثم لانجد بعد ذلك شيئا منها » .

ولم يستطع سوفرين أن يدرك أن هذا الخطاب وثيقة خطيرة من وثائق الادب الروسى فاكتفى بأن أجابه تشيكوف بقوله : ان الوقت لم يحن بعد للشكوى ، وكان يقصد بهذا أن تشيكوف قد غره النجاح واستبد به الطموح .

وقد ساء تشيكوف أن يظن سوفورين انه يشكو فكتب اليه يقول :

« ربما كان الوقت لم يحن بعد للشكوى كما تقول . ولكن المرء مهما يبلغ من صغر السن يستطيع ان يتساءل ان كان لعمله أية قيمة حقيقية أم هو مجرد عبث . ان النقاد يلتزمون الصمت والجمهور يكذب واحساسى ينبئنى بأننى أعبث . فهل ترى فى هذا اية شكوى ؟

أنا لا أذكر لهجة خطابى ولكن ان كنت قدشكوت فان ذلك لم يكن من أجلى وحدى بل من أجل الكتاب جميعا اولئك الذين ارثى لحالهم » .

هكذا كان ما يطوف بنفسه من أفكار وسط أنغام الموسيقى ورنين الضحكات والمرح الصاخب الذى كان يتردد فى أرجاء بيته الصغير . كان يشعر بما عليه من مسئولية أدبية فى ذلك الوقت الذى بدأ يظفر فيه بالشهرة . وقد زاد هذا الشعور حدة بعد أن نضجت موهبته الفنية فأصبح يؤمن أكثر من ذى قبل بأن الادب ينبغى أن يكون من ضرورات الحياة كالخبز والهواء . اما حين لا تكون هناك ضرورة له وحين لا يقتنع الكاتب بأن ما يكتبه ضرورى للآخرين فانه يصبح عبثا لا يصح للمرء أن يشغل نفسه به . ولقد أجاب الادب الروسى فى كل عصر عن تساؤل الناس : ماذا ينبغى أن نفعل ؟

وقد أدرك تشيكوف أن لديه موهبة يستطيع بها ان يؤثر فى نفوس قرائه الكثيرين فأحس بما لديه من شعور بالواجب والمسئولية أن عليه أن يعرف اولا هدف ما يكتب والى اية غاية يقود قراءه .

لذلك كان يعد عجز الكاتب عن أن يجد لنفسه هدفا و « مبدأ عاما » مرضا خطيرا : « كل من نطلق عليهم قولنا « كبار الادباء » كانوا يشتركون فى صفة مهمة هى انهم جميعا كانوا يكافحون ليبلغوا غاية خاصة ويحاولون أن يبلغوا بقرائهم هذه الغاية . فالقارىء يدرك لا بعقله وحده بل بصميم كيانه ان للكاتب هدفا معينا كأنه شبح والد هاملت لم يظهر لمجرد اثارة الخوف فى نفوس الناس بل لكى يحقق من وراء ظهوره شيئا خاصا .. انه واقعى يرسم الحياة كما هى ولكن له هدفا من وراء ذلك تحسه فى كل سطر من سطوره فلا ترى الحياة كما هى فحسب بل كما ينبغى أن تكون ايضا . أمانحن فنكتفى بتصوير الواقع كما هو ولا نمضى الى ابعد من هذا .. ولو قرعتنا بالسوط لما تزحزحنا قيد انملة الى الامام ، فليس لنا أهداف مباشرة أو بعيدة وليس فى نفوسنا الا الخواء ..

وكل سطر فى هذا الخطاب ينضح بألم الفنان الروسى ومشاعره واحساسه بما عليه من مسئولية نحو الشعب وواجبه فى أن يمهد الطريق الى حياة أفضل وأعدل .

وقد خيل الى تشيكوف انه لا يعدو فى كتاباته أن يصور الحياة كما هى ولكنه بالطبع لم ينصف نفسه حين وضعها موضع الاتهام أمام ضميره . فلا شك اننا نحس فى «البرارى» بأنفاس نقية من تلك الحيـــاة البطولية التى كان لا بد أن تنتصر يوما ما ! ونحس فى سائر قصصه بصورة حياة أخرى جميلة ينبغى أن تتحقق فى العالم .

ومع ذلك فقد كان كاتبنا يشعر بأن الحنين الى مســتقبل جميل وتصوير ما فى حياة عصره من واقع بشع لا يكفيان وحدهما وكان يعتقد أن على الكاتب الروسى حينــذاك أن يقدم الى قارئه جوابا حاسما للسؤال الذى كان يشغل بال الناس فى تلك الايام « ماذا ينبغى أن نفعل ؟ »
وقديما تساءل بوشكين :

« .. أنت تقف وحيدا أمام المحكمة العليا وعليك أنت ان تحكم على اعمالك فهل أنت راض عنها ايها الفنان الصارم ؟ »

وقد أجاب تشيكوف عن هذا السؤال وحكم على اعماله بنفسه حكم فنان صارم فلم يرض عنها . وكان يعتقــد فى اخلاص أن كتاباته ليس فيها الا البراعة والموهبة الفنية على حين كان واجبه يملى عليه أن « يترك فى نفوس الناس ميسم الكلمة المتوهجة » وان يستثير قراءه الى أعمال البطولة .

وهكذا لم تكتف عبقرية تشيكوف بأن تكون مجرد موهبة فدفعت بصاحبها الى العناء المتصل . وكان كاتبنا يدرك ادراكا عميقا أن الآراء القديمة لم تعــــد تصلح للعصر الذى يعيش فيه وان مشكلات المجتمع تتطلب حلولا جـديدة . وبدت له تلك الحلول التى كان يقترحهـــا الـكتاب المثاليون

حينذاك فى الصحف والمجلات شيئا سطحيا بعيدا عن جوهر المشكلة شأنه فى ذلك شأن النقد الادبى .

وقد كتب فى هذا عام ١٨٨٨ الى يلشييف يقول :

« ان العقد السادس كان فترة رائعة مقدسة لا ينبغى أن ندع طائفة من الاغبياء يبتذلون قداستها » . وكان يعنى بالاغبياء من يعتنقون المبادىء « الليبرالية والنارودية لانه كان يدرك بجلاء انها مبادىء سطحية لا تنفذ الى روح العصر الذى يعيش فيه فقد كان فى تطلعه الى نقد ادبى بالمعنى الصحيح يتطلع كذلك الى مثل اجتماعية وخلقية تستطيع أن تنهض بالادب كما نهض به نقد بلينسكى وشرنشفسكى ودبروليبوف من قبل . وكان عدم رضاه عن اعماله يزداد يوما بعد يوم حتى كتب فى مايو عام ١٨٨٩ يقول : « لقد استولى على فى العامين الماضيين شعور سلبى غريب فلم أعد أهتم بأن تنشر قصصى أو أتتبع ما يكتب فى المجلات أو ما يدور فى مجالس الادب . . أحس فى قلبى ضربا من الركود . . وليس هذا لانى أحس بخيبة أمل او اعياء او اكتئاب ولكن لانى فيما يبدو لم أعد انظر الى الامور نظرتى اليها من قبل »

ويقول فى رسالة أخرى : « لست أحب ما تلقى كتاباتى من ذيوع » . ذلك لانه كان يعتقد كما قال فى موضع آخر من هذه الرسالة انه « يخدع القارىء » . وكان لا يكف عن سؤال نفسه : « لماذا أكتب اذا لم أستطع ان اجد حلا لتلك المشكلات الحيوية المهمة ؟ »

وجاء فى رسالة أخرى كتبها عام ١٨٨٨ قوله :

« ما أفظع حياة الانسان حين يعجز عن ادراك حقيقة الحياة والمجتمع » . لقد كانت كل المشكلات الأخلاقية وكل ما يتصل بعلاقات الناس بعضهم ببعض لا تنفصل فى رأيه عن نظرة الفرد الى الحياة .

وتصور قصته الاضواء التى كتبها عام ١٨٨٨ ما تتركه نظرة الفرد الزائفة الى الحياة من أثر مشئوم فى العلاقات بين الناس . وفيها يحمل تشيكوف حملة مباشرة على الآراء الرجعية المتشائمة التى كانت شائعة حينذاك بين عدد كبير من المثقفين . تلك الآراء التى كانت تقول بأن كل ما فى الحياة ضرب من العبث وبأن الحياة لا معنى ولا هدف لها ، وهى آراء نبعت أول الامر فى المذاهب الرجعية السائدة فى غرب أوربا حينذاك وتأثرت بتشاؤم شوبنهور المعروف . ومن خلال تلك الفلسفة كان يمكن تبرير ما فى حياة الناس والافراد من انحراف ووضاعة .

ويصف أنانييف أحد أشخاص القصة انحلال تلك المدرسة الفكرية بقوله :

« كانت تلك الفلسفة قد بدأت تنتشر بين الناس فى أواخر العقد السابع ثم بدأت فى أوائل الثامن تتسرب الى الادب والعلم والسياسة . ومع انى كنت حينذاك فى السادسة والعشرين فقد آمنت بأن الحياة لا معنى ولا هدف لها وان كل ما فيها خداع واوهام وانه لا فرق فى الحقيقة بين حياة المسجونين فى جزيرة ساخالين وحياة سكان الريفيرا .. وانه ليس هناك حق ولا باطل فكل شىء عبث لا طائل وراءه » .

وقد أدرك المهندس أنانييف بعد أن خبر الحياة واصبح انسانا ناضجا مفكرا خطل هذه الآراء التى فتنته فى شبابه . وهو يحاول أن يقنع الطالب فورشتنبرج بأن الآراء المنحلة التى يدين بها آراء ضارة خطيرة ويقص عليه فى سبيل ذلك حادثة وقعت له فى شبابه جعلته ينبذ تلك الفلسفة المنحلة التى كان يعتنقها حينئذ . كان قد انتهى لتوه من دراسته فى أحد المعاهد العالية وغادر العاصمة ليقضى بضعة ايام فى مسقط رأسه . وهناك لقى امرأة كان يعرفها من قبل أيام كانت لا تزال تلميذة يحبها كل من حولها ويدعونها «قطيطة» . وكان هو حينذاك غارقا فى حبها الى أذنيه .

ولم تكن حين لقيها قد فقدت شيئا من فتنتها أو شبابها ، ولكنها كانت تشعر بشقاء عظيم فقد كانت وهى تلميذة تحلم بمستقبل سعيد وحياة كريمة فانتهت أحلامها كما كانت تنتهى فى العادة أحلام فتيات ذلك الجيل الى الزواج من انسان تافه جافى الطبع فى تلك المدينة الريفية الصغيرة . وهكذا أصبحت الحياة فى نظرها عبئا ثقيلا وأصبحت تشعر كأنها تعيش فى كهف مظلم . واستولى عليها فرح عظيم اذ لقيت انسانا من العاصمة وصديقا قديما من أصدقاء شبابها . وقام فى نفسها رمزا لكل ما هو نقى شريف متحضر وتركزت عواطفها حوله فى حب عنيف ساذج لم يكن يدور حول شخصه هو بقدر ما كان يدور حول أحلام شبابها التى انقضت بما فيها من صفاء ومثالية .

أما هو فكان يفكر فى شىء مختلف كل الاختلاف . فاذا لم يكن فى الحياة « حق أوباطل » وما دام كل شىء فى الحياة « باطل الاباطيل » والحياة لا معنى لها وكل شىء حى مصيره الى الموت فلا ضير عليه أن يعد « قطيطة » فى نشوة حبه ان يأخذها معه « الى آخر الدنيا » ولا ضير عليه بعد ذلك اذا لم يف بذلك الوعد . على حين كانت هى ترى فى لقائهما وما تلاه من اتصال جنسى حبا صادقا وثورة على حياتها وخطوة نحو حياة جديدة . فقد كانت على استعداد أن تهجر زوجها من أجله . على انه بعد أن أغواها تسلل الى المحطة ليستقل القطار ويغادر المدينة . ولكن صورة هذه المرأة المخلصة التى خان ثقتها فيه لم تلبث حين وجد نفسه وحيدا مع ضميره فى عربة القطار — ان تراءت امام عينيه فشعر كأنه قد ارتكب جريمة قتل . وحاول أن يسكت وخز ضميره الاليم بالالتجاء الى فلسفته الانحلالية ولكنها لم تسعفه فى هذه المرة . بل رآها على النقيض لاول مرة على حقيقتها البشعة وانحرافها الواضح .. « ويخيل الى الآن أن تفكيرى العادى السليم قد بدأ منذ تلك اللحظة التى قررت فيها أن أعود الى اوليات

الاخلاق والتى اجبرنى ضميرى فيها ان ارجع الى تلك المدينة حيث اعترفت بكل شىء الى « قطيطة » طالبا منها الصفح وقد امتزجت دموعى بدموعها كأنى صبى صغير .. »

على أن قصة أنانييف هذه لم تقنع الطالب شتنبرج الذى كان قد قال فى بدء حديثهما : « أن ما نعتقده لا يمكن أن يؤثر فى الآخرين بخير أو شر » . لكن أتراه حقا لا يؤثر فى الآخرين بخير او شر ؟ لقد تألمت « قطيطة » أشد الالم حين اكتشفت أن الرجل الذى ظنته نقيا مثاليا ليس معصوما من الكذب .
ونستطيع ان نتصور ــ وقد رأينا كيف كانت تشعر بأنها تعيش فى كهف ــ كيف اصبحت تعيش بعد هجره اياها ؟ .

وقد أراد المؤلف من هذه القصة ان يبث فى نفس القارىء أن الافكار والآراء ذات شأن كبير فى الحياة وان نظرة خاصة الى الحياة يمكن أن تقود المرء الى « جريمة تكاد تشبه جريمة القتل » . ويذكرنا هذا مرة أخرى بما كان يشعر به تشيكوف من مسئولية رهيبة ازاء ما فى كتاباته من آراء وأفكار . وقد كان هو نفسه فى عمله كطبيب يألم ألما شديدا كلما ساءت حال احد مرضاه ــ شأنه فى ذلك شأن شخصية الطبيب استروف التى صورها فى مسرحية « العم فانيا » . وكان يشعر انه مسئول عن ذلك حتى فى تلك الحالات التى يقول الناس فيها أن الطب قد أصبح عاجزا ازاءها . وكذلك كان فى عمله ككاتب يرتجف أمام كل كلمة يكتبها خشية أن تؤذى حياة بعض الناس ولو أيسر الاذى . ويرجع ذلك فى الحالتين ــ الطب والادب ــ الى ما كان يشعر به تشيكوف من مسئولية كبرى نحو الحياة الانسانية .

وقد بدأت كتاباته منذ العقد الثامن تتسم بنزعة تقدمية واضحة . وكان يدرك أن كتاب العقد السادس قد شاركوا مشاركة فعالة فى الكفاح السياسى فى عصرهم ودفعوا بالآراء التقدمية الى النمو والتطور على حين اتخذ كتاب العقد الثامن

موقفا سلبيا من مشكلات عصرهم السياسية . وقد عبر عن ئمه لذلك الموقف فى كثير من رسائله مما يدل على انه كان قد بدأ حينئذ يخرج من سلبيته ازاء السياسة .

ولكن الحياة السياسية حينئذ كانت لا تثير فى نفس تشيكوف غير الملال والسأم وكان يعتقد ان الطوائف السياسية المختلفة القائمة حينذاك تتألف من جماعة من « الجهلاء » . ولا شك أن فهمه للحياة الروسية كان أعمق وأشمل من فهم النقاد والصحفيين السياسيين .

ومع انه كان لا يزال حتى آخر العقد الثامن بعيدا عن محيط السياسة فان موقفه السلبى لم يعد يرجع حينذاك الى عدم اهتمام منه بالسياسة بل الى ادراكه أن الطوائف السياسية التى يعرفها لا يمكن ان تحقق اى تغيير فى طبيعة حياة المجتمع الروسى . لذلك كان يرى فى موقفه السلبى من السياسة تحررا من كل «الاحزاب » على اختلاف نزعاتها .

على أن مأساة تشيكوف الحقيقية فى هذا الصدد كانت تتمثل فى أن موقفه السلبى قد منعه أن يدرك أن لونا آخر من الحياة السياسية كان قد وجد حينئذ وبدأ يتشكل وينضج ويهدف الى تغيير النظام الاجتماعى من أساسه . وقد دفعته تلك السلبية الى أن ينشر بعض قصصه فى صحيفة نوفويا فيرما الرجعية لان ايمانه بتفاهة تلك الحياة السياسية وعبثها جعله لا يرى فرقا كبيرا بين ان تنشر اعماله فى تلك الصحيفة او فى غيرها . وقد أدرك بعد ذلك خطأ موقفه وابتدأ يتخذ لنفسه خطة اخرى . ولكن ذلك لم يحدث الا فى العقد التاسع .

وكان يدرك بطبيعته الصادقة ان مرض عصره ضرورة سياسية ويرى فيه جوانب سيئة واخرى طيبة ويعتقد أنه لا يمكن أن ينتهى الى شىء . وهكذا جعل أولجا تقول فى الفصل الاخير من « الاخوات الثلاث » ان ما يعانيه الناس فى هذا العصر

من شقاء سيستحيل الى سعادة لمن بعدنا » . وقد كانت تلك الفكرة حاضرة دائما فى ذهن تشيكوف وأذهان كل شخصياته القصصية التى خلفها ولكنه لم يكن ليقنع بمجرد التفكير فى ان ما يعانيه من شقاء ضرورة تاريخية . فليس من حق الكاتب اذا لم يرسم حلولا للمشكلات الرئيسية للمجتمع واذا لم يقد القارىء الى هدف خاص ويوضح له الطريق اليه أن يشغل القارىء بما يكتب . تلك هى العقيدة التى انتهى اليها تشيكوف فى أوائل العقد التاسع فكانت بداية لنهاية موقفه السلبى من السياسة . وهكذا يتضح أن العقد الثامن رغم انه يعد « فترة ركود اجتماعية » كان مع ذلك فترة تطورت خلالها نظرة سياسية جديدة قضت وهى لما تزل بعد فى أطواء التاريخ على الآراء القديمة .

وقد كتب سالتيكوف شدرين عن ذلك العقد الثامن يقول :

« من الواضح أن اتجاهات خفية ذات شأن كبير تعمل فى المجتمع وتحاول أن تجد طريقها الى الظهور . انها تغلى وتفور كالبركان فى باطن المجتمع فتغرق بقعقعتها طنين الحياة اليومية التقليدية المألوفة . أن الاوقات العصيبة لم تحن بعد ولكن الناس جميعهم يشعرون باقترابها » . وقد أشار هذا الكاتب الديموقراطى الثورى « بالاوقات العصيبة » الى الثورة المقبلة .

وقد تمثلت فى شك تشيكوف وشقائه طبيعة تلك الفترة الانتقالية التى كانت تسعى جادة لتحقيق مثل جديدة ونبذ المثل القديمة البالية لذلك كان عدم رضاه عن أعماله حينئذ ذا مغزى عميق يتجاوب مع طبيعة التطور الاجتماعى الخفى فى تلك الفترة . وهذا يدل على أن تشيكوف كان يتمتع بما يمكن أن نسميه « الغريزة التاريخية والألهام الاجتماعى » . فقد كان ما فى نفسه من قلق يمثل قلق العصر كله .

ويرى النقاد أن تشيكوف لم يكن له فلسفة اجتماعية

خاصة وانه كان يعارض الفن « الهادف » . ويرجع ذلك الرأى الى ما يصادفه هؤلاء النقاد فى كتاباته من تجريح للادب الذى يدعو الى مبادىء معينة . والحق اننا نصادف كثيرا من هذه التجريح فى كتاباته وبخاصة فى أواخر العقد الثامن فى ذلك الوقت الذى كان يعمل فيه جاهدا لكى يكون لنفسه فلسفة محددة ومبدأ ثابتا .

ويكفى لكى نفسر هذا التناقض ان نتذكر تلك المبادىء التى كان يحمل عليها تشيكوف . فقد كانت تتلخص فى مبادىء الحركة « الليبرالية » و « الليبرالية النارودية » والحركة « الرجعية » ، تلك الحركات التى كانت تصور الاوضاع الاجتماعية على غير حقيقتها لكى تتمشى مع المبادىء التى تدعو اليها . وقد كان تشيكوف يدرك تفاهة المبادىء الليبرالية والنارودية ولكنه لم يستطع أن يخلق لنفسه مبادىء أخرى تقاومها ولذلك لم يملك الا أن يتأثر بها وهو يجد نفسه بمعزل عن الكفاح الثورى . ونستطيع أن نرى بوضوح مما كتبه معاصروه عنه انه رغم نقده للادب «الهادف» قد عبر فى كتاباته عن بعض مبادىء «الليبرالية» و «النارودية» فقد كتب لازاريف جروزينسكى عن ذلك يقول :

« كان تشيكوف فى العقد الثامن عدوا لدودا للادب الذى يدعو الى مبادىء خاصة وكان يعبر عن شعوره العدائى نحو ذلك الادب فى حماسة ومثابرة . ويخيل الى أن هذا الموقف يرجع الى ما كان يتهمه به نقاد مثل ميخائيلوفسكى وسكابشفسكى من انه كان سلبيا لا مبدأ له » . وقد كان طبيعيا أن يقف تشيكوف هذا الموقف من هؤلاء النقاد اذ كانت آراؤهم هى بعينها الآراء التى يرفضها ويؤمن بضعفها وتفاهتها وعجزها عن أن تقدم حلولا صالحة لمشكلات المجتمع الروسى حينذاك ، تلك المشكلات التى كانت تتطلب أفقا أوسع ومبادىء أعمق من مبادىء الليبرالية والنارودية . وقد قلنا من قبل أن هذا الموقف من تشيكوف فى العقد الثامن وتحرره

من الارتباط « بأى حزب من الاحزاب » كان له آراء حسنة واخرى سيئة . فلولا هذه الحرية لما استطاع أن يكتب قصصا مثل « الجيران » أو « البيت ذو السطح المائل » . تلك التى يكشف فيها عن تفاهة الفلسفة الليبرالية وضيق أفقها ويدعو فيها الى العمل لتحطيم تلك الاغلال التى كان الفلاح الروسى يرسف فيها . ولولا تلك الحرية لما استطاع أن يكتب قصصا مثل « فى الحضيض » و « فى البيت الريفى الجديد » وهى مجموعة من القصص صور فيها حياة الفلاحين ومزق فيها القناع عن الاكاذيب المعسولة التى كان يحوكها كتاب النارودية عن الحياة فى القرية الروسية .

أما الاثر السيىء لتلك الحرية فقد تمثل فى أن تشيكوف وضع لنفسه مبدأ صارما أن يظل بمعزل عن كل الاحزاب السياسية فسد بذلك الطريق أمام نفسه هو لكى يكون لنفسه سياسة خاصة ما دام يقاوم كل اتجاه فى الادب ، ويرى فى المبادىء السياسية عدوانا على استقلاله الروحى وعلى حقه وواجبه فى أن يصور الحياة كما هى باخلاص وصدق وسعة أفق دون عائق من مذهب أو عقيدة . وقد كان هذا الاعتقاد من الاسباب التى حالت بينه وبين أن يتعرف الى ما كان يمثل الحياة السياسية والروحية الحقة لوطنه فى العقد التاسع وأوائل هذا القرن ، ونعنى به نمو الحركة العمالية الثورية والنظرية الماركسية .

وقد رأينا كيف كان يضنيه البحث عن جواب لما ينبغى أن يفعل ويحس بالحزن والقلق والخواء الروحى وقد زاد من ذلك الاحساس بعده عن تلك الفلسفة العلمية التقدمية التى كانت فى سبيلها الى التشكل والظهور والتى كانت تمثل حقيقة أحلامه وبحثه .

وكان من نتيجة هذا الموقف السلبي من السياسة أن ضاق المجال الذي كان يكتب فيه تشيكوف فلم يستطع ان يقدم في أعماله صورة كاملة للحياة الروسية وقلت في تلك الاعمال نماذج الشخصيات القوية الهادفة القادرة على الكفاح والصمود أمام دواعي اليأس ، هذه الشخصيات التي طالما حلم بها تشيكوف نفسه وبحث عنها جاهدا في بحثه عن السعادة والعدل والحرية لوطنه !

وبسبب هذا « التحرر من كل الاحزاب والمبادىء السياسية » وهذا الفهم الزائف للاستقلال عمل تشيكوف زمنا طويلا في صحيفة نوفويا فيرميا وظل صديقه لسيفورين وكان لا بد أن يترك ذلك أثرا في نفسه فزادت شكوكه السياسية واحساسه « بالملال والسأم » .

الغريم الحميم

كان « تشيكوف » نهبا للشكوك حــول أهم ما يجب أن يشغله فى الحياة ـ أعنى رسالته ككاتب ـ عندما وجد نفسه مكبلا فى أحضان عدو محب هو سوفورين.

وترجع الصلة بين « تشــبكوف » و « ســوفورين » ومساهمة « تشيكوف » فى تحرير صحيفة « نوفوى فرميا » الى مرحلة مبكرة من حياته ، بيد أن تحول هذه الصلة الى علاقة شخصية حميمة يبدأ ببداية هذه المرحلة التى نتحدث عنها .

وكان « سوفورين » يحيا حياة مزدوجة .. فهو رئيس لتحرير صحيفة كبرى ، وصــحفى قدير ، وكاتب روائى ومسرحى ، و « نديم داهية » يكيف صحيفته وقلمه وفقــا لمطالب الطبقة الحاكمــة .. وكان أكثر النــاس تحررا فى « الثمانينات » من ذلك القرن ـ وهى المرحلة التى ســادتها نزعة لا سياسية ـ يعتقد انه من المستطاع فصل الكاتب عن آرائه السياسية ، وقد عرف « سوفورين » فى صلاته بالاوساط الادبية كيف يقدم نفسه على أنه أديب أولا وقبــل كل شيء . وكانت مسرحياته ناجحة ، مما دفع نقاد الصحافة التحررية على تجاهل آرائه السياسية تجاهلا تاما .

استهل «سوفورين» حياته استهلالا طيبا فى «الستينات» من ذلك القرن .. ولما كان حفيدا لاحد أرقاء الارض وإبنــا لاحد الفلاحين ، فقد بدأ مدرسا للجغرافيا فى احدى المدارس

بقرية « وبروف » ، وكان يتقاضى على عمله هذا مرتبا يقل عن مرتب « مدفونكو » المدرس فى مسرحية « النورس » لتشيكوف ، اذ كان هذا الاخير يتقاضى ثلاثة وعشرين روبلا فى الشهر الواحد ، بينما لم يكن «سوفرين» يحصل على غير اربعة عشر روبلا ، وسبع وستين كوبكا . وعندما قبلت بعض قصصه وصوره الادبية ، بارح « يوبروف » ليحيا مع زوجته فى كوخ يبعد عن موسكو حوالى ثمانية أو تسعة أميال . وشرع يدبج المقالات لمجلة « سوفريمينيك » حيث استقبله « شيرنتشفسكى » بنفسه .. بيد أن الرقيب منع نشرها ، واستدعاه ليطلب اليه ايضاحا لاسباب كتابتها . وألف بعد ذلك كتيبات بتكليف من « تولستوى » لتوزيعها على الفلاحين فى « ياسنايا بوليانا » وقد نقده « تولستوى » من ماله الخاص أجرا على هذه الكتيبات .

وكانت هذه بداية طيبة ، وان تنكر لها « سوفورين » وتبرأ منها فى مرحلة لاحقة من حياته .

وظل « سوفورين » ردحا طويلا من الزمن معدودا من الكتاب الاحرار الامناء ، وأحرزت مقالاته الخفيفة التى كان يوقعها باسم « الغريب » نجاحا لا بأس به .

وعلى مر الاعوام ازدادت صحيفة «سوفرين» التى سماها « نوفوى فريميا » نفوذا ، وجمع ثروة طائلة من أموال خدم المنازل ، اذ كانت صحيفته تنشر اعلانات مبوبة تحت عنوان «طلب وظائف» للطهاة والخادمات والممرضات .. ولما هبطت عليه الثروة ، وأصبح محررا قوى النفوذ ، مدللا من رجال القيصر الذين فطنوا الى تقلبه ، بدأ « سوفورين » يغير الطريق الذى احتفظه لنفسه ، ليتكيف مع الظروف المحيطة به أو « ليحرك دفته حينما تميل رياح الدناءة » كما يقول « شدرين » ذلك أن انتصار الرجعية اقنعه أخيرا بأنه من

العبث انتظار أية انقلابات أو تغييرات اجتماعية ، واستحالت « نوفوى فريميا » شيئا فشيئا صحيفة خليقة بهذه الكنية اللاذعة التى اخترعها « سالتيكوف شدرين » عندما سماها « ماذا أستطيع أن افعل من أجلك ؟ »

وعلى الرغم من ان « سوفورين » كان يخدم الرجعية ، فقد كان يدرك تماما وهو الرجل الذكى الاريب الذى انضم الى الطبقة المتوسطة صاعدا اليها من جماهير الكادحين — كان يدرك تمام الادراك ما يتصف به المعسكر الذى انضم اليه من خسة ودناءة وخداع ، والدليل على ذلك ما نجده فى يومياته الشهيرة التى نشرت عام ١٩٢٣ ، فهنا كان « سوفورين » ينفرد بنفسه فيصب احتقاره على المعسكر الحاكم ، وينعت زعماءه بأقبح النعوت ، ويعترف بينه وبين نفسه بفساد هؤلاء الذين يخدمهم وبما تنطوى عليه نفوسهم من عفونة .

وكان هذا كله يزيده شعورا بذنبه .. بيد أن ذهنه كان مستنقعا تترسب فيه ضروب شتى من المركبات . وفى يومياته تتجلى قدرته على التظاهر بالندم ، بل قدرته على اختراع الاكاذيب المخلصة . ويقول تشيكوف : « ان الكذب كادمان الشراب .. ولن ينقطع الكذاب عن الكذب حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة » .. ومن السخرية حقا أن « تشيكوف » كتب هذه العبارة فى رسالة بعث بها الى « سوفورين » !

وقد كتب لينين موجزا وافيا عن شخصية « سوفورين » فى مقال وضع له هذا العنوان الوجيز المعبر : « حرفة » قال فيه : « ان المليونير الراحل أ . س . سوفورين صاحب صحيفة « نوفوى فريميا » يصور تاريخ حياته ويعكس فترة طريفة كل الطرافة من تاريخ المجتمع البورجوازى الروسى بأجمعه .

« كان فقيرا ونصيرا للاحرار ، بل ديموقراطيا فى مستهل حياته ، ثم أضحى مليونيرا مداهنا متملقا للبورجوازية دون

حياء زاحفا على ركبتيه أمام كل منعطف من منعطفات السياسة التى تنتهجها القوى الحاكمة لكى يبلغ نهاية الشوط . أليس ذلك كله سمة من السمات المميزة للمثقفين والاذكياء الذين يمثلون ذلك المجتمع المزعوم ؟ وبالطبع لم يحالفهم النجاح فى تنكرهم لمبادئهم الى درجة أصبحوا معها جميعا من أصحاب الملايين ، غير أن تسعة من كل عشرة ، ان لم يكن تسعة وتسعون من كل مائة منهم يلعبون « لعبة التنكر » هذه ، فيبدأون طلابا متحررين ، لينتهى بهم المطاف الى مناصب مريحة فى أحد مكاتب الحكومة ، أو فى احدى الشركات » .

وكان « سوفورين » أستاذا فى اختراع الاكذوبة المخلصة . وقد فطن « تشيكوف » الى هذا فى نهاية الامر ، وكتب الى شقيقه الاصغر « ميخائيل » ينصحه ملحا الا يعمل فى صحيفة « نوفوى فرميا » قائلا : « اننى اوثر طبعا - لو كنت مكانك - أن أعمل فى دار للطباعة على أن أعمل فى تلك الصحيفة التى ساءت سمعتها فى الوقت الحاضر ، ولا يلتحق للعمل بها غير أشخاص موسرين فى بحبوحة من العيش (باستثناء اسكندر الذى لا يفهم شيئا) . ان سوفورين شخص زائف .. زائف الى حد رهيب وخاصة فى تلك اللحظات المزعومة من الصراحة .. ذلك انه قد يكون مخلصا فيما يقول ، ولكن ليس ثمة ما يضمن على الاطلاق انه لن يتصرف تصرفا يأتى على نقيض ما يقول فى نصف الساعة التالى »

غير أن هذا الفهم الواضح لطبيعة « سوفرين » لم يلح « لانطون بافلوفتش » سريعا ، ذلك أن « سوفرين » استطاع فى بادىء الامر أن يختلب عواطف الكاتب الشاب ، وكان يعرف كيف يظهر له من نفسه ذلك الجانب الذى ارتبط يوما ما بكل ماهو صادق وتقدمى ، كما يعرف كيف يبدو لعينيه شخصا واحدا لا انقسام فيه ، وان يوحى بأن المساهمين فى « نوفوى فريميا » يختلفون عنه تمام الاختلاف ، وانه يحتقر هذه الطائفة القذرة فى قرارة نفسه .. ولم يكن هذا مجافيا

الحقيقة ، ذلك أنه كان يحتقر رجال السياسة حقا . وافلح « سوفورين » فى ايهام « تشيكوف » الشاب بأنه وان يكن قد كرس نفسه لصحيفته الا أنه ليس مسئولا تماما عنها ، وأنه لولا هيئة التحرير لما ارتضى كثيرا من الامور المشينة المبتذلة فى صحيفته . وكان يتظاهر بأنه شخص تستغرقه كتاباته الادبية ، والمسرح الذى أنشأه استغراقا تاما . ولقد كان أحد المترجمين لحياة « تشيكوف » على حق حينما قال : « ان تشيكوف عندما كتب فى صحيفة « نوفوى فريميا » كان يعتقد مخلصا أنه من الواجب انقاذ سوفورين من ... نوفوى فريميا . »

استطاع « سوفورين » اذن ــ باعتباره أديبا ــ أن يستأثر بتشيكوف ، وكان « تشيكوف » الشاب معجبا بعقلية « سوفورين » الاستقلالية ، وحديثه البارع ، وجرأته وبلاغته وأسلوبه الغريب فى التعبير عن نفسه .

ونحن نعلم أن الاستقلال فى الرأى كان احدى القواعد الرئيسية التى شرعها « تشيكوف » لحياته ، ولهذا رأى فى سخط الاحرار ومعسكر النارودنيين عليه لاشتغاله فى صحيفة « نوفوى فريميا » اعتداء على استقلاله ، ذلك ان سوفورين لم يطلب منه شيئا ، ولم يفرض عليه شروطا ما ، ولم ينكر عليه حقه فى نشر كتاباته حينما يشاء . وقد استغل سوفورين فى لباقة هذه النزعة الحادة فى « تشيكوف » الى الاستقلال ، فكان يسخر من « النظرة الحزبية الضيقة » التى تتميز بها صحف الاحرار ، ويهزأ من زعماء الاحرار الذين استعبدتهم ما تحتويه الكتب ، ومن ايمانهم القطعى بالمذاهب ، بل من جبنهم ، وميلهم الى التصالح مع الرجعية . وخيل الى تشيكوف الشاب انه ليس من المهم اطلاقا المكان الذى تظهر فيه كتاباته ، انما المهم حقا أن تكون قصصه صادقة ، وأن تخدم التقدم لا الرجعية (كتب يقول فى احدى رسائله الى سوفورين : « انى أومن بالتقدم منذ نعومة أظافرى » ، واذا

ظهرت القصص الصادقة فى صحيفة رجعية ، فهذه جناية تلك الصحيفة على نفسها ! لقد كان يحرر فى صحيفة « سوفورين » ولكنه كان يرفع راية استقلاله على كل شيء حتى على صحيفة « نوفوى فريميا » نفسها !

قال تشيكوف للازريف – جروزنسكى متذمرا من هؤلاء الذين أعربوا عن استيائهم لالتحاقه بصحيفة سوفورين : « انهم يشغلون أنفسهم كثيرا بصحيفة « نوفوى فريميا » .. ألا ترى أن المسألة مسألة حساب ؟ فان من الافضل لاية صحيفة لها خمسون ألفا من القراء – ولا اتحدث هنا بالذات عن نوفوى فريميا بل عن أية صحيفة – ان يطالع قراؤها الخمسون أو الاربعون أو الثلاثون ألفا – من الافضل أن يطالعوا الخمسمائة سطر التى اكتبها خالية من الضرربدلا من الخمسمائة سطر الضارة التى يمكن أن يطالعوها لو أننى لم أبعث الى هذه الصحيفة بكتاباتى .. ان المسألة واضحة كضوء النهار ! ولهذا لا أتردد فى الكتابة الى أية صحيفة يعن لها أن تدعونى .. »

وتتردد قصة مؤداها أن صداقة روحية حميمة قد انعقدت أواصرها ولو لمدة قصيرة بين « سوفورين » و « تشيكوف » ، أثناء اشتغال تشيكوف بصحيفة «سوفورين» .. ومن الطبيعى ألا تخلو هذه الصداقة الحميمة من أثر على تطور « تشيكوف » الايديولوجى . وليس من شك أن « سوفورين » قد اعاق هذا التطور ، ودعم نزعته الارتيابية فى السياسة ، وحاول أن يغرس فى نفسه بعض الافكار كضوء النهار ! ولهذا لا أتردد فى الكتابة الى أية صحيفة يعن الاخيرة .

لقد كانت العلاقات التى تربطهما ذات طبيعة غريبة .. فعندما يتعلق الامر بتقدير الآثار الفنية الفردية ، أو نواحى الحياة اليومية الجارية ، كانا غالبا ما يتفقان ، وكثيرا

ما استقطر « تشيكوف » المتعة من حديثه ومراسلاته مع «سوفورين» . وانه ليعترف فى خطاب بعث به الى سوفورين بأن الرغبة التى تدفعه الى مراسلته والتحدث اليه « لاتعنى أنك أفضل أصدقائى جميعا .. ولكنها تعنى أننى مغرم بك فحسب » .. وحالما كان يبدو ان احدى الظواهر لا يمكن تقويمها الا بالرجوع الى المبدأ والى النظرة الاساسية للحياة كان يتضح للعيان أن العلاقات القائمة بين « سوفورين و « تشيكوف » هى فى الواقع علاقة شخصين يقف كل منهما موقفا ايديولوجيا مناقضا للآخر . وقد تحرر « تشيكوف » رويدا رويدا من تأثير « سوفورين » عليه .

وكان جوهر العلاقات بينهما مبنيا على الجدل المتصل الذى يتم التعبير عنه فى أكثر العبارات تهذيبا .

وكان « سوفورين » يتحاشى معارضة « تشيكوف » معارضة مباشرة صريحة ، بل كان يحاول ــ على ضوء تجربته ــ أن يحقن الكاتب الشاب بجرثومة الفراغ الروحى الذى يعانيه وأن ينقل اليه عدوى كراهيته لكل ماهوتقدمى متقدم ، دون أن يلحظ « تشيكوف » شيئا من ذلك .

والحادثة التالية تلقى ضوءا على العلاقات التى كانت تربط « تشيكوف » و « سوفورين » :

أثنى « سوفورين » فى رسالة بعث بها الى « تشيكوف » على رواية « التلميذ » للكاتب الفرنسى بول بورجيه متذرعا بأن المسألة كلها لا تعدو أن تكون احدى مسائل « الفن الخالص » ، وكان هذا الرجل الماكر يجس النبض ، عندما سكت عامدا عن هذه الحقيقة وهى أن الرواية كانت هجوما على العلم التقدمى وعلى الالحاد والمادية .

غير أن « تشيكوف » لم يكن ممن يدخلون المناقشات على أساس « الفن الخالص » . فلما اطلع على مضمون الرواية امتدح مزاياها من القدرة على التسلية وحضور البديهة بما

هى أهله ، ولكنه ناصر المادية ضد المثالية ، والالحاد ضد الدين ، وأمسك الثور من قرنيه ، وكشف عن « العيب الاساسى » فى الكتاب فى عبارات تخلو من التردد فقال : «هذه حملة مزعومة ضد الاتجاه المادى .. وأرجو المعذرة لاننى لا أفهم مثل هذه الحملات .. وأرى أن منع الناس من اعتناق النظرة المادية يساوى منعهم من البحث عن الحقيقة .. ولا وجود خارج المادة للتجربة أو للمعرفة ، وبالتالى لا وجود للحقيقة . »

وتهكم « تشيكوف » على ما تضمنه الكتاب من تشهير كهنوتى يلجأ اليه أهل الدين بأن الالحاد والمادية يفضيان الى الانحطاط الخلقى فقال : « أما فيما يتعلق بالانحطاط الخلقى، فان أتباع مندلييف لم يشتهروا بأنهم سكارى يجرون وراء ملذاتهم ، وانما الذى اشتهر بذلك الاساقفة والاشخاص الآخرون الذين يترددون بانتظام على الكنائس » .

وكانت الحملة على الفلسفة المادية والإلحاد من السمات الرئيسية لتلك الايام ، وكانت مجادلات « تشيكوف » مع « سوفرين » مجادلات مع جميع الرجعيين فى ذلك العهد .

واصطبغت خلافات « تشيكوف » مع « سوفورين » بصبغة حادة فى « أوائل التسعينات » عقب رحلة تشيكوف الى « سخالين » هذه الرحلة التى لعبت دورا عظيما فى تكوين نظرته وعمله الخلاق ، كما سنرى فيما بعد . وفصم « تشيكوف » عام ١٨٩٣ عرى الصلات التى كانت تربطه بصحيفة « نوفوى فريميا » ، ولم يكتب فيها بعد ذلك سطرا واحدا . وفى عام ١٨٩٢ أى قبل ذلك بعام واحد نشبت بينه وبين « سوفورين » مناقشة غاية فى الطرافة حول موضوع حيوى هام بالنسبة لتشيكوف .

كان « سوفورين » قد بعث برد مبهم على الخطاب الذى أوردناه فى الفصل السابق ، وهو الخطاب الذى يتحدث فيه

« تشيكوف » عن ضرورة الاهداف العظيمة الملهمة بالنسبة للكاتب . وقال « سوفورين » فى رده انه قد أطلع سيدة معينة على خطاب « تشيكوف » ، وأن هذه السيدة ارتاعت لما فيه من القتامة والتشاؤم ، وأن ذلك أثر عليها تأثيرا محزنا دفعها الى أن تكتب بدورها خطابا الى « سوفورين » ، ولم يخرج حزنها « الجميل » « المتسامى » عن تلك الفكرة المبتذلة وهى أن الحياة خير فى حد ذاتها وأنه لاداعى للبحث عن أية أهداف . وقالت السيدة فى خطابها : « ان هدف الحياة هو الحياة نفسها .. واننى لاومن بالحياة ، وبلحظاتها المتألقة التى لا نستطيع الا أن نحيا من أجلها فحسب ، بل ينبغى أن نحيا من أجلها ، وانا اومن بالانسان ، وبالجانب الخير من طبيعته . » وأعلن « سوفورين » اتفاقه التام مع أقوال السيدة المتفائلة .

وكان رد « تشيكوف » جديرا بالاهتمام ، قال : « هل تريد أن تقول ان كل ماهو مخلص يجب أن يعنى بالضرورة شيئا ؟ أما أنا فأقول ان هذه ليست وجهة نظر وانما مجرد « حلويات » . وأنت تكتب الى تحت تأثير خطابها عن «الحياة من أجل الحياة » وانا اشكرك فى تواضع . وفى رأيى أن خطابها المتفائل اشبه الف مرة بالقبر من خطابى . وقدكتبت فى خطابى أقول أنه لا توجد ثمة أهداف ، ففهمت انت أننى أعتبر تلك الاهداف أساسية واننى على استعداد للبحث عنها .. غير أن « س » تقول انه ينبغى علينا الا نغرى الناس بأنواع من العادات لا يستطيعون الوصول اليها .. فلتستمتع اذن بما هو كائن . » اذ تعتقد أن ضروب التعاسات التى نعانيها ترتد الى بحثنا عن أهداف بعيدة متعالية . وأنا أعتقد أن أى انسان يؤمن حقيقة بأن الكائنات البشرية ليست فى حاجة الى أهداف بعيدة متعالية شأنها فى ذلك شأن الابقار وأن « جميع تعاساتنا تنبع من هذه الاهداف » — مثل هذا الانسان لن يتبقى له بعد ذلك الا أن يأكل ويشرب وينام

فاذا استولت عليه السآمة وتب وثبة عالية ونطح بجبهته حافة دولابه . »

ومرة أخرى تعرضت المناقشة للمركز الحيوى الذى تدور حوله الحياة الاجتماعية والسياسية فى تلك الايام ، وجميع قضايا ذلك العصر . وكان الشعار القائل « بالحياة من أجل الحياة » يعنى ـ فى « الثمانينات » من ذلك العصر ـ العزوف عن الصراع مع الواقع الاليم ، وتدنيس تلك الفترة المقدسة من « الستينات » التى شاعت فيها الاهداف العظيمة والمثل العليا . « الحياة من أجل الحياة » والاعــراض عن « النعم المستحيلة » .. كل ذلك كان يعنى تبرير نظرية «الاصلاحات الصغيرة » هذه النظرية التى إنتشرت انتشــارا كبــيرا بين المثقفين فى ذلك العصر ، نظرية التسليم المبتذل بالحيــاة التى لا تطاق . وكانت الدعوة الى « رد اعتبار الواقع » عنيفــة أيضا فى أوساط المثقفين من الطبقة البورجوازية المتحــررة (كانت صحيفة نذليا المتحررة تدعو الى هذه الافكار فى حماس شديد .)

وعندما قال تشيكوف : « لا وجود لاى هدف ، » تشبث « سوفورين » بهذه الكلمات التى كان يؤيدها تأييدا تاما .. طبعا .. لا وجود لاى هدف ! واستخفه الطرب ، وبدا للناس أن المتناظرين على اتفاق تام .. غير أن « سوفورين » أضاف اضافة بسيطة ، وهى أنه لا وجود لاى هدف ، ولا حاجة بنا الى أى هدف . وكانت هذه الاضافة هي التى انقض عليهــا « تشيكوف » وفند من فوره ذلك « الاتفاق » الظاهرى مع « سوفورين » ، وأماط اللثام عن الهوة التى تفصل بينهما . وكان « تشيكوف » يتعذب كلما فكر فى أن هذا العصر ـ كما يبدو له ـ لم يقدم أية مثل عليا اجتماعية عظيمة ، وكان يبحث عن الاهداف العظيمة لانه لم يكن قادرا على التوفيق بين نفســه وبين الحياة كما هى ، أى أن يحيا « من أجل الحياة نفسها» . أما «سوفورين » فكان يقدر ما « كان » . وأزاح

« تشيكوف » فى عنف ، وفى عبارات ثائرة مقتضبة الطبقة « الجميلة » « الشاعرية » التى تغطى المبدأ القائل « بالحياة من أجل الحياة » وكشف عن جوهرها الانانى الرجعى المبتذل الخالى من كل حياة .

وكان « سوفورين » حريصا على أن يعتنق تشيكوف هذا المبدأ « الحياة من أجل الحياة » الى درجة انه جعل من « تشيكوف » فى مقالاته داعية لهذا المبدأ .

كتب سوفورين عن تشيكوف قائلا : « ان نظرته تختلف كل الاختلاف ، فهى نظرة انسانية وطيدة خالية من النزعة العاطفية ، مستقلة عن جميع الاتجاهات سواء أكانت الالوان التى تصبغها فاقعة أو باهتة .. ذلك ان سم التحيز لم يسر فى هذا الانسان الموهوب .. ويبدو أنه يريد القول بأنه ينبغى علينا أن نحيا فى بساطة ، كما يحيا غيرنا من الناس ، وأن يسهم المرء بأفضل نواياه فى تطور هذه الحياة البسيطة العادية ، لا أن يبددها فى نوبات مبالغ فيها متطلعا الى أن يشعل المحيط نارا . »

كان ذلك النديم العجوز ماكرا ، خبيرا بفن التملق البارع وقد لعب هذه اللعبة مع « تشيكوف » فى براعة لا تدانيها براعة ، ونسج الاكاذيب والحقائق سويا فى مهارة لاتضارع !

واستغل « سوفورين » تطلع « أنطون بافلوفتش » الى الإستقلال الروحى استغلالا خبيثا ، وقد كان هذا الاستقلال يعنى لدى تشيكوف اولا وقبل كل شىء الاستقلال عن سوقية الطبقة المتوسطة ! ولكن « سوفورين » بلفتة بارعة احال هذا الطموح الى ذلك النوع من الاستقلال فجعله حنينا من الطبقة المتوسطة الى « الاستقلال » عن الافكار والمثل العليا .

لقد جعل « سوفورين » من « تشيكوف » رغم نفوره من

تسليم الرجل العادى بما فى الحياة من سوقية ـ رجـــلا عاديا « يقدر ما هو كائن » ويحــرص على تعليم قرائه ان يعيشوا كما يعيش سائر الناس .

ولم ينجح « أنطون بافلوفتش » فى كل الاحوال فى فصل الحقيقة عن الاكاذيب فى النسيج الذى نسجه « سوفورين » ولكنه كان قد استقر استقرارا كافيا على ماهو هام وحاسم بالنسبة اليه ، فأخذ يعارض مبادىء « سوفورين » فى اصرار اتسم به ، وتطلع الى الحق لا يحيد، وضمير نقى ، واحساس سليم هو احساس المثقف الديموقرطى الذى ينتمى الى الطبقة المتوسطة الروسية .

ولم يغتفر « تشيكوف » لسوفورين أو لصحيفته ما كان يعتبره منحطا دنيئا خسيسا من الناحية الاخلاقية ،حتى فى الوقت الذى كان حبه « لسوفورين » فى أعلى مراتبه . ففى مارس سنة ١٨٨٩ مثلا كتب لسنــوفورين قائلا : « نشرت صحيفة « نوفوى فريميا » منذ عهد قريب فقرة مقتطفة عن صحيــفة انضمت الى جوقة المداحين الذين أغدقوا الثنـــاء على الخادمات الالمانيات اللواتى يعملن طيلة النهار كالفعلة ثم لا تتقاضى الواحدة منهن غير روبلين أو ثلاثة فى الشهر ، وقد رددت صحيفة « نوفوى فريميا » هذا الثناء واضافت اليه من عندها أنه من سوء حظنا أن نحتفظ بعدد كبير من الخدم فى منازلنا ... وفى رأيى أن الالمان اوغاد .. اولا : لان التحدث عن الخادمات باعتبارهن مجرمات محكوم عليهن بالاشــغال الشاقة أمر يبعث على التقزز ، وثانيا : لان الخادمات أعضاء فى المجتمع على حد سواء وأنهن خلقن من اللحم والدم الذى خلق منه بسمارك ... »

وعنــدما وصف « تشــيكوف » الالمــان الذين يستغلون الخادمات بأنهم أوغاد ، كان يتهم صحيفة « نوفوى فريميا » ضمنا بالوضاعة لانها انضمت الى « جوقة المداحين »

وكان « سوفورين » يقابل بالصمت مثل هذه الاتهامات التى يقذفها « تشيكوف » فى وجهه ، وليس من المستبعد أن يكون الثعلب العجوز الماكر قد حدث نفسه قائلا : « انه مازال صغيرا أخضر العود . » وفضلا عن ذلك يستطيع دائما تصوير الاشياء بحيث يبدو أن هيئة التحرير هى وحدها التى تستحق اللوم على ماتنزلق اليه الصحيفة من وضاعة ، وأنه برىء من هذا كله ، لانه عاكف على الادب ، والصحيفة تصدر « من تلقاء نفسها » !

وبينما كان «سوفورين» نفسه يطرى كتابات «تشيكوف» كان يسمح للمحررين بتوجيه النقد الى تشيكوف على صفحات « نوفوى فريميا » ، وبهذا يؤكد لديه النظرية القائلة بأن « سوفورين » شىء ، و « نوفوى فريميا » شىء آخر ، وهذا فى ذاته مايعزز نظرية « سوفورين » عن « استقلاله الروحى » وعن « سعة أفقه » وعن تسامحه مع جميع الآراء (هذه الجعبة من الحيل التى تستخدمها عادة الصحافة البورجوازية) ، وكان هذا الثعلب العجوز يعلم تمام العلم أن « تشيكوف » لن يفصم عرى الصداقة التى تربطهما بسبب ما يصيبه من اساءة شخصية .

وتفضى بنا دراسة الخطابات التى بعث بها «تشيكوف» الى سوفورين الى حالة ذهنية مزدوجة ، فنحن من جهة نغتبط لان تشيكوف استطاع ان يتخلص من براثن هذا العدو المحب الماكر ، ومن جهة أخرى نبتئس لسذاجته السياسية ، ونحن نشعر بهذه العاطفة المزدوجة عندما نقرأ مثلا النصيحة التى أسداها أنطون بافلوفتش لاخيه « الاسكندر » لكى يقاوم « سوفورين » مقاومة صادقة ما وجد الى ذلك سبيلا ، وأن يتخذ لنفسه موقفا مستقلا بين الادباء الذين يكتبون لصحيفة « نوفوي فريميا » ، وقد كان « تشيكوف » فى ذلك الحين تحدوه الآمال لتنقية الصحيفة من الشوائب البعيدة عن النبل والشهامة .

وبعد أن كتب « تشيكوف » قصته « النوبة »
(١١ نوفمبر ١٨٨٨) سأل سوفورين قائلا : « لماذا لا يجد المرء مطلقا شيئــا عن الدعارة فى صحيفتك ؟ انها بلاء عظيم كما تعلم .. وشارع سوبوليف الذى نقطن فيه سوق للرقيق الابيض »

ولم يفطن « تشيكوف » الى أن « نوفوى فريميا » تسكت عامدة متعمدة عن هذه القروح الاجتماعية البشعة .

وقد أعترف تشـيكوف لسـوفورين بأنه يبـدو فى بعض الاحيان ساذجا فى رسائله اليه . وكان « تشيكوف » فى حاجة الى بعض الوقت لكى ينفض عن نفسه هـذه السـذاجة فى علاقاته بسوفورين .

كان من الواضح أن سوفورين مزود تزويدا صالحا للتأثير على تشيكوف ذلك التأثير العميق ، فهو يمتاز بعقلية ساخرة وذكاء متوقد : وادراك سليم، وتقدير للفن أشبه بتقدير رجال الاعمال ، وبخبرة عملية واسعة . وقد مد « سوفورين » يد المعونة لتشيكوف عندما كان هــذا الاخير يطالب صحيفـة « أوسكولكى » ، عندما كانت دائرته الادبية مقصـورة على « لايكين » ، وبعض صغار الصحفيين .

بيـد أن أهم العـوامل فى تأثير سـوفورين العميق على تشيكوف كان شبح الخواء الذى يلازم تشيكوف ، وسخطه على نفسه ككاتب ، واعتقاده بأنه يشغل نفســه بالتوافه ، وصـعوبة العثور على أهداف واضحة ومثـل عليها فى عصر تميز بالركود الاجتماعى ، هذه الصعوبة التى بدت له أحيـانا استحالة لا أمل فى الوصول اليها . وكان من الممكن أن يفضى هذا كله بالاضافة الى ميل « تشيكوف » الى السخرية ــ الى فلسفة شكية مطلقة ، والى موقف هازىء من كل شىء .. وعندئذ كانت هوة سوفورين على استعداد لابتلاعه فى جوفها .

وقد تحداه سـوفورين أن ينصرف فى شــك هادىء عن

البحث عن « المستحيل » ، واستغل الجانب الرزين من عقلية تشيكوف .. أليس واضحا أن هذا البحث لا جدوى منه ، وأنه « لا وجود لهدف » ولن يكون ثمة وجود ؟ أليس هذا الاسلوب الكيشوتي مضحك من أوله الى آخره ؟

اجل .. لقد كان خطر سوفورين على حياة تشيكوف خطرا داهما مفعما بسموم ذلك العصر .

غير أن « تشيكوف » استطاع أن ينفض عن نفسه هذا الخطر أيضا .. وظلت عربة « لايكين » و « سوفورين » عند أسفل السفح ، بينما انطلقت عبقرية « تشيكوف » الى أعلى الذرى .

وفاة شقيق

أمضت عائلة « تشـيكوف » صيف عـام ١٨٨٩ فى اقليم اوكرانيا حيث استأجرت كوخا عند بقعة تسمى لوكا ، وهى مكان جميل على شاطىء نهر بسيول لا يبعد كثيرا عن قرية سومى .. وكان كل شىء ينبىء بأن الصيف سيكون ممتعا. وكان تشيكوف مسرورا بالمناظر الاوكرانية وبالطبيعةالشاعرية التى يتصف بها أهل أوكرانيا .. بل كان يجـد فى مـلامح الاوكرانيين ما يشبه ملامحه ، وكان يطيب له أن يكنى نفسه بالجنوبى أو « الخوخول »(ومعناها الاوكرانى) . وعلى الرغم من أنه كان شاعر الطبيعة فى أواسط روسيا ــ شأنه فى ذلك شأن الفنان ليفيتان ، اذ كانت تلك الطبيعة تثير فى نفسـه رغبة عارمة مستبدة الى الكتابة كمـا يقول تريجـورين فى مسرحية « النورس » ، الا أنه لم يكن بمستطيع أنيشعربغير سحر المناظر الاوكرانية .. وفضلا عن ذلك كان يسـتطيع أيضا أن يمارس هوايته المفضلة وهى صيد السمك بالسنارة

غير أن هذا كله قد غشيته غشاوة من ظلام بعد أنأخذت العائلة تتوقع بين لحظة وأخرى وفاة نيكولاى ، وكانتالعائلة قد حملت الفنان المريض معهـا الى لوكا .. أما « أنطـون بافلوفتش » فكان يعلم بوصفه طبيبا أن أخاه سائر الى الموت بخطوات سريعة ، ولكنه واجه هذه الحقيقة فى شجاعةالطبيب المتزن ، كما كان شأنه دائما . وفى رد على خطاب بعث به الاسكندر من بطرسبرج يستفسر فيـه متلهفا عن صـحة نيكولاى ، قال تشـيكوف انه لا فائدة ترجى من السـؤال عن احتمال شفائه ، بل كل ما ينبغى أن يسأل عنه هو : الى متى ستمتد بهالحياة .

وقد حمل نيكولاى معه الى القبر شطرا كبيرا من حياة تشيكوف نفسه ، وكان موته وداعا نهائيا لشباب أنطون ، وخسارة روح شبيهة بروحه ، قريبة منها كل القرابة ، وفقدانا لشىء شاعرى أصيل ، ونفس موهوبة لا تعرف التكلف وخفة روح شابة ، وثقة ساذجة بالناس ..

لقد كان موت أخيه تذكيرا مريرا آخر بالوحدة التى يقاسيها .

ولقد كان بوشكين يبحث عن الخلاص من الوحدة فى الصداقة ، فجعل يدور فى حلقة مهذبة من الرجال والنساء الذين يستطيعون أن يقدروا كل ما هو جميل . وربما كونت هذه الحلقة طبقة رقيقة من المجتمع الروسى فى ذلك العهد ، ولكنها على أية حال جعلت حياته الشخصية ونشاطه الخلاق أكثر يسرا .. أما فى الاربعينات ، وفى الستينات على الاخص فقد كانت العناصر التقدمية فى روسيا تشمل دائرة اوسع من ذلك كثيرا . فنيكراسوف مثلا كان يدرك أن شيرنيشفسكى و « دوبروليوبوف » يؤيدانه ، وأن له بين الشباب أتباعا يسلكون مسلكه ، وينتهجون نهجه .

أما موقف « تشيكوف » فكان جد مختلف ، فالحلقة الادبية التى يدور فيها والنقاد الذين يعيشون فى عصره كانوا أدنى منه مرتبة ، واقصر منه قامة الى غير حد .

هذا كله قد جعل أحزانه الشخصية أشد وطأة على نفسه . أضف الى هذا حالته الصحية المرهقة التى أخذت نذرها تتلاحق وتتقارب الفترات بينها ، ويبدو أن شيئاغريبا كان يحيط بموقفه من مرضه ، وكأنه يحاول انكار وجود هذا المرض .

وفى أكتوبر سنة ١٨٨٨ كتب الى سوفورين قائلا : « ينتابنى السعال فى كل شتاء ، وخريف ، وربيع ، وفى فصول الصيف الرطبة .. ولست أفزع الا عندما أبصر الدم .. فثمة شىء كئيب فى منظر الدم عندما ينبثق من شفتى الانسان ، كوهج النار حينما يراه المرء من بعيد .. »

وفى هذه الرسالة نفسها يمضى قائلا ان حالات النزيف هذه قد ظهرت لديه لاول مرة منذ أربع سنوات ، وأنه لاحظ وجود الدم فى بصاقه عدة مرات بعد ذلك التاريخ ، ومع ذلك فهو على يقين من أنه ليس مريضا بذات الرئة .. فلو أن النزيف الذى حدث سنة ١٨٨٤ كان من أعراض السل ، لكان قد قضى نحبه الآن . ويختتم رسالته قائلا : « وهذا هو منطقى . »

ولما كنا نعلم منطق تشيكوف الذى لا يلين ، فاننا نشعر أن ثمة خطأ هنا ، وأنه ليس من الممكن أن يرضى «تشيكوف» فى قرارة نفسه عن هذا التعليل السطحى .

وكان يحاول أن يطمئن نفسه وأصدقاءه بأنه ليس مريضا .. ولكنه لم يلبث أن كتب فى مرحلة تالية الى « ليكاميزينوفا» بتحفظه المعهود قائلا : « اننى لست على ما يرام .. فأنا أسعل طول الوقت تقريبا .. ويبدو اننى فقدت صحتى بالطريقة نفسها التى افتقدتك بها . »

وهذا التزاوج بين فكرتى الصحة المفقودة والحب المفقود لا يخلو من دلالة .. ومن الواضح أنه كان فى خوف دائم من ان تطغى همومه الشخصية ــ كالحب العظيم أو ادراكه القلق لمرضه المميت ــ على عمله فتمنعه من التركيز على مايراه أهم الاشياء جميعا .. ومع ذلك لم يكن تشيكوف قد إكتشف بعد ماهو أهم الاشياء جميعا .. انه يحتاج الى أربعين سنة اخرى من الدراسة قبل أن يصبح كاتبا حقيقيا .. « وكل ساعة ثمينة فى حد ذاتها .. »

انه كان يشعر بالسآمة حينما يفكر فى مرضه .. وكان السعال الرهيب ، والنزيف المميت الذى أصاب نيكولاى يذكره تذكيرا ملحا بأنه هو أيضا قد أدركته العلة ، وكأن هذا كله ضحكة شيطانية يطلقها انسان يسخر من الاوهام التى خلقها لنفسه .

كان نيكولاى « يذوب كالشمعة » ، ولم يجد تشيكوف « لحظة واحدة » يستطيع أن ينسى فيها « أن النهاية وشيكة الوقوع » .

وفى غضون تلك الايام الحزينة التى جلس يراقب فيها مرض شخص عزيز على نفسه ، ويقوم بتمريض أخيه بكل ما يملك من حنان ورقة ، فظل تشيكوف مخلصا لنفسه التى لا ترضى بغير الوضوح الذى لا يرحم فى ملاحظته الحياة والناس ففى هذا الخطاب نفسه الذى بعث به الى الاسكندر والذى يتحدث فيه عن وفاة نيكولاى المحتومة الوشيكة يضيف الى ذلك أن نيكولاى اصبح مشاكسا ، وانه يعامل من يحيطون به « كأنه جنرال » ويقول تشيكوف فى تخابث مكتئب : « ان نيكولاى يتصور نفسه جنرالا حقا .. فهو يتطلب الدقة فى كل شىء الى حد رهيب . »

وهنا يتذكر المرء دون ارادة منه ماقاله جوركى ذات مرة فى خطاب بعث به الى تشيكوف : « لقد كونت انطباعا غرزيا لصورة روحك.. وانها لروح شديدة الصلابة على ماأعتقد . »

وفى يونيو سنة ١٨٨٩ ، مات الرسام تشيكوف .

وكتب أنطون بافلوفتش يقول : « لقد مات نيكولاى المسكين ، فأضحيت شخصا غبيا متبلدا ، يستبد به الضجر حتى الموت .. ولا يجد فى الحياة ما يستحق بنسا واحدا من الشعر ، ولم تعد لديه اية رغبات .. الخ . »

ترك موت نيكولاى أثرا عميقا فى نفس « تشيكوف » وكأنه نسيج واحد مع تلك الافكار الملحة التى تسومه العذاب ، وكانت وفاة نيكولاى ، وذكريات الحياة التى كان يحياها ، يؤلفان تيارا جديدا من الكآبة فى الجدول الرئيسى لفكر تشيكوف .

ولم يستطع تشيكوف أن ينأى عن الافكار الملحاحة التى

تدفعه الى البحث عن « فكرة عامة » ، وعن غاية عظيمةلحياة الانسان ، واضحت تجاربه الشخصية : الحزين منها والبهيج على السواء ، مغزولة فى ذهنه مع هذه الافكار .

والحياة التى تفتقر الى نظرة محددة تستثير الشفقة ، ويا لها من لحظات تستثير الشـــفقة حقا ، تلك اللحظات التى يحتضر فيها انسان مفكر لم يعرف للحياة غاية !

وبغير وعى الانسان بحياة يبـــذل فيها مجهودا متبصرا ، وبغير الاحساس بالاتصال الشخصى مع المستقبل ، والاعتقاد بأن شيئا فى نفسى لن يموت أبدا ، وان أفراحى واتراحى ، وأعمالى لن تختفى دون انتخلف اثرا ، ولكنها ستنصب ـ ولو كقطرة واحدة صغيرة ـ فى محيط الحياة التى يحيـاها

الناس والشعب ، والعالم .. بغير هـــذا الوعى لن يستطيع شىء آخر أن يسدل على حياة الانسان ومماته ثوبا من الكرامة

المبدأ السائد

فى النصف الثانى من عام ١٨٨٩ ، ظهر عمل من أهم أعمال تشيكوف ، وأعنى به : « حكاية مملة »

ولعلنا نذكر أن « تشيكوف » كانت تراوده فى العام السابق فكرة كتابة قصة عن « رجل مفكر » يجد نفسه مفلسا فى لحظة حرجة من لحظات حياته ، اذ يكتشف أنه كان يعيش دون أن يكون له نظرة محددة للعالم .

وهبطت الحالات النفسية والافكار التى نشأت عن وفاة اخيه على الفكرة الاصلية ، فأدخلت عليها شيئا من التعديل .

وترتبط فكرة الرجل المفكر الذى يفتقر الى « فكرة سائدة » فيدفعه ذلك الى القنوط عندما يواجه المشكلات العسيرة فى حياته الشخصية ـ ترتبط هذه الفكرة ارتباطا وثيقا بفكرة الافلاس الروحى الذى يعانيه هذا الرجل فى مواجهته الموت .

وجو « حكاية مملة » مشحون بفكرة أن البطل سائر الى الموت حتما فى المستقبل القريب ، ولكى لا يشرد ذهن القارىء عن الفكرة الاساسية للقصة ، جعل البطل فى سن يكون فيها التفكير باقتراب الموت أمرا مألوفا هى سن الثانية والستين

وجعل « تشيكوف » بطله عالما معروفا وأستاذا فى الطب حتى يؤكد فكرة الآلام التى يعانيها الرجل المفكر .

وكان المزاج الذى تم به هذا العمل مزاجا قاتما . .

واستطاع تشيكوف بالملاحظات التى جمعها وهو الى جانب فراش أخيه المحتضر ، وبخواطره عن مرضه الخاص ، وبقدرته

كفنان وطبيب على تقمص شخصية « مريضه » . استطاع تشيكوف بفضل هذا كله أن يصف العالم الباطنى لشخص يحيا فى توقع الموت بين لحظة وأخرى .

وفى « حكاية مملة » شخصيتان رئيسيتان هما الاستاذ العجوزوكاتيا وهى شابة فقدت أبويها فى طفولتها، فاحتضنتها أسرة الاستاذ ، وكان أبوها ـ وهو طبيب أخصائى فى العيون قد عين الاستاذ وصيا على ابنته ، وكان الاستاذ يحب « كاتيا » كما لم يحب ابنته ، بل كما لم يحب شيئا آخر فى هذا العالم ، اذ كان هذا الاستاذ غريبا بين أفراد أسرته ، وكانت « كاتيا » تنظر الى وصيها باعتباره المرجع الاعلى فى كل شىء .

وقبل ان تبدأ القصة نعلم أن كاتيا قد فشلت فى عملها على المسرح ، وأنها قد لقيت عداء كثيرا .. ونراها تعانى بطريقتها الخاصة الآلام نفسها التى يكابدها الوصى عليها .. انها تفتقر الى « الفكرة السائدة » وتشعر انها لا تستطيع أن تواصل حياتها دون هدف لهذه الحياة .. ان « كاتيا » هى المتعة الوحيدة التى تبقت للعالم العجوز ، ولكنه يفقدها أيضا لانه عاجز عن الاجابة عن السؤال الذى توجهه اليه .. نفس السؤال الروسى التقليدى : « ماذا ينبغى أن نفعل ؟ » ويكشف الحديث الاخير الذى دار بينهما قبل أن تخرج من حياته الى الابد ـ بل ربما من الحياة كلها كما توحى طبيعة مزاجها ـ يكشف عن الفراغ المحزن الذى يسود العالمالباطنى للشخصية الرئيسية فى القصة .

وتتضرع اليه كاتيا فى قنوطها قائلة : « نيكولاى ستيبانتش ! أنا لا استطيع ان امضى فى الحياة على هذا النحو ! لا استطيع .. بربك ، خبرنى ، بسرعة ، وفى هذه اللحظة ـ ماذا يجب أن افعل ؟ خبرنى ماذا يجب ان افعل ! ..

« وأنت رجل حكيم مثقف ، قد تمرست بالحياة زمنا

طويلا ! وكنت معلما .. خبرني ، ماذا ينبغي أن أفعل ؟ »

فيكون جوابه : « يا كاتيا .. يا روحي .. أنا لا اعرف.. دعينا نتناول افطارنا يا كاتيا »

وكان يفهم تمام الفهم الآلام التي تعتلج في صدرها .

ويناجي نفسه قائلا : « لقد لاحظت في نفسي افتقاري الى مايسميه زملائي الفلاسفة بالفكرة العامة ،ولم يعد يحول بيني وبين الموت غير وقت قصير ، وبعد أن وصلت الى مغرب أيامي ، وقدر لروح هذا المخلوق المسكين أن تظل هائمة بلا مرفأ طوال حياتها .. طوال حياتها كلها ! »

ولكن كيف يستطيع أن يساعد عزيزته كاتيا ، في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يساعد نفسه ؟

ويضع تعريفا قاطعا لشكايته فيقول :

« ... كان من الواضح عندي – مهما امعنت الفكر ، وطارت بي الخواطر كل مطار – أن شيئا جوهريا، شيئا رئيسيا ينقصني .. ذلك أن شهوتي للعلم ، ورغبتي في مواصلة الحياة ، ومحاولاتي لمعرفة نفسي ، وجميع أفكاري واحساساتي وتصوراتي لا ترتبط فيما بينها أي ارتباط ، وليس ثمة ماينسجها جميعا في كل واحد .. كانت كل فكرة، وكل شعور ، ينعزل عن الآخر داخل نفسي ، وان أمهر النفسانيين ليفشل في العثور على ما يمكن أن يسمى فكرة عامة في كل ماكتبت من نقد للعلم أو المسرح أو الادب ، وبين تلاميذي ، وبين اللوحات التي صوزها خيالي ، كما سيفشل ان أراد العثور بين هذا كله على شيء يمكن أن يتخذه الانسان الحي الها . واذا كان هذا هو ما أفتقده ، فقد فقدت اذن كل شيء .

« واذا كان هذا الجدب الروحي من نصيبي ، فان أية متاعب خطيرة ، كالخوف من الموت أو تأثير الحوادث والناس – كافية لكي تقلب كل شيء رأسا على عقب ، وتحطم ماعودت

نفسي ان اسميه بنظرتي العقلية ، وما الفت أن ارى فيه معنى الحياة وفرحها ليستحيل هباء منثورا .. وليس غريبا اذن ان تغشى الشهور الاخيرة من حياتي غاشيات مظلمة من الافكار والمشاعر التي يمكن ان تكون خليقة بعبد أو رجل متوحش .. واذا افتقد الانسان في نفسه ما هو أعلى وأقوى من جميع المؤثرات الخارجية ، فان مجرد اصابته ببرد عنيف في رأسه كاف لكي تتضعضع نفسه ، ولان يرى البومة في كل طير ، ونباح الكلاب في كل صوت ..

« لقد انهزمت ... »

ومع نفور « تشيكوف » من العبارات الطنانة ، فانه يسمى قصة هذا العالم العجوز الذي يجهل وهو على حافة القبر ، لماذا كان يعيش .. يسمى تشيكوف هذه القصة التي تنفطر لها القلوب « قصة مملة » ولكن ، اذا كان من الممكن أن توصف العواطف التي اعتصرت بطل القصة في قبضتها بأنها «مملة» ؛ فاننا نكون بازاء تفسير جديد كل الجدة لكلمة « الملل » أو الغباء ، تفسير أشبه بما فعله « بيرون » لكلمة « كآبة » ، عندما توسع في معناها فجعلها مرادفة للكلمة الالمانية التي معناها « الالم الكوني »

وقد سبق ان لاحظنا هنا أن تشيكوف يعكس في كتاباته مطالب فريق من المثقفين الديموقراطيين الروس وأمانيهم ، ذلك الفريق الذي لم يكن يستطيع أن يعقد الصلح مع المجتمع البورجوازي لشعوره بالعداء الذي يكنه هذا المجتمع للثقافة وممثليها في أشخاصهم ، بيد أن هذا الفريق كان يجهل الطريق الثوري للخروج من هذا الموقف ، وبالتالي كان بعيدا عن السبيل الذي سلكته الثورة .

وفي « حكاية مملة » يعرض تشيكوف بأقصى مايستطيعه من حدة وعمق المشكلات الاساسية التي تكتنف سبيل

المثقفين فى المجتمع البورجوازى من كل جانب . فالمجتمع البورجوازى عاجز عن الهام المثقفين تلك المثل العليا السامية التى تتطلع اليها الامة والجنس البشرى عامة ، والمصير المحتوم لافضل فريق من المثقفين فى المجتمع البورجوازى هو الانتهاء الى السطحية العقلية والنفسية ، والى الانحلال والفراغ الروحى الذى يعادل الموت الروحى .. والمنفذ الوحيد من هذه « القصة المملة » يكمن فى اكتساب المثل العلياالاجتماعية التى لا يستطيع « سادة » المجتمع البورجوازى تقديمها للناس .

ان الافتقار الى تصور متكامل للكون ، والى الوعى بمعنى الحياة ، والى الصلات الحيوية بالكائنات البشرية ، وان انعزال الفكر والشعور ، وحياة كل منهما فى « خواء » تام ، والتصدع الذى يصيب الروح .. هذه أشياء لا محيد عنها فى مجتمع ينقسم الى جزيئات منفصلة ، مجتمع لا يحدوه هدف مشترك ، ومبدأ سائد .. وكانت هذه السمات المميزة لعصر يبحث متلهفا تحت نير الرجعية ـ عن أهداف جديدة ومثل عليا جديدة ؛ والآلام التى برحت بفنان لا يستطيع أن يعيش بغير مثل أعلى يلهمه جلائل الاعمال .. كانت هذه العوامل سببا فى ان مكنت « تشيكوف » من عرض موضوع لا يصطبغ بصبغة عابرة مؤقتة ، بل يتمتع بدلالة عالمية رحبه .

وهكذا تثبت مرة أخرى تلك القاعدة القائلة بأن الفنان الذى يعالج فى عمق المشكلات الهامة فى عصره ، ينشىء من ثمة أعمالا تتجاوز حدود هذا العصر .

وفى عصر شاع فيه الانحلال ، واختفت فيه المثل العليا ، وسادت الحذلقة بين الشطر الاعظم من المثقفين ، كان « تشيكوف » وأبطاله يتشوقون الى « فكرة سائدة » .

وما كان « تشيكوف » يريد أن يكون شبيها بأبطاله الذين كانوا يجيبون على هذا السؤال : « ماذا ينبغي أن نفعل ؟ » تلك الاجابة الصادقة القانطة : « لا نعلم ! » فليس يكفي القارىء أن يعرف أن الكاتب شخص أمين ، ولكنه يريد أن يعرف « ماذا ينبغي ان يفعل » . ولقد احس تشيكوف أن واجبه يحتم عليه الاجابة عن هذا السؤال .

رحلة بعيدة

ولم يلبث أنطون بافلوفتش أن أدهش أصدقاءه وذوى قرباه بقرار مفاجىء اتخذه عقب وفاة اخيه بزمن قصير ، اذ بدأ يتأهب للرحيل الى سخالين .

ويروى ميخائيل بافلوفتش شقيق تشيكوف قصة هذه الرحلة قائلا : « شرع أنطون بافلوفتش يستعد للرحيل الى الشرق الاقصى بغتة ودون سابق انذار ، حتى لقد كان من العسير فى بداية الامر أن يحدد المرء هل هو جاد أم هازل . »

ولكن لماذا استقر عزمه على الذهاب الى « سخالين » دون غيرها ؟ .. انه لم يظهــر من قبل أى اهتمام خاص بهــذه الجزيرة .

وكانت الرحلة الى «سخالين» فى تلك الايام مسألة خطيرة ، مرهقة أشد الارهاق ، محفوفة بالمكاره ، اذ لم يكن الخــط الحديدى العظيم الذى يخترق سيبيريا الآن قد وجد بعد ، وكان لزاما على المسافرين أن يقطعوا ألفين من الاميال فى عربة خالية من اللوالب . وكان أنطون بافلوفتش يعلم تمام العلم انه سيلقى الاقذار وضروب المضايقات فى طريقه ، وأن أنهار سيبيريا الجارفة قد تكون فى ابان فيضانها ، وأن كل عظمة من عظام جسمه سوف تخض خضا ، وأن ثمة محنا أخرى عديدة قد يشق على الرجل الصحيح احتمالها ! واعجب من ذلك أنه رفض منذ أيام قلائل دعوة الى رحلة قصيرة ممتعة متذرعا بأن سعاله يزداد سوءا حينما يسافر بالقطار . ولكن .. أين وجه المقارنة بين اهتزاز عربة القطار وبين زلزلة عربة تجرها الجياد ، لا لمدة يوم أو يومين فحسب ، بل لمدة أسابيع !

ما من أحد أدرك سر هذا القرار الذى اتخــذه « أنطون بافلوفتش » . وقد سأله أناس كثيرون عما يدفعه الى هذه

الرحلة ، وبعثوا اليه خطابات تفيض بالدهشة ، فكان « تشيكوف » يجيب على هذا كله بدعابة من دعاباته ، محاولا أن يجعل هذه الرحلة تبدو للناس على انها نزوة طارئة من نزواته ، وانها مجرد رغبة فى التغيير والتبديل .. فاذا ألح عليه السائلون اكتست أساريره بمسحة من الجد وقال انه يريد ان يكتب بحثا علميا أو رسالة عن سخالين ، وبهذه الطريقة يرد الدين الذى فى عنقه نحو الطب .. « زوجته الشرعية » التى هجرها من أجل « عشيقته » الادب ! !

فاذا قبلنا رواية هذه النزوة الطارئة ، لم نستطع أن نفهم لماذا اختار أن « ينفض نفسه » على حد تعبيره فى مقعد باحدى العربات المقفلة ، ولماذا اختار الرحلة الى سخالين دون سائر أماكن الارض ، اذا كان ما يريده هو ان « ينفض نفسه » فليس من شك أن رحلة عادية مريحة الى الخارج تفى بهذا الغرض ! والحق أن أنطون تشيكوف قام فعلا بهذه الرحلة العادية المريحة عقب عودته من « سخالين » .

واذا كان يستهدف غرضا علميا من وراء هذه الرحلة ، فليست حاجته الى كتابة بحث عن سخالين بالامر الواضح . فقد انكب تشيكوف فى وقت من الاوقات على موضوع علمى طريف كل الطرافة هو « تاريخ الطب الروسى » فجمع له مادة وفيرة ، فاذا كا نمتلهفا حقا على « سداد دينه للطب » بانجاز عمل علمى ، فلماذا لا يعود الى الموضوع الذى شرع فيه فعلا ، والذى يعد متمكنا فيه الى حد ما ؟ ولماذا لا يختار ـ بعد هذا كله ـ موضوعا يحبه لا يجشمه عناء هذه الرحلة الشاقة ؟

لا جدال فى أن أنطون بافلوفتش كان يود حقا كتابة مؤلف علمى ، ولكنه لم يكشف بحال من الاحوال عن جميع البواعث التى حفزته على الارتحال الى سخالين ، ولهذا ضلل أقاربه وأصدقاءه المترجمين لحياته أيضا فى بيداء من التخمينات . وقد أجمل أحد المترجمين لحياته دوافع هذه الرحلة وفقا لاقوال تشيكوف نفسه فقال :

« ان الحياة الموحشة الشاقة التى حياها تشيكوف حتى ذلك الحين لا تحتوى على يومين أو ثلاثة من تلك الايام التى يذكرها الانسان طيلة حياته سواء بالفرح أو بالحـــزن .. وهذه الايام التى لا تنسى ضرورية ضرورة مطلقة ، والا ماوجد الانسان شيئا يحيامن اجله .. وهذا مانراه تفسيراحقيقيــا للقرار الذى اعتزمه تشيكوف بالذهاب الى سخالين . »

بيد أن هذا المترجم لم يلاحظ أنه لم يقدم اى جواب على السؤال الرئيسى وهو : لماذا كان من الضرورى أن يذهب المرء الى سخالين للفوزبيومين أو ثلاثة من تلك الايام المترعة بالحياة، ولماذا لا يذهب الى « نيس » مثلا .

ان « تشيكوف » كان يعلم جيدا أن سخالين قد أصبحت « جزيرة الرعب » بعد أن أحالتها حكومة القيصر الى منفى للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وكان يدرك تمــام الادراك أنه سيلتقى بكل ضروب المهـانة الانســانية ، وألوان العذاب ، مركزة فى بقعة واحدة من الارض ، ولم يــكن ثمة مجال للشك أن فرط حساسيته للالم والعذاب سيجعــل من مقامه فى سخالين فترة من العذاب المتصل فى حياته .

ولا بد أن نلتمس المفتاح لاكتشاف أهم العوامل التى دفعته الى اتخاذ قراره فى قولين من أقواله : أحدهما متضمن فى رده على سؤال تملؤه الدهشة موجه اليه من سوفورين وهذا السؤال هو : ماذا يريد أن يفعل انطون بافلوفتش بجــزيرة سخالين ؟ وكان سوفورين قد كتب قائلا : انه ليس ثمـــة ما يدعو الى هذه الرحلة ، طالما أن أحدا لايحتاج الى سخالين ولا يهتم بها ، وقبل ان يجيب تشيكوف على هــذا السؤال ، أكد متحفظا انه لا يدعى أية ادعاءات فى اقدامه على هـــذه الرحلة فقال :

« اننى أقدم على رحلتى وأنا على يقين من أنها لن تسهم بشىء ذى قيمة سواء للادب أو للعلم .. فلست أملك المعرفة أو الوقت أو الغرور الكافى لمثل هذه الادعاءات . »

ويحاول بعد ذلك تبرير رحلته بدافع ان لم يكن هو الدافع الرئيسى فهو بلا شك على جانب من الاهمية فيقول : « ان هذه الرحلة تعنى ستة اشهر من العمل المتواصل . . . الذهنى والجسمانى على السواء ، وهذا شىء جوهرى بالنسبة الى . . اذ غدوت كسولا . . ولا بد للمرء أن يواصل تدريب نفسه . »

ثم ينثنى الى النقطة الرئيسية . . فيكشف ها هنا عن سخطه على خطاب سوفورين ويشير الى الدوافع الحقيقية لقراره الخاص بالرحلة : « . . انك تقول ان أحدا لا يحتاج الى سخالين أو يهتم بها ؟ ولكن . . هل هذا صحيح ؟ ان عددا من الروس . . من أفراد شعبنا ، أخذوا يستكشفون منذ زمن لا يزيد على خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما جزيرة سخالين ، وقد تركوا من المآثر الباهرة مايدفع المرء الى تقديس الانسان . . ولكننا لا نحتاج لشىء من ذلك ، ولسنا نعرف من يكون هؤلاء الافراد ، كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نقبع فى عقر دارنا لنندب حظنا على أن الله خلق الناس على هذه الدرجة من الشر ! ان سخالين موئل عذاب لاسبيل الى احتماله ، عذاب لا يمكن أن يطيقه بشر سواء كان يتمتع بحريته أو يرسف فى أغلال الاسر ، وان هؤلاء الذين يعملون هناك أو فى الامكنة المجاورة قد وجدوا حلولا لمشكلات على أكبر نصيب من الاهمية . .

« ومن الواضح بعد ما قرأته من كتب ، وما زلت أقرأ منها اننا ندع ملايين الناس يعفنون فى السجون ، دون هدف أو منطق ، بل فى همجية بالغة . . ولقد سقنا الناس مصفدين بالاغلال آلاف الاميال فى الصقيع ، وكنا سببا فى اصابتهم بمرض الزهرى ، بل خلقنا منهم مجرمين ، ثم ألقينا اللوم كله على أكتاف السجانين ذوى الانوف الحمر . . وما هم بلومين . . بل نحن الذين يحق علينا اللوم . . ولكن ... ليس فى هذا كله ما يعنينا ، وليس فيه ما يهمنا ! »

وهنا يبدو أن انطون بافلوفتش يراجع نفسه .. أليس في هذا كله ما نشتم منه رائحة الغرور ؟ أليس أشبه باعلان عن النتائج العظيمة التي يمكن أن نتوقعها من هذه الرحلة ؟ ولذلك يعود مرة أخرى الى اللهجة المتواضعة التي بدأ بها خطابه :

« غير انى أؤكد لك أننا فى حاجة الى سخالين ، وانها خليقة باهتمامنا ، والشيء الوحيد الذى يؤسف له حقا هو أننى أنا الذى أرحل الى هناك ، وليس شخصا آخر غيرى أكثر الماما منى بالموضوع ، وأعظم قدرة منى على استثارة اهتمام الناس .

« والحق أننى ذاهب الى هناك للبحث عن التوافه . »

ويفلت من تشيكوف اعتراف آخر قيم فى خطاب بعث به الى شجلوف ، وكان هذا الاخير قد أعرب عن اعتقاده بأن فى النقد الحديث بعض الفائدة للكاتب ، واعترض «تشيكوف» على هذا الرأى بأنه لو كان للنقد أى نفع للكتاب حقا » لعرفنا ما ينبغى أن نفعله ، ولما رقد فوفانوف فى احدى مستشفيات المجـــانين ، ولظل جارشن على قيـــد الحيـــاة ، ولم ينحط بارانتفتش الى الحضيض ، وما كان لنا أن نستشعر السآمة كما هى حالنا الآن ، فتشعر أنت بنداء المسرح ، وأشعر أنا بأن سخالين تنادينى . »

ويرى المترجم الذى يبرر رحلة تشـيكوف الى سخالين برغبته فى اكتساب يومين أو ثلاثة من الايام الزاخرة بالحياة .. يرى هذا المترجم أن كلمات تشيكوف الى شجلوف التى أوردناها فيما سبق مجرد تعبير عن « الملل » العادى ، وعن المحاولة العادية لكى ينفض « تشيكوف » عن نفســه هــذا الملل بالالتجاء الى « التغيير » .

ولكنا نعلم جيدا ما تعنيه كلمة « الملل » فى لغة تشيكوف ، كما نعرف معنى استيائه من النقد المعاصر ، ونعلم أيضا أنه يسمى أشواق الانسان الذى يفتقر الى « الفكرة السائدة » « قصة مملة » .. ولقد كان تبرمه بالنقاد جزءا من حنينه

الى الاهداف العظيمة والمثــل العليا ، وبهــذا الحنين يربط قراره الخاص بالرحيل الى سخالين ..

فالغرض من زيارة تشــيكوف لجزيرة ســخالين يمتزج بسعيه للاجابة عن هذا السؤال الخــالد : « ماذا يجــب أن تفعل ؟ »

وفى خلال عصر « الاصلاحات الصغيرة » .. ذلك العصر الذى كان المثقفون فيــه يفتقرون الى المثــل العليا ، وجــد تشيكوف أن ذلك الشيء الذى يطمح اليه الكتاب الروس هو: مجال للبطولة .

ولو أن احدا أخبره أن رحلته الى سخالين كانت ضربامن البطولة ، لضحك منه ملء شــدقيه ، اذ كان يبــذل أقصى مالديه من قوة لكى « يقلل » من قيمة رحلته ، ولكى يجعــل منها شيئا تافها .. ولكنهــا كانت مع ذلك بطولة حقــا .. لا بسبب مرضه ، أو وعثاء السفر ، أو الاشهر الستةالمرهقة التى أمضاها فى عمل متصل ، ولــكن لانها كانت محــاولة للوقوف ازاء الحقيقة وجها لوجه بــكل ما تنطوى عليه من بشــاعة .

وقد يحدث أحيانا أن يقوم أحد الكتاب برحلة غريبة شاقة الى بلاد بعيدة يدفعه الى ذلك فشله ، أو طموحه الى الشهرة والمجد .. أما « تشيكوف » فلم يكن ـــ كما نعلم ـــ راضــيا عن شهرته بل كان يخشى هذه الشهرة ؛ ويخشى أن يصــبح « كاتبا عصريا » ، ويشعر كأنه « يخدع القارىء » لانهلايشير الى هدف للحياة .

وأراد تشيكوف برحلته الى سخالين أن « يرد الدين » لا الى الطب ، وانما الى ضميره ككاتب روسى . ذلك أن الكاتب الروسى يشعر دائما بمسئوليته حيال الشعب عن حياة أمته بأسرها .

.. وعندما كتب تشيكوف قائلا : « اننا ندع الملايين من أفراد

الشعب يعفنون فى السجون » و « لقد خلقنا منهم مجرمين ، والقينا اللوم كله على أكتاف السجانين ذوى الانوف الحمر » كان يعنى تماما ما يقول ، وكان يشعر بكل كيانه بمسئوليته الشخصية عن الجرائم التى تقترفها حكومة القيصر .

وقد أكد لينين فى نقده للاحرار الذين ارتضوا فظائع روسيا القيصرية ، أكد هذه الحقيقة وهى أن الاحرار يساهمون بذلك فى انحطاط الشعب السياسى بالاشتراك مع الحكومة القيصرية ، وأنهم يضعفون بذلك شعور الرجل الروسى العادى – على مابه من ضعف بمسئوليته كمواطن حيال كل ما تفعله الحكومة . »

وقد حاول تشيكوف فى كل ما كتب أن ينمى فى قرائه هذا الشعور بالمسئولية ، الذى امتاز لديه بالقوة والحدة .. وكان قراره بالذهاب الى « سخالين » نابعا عن هذا الشعور .

بيد أن هناك سببا آخر على جانب كبير من الاهمية لرحلته تلك .

كان «تشيكوف » يعلم أنه سيلتقى بعدد كبير من المعارف الجدد أثناء رحلته الطويلة ، وانه سيشاهد حياة بلاده بكل صورها .. أما ضواحى موسكو ، وبطرسبرج ، والاماكن الجنوبية المألوفة ، والقوقاز والقرم ، وأوكرانيا ، فلم تكن مما يشبع ظمأه الذى لا يرتوى الى معرفة بلاده .

واتخذ أنطون بافلوفتش أهبته للرحلة باحاطته العلمية ودقته المألوفة ، فقام بدراسة واسعة تكاد تشمل مكتبة كاملة من الكتب التى تتصل بفروع العلم المتباينة ، من تاريخ وعلم الاجناس والجيولوجيا والبيولوجيا والقانون الجنائى ، واجراءات السجون وعلم الاحوال الجوية ، والجغرافيا .. وكان بين هذه العلوم ، علوم يدرسها تشيكوف للمرة الاولى . كتب يقول : « انني انكب على كتبى طيلة اليوم ، اقرأ وأدون الفقرات المختلفة .. وهذا جنون .. فقد كان على أن اكون عالما فى طبقات الارض والاحوال الجوية والاجناس البشرية . »

وفى ابريل سنة ١٨٩٠ رآه أقاربه وأصدقاؤه متجها الى ياروسلاقل ، وهناك استقل السفينة الى كازان ومنها أبحر عن طريق « نهر كاما » الى برم ، ثم الى تيومين عن طريق السكة الحديدية .. ومنها يمم وجهه شطر أمنا سيبيريا !

ويبدو أن عناصر الطبيعة نفسها قد صح عزمها على مناوأة الكاتب فى أسفاره ، ففى بداية الرحلة نزلت به نازلة من البرد الحاد اضنته ليلا ونهارا .. اذ تلكأ الربيع عن موعده بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولما أقبل الدفء حمل معه من الغبار والاتربة ما جعله بالاحرى « يتمرغ » فى مقعده ، بدلا من أن يسافر عليه . واجتاز عدة مرات أنهار سيبيريا أبان فيضانها الجارف فى قارب صغير متعرضا بذلك للغرق . واننا لنجد بعض اللمسات التى تعطينا فكرة عن أسفاره فى الرسائل التى بعث بها الى شقيقته . وان تكن موجهة الى الاسرة كلها :

« ... القذر والمطر والريح العنيف والبرد والحذاء ذو الرقبة الطويلة (١) يضغط على قدمى .. فهل تعلمين معنى انتعال هذا الحذاء اذا ابتل ؟ انه أشبه بعضلات باردة تضغط على الساقين .. ونمضى فى طريقنا ثم نمضى ، وفجأة تنبسط أمام أنظارنا بحيرة مترامية الاطراف تطل منها رقعة من الارض هنا وهناك ، وقد برزت منها الاعشاب .. انها مروج غطاها الفيضان .. ومن بعيد ، نلمح ضفاف نهر « أرتيسن » المنحدرة ، ونواصل السير عبر البحيرة .. والحق اننى لو لم أكن عنيدا لعدت على أعقابى ، غير أن شعورا بالتحدى يسيطر على فجأة ، وهو نفسه ذلك الشعور بالتحدى الذى دفعنى الى الوثوب من اليخت والاستحمام فى مياه البحر الاسود ، وجعلنى أقترف عددا غير قليل من الحماقات ..

( ) يسمى بالروسية الفالنكى ، وكان تشيكوف قد ابتاع حذاء لرحلته فلما كتشف أنه ضيق فاضطر إلى انتعال الفالنكى .

وربما كان ذلك راجعا لحالة نفسية معينة .. وكنا نحاول أن نسير فوق الجزر الصغيرة والاشرطة الجافة من الارض.. ترشدنا الى الاتجاه جسور صغيرة وكبيرة تطفو فوق سطح الماء ، بعد أن إكتسحها الفيضانات جميعا ، فاذا اردنا اجتيازها حللنا الجياد وقدناها واحدا واحدا .. وبينما كان السائق يفك الجياد من العربة كنت أقفز الى الماء بحذائى الثقيل لامسك رءوسها .. أليس ذلك مسليا الى أبعد حد ؟. والآن جاء دور المطر والرياح .. فلتنقذنا السيدة مريم العذراء .. »

وهو يصف أيضا حادث اصطدام عربته بعربة أخرى ، وكيف نجا من الموت بأعجوبة ، ولم يصب بعاهة مستديمة بفضل المصادفة العمياء وحدها .

ورغم هذه المشاق جميعا ، ظل أنطون بافلوفتش محتفظا بروحه المعنوية العالية ، فقطع ستمائة ميل من نهر آمور مستمتعا بروعة المناظر التى تحف بهذا النهر .

وكانت مشاعره نحو وطنه قد اتخذت مجالا أرحب .. اذ كان يشعر بالحزن والفرح فى وقت معا ..

رأى تشيكوف أشياء كثيرة فظة تشيع فيها الكآبة .. واحتدم سخطا على استبداد السلطات المحلية استبدادا وحشيا بأفراد الشعب ، غير أن ملاحظاته عن الفلاحين الروسيين البسطاء فى بطولتهم اليومية التى تتبدى فى كدحهم رغم الظروف السائدة فى سيبيريا حين ذلك .. هذه الملاحظات كانت مبتهجة مشرقة . وفى لوحاته الادبية التى كتبها أثناء سفره بعنوان « من سيبيريا » يذكر محادثة له مع أحد الفلاحين ، وأن هذا الفلاح قال له : « لاوجود للحقيقة عامة فى سيبيريا .. ولو كان هناك شيء من الحقيقة لتجمد حتى الموت منذ زمن بعيد .. ومن واجب الانسان أن يبحث عن هذه الحقيقة . » ويروى لنا « تشيكوف » حكاية فلاحة شابة وزوجها الذى تبنى طفلا لاحدى عابرات السبيل ،

وأن الزوجين شغفا بالطفل حبا حتى انهما باتا فى خشية من أن ترجع الام للمطالبة بابنها . وقد ذكرت المرأة هذاالاحتمال والدموع تترقرق فى مآقيها .. وزوجها أيضا لم يكن يريد أن يتخلى عن الطفل ، بيد أنه رجل ، والرجال لايعترفون بمثل هذه الامور . » ويهتف تشيكوف : « ما أروع هؤلاء البشر ! » دون أن يستطيع كبت هذا التعبير غير المألوف عن عواطفه . وفى خطاب آخر لشقيقته يصيح هذه الصيحة : « بحق السموات .. ما أغنى روسيا بأبنائها الرائعين ! »

وطالما أوحى الطريق الطويل الى الكتاب الروس بصورة المكان اللامحدود ، وأثار فى نفوسهم الاشواق الحزينة الى السعادة المقبلة ! وهكذا كان الطبيب والكاتب الروسى المريض بالسل الذى لا يكف عن الملاحظة تخضه عربة لا لوالب لها فوق هذا الطريق ، يدفعه الضمير الروسى القلق الذى لا يتعب ــ الى مواصلة هذه الرحلة الطويلة .

ولاول مرة رأى « تشيكوف » فى الطريق الروسى الرحب صورة قوية لوطنه ، وكانت الارهاصات الغامضة عن ازدهار بلاده التى لونت قصة « الاستبس » بتلك الشاعريةالرقيقة، قد جعلت تتأكد فى نفسه .. ولم تكن هذه المشاعر قد وصلت بعد الى تلك الاحاسيس الطاغية باقتراب السعادة التى تشده القارىء فى قصص«تشيكوف»المنتميةالى النصف الثانى من التسعينات ومستهل القرن العشرين ، غير أن « تشيكوف » كان قد شرع فى تدوين ملاحظات قيمة أثناء هذه الرحلة ضمنها تخطيطاته المعروفة باسم : «من سيبيريا»

« الحياة تبدأ بآهة على نهر « الينسى » ، ولكنها سوف تسمو يوما الى ذرى لم يحلم بها واحد منا .. ان مدينة كراسنويارسك أفضل مدن سيبيريا واجملها تربض على هذا الشاطىء .. وعبر الشاطىء الآخر جبال يلفها الضباب والاحلام كالجبال القوقازية .. وهناك وقفت أفكر : « اية

حياة مليئة ، حكيمة ، جريئة سوف تضيء هذه الضفاف فى الأيام المقبلة ! »

كانت الأرض التى لا تحدها الحدود تترامى أمام ناظريه ، بأهلها الموهوبين الشرفاء الأقوياء الذين يبحثون عن الحقيقة . وكلما ازدادت صورة هذه البلاد العظيمة وضوحاً فى افكاره ومشاعره ، اشتد حزنه لأن عناصر الشر المؤلفة من السفاحين والمغفلين هى التى تسيطر عليها ، واشتد حنينه الى أن يصيح : لا يمكن أن يستمر الحال على هذا النحو !

وعندما وصل تشيكوف الى سخالين ، عكف فورا على بحثه العظيم بهمة محمومة متوترة ، ولكنها مع ذلك منهجية مبصرة . أما التوتر فنعلله بأن الوقت المتاح له كان قصيرا جدا ، اذ لم يكن ليتجاوز ثلاثة شهور ، فاذا لم يستطع أن يفرغ منه فى هذا الموعد ، كان حتما عليه أن يبقى عاما بأكمله فى سخالين نظرا لظروف الملاحة .

كتب تشيكوف فى أواخر أيامه بالجزيرة يقول : « اننى لا أعلم ما يمكن أن يسفر عنه هذا العمل .. ولكننى بذلت جهدا كبيرا ، فقد تجمع لدى من المواد ما يكفى لكتابة ثلاثة أبحاث ، وكنت أنهض من فراشى يوميا فى الساعة الخامسة صباحا ، ولا أعود اليه الا فى الهزيع الأخير من الليل ، ولا يشغلنى طوال النهار الا هم واحد هو ضخامة ما تبقى أمامى .. وبهذه المناسبة أقول انه كان لدى من الصبر ما مكننى من اجراء احصاء شامل لسكان الجزيرة ، وقد طوفت بها من أدناها الى أقصاها ، ودخلت أكواخها جميعا ، وتحدثت مع كل من فيها . واستخدمت نظام البطاقات لهذا الاحصاء ، وسجلت بهذه الطريقة عشرة آلاف ساكن ومجرم . وقصارى القول انه لا يوجد فى سخالين مقيم أو مدان لم يتحدث الى .. وكنت موفقا أعظم التوفيق مع الأطفال الذين أرجو أن يكون تسجيلهم مفيدا . »

وفى أكتوبر شد رحاله مبحرا الى وطنه مارا بالهند وسنغافورة وسيلان وبور سعيد والقسطنطينية وأودسا . وفى بحر الصين اجتاحت السفينة عاصفة هوجاء .. وفى المحيط الهندى تدلى من احدى حلقات السفينة وغطس بين أمواج البحر يدفعه ذلك التحدى غير المعقول بينما كانت السفينة تمخر العباب بأقصى سرعتها ، وعاد اليها بأن تسلق حبلا قذفه البحارة اليه من مؤخرتها .

وقد كانت المناظر الخلابة الفاتنة ، وأشجار النخيل ، والنساء ذوات البشرة البرونزية ، أشياء غريبة كل الغرابة عقب سخالين .

كتب الى « شجلوف » قائلا : « لقد أفعمت نفسى غبطة ورضى ، واترعت بالسرور كأسى حتى لا أريد المزيد ، ولهذا لا أستنكر مثلا أن أصاب بنوبة شلل او انتقل الى العالم الآخر مصابا بالدوسنتاريا .. فالآن أستطيع أن أقول : « لقد عشت ، واستوفيت نصيبى .. بعد أن ذهبت الى الجحيم فى سخالين ، والى جنات الفردوس .. اعنى جزيرة سيلان.»

وامتازت الانطباعات التى جمعها فى رحلته تلك بالرحابة والثراء والتعقيد .. وكان كل يوم يقضيه فى سخالين يحمل اليه فى طياته صدمة أو أخرى .

كتب يقول فى خطاب بعث به الى أ.ف. كوتى المحامى التقدمى الذائع الصيت : « لقد رأيت أطفالهم أمضهم الجوع ، وعاهرات فى سن الثالثة عشرة ، وفتيات حوامل فى سن الخامسة عشرة .. ان صغار الفتيات يبدأن فى احتراف الدعارة وهن فى سن الثانية عشرة .. ولا وجود للكنائس والمدارس الا على الورق ، والتعليم الوحيد الذى يلقاه الاطفال هو ذلك الجو المشبع بالجريمة الذى ينشئون فيه .»

واذا استرجعنا الى أذهاننا قصص تشيكوف عن الأطفال تلك القصص التى يشيع فيها أرق أنواع التعاطف لهؤلاء

الصغار ، واذا تذكرنا الألم الذى يعانيه لأقل قسوة تنزل بالاطفال ، اذا تذكرنا هذا كله ، لم يكن من العسير علينا أن ندرك ما كلفته مقابلاته وأحاديثه مع الأطفال فى « سخالين » .

لقد شاهد تشيكوف الجلد بالسياط فى جزيرة سخالين .. وكان هذا المنظر بالنسبة اليه صدمة عنيفة الى حد انه كان يحلم فيما بعد بهذه المناظر البشعة ، فيهب من نومه . وقد تفصد جسمه بالعرق البارد .

وحمل « تشيكوف » معه من «سخالين » مرارة لازمته طوال حياته ..

غير أن هذه الرحلة امدته بقوى داخلية جديدة ، وشجاعة جديدة ، وسمت به الى مستوى جديد من الوعى الايديولوجى والادراك الخلاق .

« ان الماضى الوجيز الذى طويته فى سخالين يبدو لى حافلا الى حد اننى عندما أريد التحدث عنه لا أدرى من اين أبدأ واشعر دائما اننى لا أقول ما أريده حقا .. »

« تصور أية خرقة مهلهلة أكون الآن لو اننى قبعت فى منزلى ! لقد كانت رواية « سوناتا الى كرويتزر » لتولستوى تبدو لى حدثا ضخما قبل القيام برحلتى ، أما الآن فأجدها عملا أحمق لا معنى له . وسواء أكانت هذه الرحلة قد انضجتنى ، أو اننى اصبحت مجنونا .. فهذا ما لا يعلمه غير الله وحده . »

هذه النغمة الشائقة فى تلك الملاحظات تبين لنا بجلاء أن أمواجا هائلة كانت تتضارب فى نفسه ، وان شيئا فى ضخامة المحيط نفسه كان يبحث له عن مخرج .

وقام تشيكوف بأول رحلة له الى الخارج قبل شروعه فى تاليف كتابه : « جزيرة سخالين » ، فزار فيينا والبندقية وبولونيا ، وفلورنسا ، وروما ، ونابلى وجنوه ، ونيس وباريس زيارة خاطفة استغرقت ستة أسابيع .

وسحرته ايطاليا كما سحرت « جوجول » من قبله ، غير انه لاحظ مرارة المواطن الروسي عندما يتمنى ارتفاع مستوى المعيشة فى بلدان أوروبا الغربية المتقدمة عن مستوى المعيشة فى روسيا حين ذاك . ولكن .. على الرغم من السحر الكامن فى المدن الأوروبية الفخمة ، ومن جو الحرية الذى تتمتع به الدول البورجوازية الديموقراطية اذا قيس بالجو السائد فى روسيا القيصرية ، وعلى الرغم من تقديسه لكنوز الفن والثقافة ، على الرغم من هذا كله فانه لم يفقد صوابه هنا أيضا .

وكان يشعر بالتقزز من غطرسة البورجوازية المتخمة ، وقد صدمته مدينة « مونت كارلو » كبؤرة للتفاهة البورجوازية فهى أشبه « بمرحاض عالمى أنيق » .. وفى الجو شيء يمتهن احترامك لنفسك ، ويشيع الابتذال فى الطبيعة وفى صوت الأمواج ، وفى القمر . »

وعقب عودته من هذه الرحلة ، عكف « تشيكوف » على تأليف كتابه « جزيرة سخالين » ، وفى الوقت نفسه كان يكتب عددا من القصص القصيرة .

وتأليف كتاب عن سخالين يتطلب ابحاثا اضافية جديدة ، فكان لابد له أن يقرأ فى بعض الاحيان حشدا باكمله من الكتب ليصوغ جملة واحدة ، اذ أراد أن يعطى لقرائه عن سخالين صورة فنية وعلمية فى آن واحد . « أنفقت أمس بتمامه على المناخ فى سخالين ، فمن العسير أن أكتب عن هذه الأشياء ومع ذلك أعتقد أننى أفلحت اخيرا .. وتمكنت من ان قدم للقارىء صورة عن المناخ هناك سوف ترتعد لها أوصاله . »

ونشر كتاب « جزيرة سخالين » على حلقات متتابعة فى صحيفة الاحرار الدورية « روسكايا ميسل » ويعد هذا العمل الاصيل الذى جمع بين العمق والبحث العلمى الدقيق والفن الأدبى ، وثيقة قوية كاشفة وضربة حقيقيه للأوتوقراطيه ، ولمجتمع المستغلين .. ولقد ظل « تشيكوف » أمينا لعادته

فى كتابة القصة ذات المظهر المحايد .. وكلما اتسمت أبحاثه بالهدوء والنزاهة ، كانت أشد تأثيرا على خيال القارىء .

كان تشيكوف يحلم دائما بالجمع بين العلم والفن .. وفى احدى رسائله نجد ملاحظة طريفة عن العلاقة الوثيقة بين الفكر الفنى ، والفكر العلمي ، وعن مركب واحد منهما ، سيكون له فى المستقبل « قوة هائلة ماردة .. »

وقد حاول فى « جزيرة سخالين » أن ينشىء هذا المركب ، ولهذا ترك هذا الكتاب أثرا عميقا فى الدوائر العلميـــة وفى جماهير القراء على السواء ، وكان أصدقاؤه من القوة بحيث دفعت حكومة القيصر على تشكيل لجنة للسفر الى سخالين لتنظيم الامور فيهـا ، وان لم يتحقق شىء بصـورة عمليـة جديدة .

وجدير بالذكر أن تشيكوف نفسه رغم أنه لم يرض تمام الرضا عن عمل قام به ـ كان مغتبطا « لان هذا الثوب الخشن الذى يرتديه المساجين سيجد له مكانا فى صوانه الادبى .. »

وقد كان تشيكوف ينظر بعين الريبة الى ما يكمن من نفع فى الكتابة الخيالية الخالصة ، أما هذا الكتاب فكان يحقق منفعة عملية لا جدال فيها ، اذ استطاع أن يلفت الانظار الى القروح البشعة ، وأن يزعج أمن «السادة المتأنقين» واطمئنانهم .. وكان فى نظر تشيكوف كتابا صـــادقا خاليا من الادعاء والغرور .. وفوق هذا كله كان يمثل « العمل » أصـــدق تمثيل .

مــكلوفــو

فى أوائل عام ١٨٩٢ ، ابتاع «تشيكوف» ضيعة «مكلوفو» الواقعة فى اقليم « سربوخوف » غير بعيد عن موسكو وعلى بعد عشرة أميال تقريبا من محطة لوباسنيا فى طريق الخط الحديدى الممتد من موسكو الى كورسك .

وكانت «مكلوفو» ضيعة صغيرة أهملها أصحابها السابقون ، غير أن أسرة تشيكوف المكونة من « بافل بيجوروفتش » (والد تشيكوف) و « يفجنيا ياكوفلفنا » (أمه) و « ماريا بافلوفنا » (شقيقته) ـ وكلهم قوم اعتادوا على العمل الشاق ، أعادوا النظام الى الضيعة ، وأضفوا عليها مظهرا مقبولا ، فسرعان ما أحاطت المنزل الخشبى المنخفض وشرفته ، وأحواض الزهر ، والبحيرة الصناعية الجميلة حديقة صغيرة من الاشجار الباسقة . ووضعت على الاشجار الشامخة التى تحف بالطريق المؤدى إلى المنزل ، صناديق تعشش فيها الطيور ، ولوحة تحمل هذه العبارة : « الاخوة الزرازير » .. وفى كل مكان تطالعك نظافة مطلعه .

أجل ، كانت النظافة والاناقة والجد تشع من حياة أسرة « تشيكوف » فى « مكلوفو » .

وكان « أنطون بافلوفتش » يعمل كمألوف عادته من الصباح المبكر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وينفق معظم وقته على أعمال تتصل بالاهالى الفلاحين .

بدأ ظهور الفلاحين أمام منزل تشيكوف التماسا للعلاج ، وكانت شقيقته « ماريا بافلوفنا » التى تقوم بكل شئون المنزل ، تساعد أخاها فى كل شىء ، بما فى ذلك العلاج ، وصرف الدواء ، وتضميد الجروح .

وانغمس « تشيكوف » بكل جوارحه فى حيــاة القرية ، وأحبه الفلاحون حبا جما . وكان يقــول انه عندما يمر عبر القرية تحييه النسوة « فى ود وحرارة وكأنه عبيط القرية ! »

ومن حسن حظ كاتب هذه السطور أنه استمع الى خطبة بديعة ألقاها فى حفل افتتاح متحف تشيكوف فى « مكلوفو » (سبتمبر ١٩٤٤) أحد معاصرى تشيكوف ، وهو فلاح من « مكلوفو » ، أصبح فيما بعد رئيسا لفريق من العمال فى احدى المزارع الجماعية ، وما كان فى استطاعة أى انسان أن يملك نفسه من التأثر عندما اعترف الفلاح العجوز بأنه يعتبر نفسه وزملاءه القـرويين مســئولين عن مرض « انطــون بافلوفتش » وموته المبكر ، ذلك أنهم طالما أزعجوه لشئونهم ، ومطالبهم ، وأمراضهم ، وبجميع التفاصيل المرهقة فى حيــاة القرية ، تلك التفاصــيل التى أصــبحت الآن أثرا من آثار الماضى .

وعبرت أذهان المستمعين فى تلك اللحظة قصص تشيكوف « الفلاحون » و « المنزل الريفى الجديد » و « فى الحضيض » وتذكروا الحياة اللعينة التعسة التى كانوا يحيونها من قبــل فى القرية .. وكيف كان كل شىء مظلما مشوشا باعثا على القنوط .. على من يقع اللوم اذن اذا كان « تشيكوف » قد تعاطف مع هؤلاء الفلاحين فى متاعبهم المريرة ؟

وكان « تشيكوف » يقوم بنشاط اجتماعى كبير بوصــفه عضوا فى « اتحاد الزمستوف » ، ومشرفا على المدرسة فيها ، كما كان يشيد المدارس (على نفقته الخاصة طبعا) هو أيضا وطبيب الصحة المسئول عن تنظيم مكافحة وباء الكوليرا .

وفى أثناء اجتياح هذا الوباء للقرية تطوع « تشــيكوف » لادارة قسم الكوليرا ، فالقيت على كاهله أعباء ثقال ، فمجلس القرية لا يملك أية اعتمادات ، ولم يكن فى القرية كلها بنــــاء واحد يستطيع أن يستخدمه كمركز لنشاطه اللهم الا خيمة

واحدة ، ولهذا كان مرغما على الالتجاء الى أصحاب المصانع المجاورة لاقناعهم بضرورة المساهمة فى مكافحة الوباء ، وكان هؤلاء ينظرون اليه فى معظم الاحيان على أنه «سائل لحوح» . ومهما يكن من أمر « فقد أصبح القسم كله ــ الذى يضم حوالى ٢٥ قرية وكفرا ــ مزودا بشبكة منتظمة من المؤسسات الضرورية ، وذلك بفضل نشاطه واصراره » . ولم يبرح « أنطون بافلوفتش » عربته مطلقا طيلة شهور عدة ، الا فى لحظات نادرة جدا ، اذ كان عليه أن يجوب المنطقة التى تدخل فى اختصاص قسمه ، وأن يستقبل المرضى فى منزله ، وأن يواصل عمله الادبى خلال تلك الفترة .. فلا عجب أن يعود الى منزله مكدودا محطما ، فما يكاد يستقر فى مكانه حتى يطلق النكات ، ويتصرف « وكأنما هذا العمـــل الذى يؤديه ليس شيئا مذكورا . »

أفضت مساهمة « تشيكوف » فى مكافحة وباء الكوليرا الى انتخابه فى « مجلس الزمستوف » ، اذ دفعته هذه المساهمة الى مخالطة موظفى المجلس . ويروى « ميخائيل بافلوفتش » أن أخاه « كان يشهد اجتماعات المجلس بانتظام ، وأنه اشترك فى بحث عدد من المشكلات ، بيد أنه كان معنيا عناية تامة بشئون التعليم والصحة العامة ، وكان يريد دائما أن يعرف ما هى الطرق الجديدة التى ستمهد ، والمستشفيات والمدارس الجديدة التى ستفتح . واليه يرجع الفضل فى اطالة الطريق الواصل من لوباسنيا لى مكلوفو ، وتشييد المدارس فى « تاليز » ، و « نوفوسلكى » ، و « ملكوفو » كما ساهم متحمسا فى بناء تلك المدارس ، فكان يضع التصميمات لها بنفسه ، ويشرف على شراء المواد اللازمة لها ، ويراقب عملية البناء نفسها . وكانت هذه المدارس أشبه بحيواناته المدللة .. فاذا تحدث عنها تألقت عيناه ، وكان من الواضح أنه لو اتيحت له الوسائل الكافية لما أنشأ ثلاث مدارس فحسب ، بل لانشأ عددا لا يحصى منها ، وانى لاذكر ملامح وجهه أثناء افتتاح

مدرسة « توفوسلكي » عنـدما قدم له الفلاحون الايقونة ، والخبز والملح التقليديين . . رد عليهم فى خجل ــ لانه لم يكن خطيبا مفوها ــ بيلا ان اسارير وجهه ، وتألق عينيه تم عن سروره البالغ بهذا التقدير للجميل . »

وكان « تشيكوف » يمقت « الهواية » فى الشئون العامة ، كما كان يمقتها فى مجال الفن ، فكان يؤدى كل أعمـاله فى جدية رزينة انطبعت بها شخصيته ، ويفكر فى كل التفاصيل تفكيرا شاملا . وكان ذلك بالطبع يشبع ذوقه الخاص بالحياة الاجتماعية التى يتعطش اليها .

أما بالنسبة لفنه ، فقد أسدت اليه « ملكوفو » الكثير ، واغنت معرفته بجوانب من الحياة جديدة عليه .

وما كان فى استطاعة « تشيكوف » أن يحيا فى « ملكوفو » دون أصدقاء ، ولهذا كان يدعو كل من يبدى اقل رغبـة لزيارته ، وفى معظم الاحيان كانت الموسيقى والغناء والانشـاد تنبعث من منزله فى « ملكوفو » . فقد أصبح الآن على علاقات ودية بكثير من المثقفين المتحـررين والتقلميين فى عصره . . وكانت كل زيارة من زياراته لموسكو يوما ممتعا لاصـدقائه ومعارفه، ولم تعد قصصه تنشر الا فى أكثر دور النشر تقدما .

وتعد الفترة التى عاشها تشيكوف فى ملكوفو ــ من ١٨٩٢ الى ١٨٩٨ من المراحل التى بلغت فيها عبقريته مستوى عاليا من النضوج .

احتجاج

تركت رحلة « سخالين » أثرا عميقا على أعمال «تشيكوف» كلها .. ففضلا عن أنها وسعت من احساس الكاتب بالحياة ، ومن شعوره حيال وطنه ، فقد دعمت الى أعلى درجة لهجة الاحتجاج فى كتاباته ، وأكدت شعوره بالازدراء للنظام الاجتماعى اللعين بأسره .

وبدت له الحياة فى بلاده ـ عقب رحلته الى سخالين ـ أشبه بمستعمرة رهيبة للاشغال الشاقة ، وأصبح ذلك الجو الفاسد الخانق الشبيه بجو السجون ، الذى كان شائعا فى الحياة الروسية وقتذاك ، أمرا لا يطيقه ، وازداد شعوره ، بأنه محصور بين جدران أربعة حدة وشدة .

هتف فى احدى رسائله التى كتبها عام ١٨٩١ : « يا له من جو رهيب .. أيها الاصدقاء ! فحينما أكون طبيبا أحتاج الى مرضى والى مستشفى ، أما حينما اكون كاتبا فأنا فى حاجة الى أن أعيش بين الناس ، لا أن اعيش فى « مالايا ديمتروفكا » فى صحبة نمس (١) . بل لا مناص من أن أنغمس الى حد ما فى الحياة العامة والحياة السياسية ولو بقدر ضئيل جدا ، أما هذه الحياة الحبيسة بين جدران أربعة ، التى تخلو من الطبيعة ، ومن الناس ، ومن الصحة أو الشهية ، فليست حياة على الاطلاق .. »

كان كل ما يدور فى روسيا ـ حين ذاك ـ يلوح لعينيه حياة

---

(١) يشير تشيكوف هنا الى شقته فى موسكو والى النمس الذى أحضره معه من سيلان فى طريق عودته من جزر سخالين .

حبيسة بين أربعة جدران ، يقوم دونها الحراس والقضبان الحديدية .. حياة بغير سياسة ، وبغير اهتمام بالشئون العامة ..

ومن هذه المشاعر انبعثت قصته المشهورة : « العنبر رقم ٦ » وهي من أشد الاعمال فظاعة وسخطا في الادب الروسي ، والادب العالمي ، قصد منها المؤلف الهجوم على الاستبداد والكبت والطغيان .. وليس عبثا ما قاله الشاب « فلاديمير اليتش لينين » لاخته آنا الينتشنا : « عندما قرأت هذه القصة أمس ، أصابتني قشعريرة ، ولم أستطع البقاء في حجرتي .. كان لابد أن انهض وأن أخرج الى الطريق .. اذ احسست تماما كأنني حبيس في العنبر رقم ٦ أنا نفسي.. »

وقد كانت لهذه القصة كبؤرة نفسية تجمعت فيها حوافز الاحتجاج والازدراء للأوتوقراطية أهمية اجتماعية واسعة ، ذلك أن « العنبر رقم ٦ » يعد من الاعراض البارزة في مستهل مرحلة النهوض الاجتماعي ، ويعتبر حجرا هاما في الجدار التاريخي الذي يفصل الثمانينات عن التسعينات ، ويعزل فترة الانحلال عن فترة النهوض .

وتصميم هذه القصة وموضوعها غاية في البساطة :

ففي مدينة نائية من مدن الاقاليم وبعيدا عن الخط الحديدي ، تقوم احدى المستشفيات التي يديرها الطبيب «أندريه يفيمتش راجين» منذ خمسة وعشرين عاما مضت : والمستشفى في حالة من الاهمال التام ، أهم سماتها القذارة وعدم العناية بالمرضى ، والسرقة . وكان « الدكتور راجين » قد أقبل على عمله منذ عهد بعيد جدا بهمة فائقة ، وهو يطمع في ادخال الاصلاحات المختلفة على نظام المستشفى ، ولكنه لم يلبث أن ادرك سريعا أن جميع المحاولات التي تبذل لتنظيم الامورعبث لا جدوى منه . ولما استبدت به الحيرة لما يلقاه من عدم الاكتراث العام لدى جميع الهيئات ، انتهى الى هذه النتيجة وهي ان وجود هذا المستشفى عمل غير اخلاقي في حد



أ٠ب٠ تشيكوف في يالتا ١٩٠٠



أنطون تشيكوف مع مكسيم جسورجى فى يالتا ١٩٠٠

ذاته ، بيد أنه لا فائدة اطلاقا من أن ينطح المرء برأسه جدارا من الصخر ، ولم يكن هو علة هـذا الشر ، ومن ثم لم يبـق أمامه غير اداء واجباته أداء شكليا محضا . وأوصد عليه باب حجرته . وانكب على مطالعة كتب الفلسفة والتاريخ ، وعلى يمينه قنينة الفودكا ، وشيء من الخيار المملح . ولما كان « راجين » شخصا وديعا مهذبا لا يستطيع أن يفرض ارادته ، فانه امتنع حتى عن اصدار الأوامر الى طاهيته .

« ... ويسـعى فى حذر الى باب المطبـخ ، ويتنحنح ثم يقول : « ماذا اعددت للعشاء يا داريا ؟ »

وتصور الكلمات التالية شخصية دكتور «راجين» تصويرا مستفيضا :

« ويكن أندريه يفيمتش للحكمة والامانة تقديرا عظيما ، ولكنه لا يملك قوة الشخصية ، والثقة بما له من حقوق ، هذه الثقة التى تجعل فى مقـدوره تنظيم الحياة من حـوله على أساس عقلى أمين . » .

وشيد لنفسه ــ شيئا فشيئا ــ مذهبا كاملا من الفلسفة : « الفكر ، والطموح العميق المنطلق الذى لا تكبله القيود لادراك الحياة ادراكا تاما مع احتقار المغريات الباطلة التى يزخر بها الكون ، هذه متع أسمى من كل ما يعرفه الجنس البشرى ، وأنت تستطيع أن تملك هذه المتع جميعا رغم كل ما فى هـذا العالم من النوافذ ذات القضبان الحديدية » كان هذا معتقد ايمانه . « على الناس أن يبحثوا عن السلام والقناعة لا فى عالم خارجى عنهم ، بل فى داخل نفوسهم . » وعلى ذلك ، لماذا نتصارع ، ولماذا نخوض الاهوال ، ولماذا نحاول اصلاح الحياة ، واخضاعها لاى نظام مهما يكن ؟ . . قال ماركوس أوريليوس : « الألم هو التصـوير الحى للألم ، وتستطيع عن طريق قوة العزيمة أن تغير هذا التصور ، أن تطرحه جانبا ، أن تمتنع عن الشكوى ، وسيتلاشى الألم تبعا لذلك . »

وبينما كان « أندريه يميفتش » مستغرقا فى هذه التأملات ـ مبتعدا بذلك اكثر فأكثر عن الواقع ، كانت المستشفى قد آل أمرها تماما الى اللصوص ، وتحول حامى حمى القانون والنظام حارسا للمستشفى يدعى «نيكينا» . وكان هذا الرجل ممثلا فظا غليظ القلب للطغيان ، اذ كان يضرب المرضى الذين اختلت قواهم العقلية فى العنبر رقم ٦ دون شفقة أو رحمة لأقل هفوة تصدر عنهم ضد نظام السجن .

وحدث ذات مرة أثناء دخول « أندريه يميفتش » العنبر رقم ٦ أن استرعى انتباهه مريض تلوح عليه امارات الذكاء ، وسره عندما اكتشف فى حديثه مع هذا المريض عقلا واعيا ، متوقد الذكاء .. وكان كل ما فى هذا الرجل الذى يفكر تفكيرا عميقا ، ويشعر تلك المشاعر الدقيقة ، ويتعذب ذلك العذاب الاليم ، يجتذب الطبيب ، وأصبح مغرما على مر الايام بمجاذبة هذا المريض أطراف الحديث ، لانه كان الشخص الوحيد فى المدينة الذى يستطيع « أندريه يميفتش » أن يجادله فى الفلسفة ، وكانت المتعة التى يستمدها « راجين » من المحادثة معه فى مستوى عقلى رفيع على الرغم من أن أحاديثهما كانت دائما مناقشات عنيفة . فقد كان المريض ـ ويدعى ايفان ديميتريش جروموف ـ يفكر تفكيرا مناقضا تمام التناقض لتفكير « راجين » . كان « جروموف » يسعى لاثبات ضرورة العمل ، والصراع من أجل الحرية ، ويحتج بكل كيانه على الاضطهاد والعبودية والعنف ، وكان حديثه ـ بعبارة تشيكوف نفسها ـ عبارة عن خليط من الاغانى القديمة التى لم يعف عليها الزمن بعد . » وهذه هى أغانى الستينات ، والسبعينات .. اغانى الحرية . ومن يدرى ؟ ربما استطاع شخص ما أن يتناول الاغنية القديمة فيجعل منها شيئا جديدا .

ويثبت « جروموف » أن الفلسفة التى يعتنقها « أندريه يميفتش» تتنافى أساسا مع الانسانية على الرغم من أن أندريه

يبميفتش كان بالطبع رجــلا عطوفا ، لا يرقى الشـك إلى أمانته ، وانه أبعد ما يكون عما ينافى الانســانية بحال من الأحوال . « اذا وقع بصرك مثلا على فلاح يضرب زوجته .. فلماذا تتدخل ؟ دعه يضربها ، وسيموت الاثنان ان عاجلا أو آجلا .. ونحن هنا نهان ونضرب ونفسد خلف القضبان .. ولكن هذا كله رائع ومعقول ، فلا خلاف هناك بين هذا العنبر وبين مكتب دافىء وثير . انها فلسفة مريحة حقا ! وليس ثمة ما يعاب عليها ، فضميرك نقى، وأنت تشعرانك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .. أجل ، بكل تأكيد ! » انك تحتقر الالم ، ولو أن البــاب أغلق على اصــبعك لصرخت من الألم بأعلى صوتك ! »

فاذا اتصلت المناقشات بين الطبيب والمريض ، ولوحظت أطوار الطبيب الغريبة التى نجمت عن وحدته وعزلته التامة عن الحياة ـ دفع ذلك بعض المحيطين به الى الارتياب فى عقلية الطبيب نفسه ، ويحاول «خربوتوف» مساعد « راجين » وهو شخص انتهازى ، أن يستغل ضعف «راجين» لمصلحته ، فيعلق أن « أندريه يميفتش » قد أصابه الجنون ، ويلقى به مسجونا فى العنبر رقم ٦ .

وهنا يتقلب مذهبه الفلسفى رأســا على عقب ، فلا يعود يتذكر أن الانسان يستطيع ان يكون سعيدا وراء قضـبان السجن ، وانما على العكس من ذلك يدبر بمعونة « ايفــان ديمتريتش جروموف » حركة عصيان منظمة ضــد العنف والطغيان ، فيضربهما « نيكيتا » بقبضتيه الثقيلتين ، ويسقط أندريه يميفتش فوق سريره المعلق .. « وبغتة تومض فى ذهنه المشوش فكرة واحدة ، رهيبــة ، ليس فى الامــكان احتمالها ، وهى أن هذا الالم الذى يشعر به الآن لا بد أن يكون هو بعينه الالم الذى شعر به هؤلاء الناس جميعا منذ أعوام طوال ، يوما بعد يوم .. » هو بعينه الالم الذى يشــعر به ايفان ديمتريتش وجميع السجين فى عنبر رقم ٦ « كيف

ظل عشرين عاما دون أن يعلم عنه شيئا ، ودون أن يريد أن يعلم عنه شيئا ؟ حقا انه لم يكن يعلم شيئا ، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الالام ، وبالتالى لم يكن ملوما . . بيد أن ضميره الصارم القاسي ـ الذى يشبه نيكيتا فى صرامته وقسوته ـ بعث فشعريرة باردة سرت فى عموده الفقرى . »

وفى اليوم التالى ، قضى « الدكتور راجين » نحبه اثر سكتة قلبية .

ورأت روسيا كلها فى هذه القصة رمزا لقوة الاوتوقراطية الغاشمة فى شخصية « نيكيتا » ، وأحست أنها سجينة فى ذلك العنبر . وقد أعرب لينين الشاب عن احساس الشعب كله الذى أصيب بما يشبه الصاعقة من البساطة والقوة الفذة اللتين اتسمت بهما صور تشيكوف . وأصبح « العنبر رقم ٦ » دعوة للجهاد ضد من هم على شاكلة « نيكيتا » من الحكام .

وفى الوقت نفسه كان بين الروس من يشبه « أندريه يميفتش » فى استماعه الى صوت الضمير الصارم ، والى صوت المطرقة وهى تهوى . . أجل الضمير ـ الضمير الروسى الذى يتمثل فى شخص تشيكوف ، كان يهيب بهم قائلا : « انه انت أيها الشخص الجذاب اللبق الانسانى ، أنت يا أندريه يميفتش المثقف ـ انت ولا احد غيرك ـ الذى يترك الناس يعفنون فى السجن ، فى عنبر كبير رقم ٦ ، ثم تلقى اللوم على « السجانين ذوى الانوف الحمر » ، تماما كما ترك « الدكتور راجين » تلك المخلوقات التعسة تتعفن فى زنازنها عشرين عاما ملقيا باللوم على نيكيتا ! انك أنت الملوم على ما تقترفه حكومة القيصر من جرائم ، لانك لم ترفع اصبعا بالاحتجاج عليها ، ولانك عزيت نفسك بكل ضروب الفلسفات الساخرة ؛ وجدير بالذكر أن « ايفان ديمتريش جروموف » يستخدم فى تعريضه « بأندريه يميفتش » الالفاظ عينها التى كتبها تشيكوف فى الخطاب الذى اقتبسناه آنفا والذى

يقول فيه : « اننا ندع الناس يعفنون فى السجون . » ويقول جروموف : « اننا وضعنا هاهنا وراء القضبان ، وضربنا ، وتركنا لنتعفن ... »

وجه تشيكوف بهذه القصة ضربة لا الى الاوتوقراطية فحسب ، بل الى الحذلقة العقلية ، والى الانصراف عن الكفاح أيا كانت الحجج التى تصاغ فيها ، وفوق هذا كله وجه ضربته الى مذهب تولستوى الرجعى الذى يدعو الى «الامتناع عن مقاومة الشر » .

وكانت الحقيقة التى أماط عنها تشيكوف اللثام فى «العنبر رقم ٦ » مفجعة بالنسبة اليه . أى أمل هناك فى الخروج من السجن ؟ من ذا الذى يجب أن يحطم « العنبر رقم ٦ » ؟ ومن ينشد تلك الاغانى التى لم يفت زمانها ؟ هذا ما كان يجهله تشيكوف . ولكنه كان قد بدأ يدرك أن العنف ينبغى الا يقابل بنوبات من الغضب العاجز ، ولكن بالكفاح . ان « أندريه يفيمتش » كان لطيفا فى قنوطه الضعيف ، وكان مهذبا مثقفا حيال ما تزخر به الحياة من ابتذال وغثاثة .. ولكن ما جدوى هذه السجايا الحميدة ؟ وكان « ايفان ديمترتش جروموف » صادقا جريئا ، كريما ، مخلصا ،ولكنه ظهرأيضا بمظهر الضعف . وعندما وجد « أندريه يفيمتش » نفسه حبيسا مع « جروموف » فى العنبر قال له : « اننا ضعفاء ياصديقى .. كنت من قبل عديم المبالاة ، وكنت أفكر فى صحة ومرح ، ولكننى فى اللحظة التى أحسست فيها بلمسة الحياة القاسية ، أصابنى الوهن .. والعجز .. اننا ضعفاء ، تعساء .. وأنت أيضا ياصديقى ! أنت ذكى ، ممتاز العقل ، رضعت البواعث النبيلة من لبن أمك، ولكنك ماكدت تخرج الى الحياة ، حتى أحسست بالانهاك ، وسقطت مريضا .. أنت ضعيف .. ضعيف ! »

وأصبحت هذه النغمة من النغمات الاساسية الهامة التى تناولها تشيكوف فى التسعينات ، وفى مستهل القرن العشرين

وهذه النغمة هى التشهير بتهافت المثقفين فى تلك الايام .

ومن الضربات الدالة فى « العنبر رقم ٦ » أن نيكيتا الذى يمثل العنف يذكر على أنه يملك قبضات ثقيلة تزن طنا — « ثمة شيء يفرض نفسه على الناس فى هيئته ، وقبضتاه ثقيلتان .. انه شخص من هؤلاء الناس الموثوق بهم الذين لا يتنازع عقلهم غير فكرة واحدة اشخاص رزقوا بلادة الاحساس ، فهم يضعون النظام فوق كل شيء فى هذا العالم ، ويعتقدون أن « الضرب الجيد » يحسم كل مشكلة .. وهو يمطر الوجوه والصدور والظهور بلكماته دون تمييز ، مقتنعا بأنه لا توجد وسيلة أخرى لحفظ النظام . » ويوصف « الدكتور راجين » ذلك الرجل المهذب الذى اذا كذب عليه الناس أو تملقوه أو قدموا اليه تقارير زائفة لتوقيعها ، بلغ به التهذيب حدا جعل الدم يتصاعد الى وجهه فيستحيل كالجندى ويشعر بالذنب كأنه مجرم فيمهر الورقة بامضائه « هذا الرجل الذكى العاجز يوصف بأن له مظهرا شبيها بنيكيتا . فالمظهر الخارجى لراجين على طرفى نقيض مع طبيعته الباطنة . وهنا نجد أنفسنا ازاء تناقض بين القوة والضعف ، بين الغلظة والرقة .

« انه ثقيل ، خشن المظهر كالفلاحين ، ووجهه وذقنه .. وشعره المستقيم ومظهره القوى المتنافر يوحى بأنه صاحب حانة فى طريق جانبى ، ويلوح عليه العناد والغلظة وحسن التغذية ، وتغطى ملامحه الصارمة شبكة من العروق الزرق ، وهو ضيق العينين ، أحمر الانف .. فارع القامة ، عريض المنكبين ، ضخم اليدين والقدمين ، ويبدو وكأنه يستطيع أن يطرح الى الارض ثورا بيديه المجردتين ، ولكنه يسير فى خلسة وخفة ، وحذر . فاذا التقى بشخص ما فى دهليز ضيق ، كان البادىء بالوقوف والتنحى عن الطريق قائلا : « معذرة » — فى صوت ليس عميقا كما تتوقع ، ولكنه لطيف النبرات ، رقيق الحاشية .

وهذا الصوت المنخفض الرقيق المعتذر الذى يباغتك بدلا من ذلك الصـوت العميق الذى من الطبيعى أن تنتظره من ذلك المظهر الخشن الضخم ، يؤكد ذلك التناقض بين المظهر الخارجى « لاندريه يفيمتس » وطبيعته الداخلية . وليس من شك أن وراء التناقض الطبيعى الذى تصـادفه كثيرا فى الحياة الواقعية ، يكمن لون من السخرية المستترة ، ولمسة من لمسات التهكم التشيكوفى - وهذا مانلاحظه خاصة عندما نصل الى ملامح الوجه التى يشترك فيها « أندريه يفيمتش » ونيكيتا ،. فلكل منهما وجه صارم التقاطيع ، ولكل منهما هيئة تفرض نفسها على الرائى ، وجدير بالذكر أن لكل منهما أنف أحمر ، وأهم من هذا كله مما يسترعى الالتفات أن قبضـة « أندريه ينفيمتش » لا تقل ضخامة وقوة عن قبضة «نيكيتا» .. فليست المسألة اذن أن « أندريه » لا يملك قبضة قوية ، فهو يستطيع أن يسدد ضربة قاضية .. ولكن ما نفع ذلك ؟ وماذا يستطيع « أندريه » أن يفعل ؟ « اننا ضعفاء تعساء . » ومع ذلك فقد كان يستطيع أن يستخدم قبضتيه اذا شاء . والحقيقة أن « دكتور راجين » رجل قوى ، غير أنه قبضتيه القويتين تتدليان الى جانبيه عبثا .. وكان ينبغى أن يـكون عنيدا فظا مثل نيكيتا ، ان كان له ضمير حقا .. هذه هى المضامين الساخرة لهذا الوصف اذا نظرنا اليه فى علاقته بهذه الكلمات الدالة : « ضمير .. فظ لا يرحم متل نيكيتا . » وهنا يتذكر المرء فقرة فى أحد مؤلفات تشيكوف بعنوان : « قصة رجل مجهول » : « اذا أتيح لنا أن نشعر بالحـرية والسعادة فيلوح لى أنه لاينبغى أن نخفى عن انفسنا ان الحياة قاسية غليظة لا ترحم فى نزوعها الى المحافظة ، وأننا يجب ان نرد عليها بعملتها ذاتها ــ أى أن نكون مثلها ، غلاظ الاكباد ، لا نرحم فى كفاحنـا من أجل الحـرية . » والنصيحة التى يسديها « أنطون بافلوفتش » الى أخيـه « الاسـكندر » صائبة أيضا وهى أن يكون صلبا كحجر الصوان ، وان يؤكد حقه بشدة كما كان أبونا يؤكد نزعته المحافظة ..

ولا جدال فى أن « تشـيكوف » حينما ينقـد « أندريه يفيمتش » ، انما ينقد نفسه ، وما يشوب هذه النفس من ضعف .. ولكنه بهـذا النقد نفسـه يثبت أنه أطول باعا ، وأعلى هامة من الاشخاص الذين يشبهون « أندريه يفيمتش» فى تسليمهم ـ الذى وان يكن مهـذبا شـكلا ، الا أنه زائف موضوعا .

والمأساة فى حياة « تشيكوف » هى أنه لم يلتق الى آخر أيام حياته بهؤلاء الاشخاص الذين أخذوا يتأهبون لمعارضة القوة بالقوة ، فى الوقت الذى كانت فيه قصة « العنبر رقم ٦ » قد أشعلت الغضب فى نفوس الشعب ، ذلك أن هـذه الفئة الجديدة من الناس قرءوا قصـة « الدكتور راجين » و « ايفـان ديمتريش جرومو ف » وهم يشـعرون بالرثاء الغاضب ، وبالحب والتبجيل لهذه العبقرية الشاعرية ، ولهذا الضمير المستقيم فى حب الحقيقـة الذى يتمتع به الـكاتب الروسى .

نحو حياة عشية انتصار عظيم

كان « تشيكوف » يعود مرة بعد أخرى فى النصف الثانى من التسعينات الى موضوع السعادة ، عاكسا باحساسه الفطرى للجو الاجتماعى ـ ذلك الانقلاب السياسى الذى بدت حينئذ طلائعه ، ووصل الى ذروته فى الثورة الروسية الاولى بعد هذا التاريخ بعشرة أعوام .

واكتسب موضوع السعادة عمقا بعد أن أثراه العذاب والتساؤل ، والتأمل الاليم ، وكان « تشيكوف » يعود الى موضوع قصته « الاستبس » ليتناوله من زاوية جديدة .. وكما أن سكان المدن الواقعة على البحر لا يغيب البحر عن أذهانهم حتى وان لم يكن مرئيا، فكذلك يشعر القارىءلقصص « تشيكوف » برحابة الحياة غير المحدودة الكامنة تحت ما يشيع فيها من حزن .. وفى أغوار بعيدة ، وفى نبرات تشيكوف نفسها ، وفى الموسيقى المنبعثة من أسلوبه الشاعرى نستطيع أن نتصيد نغمة من « الانتصار والشباب ، وازدهار القوى الكامنة » ونظفر بلمحة من صورة « لارضنا الجميلة القاسية . »

فالجو الكئيب الذى تتميز به المحلات التجارية يتجلى فى قصته « الاعوام الثلاثة » ، وحى « زاموسكفورشيى » بجهامته التجارية الدائمة ملىء بالصور الكئيبة ، وهنا يواجهنا اتزان « تشيكوف » المألوف فى النظر الى الامور ، والاخلاص الصريح للحياة الذى نلمسه فى جميع أعماله السابقة .. بيد انه لم يظهر من قبل فى أعماله تلك الثقة التى تتيح له أن يتنبأ بدنو التغيير الحاسم المباغت لهذه الحياة التى يبعث مظهرها على اليأس .

ومن الشخصيات الهامة فى القصة شخصية « يارتسف » وهو شاب كيميائى يكسب عيشه من التدريس باحدى المدارس ، وتذكرنا هذه الشخصية تذكيرا قويا بـ «آستروف»

فى مسرحية « العم فانيا » ، وبعدد آخر من تلك الانماط التى يغرم تشيكوف بوصفها ، وهو شاعر فنان الروح ، يعبر من أشد أفكار الكاتب استسرارا ، تلك الافكار التى أخذت تظهر منذ الآن فى أعمال « تشيكوف »

« ما أشد الحياة الروسية ثراء وتنوعا ! أجل .. وياله من ثراء ! اننى أزداد اقتناعا يوما بعد يوم بأننا نعيش على شفا انتصار عظيم ، وكم أود أن أعيش لاساهم فيه بنفسى »

وكان شباب تلك الايام يبعثون الحبور الى قلبه :

« صدقونى أو لا تصدقونى .. ولكن من رأيى أن جيلا رائعا ينمو الآن .. وان تعليم الاطفال ، ولا سيما البنات منهم ، متعة لى أيما متعة .. فيالهم من أطفال مدهشين ! »

وكل من « يارتسف » وصديقه « كوستيا » ـ وهو مثقف من الدهماء ، وابن طباخة ـ قد شغف حبا بوطنه ، أما « يارتسف » فيحلم بكتابة مسرحية مستمدة من التاريخ الروسى لانه يعتقد كما يقول لكوستيا أن كل شىء فى روسيا موهوب شيق طريف بصورة فذة . » وكلاهما ـ يارتسف وكوستيا ـ قد ولد فى موسكو ، ولهذا فهما يقدسان هذه المدينة . وهما على اقتناع تام بأن موسكو مدينة رائعة ، وان روسيا بلد رائع ، ويعتبران الطقس البارد فى موسكو أبدع وأصح طقس فى العالم » .

وقد انبعث فى نفس تشيكوف هذا الاحساس بدنو الانتصار العظيم الى أرض الوطن نتيجة لاعتقاده فى موهبة الشعب الروسى وقوته .

بيد أن وطنية « تشيكوف » العميقة كانت متحفظة جافة فى المظاهر التى تتخذها ، شأنها فى ذلك شأن جميع عواطفه العميقة . وهذه لمسة مميزة لهذه الوطنية .. فهو عندما يصف (فى قصته « الزوجة » التى ظهرت سنة ١٩٨٢)

نمطا لا يحبه الناس خاصة ، لانه منفر متخبط أنانى متكلف لا يشعر بأدنى شعور تلقائى حى مع بنى جنسه من البشر ، يضفى عليه تشيكوف فى النص الاول للقصة مشاعره الوطنية الخاصة ، ولكنه أعاد كتابة هذه الفقرات فيما بعد ، وهـذه الشخصية تسافر فى « زلاقة » عبر قرية حلت بها المجاعة وفجأة تبدهه قوة الشعب الروسى التى لا تقهر ، وعظمته ، والقصة تروى على لسان المتكلم اذ يقول فى النص الاول :

« عندما وقعت عيناى على فلاح باسم ، وعلى صبى يرتدى قفازا أوسع من كفيه الصغيرين ، وعلى الاكواخ أدركت فجاءة أن ما من كارثة يمكن أن تذل هذا الشعب ذا الروح الكبير ، وخيل الى أن شعورا بالانتصار ينتشر فى الجو ، فأحسست بالزهو ، وكدت أصيح بهم أننى أنا ايضا روسى فدمائى من دمائهم ، وعظامى من عظامهم . » وهذه العبارة الحميمةالتى كتبها تشيكوف : « أنا أيضا روسى .. فدمائى من دمائهم ، وعظامى من عظامهم . » هى العبارة التى حذفها تشـيكوف فيما بعد من الطبعة الاولى ، لانها لم تكن تنطبق على هـذا الرجل .. فهو ليس جديرا بها .

كان « تشيكوف » يؤمن بالقوى الروحية غير المتنـاهية وبجمال الشخصية الروسية ايمانا لا يتزعزع ، وطفق هـذا الايمان ينمو فى حجمه مع كل عمل من أعماله ، بل لقد نسج تشيكوف هذا الايمان برؤيته التى أخذت تستوعبه أكثر فأكثر للغد السعيد الذى ينتظر بلاده .

ومضى « تشيكوف » فى بحثه عن « المبدأ السائد » الذى قد يمكنه من العثور على الطريق المفضى الى انتصار بلاده ، والى الحـرية . مضى فى هـذا البحث فى حماس متزايد وارتبط هذا البحث ارتباطا وثيقا بذلك السؤال الذى ماانفك يطارده : « من الذى يقود بلاده الى النصر ؟ .

أشخاص بلا بطولة
(غير أبطال)

لم يلتق «تشيكوف» بأبطال فى حياته المعاصرة يستطيعون أن يحملوا راية الكفاح ضد الاحوال السائدة ، أو يناضلوا من أجل الحرية فى اصرار ومثابرة واستنارة .. هذا بينما صادف « جوركى » هذا الطراز من الناس فجعلهم أبطالا لقصصه . غير أن « تشيكوف » خليق بأن ينسب لنفسه ــ من الوجهتين الاخلاقية والتاريخية ــ فضل تمهيد الطريق للمستقبل ، وتعبيد الطريق لادب جديد ، وشخصيات جديدة ، كما يقول « آستروف » أحد أبطال مسرحياته (العم فانيا) . والواقع أنه أخضع الجوانب الرئيسية فى الاشخاص الذين تميزت حياتهم بالايجابية ، أو بمعنى آخر هؤلاء « الابطال » الذين آمن بهم المثقفون فى الحلقتين الثامنة والتاسعة لتحليل فاحص نزيه فخلق متحفا لهؤلاء الانماط . وبينما كان ماضيا فى هذا البحث الفنى ، أخذ يزداد اقتناعا ــ لاسفه الشديد ــ بأنه لا يوجد بين هؤلاء الابطال بطل واحد حقيقى يستطيع التأثير تأثيرا واقعيا على الحياة ، بحيث تتحول الى افضل مما هى عليه ، وقد كانت المهمة التى قام بها « تشيكوف » هى مهمة الناقد ، اذ استبعد هؤلاء الابطال الذين يلعبون دورا على سطح الحياة المعاصرة ، ويدعون أنهم زعماء خطرون ، وألح على ضرورة العثور على بطل جديد . ولكنه لم يكن قادرا على ابداع صورة البطل الجديد . وبينما قدم « جوركى » لقرائه عن طريق شخصياته صورا لهؤلاء الذين يمكن تسميتهم من الوجهة التاريخية ، أبطالا . وأرشد الناس الى الزعيم الذى ينبغى أن يتبعوه ، فان « تشيكوف »

قد أوضح للناس « من ليسوا » أبطالا ، ومن الذى « ينبغى ألا » يتبعوه ، فأنشأ بحق معرضا لمن « ليسوا أبطالا »

وإذا ابتغى أحد أن يكون فكرة عن « النارودى » العادى الذى عاش فى العقدين الثامن والتاسع وان يتمثل امامه صورة حية عن هيئته النفسية ، وأن يفهم موقف « تشيكوف » من هذا النمط ، فانه مسوق الى الاهتمام بشخصية « فلاسيتش » فى قصة (الجيران) : و « فلاسيتش » رجل شريف محترم ، ولكنه مجدب ممل الى أقصى حد ، فهو لا يكف مطلقا عن أحاديثه الرتيبة المتعبة عن جماعات الفلاحين ، أو عن تطور الحرف المنزلية .. انها أحاديث لا يفترق الواحد منها عن الآخر ، وكأنها لا تصدر عن مخ بشرى ، بل عن آلة . » ويصفون « افلاستيش » فى الحى بأنه أحمر . بيد ان ذلك لا يزيده طرافة .. اذ يخلو تفكيره الحر من كل اصالة أو عاطفة ، وهو يغضب ويحزن بنغمة واحدة فاترة لا تأثير لها . وعندما يبدأ متئدا جادا فى حكاية اللحظات التى كانت أشرف لحظاته وأكثرها اشراقا ، وعندما يستعرض أفضل أيام حياته ، يذكرك بشىء قديم ، قرأته منذ زمن بعيد .. بعيد جدا .. » .. كان « تشيكوف » يشعر نحو أتباع « النارودية » الذين ابتذلوا تراث : أفضل أعوام الحياة » انه ازاء شىء بعيد عن الحياة الواقعة ، شىء ينتمى الى الماضى ، شىء مشوه يبعث على السآمة الى غير حد . وكان « تشيكوف » أبعد ما يكون عن الوضوح النظرى أو السياسى فى علاقته النارودية . غير أن حدس الفنان ، والباحث الصادق عن الاحوال الروسية ، ومعرفته بهذه الاحوال ــ كما تتبدى قوية بارزة فى قصصه « الفلاحون » و « فى الحضيض » و « المنزل الريفى الجديد » .. كل هذا ساعد تشيكوف على أن يفهم عجز الزعماء الشعبيين فى الحلقتين الثامنة والتاسعة عن ادخال أى شىء حقيقى ، تقدمى ، يمكن أن يخفف آلام الشعب ــ على الحياة المعاصرة .

ومن الامثلة البارزة على ذلك قصته التى ينتقد فيها عقم المذهب الليبرالى وما فيه من صغار ، هذا فى الوقت الذى يعتز فيه بأمانى الشعب اعتزازا أبعد ما يكون عن البصيرة السياسية الواقعية ، ولكنه اعتزاز العاطفة الصادقة ، وحرصها على تحطيم الاغلال الضخمة التى تكبل الشعب . ويا له من حب صادق للشعب ، وتعاطف مع آلامه فى تلك القصة البارعة ! وليس عبثا أن « تشيكوف » هو شاعر « تشيكوف » المفضل ، وليس عبثا أن يقتبس البطل الفنان فى القصة والمعبر عن أفكار « تشيكوف » الخاصة ، تلك المناقشات التى جرت بين « نيكراسوف » و « ليدا فولشانيفونا » السيدة التى تعد خير من يمثل حزب الاحرار .

وقد انفرد « تشيكوف » بطريقة خاصة فى التعبير عن افكار اجتماعية تتسم بالعمق والاصالة ولكنها تخلو من كل ضروب الادعاء الى حد جعل النقاد يتجاهلون مضمونها الخصب ، متصورين أن « تشيكوف » يتناول الموضوعات الادبية المألوفة ، كالحب والوحدة التى يعانيها البشر — ولم يلحظوا أن الحب والوحدة وسائر الموضوعات الاخرى تحجب تحتها تيارا خفيا ، جديدا كل الجدة ، أصيلا كل الاصالة . . هذه الميزة التى وصفناها بأنها التعبير عن الافكار فى أشكال تخلو من الميزات التى انفرد بها « تشيكوف » منذ أن بدأ يخطو كما رأينا من قبل ، أولى خطواته ككاتب ، فهى سجية فطرت عليها شخصيته كانسان وكاتب . . سجية لا تنفصل عن نظريته الجمالية كلها فى « الجمال المستتر »

ومن الملاحظات ذات المغزى البعيد تلك الملاحظة التى أبداها « تشيكوف » على مؤلفات « دوستيوفسكى » حينما وصفها بأنها جيدة . ولكنها تفتقر الى التواضع ، والى الخلو من الادعاء . فماذا يعنى بالادعاء ؟ من الواضح أنه يعنى محاولات « دستيوفسكى » المتصلة لتأكيد الدلالة الخاصة والمعنى السامى الخالد الشامل الذى يكمن وراء آلام ابطاله ومثلهم



منزل تشيكوف فى يالتا



خارج المنزل الذى عاش فيه تشيكوف أثناء بنائه



تشيكوف فى استوديو منزله بيالتــا



حجرة نوم تشيكوف فى منزله بيالتــا

العليا ، كما يقصد « تشيكوف » بذلك أيضا ما أثر عن « دستيوفسكى » من أقوال رجعية عندما توهم انه المسيح المنتظر الذى يهدى الانسانية الى طريق الخلاص .

أما اساليب « تشيكوف » الفنية فكانت على نقيض ذلك تماما . فالافكار التى تتسم باصالة مضمونها الاجتماعى والفلسفي وسعة مداه ، يتم التعبير عنها فى اعماله عرضا وكأنها ليست النقطة الرئيسية . وقد عبر عنها «تشيكوف» فى اسلوبه المتحفظ الذى يضرب بجذوره فى اشد المشاعر تعقيدا . وهذه المشاعر تتألف فى جزء منها من الاحساس بعجزه عن ارشاد قرائه الى الطريق المفضى الى «انتصار بلاده العظيم » الذى أخذ يبشرهم به ، وتتألف في جزء آخر منها من ذلك الحدس الحكيم بتهافت الخطط والمعتقدات القديمة ، ومن شعوره بأن شخصياته المفضلة ، تلك الشخصيات التى يشعر بأنها أقرب الى نفسه من اى شيء آخر ـ لايستطيع أن يردف أقوالها الصائبة بالعمل ، وكما تتألف من ذلك الشعور الدائم عند « تشيكوف » الذى يعبر عنه على لسان أبطاله بقوله : « ما من أحد يعلم الحقيقة الحقة » (المبارزة) ومن ايمانه ببعض الناس الذين يتجهون نحو تلك الحقيقة الحقة ، ومن شعوره بأن جميع الافكار السديدة العادلة المعقولة التى عبر عنها من خلال ابطاله لم تكن أكثر من محاولات للبحث عن الحقيقة ، ومن نفوره من كل ادعاء ووعظ يفتقر الى التواضع ولا يقوم على أساس المعرفة العلمية المضبوطة بقوانين الحياة .. ولهذا كان تبشير « تولستوى » يبدو لتشيكوف ، مفتقرا الى التواضع .

وقصته «المنزل ذو السقف المنسار» من أكثر قصص «تشيكوف» شاعرية . وبطل القصة فنان أقبل لقضاء الصيف فى رسم المناظر الطبيعية بضيعة يملكها أحد أصدقائه . وفى المنزل القائم على الضيعة المجاورة تعيش أسرة مؤلفة من امرأة عجوز وابنتيها ،

احداهما « ليدا » الابنة الكبرى وهى متحمسة كل الحماس للنشاط الذى يبذله اتحاد « الزمستوف » ، وتقوم بالتدريس فى مدرسة تابعة لذلك الاتحاد ، ولا تفتأ تفاخر بأنها تكسب عيشها رغم أن أسرتها فى بحبوحة من العيش ، وبأنها تتقاضى راتبا شهريا قدره خمسة وعشرون روبلا وهى مستغرقة تمام الاستغراق فى عملها « بالزمستوف » ، وفى الصراع القائم بين جماعة الاحرار والرجعيين فى المنطقة التى تقطنها وليس لشىء وجود بالنسبة اليها خلاف المدرسة ، والصيدلية ، والمراكز الطبية ، وهى تبدو بجمالها وصرامتها شخصية متعالية مترفعة فى أعين أمها وأختها الصغيرة « زينيا » ، وكأنها قبطان السفينة المنعزل فى قمرته عندما يظهر لاعين البحارة . أما « زينيا » فلا تبدو فى نظر الاسرة فتاة بالغة الرشد ، ولذلك يدللونها باسم « ميسى » وهو الاسم الذى كانت تطلقه أثناء طفولتها على مربيتها الانجليزية ، وهذه البنت تعبد أختها الكبرى ، ولكنها أكثر ألفة بأمها ، لان كلا منهما تفهم الاخرى ، أكثر مما تفهم تلك الشخصية المتباعدة .. شخصية « ليدا ».

و « ميسى » من ألطف الشخصيات الانثوية التى صورها « تشيكوف » لما تتحلى به من شباب ساذج وأنوثة مستيقظة خجول ، وسرعان ما تنعقد أواصر الصداقة بين « ميسى » ، والفنان ، ويقع كل منهما فى حب الآخر ، ذلك أن كلا منهما شبيه بالآخر فى تصوره التلقائى الشاعرى للحياة .. وكان من الممكن إن ينعما بالسعادة سويا .

بيد أن « ليدا » القاسية تبغض الفنان لانه ينظر الى عملها فى الزمستوف بعين الاحتقار ، بينما تنظر اليه ليدا على أنه شخص لا مبدأ له . ومن ثم فانها تحطم سعادة العاشقين ، بأن ترسل شقيقتها الصغرى بصحبة أمها الى مكان بعيد ، لزيارة خالها فى اقليم بنزا — وعندما يصل الفنان الى منزل

تلك الاسرة ، لا يجد « ميسى » أثرا ، وتبدو له الاشياء بدونها مختلفة جد الاختلاف ، وتخبره « ليدا » فى برود برحيل أمها وأختها ، « وانه من المحتمل أن ترحل الاثنتان الى الخارج فى الشتاء .. »

ويعود الى منزله ، وقد أذهلته المفاجأة ، غير أن صبيا صغيرا يلحق به ليسلمه رسالة صغيرة تتضمن هذه العبارة : « لقد كاشفت أختى بكل شىء ، فأصرت على افتراقنا .. ولم أجد من نفسى الشجاعة للتمرد على مشيئتها خوفا من ايلامها .. فليمنحك الله السعادة ، واغفر لى ! وليتك تعلم أية دموع مريرة أذرفها أنا وأمى ! »

وتنتهى هذه القصة التى تروى على لسان المتكلم بعد عدة أعوام من هذا التاريخ ، وقد بدأ الفنان ينسى ذلك المنزل : « .. وبين حين وآخر كنت أتذكر أثناء رسمى أو قراءتى ودون سبب ظاهر ، النور الاخضر المنبعث من النافذة ، وصوت خطواتى يتردد صداها فى الحقول التى طواها الظلام فى تلك الليلة وأنا عائد الى منزلى ، أفرك كفى الباردتين ، وقد غمر الحب نفسى .. وفى أحيان متباعدة ، وفى لحظات الوحدة والكآبة استسلم للذكريات الغامضة فينتابنى رويدا رويدا شعور بأن شخصا آخر يتذكرنى كما أتذكره ، وأنه ينتظرنى كما أنتظره ، وأننا سوف نلتقى ..

« ميسى .. أين أنت ؟ الآن ؟ »

هذه العبارة التى تختتم بها قصة أصبحت من العبارات المشهورة ، وأخذ الناس جميعا يرددونها ، ويقبسونها فى كل مكان ، وكأنها لحن أثير لدى القلوب ، وأحس الناس جميعا بما فى ذلك الحزن الشاعرى من جمال خفى يتسلل الى النفس عندما تتذكر الافراح الدابرة ، والشباب الغض ، وربيع الحياة . ولهذا يجب أن تقرأ هذه القصة بروح من الكآبة الغنائية الوشيجة الصلة بروح تورجنيف عندما يقول : « وما

أعذب الورود وأشد نضارتها .. » وقد تلقى « تشيكوف » رسائل من قرائه نورد هنا مثلا منها ، قال أحد القراء : « لقد فرغت توا من قراءة أحدث قصصك وهي المنزل ذو السقف المنسار وهي قصة تحتوى على شعر رفيع قريب الشبه بروح تورجنيف ، حتى لقد أحسست أنه ينبغى على أن أعبر للكاتب عن امتنانى لما منحنى من متعة . »

أجل .. ان قصة المنزل ذو السقف المنسار هى حقا قصة السعادة الضائعة ، وشعر الحياة الذى تبدد وتلاشى ..

بيد أن تلك الشاعرية الحميمة التى تتسم بها القصة

تلك الشاعرية التى يمكن أن نقول عنها عرضا انها وشيجة الصلة بحياه تشيكوف الشخصية .. ألم يكتب فى احدى رسائله أنه خطب فتاة تدعى « ميسى » وانه ينوى كتابة قصة عنها ؟ .. تمتزج امتزاجا تاما بموضوع اجتماعى كبير .

فما هو ذلك الجدل الذى كان يدور بين عضو «الزمستوف» المتحمسة ، وبين الفنان غير المتقيد بمذهب أو مبدأ ؟

لقد وصفت « ليدا » ذات مرة المصاعب التى تعانيها فى علاقتها باحدى منظمات المراكز الطبية ، فيقول الفنان : « ان هذا المركز — فى رأيه — غير مطلوب فى « مالوزيموفو » فتحتج ليدا قائلة : « وفى الاسبوع الماضى ماتت « آنا » أثناء الوضع ، فلو كان هناك مركز طبى للاسعاف فى المنطقة المجاورة لظلت « آنا » على قيد الحيـــاة حتى الآن .. ولا أظن مطلقا أن الفنانين الذين يرسمون المناظر الطبيعية يمكن ألا يقتنعـوا بهذا » . وأجبتها قائلا : « أؤكد لك أن لدى معتقداتى المحددة فيما يتعلق بهذا الموضوع » . ولكنها دفنت وجهها فى الصحيفة التى تقرؤها ، وكأنها لاتريد أن تسمعنى . «وفى رأيى ان مراكز الاسعاف الطبية ، والمدارس ، والمكتبات ، والصيدليات .. لا تخدم الا قضية العبودية فى ظل النظام القائم . فان الناس يرسفون فى أغلال ثقال .. وانت لا تعلمين شيئا لتحطيم هذه

الاغلال ، وانما تضيفين اغلالا جديدة .. هذه هي معتقداتي »

« ورفعت عينيها الى وجهي وابتسمت في احتقار ، ولكنني واصلت حديثي محاولا ابراز فكرتي الاساسية :

« وليس المهم هو أن « آنا » قضت نحبها أثناء الوضع ، وانما المهم هو أن « آنا » و « مارتا » و « بيلاجيا » ينكببن على العمل من الصباح حتى الليل ، وانهن يسقطن مريضات من الكدح المرهق ، ويقضين حياتهن في خوف من الموت والمرض ، ويذبلن سريعا ، ويهرمن في سن مبكرة ، ويمتن في القذارة والنتن . وحالما ينمو أطفالهن ، فانهم يحذون حذو أمهاتهم ، وتتعاقب مئات الاعوام على هذا النمو .. ملايين من البشر يعيشون حياة أسوأ من حياة الحيوانات ، لكي يكسبوا كسرة من الخبز ، ويعيشوا في خوف مستديم ..

« اما محو أمية الفلاحين ، وتلك الكتب المليئة بالمواعظ التعسة ، والامثال الشعبية ، ومراكز الاسعاف الطبية ، لا يستطيع هذا كله أن يمحو جهلهم أو يقلل من نسبة الوفيات بينهم أكثر مما يستطيع الضوء المنبعث من نوافذكم أن يضيء هذه الحديقة الشاسعة ..

« واذا كان العلاج مطلوبا ، فليكن هذا العلاج لا من المرض ، وانما من أسبابه .. وفي مثل هذه الاحوال لا معنى على الاطلاق لحياة الفنان . وكلما كان نصيبه من الموهبة أعظم كان حظه في الحياة أسوأ ، وكانت وظيفته أشد استغلاقا على افهام الناس ، اذ قد يبدو للنظر السطحي انه يعمل لتسلية حيوان بدائي قذر بتأييده للنظام القائم للاشياء .. وأنا لا أريد أن أعمل .. ولن اعمل ... »

ولن نورد هنا الحجج التي ساقتها ليدا ، طالما انها عبرت عن أقواها جميعا ، وهي موت الفلاحة التي كان من الممكن ان تظل على قيد الحياة لو وجد مركز طبي في المنطقة المجاورة ، وهذه الحجة تبدو من القوة بحيث لا تترك للفنان قدما يقف عليها .

ومع ذلك فان « ليدا » مخطئة أساسيا وجوهريا .

ذلك اننا نرى هنا كم وضع « تشيكوف » على لسان بطله من الافكار العزيزة عليه التى ظلت تطارده حينا طويلا . وهنا نجتر اجترارات حزينة عن افتقار عمل الفنان الى المعنى والمبرر الاخلاقى فى المجتمع البورجوازى ، اذا لم يعم هذا العمل بما من شأنه أن يغير النظام القائم ، وبالتالى يكون مؤيدا « للنظام » الملعون . ونلاحظ أيضا بحث « تشيكوف عن حل أساسى للمشكلات الاجتماعية ، ونفوره من الادوية والعقاقير المسكنة التى تتخذ بديلا عن ازالة الاسباب الاولى والاساسية للعلة ، وبعبارة أخرى ، كان تشيكوف يرمى الى تغيير البناء الاجتماعى الجائر . وتظن « ليدا » أن « الفنان » ينقصه المبدأ ، تماما كما كان النقاد الاحرار الشعبيون يعدون « تشيكوف » فنانا تنقصه المبادىء . . ولكن من العسير علينا أن نرى فى ثنايا مناقشات « ليدا » المتحذلقة الراضية عن نفسها أشواق تشيكوف وبطله وما يجيش فى نفسيهما من التذمر والسخط .

ولم يكن « تشيكوف » أو أبطاله يعرفون كيف يحطمون الاغلال الكبرى . . وعندما يحاول الفنان أن يثبت فكرته الرئيسية فى محاولته للتعبير عن افكاره ، ندرك أن هذا الفنان ليس غير « تشيكوف » نفسه وهو يحاول أن يوضح لنفسه وللقارىء ما هى الحقيقة الصادقة .

والفنان فى حالة من الاضطراب المبين . . وهو يجانب الصواب وخاصة عندما يقول انه لا داعى مطلقا للمستشفيات والمدارس . وهنا ينفصل « تشيكوف » عن بطله ، ويتميز كل منهما عن الآخر ، فنحن نعلم تمام العلم الجهود التى بذلها « أنطون بافلوفتش » فى سبيل تلك المدارس ودور الكتب ، والصيدليات ، ذاتها التى يتحدث عنها البطل .

غير أننا نلمس فى مرارة الفنان ذاتها ، وفى بحثه عن الحقيقة ، وفى اعراضه عن تأييد النظام القائم ، بل فى اختلاط

أفكاره نفسها ، وفى ازدرائه لفنه ، وتطلعه الى الحلول الاساسية ـ لا الحلول الفردية السطحية للمشكلات الإجتماعية ـ نلمس فى هذا كله نصيبا أعظم من العدالة لا يتاح لافكار « ليدا » العادية المختالة ، ذلك ان نشاط الزمستوف استحال الى نوع من الفوقعة بالنسبة لها . فلم تستطع أن ترى غير « شيء واحد » مثل « داشنكا » فى قصة « الاهمال » . وهنا نجد أنفسنا حيال صورة سيدة ثرية من الاحرار ترى أمانى « الفنان » المبهمة المتلهفة فى الوقت نفسه لتحطيم الاغلال البغيضة ـ شيئا غريبا كل الغرابة ولا سبيل الى ادراكه .

ولم ينكر « فلاديمير اليتش لينين » والماركسيون عامة أن ثمة بعض الفائدة فيما يبذل « الزمستوف » من نشاط فى مجال « الصيدليات والمكتبات » ، ولم يرفض لينين رفضا مطلقا امكان قيام نشاط تقدمى مشروع فى ظل الاوتوقراطية ، ولم يكن اعتراضه منصبا على نشاط ممثلى «التقدم المصغر» بقدر ما كان منصبا على توهمهم بأنهم يشنون الحرب على الطغيان بهذا النشاط ، وعلى رضاهم الفج عن أنفسهم ، وعن عجزهم واحجامهم عن تجاوز حدود التقدم المحدود الضيق النطاق ، واعتناقهم للديموقراطية البورجوازية ، فى كفاحهم .

هذه الاوهام التى استكنت فى نفوس « الاحرار » كانت غريبة عن « تشيكوف » ، وكان ينظر اليها مزدريا .. وما أشد سخريته من أقوال « أندريه بروزوروف » التى تنحو منحى الوعظ الاخلاقى فى مسرحية « الشقيقات الثلاث » عندما يقول انه بعمله فى الزمستوف « انما يخدم القضية » ! ولما كان « تشيكوف » نفسه من أعضاء الزمستوف فقد كان يدرك حق الادراك ضآلة التقدم الذى يمكن تحقيقه على أساس العمل فى هذه الهيئة ، ولم يكن من العبث أنه يهيب بالمثقفين على لسان بطلة قصة « حياتى » أن يتعدوا حدود نشاطهم

العادى » ، ولم يكن عبثا أنه شبه نشـــاط « الزمستوف » كله فى ميادين التعليم والصحة العامة ـ وهى الميادين التى يعرفها «تشيكوف» أكثر من غيرها ـ بنوافذ منزل لا تستطيع أن تلقى الضوء على الحديقة المترامية الاطراف .

ويعبر الشاعر « ف . باتيوشكوف » صديق « تشيكوف » وصاحب الآراء الراديكالية ـ يعبر عن موقف غريب من قصة « المنزل ذو السقف المنسار ، وعن التغيير الذى طرأ على كتابات « تشيكوف » فيقول :

« .. وحتى لو سلمنا بأن ثمة لمسة من الهزل فى أحاديث الفنان ، فمن الواضح تمام الوضوح أن الكاتب يشاطره جوهر آرائه .. فما نحتاج اليه هو تغيير أســـــاسى فى ظروفنــا الاجتماعية كلها ، وهو لا يخفى الاتجاه الذى يجب أن يتجه فيه هذا التغيير ..

« ولم يخترع تشيكوف بالطبع مذهبا اجتماعيا جديدا ، بيد أن سمعه قد أرهف لتقبل التيارات والاجواء التى بدأت تظهر فى روسيا فى منتصف الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر ، كما أنه عبر عن تعاطفه مع هذه التيارات والاجواء فى لهجة لا يشوبها التردد . وموقفه مما نسميه نحن بالماركسية أو الماركسية الجديدة، ومن الآراء الاشتراكية الديموقراطية ، كان مختلفا جد الاختلاف عن موقفه منذ سنوات قلائل بالنسبة للنارودية ، والتولستوية ، ولتقاليد الاحرار فى الستينات ، اذ كان يرى فى وضوح أنه على الرغم من ورود هذه النظريات الجديدة من الخارج ، فان شباب روسيا قد اعتنقها تلقائيا ، وتمثلها « من الداخل » . ولم تكن هذه مجرد عبارات ، أو ترديدا لعبارات يطلقهـــا الاخـــرون ، ولم تكن مجرد هذيان الشيوخ عن الايام الخوالى المجيدة على حساب نسيان الحاضر ولكنها شيء حى نابض ، زاخر بالدلالة بالنســـبة للحاضر ، مشحون بالنتائج النافعة فى المستقبل القريب ، وبدأت نغمة

جديدة تظهر فى كتابة « تشيكوف » ، وأخذت وجهة نظـرة تتبلور حول نقطة أو نقطتين ، وتتلخص فى خدمة قضـية التحرر بعرض الحياة واجتلائها ، وباختيار المنبه بالنسبة للنشاط الذى ينجم عنه ، وبالتحليل النفسى للفرد فى بيئات متباينة . »

ولن نقف طويلا عند تفسير « باتيوشكوف » وما يتضمنه من اختلاط فى المصطلحات ، فالجدير بالنظر هـو أن معاصرا لتشيكوف ، كان يرى فى قصة « المنزل ذو السقف المنسأر » تطلعا نحو تغيير أساسى فى النظام الاجتماعى ، كما أنه تبين فيها نقطة تحول فى عمل « تشيكوف » ، وعبر عن هذه الفكرة وهى أن « تشيكوف » يساعد الحركة التحريرية الثورية بعرضـه للحياة المعاصرة ، « وسبرغور المنبهات بالنسبة للنشاط » على جميع الانماط ، وعلى ممثلى مختلف الطبقات ومختلف الجماعات الاجتماعية فى عصره ، أما ما قاله « باتيوسكوف » عن موقف « تشيكوف » من المذهب الماركسى ، فان الاسـباب جميعا تدعونا الى اعتبار ملاحظاته خالية من كل أسـاس على الاطلاق رغم صـداقته الشخصـية لتشيكوف ، ذلك ان « تشيكوف » لم يكن بالطبع على معرفة بالادب الماركسى ، هذا اذا لم نحسب حسـاب الماركسية المشروعة (أو الماركسـية الجديدة كما يدعوها باتيوشكوف) .. أمر واحد لا سبيل الى الشك فيه ، وهو أن المنحنى الصاعد لحركة العمال الثورية التى بدأت تنتشر فى أرجاء البلاد كلها ، لا يمكن أن يخلو من تأثير ــ ولو عن طريق غير مباشر ــ على عقل « تشيكوف » وعمله .

يقول « تشيكوف » فى احدى رسائله : « ينبغى ألا ينصب الفنان نفسه « حكما » على شخصياته ، وانما يجب أن يظل ملاحظا محايدا » غير أن « تشيكوف » أخذ يبتعد شيئا فشيئا عن هذا الموقف ، وان يكن هذا الابتعاد لا شـعوريا فى بداية الامر ، اذ كان « تشيكوف » حكما على شخصياته .. وحكما

قاسيا فى أغلب الاحيان .. أما محاولاته لكى لا يكون حكما وانما مجرد ملاحظ محايد ، فتنبثق من شعوره بالمسئولية العميقة حيال القارىء ومن ازدرائه للمواعظ المليئة بالادعاء فى ذلك العصر ، سواء صدرت عن الاحرار أو عن «الناروديين» أو عن أتباع « تولستوى » و « دوستيوفسكى » الذين يعتبرون أنفسهم حملة مشاعل العدالة والحق المطلق .

وقد حاول كاتب قصة المنزل ذو السقف المنسأر ان يجد له ولقرائه حلا لمعضلة عويصة ، ولكنه أخفق فى ذلك .. انه يصغى بآذان واعية الى حجج «ليدا» واجـدا فيها قدرا معينا من الحقيقة .. فليس عبثا أنه قد زود «ليـدا» بمثل تلك الحجة الراجحة فى جدالها مع « الفنان » أن « تشيكوف » لا يغض الطرف مطلقا عن «ليدا فولشانيتوفا» ، وعن حججها ونشاطها ، فهى ليست مجرد فتاة من الاحرار تعلن عن نفسها ، أو مدرسة من طراز « سربرياكوف » .. كلا .. ان ما تقوم به عمـل عملى حقيقى ، انه مساعدة حقيقية للبشر الاحياء لا يمكن للمرء ــ وخاصة تشيكوف ــ أن يطرحها جانبا فى سـهولة ويسر ، ذلك أن « تشيكوف » يعلم جيدا قيمة هذه الاعمال ، كل ما فى الامر انه كان يشعر بضآلة المساعدة وعدم تكافئها بالنسبة لما تدعو اليه الحاجة ، وكان يشعر شعورا غريزيا ان شخصا ما ، فى مكان ما سيجد طريقا الى العمل التاريخى الحقيقى ، وسيتمكن لا من معالجة الادواء نفسها ، ولكن من معالجة أسبابها .. ولهذا فان حل المناقشة التى دارت بين الفنان و « ليدا فولشانينوفا » واضح لنا تمام الوضـوح . أما بالنسبة لـ « تشيكوف » ، فقد كانت المناقشة مشـحونة بالمأساة لانها تمس أشد المسائل حيوية ، دون أن تكون لديه أية فكرة عن كيفية حلها . غير أن هذا كله يضفى دلالة أعظم على هذه المسألة وهى أن « تشيكوف » رغم اتفاقه مـع «ليدا» فى الحاحها على ضرورة المدارس والصيدليات والمراكز الطبية ، ومعارضته للنزعة العلمية لدى « الفنان » ، فانه

بندد ـ بكل قوته الفنية والشاعرية فى تناوله للموضوعات ـ يرضى « ليدا » عن نفسها ، وعجزها عن تخطى حدود نشاطها النافع الضئيل بالنسبة لاحتياجات الشعب الحقيقية .

وكل ما فى هذه القصة من منطق شاعرى ، ومن موضوعية حنية فى رسم شخصياتها ، ومن موسيقى داخلية كل ما فيها موجه ضد « القوقعة » التى يعيش فيها « الاحرار » ، وضد نضوب الحياة من مذهبهم ، وضيق الافق الذى تتميز به عقيدتهم ، واحجامهم عن النظر الى الحياة الواقعية وجها لوجه . وهذا الافتقار الى الحياة والى الشعر ، وهذا الجفاف ، واتخاذ خدمات الفرد الضئيلة كستار لعدم المبالاة المطلقة بمشكلات الحياة الرئيسية الاساسية ، هذا كله يؤلف جوهر تلك النزعة الخيرة التى حملت « تشيكوف » على النفور من « ليدا » ، وهذه النزعة الى محبة البشر والاحسان اليهم هى صمام الامان فى الجهاز الاستبدادى (الاوتوقراطى)

وهذا التعريف الجديد للنزوع الى محبة البشر من ابتكار « تشيكوف » . ومصدره قصة « فى الحضيض » حيث يقول : « نحسناتها (أى حسنات فارفارا ، زوج تسيبوكين صاحب دكان القرية) كانت بمثابة صمام الامان فى الآلة . »

وينعكس موقف « ليدا فولشانينوفا » الاجتماعى وما يتسم به من برود وصغار وضيق أفق وبعد عن الواقع ، فى موقفها البارد الفج البعيد عن الواقع من العواطف الانسانية العميقة ومن شاعرية الحياة ، و « ليدا » هى التى وجهت ضربة قاضية الى الحب الذى ربط بين الفنان والعزيزة الصغيرة « ميسى » ، انها هى التى فرقت بطغيانها بين العاشقين ، وحطمت ـ فى اطمئنان بارد ـ سعادتهما . وهكذا نجد ان شخصية «ليدا» شخصية مجدبة .. وأى شىء يمكن ان يفسد شخصية الانسان كما يفسدها ان يكون جلادا للحب !

وبهذا المظهر بدت لنا « ليدا فولشانينوفا » بجمالها البارد الصارم .. وما أحاط بشخصيتها من ملل نانط عقيم ، وغباء لا يحتمل ، وعمل مدرسي رتيب ، وموقفها الساخر من الحب ، وذلك اليأس المنبعث من صوتها الذى تحدثت به الى الفنان الذاهل وهو يستمع الى النبأ المفاجىء برحيل « ميسى » . « قطعة من الجبن .. وجد غراب فى مكان ما .. قطعة من الجبن . » هذه الخرافة قد أحسن تشيكوف اختيارها .. فان « ليدا » تقوم بعملها فى التدريس على أكمل وجه .. ولكن .. أية سآمة ، وأى برود ، وأى ضيق أفق به ، وأى تراجع حقير عن كل ما هو عظيم زاخر بالحياة ، وأى رضى وغبطة تنبعث من شخصها !

وهذا الصوت الصادر عن «ليدا» وهى تملى على تلاميذها هذه العبارة : « قطعة من الجبن .. وجد .. غراب فى مكان ما قطعة من الجبن » آية من آيات الفن شبيهة بذكر خريطة افريقيا فى الفصل الاخير من مسرحية « العم فانيا » . هذه الآية التى كتب عنها « جوركى » الى « تشيكوف » قائلا : « انها أشبه بضربة تهوى بها مطرقة على القلب . وفى كلتا الحالتين : فى «مسرحية العم فانيا» و«المنزل ذو السقف المنسار» يحس القارىء احساسا حادا بالانتقال من موقف الى آخر فى مجال جد مختلف .. وما كان ينبض بالحياة منذ لحظة أصبح بعيدا .. بعيدا جدا ، ونحن نشعر الآن بشعور الضياع ونحس احساسا واضحا كل الوضوح بضيق أفق ما ينتظرنا وما فيه من جدب .. و « تشيكوف » أستاذ فى هذا اللون من الانتقالات (النقلات) ، فهو يمتلك قوة معجزة حقا فى أن يخلق فى نفس القارىء بضربة واحدة غير مباشرة ، احساسا حقيقيا بالتغيير ، وبما فى الحياة الانسانية من تحول كامل . ولولا هذه القدرة لما غدت قصص « تشيكوف » « روايات موجزة » كما هي الآن .

ولم يستطع النقاد المعاصرون تقدير النغمة الاجتماعية الكبرى في المنزل ذو السقف المنسار وأعلنت أكثر الصحف تحررا في ذلك الوقت وهي صحيفة (الاخبار الروسية) أن بطل القصة يعد ممثلا نموذجيا لشخصيات « تشيكوف » المكتئبة التي تشبهه تماما ، تلك الشخصيات بملامحها المشهورة من ملل وفقدان للالهام ، وعجز عن الخلق ، وشعور بعدم القدرة على انهاء مابدأت ، وافتقار الى الغريزة الاجتماعية . وقالت صحيفة أخرى هي صحيفة « بيرزيفرى فيدومستى » ان القارىء يلتقى فى بطل هذه القصة بنمط لاتدعو اليه الحاجة ، بينما يجد فى شخص « ليدا » ممثلا لذلك القطاع من المجتمع الروسى الذى يعمل فى الخفاء، والذى كرس نفسه لجهاد متصل ضد عقبات كئود . » وترى هذه الصحيفة ان القصة تعرض لنا على نطاق غير متناه فى الصغر صورة للمجتمع الروسى كله المنشق على نفسه الى نصفين : نصف مطمئن البال لا يشغله شيء ، ونصف يتألف من امثال تلك الانسانة التى امتلأت بقوى الشباب ، وكرست نفسها لخدمة اخوانها المواطنين . »

ولا بد للانسان أن يكون عضوا من الاحرار الذين ينتمون الى مستوى «ليدا» نفسها لكي يرى في كآبة الفنان ، وفي عدم رضاه وفي تطلعه « اطمئنان البال الذى لا يشغله شيء » ، وان يمجد نشاط ليدا فى « الزمستوف » فيرى أنه «خدمة» . وليس من العسير علينا أن نتخيل ابتسامة « تشيكوف » الساخرة أثناء قراءته هذا النقد ، ولعله تذكر « خدمة » الناقد الحر عندما كان يعمل فى مسرحيته « الشقيقات الثلاث . » ..

وليس من المفروض أن يكون حماس القراء الذين اندفعوا يمتدحون «سمات تورجنيف» فى قصة المنزل ذو السقف المنسار

مبعثا لاى سرور خاص فى نفس « تشيكوف » ، ذلك أن مثل هذا الاطراء يدل على أن أصحابه قد أخفقوا فى ملاحظة النغمة الباطنية فى القصة، وانهم أصموا آذانهم عن ذلك الشيء الذى بذل فيه الكاتب أحر جهده هو وبطله محاولا توضيح فكرته الخاصة لنفسه . هذه الفكرة العظمى الكاشفة عما فى أوهام الاحرار من عقم ، وعما تتميز به فكرة « التقدم المصغر من ضيق الافق والانصراف عن هذا السؤال وهو : ماذا يجب ان نفعل ؟ ولم يكن الناقد « الحر » قادرا بحال من الاحوال على ادراك المدى الذى ارتفع اليه « تشيكوف » فوق حدود مذهب الاحرار ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع أن يقول « لانطون بافلوفتش » ان الجمال الحقيقى فى قصته لا يكمن فى محاكاته « لسمات تورجنيف » ولكن فى المزيج الشاعرى البارع من البكاء على سعادة الحب الضائعة ، والبكاء على سعادة الناس جميعا . وكما هى الحال دائما فى قصص تشيكوف تتحول « الخطة » البسيطة العادية الخاضعة للتقاليد ، الى رسالة جديدة فى فلسفتها ، وفى تطبيقها العام . فصورة « ميسى » الرقيقة تقف رمزا على الجمال ذاته ، وعلى الشباب ، وعلى طهر الحياة الذى سلب منه الناس .

كان « تشيكوف » يبحث عن سبل جديدة ، وعن نظرة جديدة . وكانت عنايته بتبشير تولستوى – الذى اجتذب اهتمامه ردحا معينا من الزمن – منبعثة عن رفضه الغريزى لمذهب الاحرار وزعماء النارودية الحرة لما يتصفون به من غرور وضيق فى الافق ، وكان يظن – ولم يكن هذا الظن صادقا الا لفترة وجيزة – ان مذهب تولستوى يصور الطموح نحو حل أساسى للمشكلات الاجتماعية العظمى ، وانه قائم على معرفة بحياة الناس الواقعية ، وأن آراء تولستوى يمكن أن تكون عونا فى البحث عن الحقيقة ، والدليل على هذا الظن يمكن أن نجده فى قصة « الناس الطيبون » ، (١٨٨٦) وغيرها من القصص .

وفى القصة شخصيتان رئيسيتان هما أخ وأخت .. الاخ ممثل نموذجى للاحرار ، أو بالاحرى للصحافة النارودية الحرة فى العقد الثامن ، والاخت طبيبة .. تعيش فى وحدة بين أحزانها العميقة اذ فقدت زوجا تحبه فى مقتبل العمر . وكانت تحب اخاها الى درجة العبادة : « كانت تحبه لذاته ، ولآرائه وكانت تقدس مقالاته ، فاذا سألها سائل ماذا يصنع أخوها أجابت فى نبرات خفيضة وكأنها تخشى أن توقظه أو تزعجه : « انه يكتب ! .. » وكانت تجلس الى جانبه أثنـــاء عكوفه على الكتابة دون أن ترفع عينيها مطلقا عن يده التى تتحـــرك بما يكتب » ويذكرنا حبها لاخيها المفكر والكاتب « المســيطر على أرواح الآخرين » ، والناقد الادبى ، يذكرنا بحب « العم فانيا » و « سونيا » « لمسيطر آخر على الارواح » هو الاستاذ الحر « سربرياكــوف » ... الذى كان يكتب ويحـــاضر عن الفن زهاء خمســة وعشرين عاما دون أن يفقه عنه شيئــــا ، بيد أن الغشاوة تنجاب عن عينى « العم فانيا » فيتمرد على الشخص الذى كرس حياته كلها لخدمته . أما « فلاديمــير سيميونتش ليادوفسكى » الشخصية الرئيسية فى قصـــــة «الناس الطيبون» فهو على العكس من الاستاذ «سربرياكوف» ــ شخص لا يبعث مطلقا على النفور ، لانه لطيف غاية اللطف ، ومع ذلك فهــو نوع جــديد من النمط « السربرياكوفى » .. انه زعيم ضحل سطحى من أحرار العقدين الثامن والتاسع ، ولــكنه صحفى حقيقى ، محتــرف ، وليس مجــرد هاو . « حينما وقع بصرى على قامته الضئيلة النحيلة المحدودبة ، وجبهته العالية ، وشعره الشبيه بعرف الفرس ، أو كلمـــا سمعته يتحدث ، أحس أن كتابته ــ أيا كانت ــ جزء متكامل معه ، كنبضات قلبه ، وان آراءه جميعها جاهــزة فى نفسه ، وكأنها خلايا تنمو فى مخه منذ ان كان جنينا فى بطن أمه .. وأستطيع أن أقرأ فى هيئته واشاراته ، والطريقة التى ينفض

بها رماد سيجارته ـ لبرنامج الذى أعـــده لنفسه من الألف الى الياء بكل مايتسم به من جلبة ورتابة وأمانة . .

« اننا بازاء كاتب يستطيع أن يهتف برشاقة لا تضارع : « لا يوجد من طرازنا غير قليل من الناس ! » أو « ما معنى الحياة بغير كفاح ؟ الى الامام ! » رغم أنه لم يناضل أىانسان طيلة حياته ، ورغم أنه لم يخط خطوة واحدة الى الامام . وعندما يبدأ فى مناقشة المثل العليا لا يبدو عليه أى تأثر بها .

كان « فلاديمـــير سيميونتش » يؤمن مخلصـــا بالتزامه للكتابة ، وفى البرنامج الذى اعده لنفسـه ، دون أن تراوده فى ذلك الظنون . . وكان من الواضح أنه راض عن نفسه . »

ولعل ما تتميز به أوصاف « تشيكوف » من رصـــانة ووقار ، وما يبـــدو من وقوفه الى جانب بطله ، والحاحه على الصفات الجذابة فى شخصية هذا البطل كما يتمثل ذلك فى مثل هذه العبارات : « عندما يضع اكليلا من الزهر على قبر أحد المشاهير ، وقد اكتسى وجهه بما يشبه الالهام ، أوعندما تبدو عليه سيماء الجد والرزانة وهو يجمع التوقيعات على نداء ما . . » لعـــل في هذا كله ما يمدنا بتيـــار داخلى من السخرية المقصودة . وكان « فلاديمير سيميونتش » فى أوج سعادته وهو ينقد قصة عن حياة القرية فى احدى «الصحف الكبرى » وقد قرر ان الكاتب مخلص وانه على احاطة مبـاشرة بحياة الريف . . هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه الناقدنفسه يعلم شيئا عن هذه الحياة الا عن طريق الكتب والسماع . . بيد أن مشاعره ومعتقداته الباطنية حملته على تصديق القصة .

« هتف الناقد : « يالها من قصة رائعة ! » وأسند ظهره الى مقعده ، وأطبق جفنيه متلذذا . . « ان فـكرة الـكاتب مقبولة تماما » .



وحانت تلك اللحظة التى اكتشفت فيها «فيراسميونوفنا» أخت المفكر ، مايتصف به صنمها المعبود من سطحية ونزق، وتنشب فى نفسها أزمة أليمة ، اذ تدرك عقم الآراء الامينة الرتيبة الضيقة الافق التى يعتنقها أخوها .. وتحلم بحل للمشكلات المحرقة القائمة فى ذلك العصر ، شأنها فى ذلك شأن كثير من شخصيات « تشيكوف » ، على شرط أن يكون هذا الحل أساسيا لا حلا جزئيا مؤقتا . وتثور ثائرتها على برنامج شقيقها ، وتلقى بمعبودها من العرش الذى استوى عليه .

« أجل يا « فولوديا » لقد ظللت أفكر طيلة هذه الايام ، وأنا أسوم نفسى العذاب ، وفى نهاية الامر توصلت الى هذه النتيجة ، وهى أنك شخص غامض لاغناء فيه ، وأنك عبد للروتين ، فاسأل نفسك ما جدوى ذلك العمل الذى تقوم به فى جد واخلاص . ماجدوى ذلك ؟ خبرنى ! ان كل ما يمكن أن تستخلصه من تلك القمامة التى تفتش فيها قد استخلصه غيرك من قبل . وتستطيع أن تخلط الماء بالمونة ، ثم تحلل محتويات المخلوط ولكنك لن تقول شيئا جديدا لم يقله الكيميائيون قبلك بزمن بعيد . »

ولا معدى لنا عن هذه الحقيقة وهى أن ألفاظ « فيرا سميونوفنا » ومعانيها ، بل ونبراتها نفسها هى بعينها أقوال « العم فانيا » ، فآستروف يتساءل فى هذه المسرحية :

« أليس ثمة جديد ؟ » فيجيبه « فوانتسكى »

« لا شىء على الاطلاق .. كل شىء قديم .. ان أمى العجوز مازالت تنعق كالغراب عن تحرير المرأة .. وهى تضع عينا فى القبر ، وعينا أخرى تتصيد بها فيما تقرأ من كتب ذكية فجر حياة جديدة . »

« آستروف : والاستاذ ؟ »

« فوانتسكى : والاستاذ يجلس كسابق عهده فى مكتبه من الصباح حتى الليل . « اننا نقدح زناد عقولنا ، ونقطب جباهنا

فى كتابة أغان لا حصر لها ولكننا لا نتلقى مطلقا كلمة ثناءعليها أو علينا ! » .. فها هنا رجل ظل يكتب ويحاضر عن الفن زهاء خمسة وعشرين عاما ، وهو فى الوقت نفسه لا يفهم شيئا عن الفن .. انه مابرح يردد خمسة وعشرين عاما أفكار الآخرين عن الواقعية والطبيعية وما شاكل ذلك ، خمسة وعشرون عاما ظل يكتب ويحاضر عن أمور اكتشفها الحكماء منذ عهد بعيد ، ولا تلقى من الحمقى أية عناية .. خمسة وعشرون عاما ظل يسجل فيها الزمن .. ومع هذا كله ، اى رأى ذلك الذى يراه فى نفسه ! »

وبهذا المنظار بدأت « فيرا سميونوفنا » تنظر الى أخيها .

وعندما كانت « ماريا فاسيليفنا » تلك الغراب العجوز عضو حزب الاحرار تهم بالكلام عن كتيب ما ، كان « العم فانيا » يقاطعها قائلا : « ولكننا مافتئنا نتحدث ونتحدث منذ خمسين عاما ، ونقرأ الكتيبات .. وقد آن الاوان لنتوقف .. وحتى العام الماضى جعلت أحاول — كما تحاولين أنت — أن اذر الرماد فى عيونى بحذلقتك المدرسية حتى لا أرى الحياة كما هى فى الواقع .. وظننت أننى على حق .. أما الآن .. فليتك تعلمين ! اننى لا أستطيع أن انام الليل من فرط حيرتى ! »

ويتهم العم « فانيا » الاستاذ « سربرياكوف » وأمه المتحذلقة ، بينما تتهم « فيراسميونوفنا » أخاها بالانغماس فى علم « الكيمياء السحرية » ، وفى كلتا الحالتين تدل الثورة ضد الافكار التافهة على ما يحتدم فى نفس الشخصية من سخط على ضيق الافق الشنيع ، وعلى البعد عن النظرة العلمية ، والافتقار الى الحياة فى المذهب الليبرالى .

ويقول فلاديمير سميونيتش متشدقا بالكلام وهو ينهض من مكانه : « آه .. أجل .. هذه كلها خزعبلات عتيقة ، لان تلك الافكار خالدة .. ولكن .. ما هو الجديد فى نظرك ؟ »

« انك تدعى الاشتغال بأمور الفكر .. فمن عملك أن تفكر فى شىء جديد .. ولا يحق لى أن أعلمك . »

« ويردد الناقد الساخط المندهش وهو يضيق عينيه فى صورة فكهة : « اذن فأنا كيميائى ممن يحولون المعـــادن الى ذهب ٠٠ والفن والتقدم كل هذا من علم الكيمياء السـحرية »

« وانظر يا فولوديا .. يخيل الى لو أن جميع المفكرين كرسوا أنفسهم لحل المشكلات الكبرى ، لانحلت جميع تلك المشكلات التافهة التى تبذلون فيها كل هذا الجهد .. ولو صعدت فى منطاد لترى احدى المـدن ، لشاهدت بالتالى القرى والحقول والانهار .. واذا صنعوا مادة « الستيرين » صنعوا الجليسرين منه أيضا كانتاج جانبى ٠٠ ويبـدو لى أن التفكير الحديث قد توقف عند نقطة معينة وأصبح ثابتا لا يتقدم .. لقد بات خجولا فاتر الهمـــة ، متحيزا ، خائفا من النطاق الشاسع الممتد أمامه كما أخاف أنا وأنت من الصعود الى قمة جبل شامخ ٠٠ لقد أصبح العلم محافظا ٠٠

« وكانت تجأر كل مساء بالشكوى من السأم ، وتحول مجرى الحديث الى الفكر الحـر ، والى عبيد الروتين ٠٠ ولما كانت هذه الافكار الجديدة قد استوعبت « فيرا سميونوفنا » ، فانها كانت تحاول اثبات أن العمل الذى يقوم به أخوها مجرد عادة ، وأنه محاولة غير مجدية تبذلها العقول المحافظة لاطالة أمد العمل الذى تم فعلا ، واختفى أصحابه من المسرح ٠٠ ولم يكن ثمة حد للمقارنات التى توردها ٠٠ فكانت تقارن أخاها بعالم الكيمياء السحرية ، أو بالمخالف المتعصب الذى يفضـل الموت على التخلى عن معتقداته . »

هذه القصة التى تعد من انتاج كاتب شاب تعكس الى حد ما خفية سيكلوجية ما يعرف بعصر الركود الاجتماعى ، وليس من شك أن نزعة « تشيكوف » الشـــكية فيمـا يتعلق بالسياسة فى تلك المرحلة تظهر فى هذه القصة .. وهنا يصور

تشيكوف « أفضل الناس » وأكثرهم تقدما فى ذلك العصر .. ولكن ما أضيق أفق الاخ واخته معا وما أشد تعصبهما ، وكم كان كل منهما عاجزا عن قيادة أى انسان ، لانهما لا يعرفان الى أين يقودان الناس ! هذا هو النوع الوحيد من « الناس الطيبين » الذى عرفه تشيكوف . ولو انه قصر همه على هذا العمل لانبات ضيق الافق والطيش اللذين اتصف بهما الزعماء الاحرار والتولستويون وغيرهم من زعماء ذلك العصر ، لكان هذا الموقف مما يرضى عنه « سوفورين » و « نوكوى فريميا » كل الرضى . فمن الحق أن قصة « الناس الطيبون » تحتوى على شيء ما فى ايدلوجية « تشيكوف » فى العقد الثامن يحمل « سوفورين » وجماعة « نوكوى فريميا » على التشبث به .. هذا « الشيء » هو النزعة الشكية فى السياسة لدى الكاتب الشاب .. بيد أن للقصة جانبا آخر قدر له أن يتطور فيما بعد لينقذ «تشيكوف» من براثن جماعة «نوكوى فريميا» .. هذا الجانب واضح فى تطلعاته التى تعد غريبة كل الغرابة عن أفراد هذه الجماعة والتى كانوا يرفضونها بعضها وقضيضها وتتلخص هذه التطلعات فى « البحث عن الحقيقة ! » وفى قصة « الناس الطيبون » يمكن أن نتبين التعبير عن هذه الامانى نحو حل شامل للمشكلات الاجتماعية ، ويمكن أن تحل معه بالتالى سائر المشكلات الصغيرة الاخرى التى ثبت عندها تفكير الشعبيين ـ الاحرار ، ويصف « تشيكوف » هذا التفكير بأنه محافظ ، جبان ، راكد ، عقيم ، كما يحس بالاشتراك مع أبطاله ما يتصف به القديم من خواء واضمحلال ، وبضرورة البحث عن أجوبة جديدة للمسائل التى وضعتها الحياة ، وعن فكر جديد يتميز بالنضارة والجسارة والاقدام .. وهذه القصة على الرغم من ورودها مبكرة فى أعمال « تشيكوف » الا انها تحمل طابع البحث عن « المبدأ السائد »

وجدت « فيرا سميونوفنا » مخرجا لها فى الافكار التولستوية : فرحلت الى القرية ، وقطعت الى الابد ما بينهما

وبين أخيها ومثله العليا . ولا مجال للشك فى انه على الرغم من تأثر « تشيكوف » الى حد ما بالافكار التولستوية ، الا انه كان يشـــعر بزيفهـــا . ونحن نلمس الزيف والتحزب والمرفقات المألوفة للنزعة القطعية فى سلوك «فيرا سميونوفنا» والأخ على حق أيضاً حينما يسخر من هذا الزيف .

« وبدأ يظهر التحول فى طريقتها فى الحياة رويدا رويدا .. اذ كانت تستلقى أياما طوالا فوق الاريكة ، دون أن تفعـــل شيئا ، بل دون أن تقرأ شيئا ، وقد شرد فكرها ، واتخذت ملامحها تلك الهيئة الجامدة الفظة التى يتخذها عادة الاسنان المتعصبون المتحيزون .. وبدأت تستغنى عن الخدمات التى يؤديها الخدم ، فتقوم بترتيب حجرتها ، وتحمل بقايا طعامها ، وتنظف حذاءها ، وتمسح ثيابها بالفرشاة ، ولم يستطع أخوها أن يكظم غيظه ، بل حقده ، كلما طالع وجههـــا الجامد وهى تقوم بهذه الاعمال المنزلية الحقيرة ، وكان يرى فى تلك الرزانة التى تؤدى بها هذه الاعمال شيئا مزيفا متكلفا مرائيـــا بعيـــدا عن الطبيعة .. ولـــا كان يدرك انه لن يســـتطيع فى الوقت الحاضر أن يزعزع عقائدها ، فقد جعل يضايقها ويناوشها كأنه تلميذ فى مدرسة ، قال لها :

« انك لا تريدين مقاومـــة الشر ، ولـــكنك تقاومين فكرة احتفاظى بخادمة .. فاذا كانت هذه الفـــكرة شرا ، فلمـــاذا تقاومينها ؟ هذا هو التناقض بعينه . »

أجل .. كان « تشيكوف » يرى الرياء ، والتصـــنع ، والتكلف والزيف فى اتباع « تولستوى » ، ولكنه كان يتخيل — كما تخيلت بطلة « الناس الطيبـــون » — ان فى مذهب تولستوى ، وفى احتقار تولستوى لاساليب الطبقة الراقيـــة ، محاولة لحل المشكلات المستعصية حلا أرحب واشد جرأة ، ولم يكن « تشيكوف » يعلم الى أين يقود شخصياته التى

حاولت جميعا ان تهرب من الابتذال والوضاعة الشائعين فى بيئتها ، وكان ينتظره وقت طويل ، وفكر متصل ، وأحزان أليمة ، وعبث مستمر ، وكثير من اليأس فى بعض الاحيان ، قبل أن يجد فى آخر أعماله وأشدها تفاؤلا — فى قصة « المخطوبة » ، و « بستان الكرز » اللتين كتبهما قبل وفاته بقليل — مخرجا من كآبته ، وقبل أن يجد أبطالا لا يقنعون بانصاف الحقائق ..

كانت التعاليم التولستوية منافية بالطبع ، لكيان « تشيكوف » نفسه .

وتصور قصة « رجل مجهول » (١٨٩٣) نمطا ارهابيا من النارودنيين ، والشخصية الرئيسية فى هذه القصة هى شخصية مرتد عن الدين ممن يعتنقون النظرية الشائعة عن « الحياة من أجل الحياة » (تلك النظرية التى ندد بها « تشيكوف » على سوفورين فى احتقار وازدراء) .

ولا ريب أن اليسر الذى انتقل به هذا المرتد من النشاط المتستر ومن احتراف الارهاب الى الحنين الى السلام و « الافراح العادية » ، وكذلك السهولة العجيبة التى تمت بها « سقطته » — كما يسمى هو نفسه التغيير الذى طرأ على قلبه .. لا ريب أن هذه السهولة ترجع الى التفاهة المطلقة ، وفراغ المذهب النارودى وافلاسه . أما سبب اليسر الذى تتم به تلك « السقطات » عند الاشخاص الذين يعتبرون أنفسهم تقدميين ، و « أفرادا وهبوا عقلا ناقدا » ، والذين كانوا بالامس فقط ، متقدمين ، زاخرين بالمثل العليا ثم انحدروا الى التقعر ، والى « الحياة من أجل الحياة » ، فقد كان لغزا أزعج « تشيكوف » دائما ، وحيره . وكانت هذه « السقطات » اليسيرة فى الواقع نموذجا على هؤلاء المثقفين الذين عاشوا فى العقدين الثامن والتاسع ، والذين اعتبروا أنفسهم أفرادا مثقفين ، أبطالا يقفون بمعزل عن الغوغاء ، أو

بعبارة اخرى هؤلاء الذين اعتقدوا أنهم يستطيعون انارة الحديقة الكبرى بالضوء المنبعث من نوافذهم ، ولم يكن قادرا على أن يضع أصبعه على سبب هذه « السقطات » اليسيرة ، ولكنه كان يشعر انها ترتد الى حد ما الى الذخيرة الايديولوجية السطحية الواهية البالية التى نزود بها معاصروه ، والى افتقارهم الى « المبدأ السائد » أيا كان ، وكذلك الى وضعهم كأفراد منعزلين .

و « الرجل المجهول » شخص كلفته منظمة ارهابية سرية باغتيال موظف كبير من موظفى القيصر ، وينجح فى أن يعينه ابن هذا الموظف خادما له فى منزله الذى يتردد عليه هذا الموظف الكبير فى بعض الاحيان . والابن - ويدعى جورجى ايفانتش أورلوف - يمثل نمط البيروقراطى الشاب فى حكومة بطرسبرج ، أما فلاديمير ايفانتش - الرجل المجهول - فان وظيفته كخادم تؤهله لمشاهدة المأساة التى تقع حوادثها فى بيت مخدومه .

ذلك أن « أورلوف » يعشق سيدة متزوجة فى ريق الشباب تدعى « زنيدا فيودوروفنا » .. ولكنها ليست بالنسبة اليه غير امرأة واحدة فى مغامراته الغرامية العديدة .. ويتخذ هذا الشاب من الحياة موقفا ساخرا يزداد سخرية يوما بعد يوم ، وهو يقابل الحب العظيم الصادق الذى تكنه له « زنيدا فيودوروفنا » بتلك السخرية نفسها . وربما كانت شخصية « زنيدا فيودوروفنا » من أكثر الشخصيات النسائية التى صورها « تشيكوف » سحرا ، وهى أشبه بشخصية « آنا كارنيا » فى رواية تولستوى الشهيرة ، لما تمتاز به من سحر انثوى ، وذهن وقاد ، وحيوية دافقة ، ورحابة فى اهتماماتها الروحية كما تشبهها أيضا فى طهارتها، بحبيبها ، وانفصالها عن زوجها ، وفى موقفها بعد أن أصبحت

امرأة لا حبيب لهــا ٠٠ فزنيــدا فيودوروونا تعتقد ان حبهــا « لاورلوف » عاطفة سامية ، وهى لا ترى حبيبها كما هو فى الواقع ، وانما تخلق منه مثلا أعلى، وتعتبره شخصا تقدمياً . وهى تقول له : « انت مثالى ٠٠ ولا ينبغى أن تخــدم الا مثلك العليا وحدها » . وهى مقتنعة بأن « أدرلوف » يبغض عمله ويحتقره ، وانه سيهجره يوما ما . والحب بالنسبة اليهــا خطوة حاسمة فى حياتها ، انه انفصال جرىء عن زوجهــا الانهازى ، واحتقار للرأى العام المشحون بانفاق واستمساك بالطهارة والصراحة والاخلاص. وهى تأخذ سخرية «أدرلوف» ــ التى ليست فى الواقع غير قناع يخفى به فراغ نفسه ــ على انها شىء فذ متسام . بيد أن « أدرلوف » لا يلبث أن يبغضها بسبب هذا الحب المثالى الرومانتيكى التورجنيفى كما يدعوه حينما يصف لندمائه هذه المصيبة التى حلت به ، ويزداد لها بغضا عندما تقيم « زنيدا فيودوروفنا » فى منزله بعد أن انتوت العيش معه جهارا أمام الناس بوصفها زوجته .

وفى الوقت نفسه نرى « الرجل المجهول » مستغرقا فى عواطفه الخاصة .. فقد حانت اللحظة التى طال انتظارها ، والتى من أجلها أصبح وصــيفا لادرولوف ، اذ يأتى والد « أدرولوف » السياسى المعروف الى الشقة فى الوقت الذى يكون فيه « أورلوف » قد غادرها .. ولم يكن « الرجــل المجهول » يأمل فى لحظة أشد ملاءمة له لتنفيذ خطته .. بيد أن الوقت كان جد متأخر ، اذ يقول الرجل المجهول عن نفسه : « لم أكن أستطيع أن أعتصر قطرة واحدة من الحقد فى قلبى ٠٠ وتذكرت كيف كنت منذ وقت قريب متحمسا عنيداً ، وعدوا لدودا .. بيد أنه من العسير على المرء أن يشعل عود ثقاب من صخرة هشة .. ذلك أن الوجه المتغضن المكتئب ، ولمعان النجـــوم البـــارد   أثارت فى نفسى أفكارا رخيصة تافهة .

سخيفة ، بالنسبة للاعور الدنيوية الباطلة ، وعن الموت الذى أوشك أن يحمل هذا الرجل العجوز ٠٠ »

واكتشف « الرجل المجهول » أن شيئا لم يبق فى نفسه من معتقداته ومشاعره السابقة ، بل لقد زايلته أيضا كل ضغينة على عدوه . ولم يعد ثمة مبرر لبقائه فى منزل « أورلوف » ، وخرجت معه « زنيدا فيودوروفنا » بعد أن تأكدت هى أيضا مما أخبرها به « فلاديمير ايفانتش » وهو أن أورلوف يخدعها فى خسة ونذالة ــ وكانت هى نفسها قد بدأت ترتاب فى هذا الامر ، وتبينت ما فى موقف « أورلوف » وأصدقائه ازاءها من حطة وقذارة .. هربت من هذا كله .. ولم يكن لها من معين فى وحدتها المطلقة غير « فلاديمير ايفانتش » ، وعندما أخذ يحدثها عن نفسه خيل اليها أنها عثرت على الخلاص ٠٠ فقد التقت أخيرا برجل ذى مبدأ ٠٠ ببطل حقيقى !

وفى هذه اللحظة أثبتت « زنيدا فيودوروفنا » انها امرأة ممتازة حقا ، فقد كانت تستطيع أن تتحمل أحزانها اذا وجدت طريقا ما « لخدمة الفكرة » التى طالما راودت احلامها ، فهى امرأة مثالية .. وليس عبثا أن تعقد المقارنة بينهما وبين « يلينا » فى قصة « العشيقة » ، وان تكن هذه المقارنة قد عقدها « أورلوف » وأصدقاؤه فى مجال مناقشاتهم الهازلة . ان كل ما فيها يدل على أنها قادرة على القيام بأعمال البطولة ٠٠ وهاهى ذى أخيرا تلتقى برجل « العمل » ٠٠ رجل يعنى المثل العليا ! انه يستطيع أن يرشدها الى الصراط المستقيم ، وان يحملها معه الى عالم الافكار السامية ٠٠ عالم الكفاح . وكانت تحلم بالكفاح على أنه أعلى سعادة ممكنة ، وعلى أنه المغزى الوحيد للحياة .. ولم تكن أحلامها مجرد تجريدات ، بل كانت تنشد عن وعى المشاركة فى الكفاح ضد الظروف التى خلقت أشخاصا مثل « أورلوف » ، ومثل زوج أبيها التى

استغلتها ذلك الاستغلال الشائن . وكان الحزن الذى كابدته ، والقصص التى رواها « فلاديمير ايفانتش » عن ماضيه الحاص ، والالفة التى عقدت أواصرها بينها وبين شخص بدا فى عينيها محاربا حقيقيا ، كل هذا قد أغناها من الناحية الروحية .. وعندما عاتبها « فلاديمير ايفانتش » لانهـا لم تسـتطع ان تستشف ما فى نفس « أورلوف » رغم انها سيدة ذكية صافية النفس ، أجابته على هذا العتاب فى لهجة يشـوبها الخجل والاضطراب فقالت : « أجل .. لم يكن من العسير على المرء أن ينفذ الى نفسه ! علم ذلك أبو الهول .. بكل تأكيد ! ان أبا هولك لم يكن أكثر من شاويش يدرب الجنود ! » ثم قالت فى انفعال عنيف :

« تعنى أنك تحتقرنى بسبب الماضى الذى كان لى .. وانت على حق فى ذلك .. لانك واحد من هؤلاء الناس الذين يعيشون بمعزل عن الجموع ولا يمكن أن تخضع لحكم المعايير العادية .. ومطالبك الاخلاقية تتميز بالقسوة غـير المألوفة .. وأنا أفهم أنك لا تستطيع الصـفح ، اننى أفهمك ، واذا كنت أناقضك احيانا ، فليس معنى ذلك اننى انظر الى الاشـياء بمنظار يختلف عن منظارك ... ولست أردد الخزعبـلات القديمة الا لان الوقت الذى أتيـح لا يكفى لكى أبلى ثيابى ومعتقداتى العتيقة .. أنا أيضا ابغض ماضى واحتقره ، كما أبغض أورلوف وحبى له .. الحب .. ان هـذا كله يبـدو لى مضحكا الآن ، وأردفت قائلة وهى تسعى الى النافذة وتطل على القناة : « ان هذا النوع من الحب يعتم الضمير ، ويضلل الانسان .. وليس للحياة غير مغزى واحد هو : الكفاح .. أن يحطم الانسـان رأس الافعى الخبيثة بقبضة و حـدة من يديه ، لتتناثر كالهباء ! هذا هو معنى الحياة .. وليس للحياة غير هذا المعنى ، والا لم يكن لها معنى على الاطلاق ..

« ولا معدى لى عن الشعور بأننى اصبحت أكثر حكمـة

فى الايام الاخيرة ، اذ تخطر على بالى أشد الافكار أصالة وبعدا عن المألوف .. وعندما أفكر فى الماضى ، وفى حياتى السابقة مثلا ــ أو فى الناس عامة .. فان هذه الاشياء جميعا تتجمع فى صورة واحدة هىزوج أبى .. انها امرأة فظة وقحة ، باردة الحس والشعور زائفة ، وضيعة ، وهى فضلا عن هذا كله مدمنة على تعاطى المورفين . وكان أبى ضــعيفا ، متخاذل الارادة ، ولم يتزوج من أمى الا من أجل مالها ، وقد أفضى بها الى الموت بمرض السل ، أما زوجته الثانيـــة ، زوج أبى .. فكان يحبها حبا مبرحا .. وما أقسى الاشياء التى كان على ان أتحملها ! أوه .. ما جدوى الكلام ! والآن .. أصــبح لكل شيء وجه واحد بالنسبة الى ، وانا الان ثائرة تمـــاما ــ لماذا ماتت زوج أبى ؟ اننى أود ان اقف ضدها الآن وجها لوجه ؟

« ولماذا ؟ »

« فاجابته ضاحكة وهى تثنىرأسها فىدلال :«أوه .. لست أدرى .. انك تتحسن .. وعندما تسترد صحتك .. سوف نرتب شئوننا . فقد حان الوقت ! »

وكانت تعنى بقولها : « أن نرتب أمورنا » أن تكرس نفسها لقضية الثورة ، وأن تتعرف بالمناضــــلين من اجل الحرية ، الذين يجاهدون كل ما يتمثل فى ذهن « زنيدا فيودوروفنا » على صورة زوج أبيها ، وضد الابتذال ، والشر ، والقسوة ، والاكاذيب ، والزيف ، والانحطاط .. لقد كانت الحياة زوجة أب .. زوجة اب قاسية بالنسبة للانسانية .

كانت « زنيدا فيودورفنا ، تأنس فى نفسها القــدرة على الكفاح الحقيقى الجدى مع الحياة ، مع زوجة الاب ، وكانت تلتذ بمتع الجهاد سلفا .. اذ كانت فى حالة معنوية عالية من الحماس ، قريبة من البطولة .. والمزاج السامى لبطلة ملحمة تورجنيف النثرية : « عتبــة الباب » .. وبدا « فلاديمير ايفانتش » أستاذا فى عينيها ، « رجل أفعـــال ، يعتنق مثلا

عليا سامية . ولم يخطر على بالها أنه أصبح رجلا عاديا ، يتحرق ظمأ الى السلام « والسعادة الشخصية » ؛ ذلك أن « فلاديمير ايفانتش » قد خضع لدافع دنيء : « لم أصارحها بكلمة واحدة عن التغيير الذى طرأ على نفسى » لقد أخفى عنها هذا التغيير ، وهو الان لا يبغى سوى شيء واحد .. هو أن تحبه « زنيدا فيودوروفنا » — فما أحقر هذا الحب الذى ينشده اذا قورن بتعطش هذه المرأة لاكتشاف معنى سام للحياة ، وبالآمال التى علقتها على « فلاديمير ايفانتش » ! بيد انه من المستحيل أن يخفى المرء طويلا الخواء الذى أصاب نفسه . وأتت اللحظة التى خمنت فيها « زنيدا فيودوروفنا » التحول الذى حدث لـ « فلاديمير ايفانتش » ، وعندما واجهته بهذا السؤال المباشر : « ماذا يجب أن تفعل ؟ » أجابها تلك الاجابة نفسها التى رد بها بطل « حكاية مملة » عندما قال : « كاتيا .. يا روحى .. لست أدرى .. دعينا نتناول افطارنا .. يا كاتيا .. » .

وناشدت « زنيدا فيودوروفنا » أستاذها ومنقذها بكل ما كان يعتمل فى نفس كاتيا من ألم ويأس ، سألت : « دعنى أوجه اليك سؤالا مباشرا .. ماذا ينبغى على أن أفعل ؟ » .

فأجابها وهو يهز كتفيه : « ماذا ينبغى أن تفعلى ؟ .. ان الانسان لا يستطيع أن يجيب فورا على سؤال كهذا ! » .

ان الاستاذ العجوز فى « حكاية مملة » اعترف على الاقل فى شجاعة أسيفة بافلاسه الروحى .. أما « فلاديمير ايفانتش » فقد أخذ يغمغم ويتمتم ويتفوه بعبارات مبتذلة . .

قالت وهى تتناول يديه بين راحتيها : « فلاديمير ايفانتش لقد مررت بكثير من التجارب ، وعانيت من المشاعر أكثر مما عانيت أنا .. كما انك تعرف أكثر مما أعرف ، فامعن الفكر

وخبرني : ماذا يجب أن أفعل ؟ علمني .. واذا لم تكن قادرا على التقدم وقيادة غيرك ، فاخبرني على الاقل ، أين أذهب ، فأنا قبل كل شيء ، كائن حي شاعر عاقل .. كما تعلم ..

« ليست النافذة هي المصدر الوحيد للضوء .. فهناك آخرون غيري .. أي زنيدا فيودورفنا . فقالت متلهفة :

« اذن .. دلني عليهم ، هذا ما أطلبه منك .

فواصلت حديثي قائلا : « وثمة شيء آخر .. هناك أكثر من طريق واحدلكي يخدم الانسان مثله العليا .. فاذا انحرف الانسان عن الصواب ، وفقد ايمانه باتجاه ما ، فانه يستطيع أن يتطلع الى اتجاه آخر .. فان عالم المثل العليا واسع لا حدود له .

ورددت قولي وهي ترمقني بنظرة ساخرة : « عالم المثل العليا !! .. حسن لا فائدة من المضي في الجدل « ما نفع ذلك ؟ ..

« وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل .

« ورددت مرة أخرى : عالم المثل العليا ! وانبعثت من عينيها نظرة اشمئزاز وتقزز ، ثم قالت : ان مثلك العليا العجيبة قد توقفت عند خطوة واحدة محتومة وأساسية — وهي أن أصبح عشيقتك .. هذا هو المطلوب ، فاذا وضعت المرأة مثلها العليا نصب عينيها ورفضت أن تصبح عشيقة فرد مثالي محترم ، كان معنى ذلك أنها لا تفهم المثل العليا .. أجل يجب أن نبدأ من هنا .. أن أصبح عشيقتك أولا ، ويأتي الباقي بعد ذلك .

« لماذا لم تحدثني عن المثل العليا التي جعلتك تجرني من بطرسبرغ ، حتى أكون على بينة من أمري .. اذن لكنت قد تجرعت السم عندما أشاء ، وتجنبت هذه المهزلة التعسة .. أواه .. ما فائدة الكلام ؟ ورفعت يدها في حركة يائسة .

ثم قالت وهى تضرب المائدة براحتها : « لقد ذممت أورلوف ، ولكنك فى قرارة نفسك لا تختلف عنه فى شىء .. لم يكن عبثا اذن أحتقاره لكل هذه النظريات ..

فصرخت قائلا : « انه لم يكن يحتقرها ، وانما كان يخشاها .. انه كذاب وجبان ! »

« حسن جدا .. انه جبان وكذاب .. وقد خدعنى ــ فماذا تكون أنت ؟ اغفر لى صراحتى .. ماذا تكون أنت ؟ انه خدعنى وتركنى لمصيرى فى بطرسبرج وأنت أيضاً .. قد خدعتنى وتركتنى هنا .. ولكنه على الاقل لم يمزج خداعه بالمثل العليا .. أما أنت ..

فهتفت مفزعا وانا أضرب كفا بكف : « بحق السماء ، ماذا تقولين ؟ » وخطوت نحوها مسرعا : « لماذا يا زنيدا فيودوروفنا ؟ هذه سخرية مطلقة وينبغى ألا تستسلمى لليأس .. اصغى الى .. وشرع يتحدث كما يتحدث أصحاب الرسالات عن « الانسان لاخيه الانسان خالياً من الانانية ، ولكنه يشعر هو نفسه بتفاهة ألفاظه وسخافتها : « وشاعت فى صوتى فجأة رنة من الزيف ، فخجلت من نفسى . »

« وهتفت بشعور صادق : أريد أن أعيش »

فقد تحول اذن من التفاهة الزائفة الى التفاهة المخلصة ، بيد أن التفاهة هى دائما تفاهة .. انها دائماً تلك التفاهة الخانقة الميتة المخلصة لنفسها فى جميع أشكالها التى عذبت « زنيدا فيودوروفنا » طوال حياتها حتى أودت بها فى النهاية الى القبر . فقد انتحرت بالسم ، ولم يكن انتحارها الا مسألة وقت فحسب .. ولم تتجرع السم بعد خديعة « أورلوف » لها ، بل بعد أن خدعها « فلاديمير ايفانتش » . وتظهر قسوة الكاتب فى الحكم الذى أصدره ضمناً فى قصته ، فى أن وضع « تشيكوف » كلا الرجلين فى مستوى واحد .. واذا كان ثمة

فارق بينهما فهو أن « أورلوف » أفضـــل من « فلاديمـير ايفانتش » ذلك أن الاخير كان يخفي خواء نفســـه بالحديث البليغ عن عالم المثل العليا السامى ، وكان هو المسئول الاول عن سقوط « زنيدا فيودوروفنا » الروحى ، وهو الذى حطم ثقتها بعالم المثل العليا . فاية جريمة يمكن أن تكون أفظع من جريمته ؟ ولم يخرج الامر بين الرجلين عن أنهما قتلا امرأة شابة طاهرة ، كان كل خطئها أنها أحبت ، وارادت أن تحيـا حياة روحية نقية . فأى شيء أبعث على الاسى ؟ . .

وطالما تحدث النقاد السابقون عن « رقة » تشـيكوف . والواقع أن المثقفين المترهلين المفلسين روحيا الذين يعتنقون مبادى الاحرار يودون من صميم قلوبهم أن يمجدوا تشيكوف على انه واحد منهم ، وأن يروا فيه مربية عجوز حنونا بتـدلي منظارها بدوبارة حول عنقه وأن يسقى الاستاذ «سربرياكوف» الشاى — العشبى — بالملعقة . ذلك الشاى العشبى الذى شبه به « فيلوسوفوفا » أحد ممثلى عصبة الاحـرار المبتذلين أعمال تشيكوف . وليس من شك أن أسلوب « تشيكوف » أسلوب هادىء وديع ، محايد ، يسرى فيه التأمل . . ولكن . . أليست كل لفظة مريرة عادلة من الالفاظ التى قذفتها « زنيدا فيودوروفنا » فى وجه « فلاديمير ايفانتش » بمثابة لطمة من اللطمات ؟

وقد يبدو الا مبرر هناك للحديث عن السخرية فى قصـة « رجل مجهول » غير أننا نسـتطيع أن نتلمس سـخرية « تشيكوف » بين ثنايا السطور . فهذا الطابع الباكى الذى تمتزج فيه الملهاة بالمأساة فى العلاقات الانسانية ، وتلك القطيعة بين الواقع والمثل الاعلى ، والتشبيهات غير المتوقعة ، واعتبار الاشياء المنافية لبعضها للبعض الاخر شيئا واحـدا كان يكون « أورلوف » و « الرجل المجهول » شريكين فى اقتراف جريمة واحدة ضد الاخلاق ، هذه الملهاة الانسانية المبكيـة هى التى

تجتذب « تشـيكوف » .. وكثيرا ما يكون التنـاقض بين الإقوال والاعمال ، بين المثال والحقيقة ، بين القصـورات التى يبتدعها الناس وبين الواقع ، كثيرا ما يكون هـذا التناقض مصدرا لسخرية « تشيكوف » .. وليس نادرا أن نجـد النغمة الاساسيه الساخرة ممتزجة عنده بابتسامة باكية .

وتقول « زنيـدا فيودوروفنا » لـ « أورلوف » : « أنت مثالى ، وينبغى عليك ألا تخدم غير مثلك العليا »

وتقول لـ « فلاديمير ايفانتش » : « أنت واحد من هؤلاء الناس الذين يقفون بمعزل عن الغوغاء ، ولا يمكن أن يخضع لحكم المعايير المألوفة ، وان مطالبك الاخلاقية لتتميز بقسوة غير عادية . »

ونستطيع أن نتعقب عرق السخرية فى الاختلاف البـارز بين تصور « زنيـدا فيودوروفنا » للناس ، وبين الطبيعـة الاساسية لهؤلاء الناس . غير أن ثمة سخرية مضحكة أعمق من ذلك كثيرا فى أن هذا التصور ينطبـق على « أورلوف » و « فلاديمير ايفانتش » فى وقت واحد رغم تناقضهما الظاهر على السطح . ولو أن الحماس لـكل من الرجلين قد أبدته سيدة طائشة « لمعبوديها » ، لبقيت السـخرية المضـحكة سخرية مضحكة ولا شىء أكثر من ذلك ، بيد أن هذا الحماس صادر عن امرأة ذكية ذات طبيعة عميقة .. امرأة تبحث عن حياة روحية خالصة ، ولعل تشـابه الرجلين ووقوعها فى الغلطة نفسها بصورة جديدة غير متوقعة ، ولعل فى هذا كله ما يدخل فى الموضوع عنصرا مفجعا .. وهكذا تمتزج سخرية المأساة بسخرية الملهاة فى صعيد واحد .

وذلك التشابه الضمنى بين الرجلين يجعل الحكم عليهمـا قاسيا لاذعا فاجعا الى أبعد حد ، انه حكم ينطبق على جميع « المفكرين » الذين يشبهون « فلاديمير ايفانتش » القائل عن نفسه : « أن ما أنشده هو أن ألعب دورا خفيا مستقلا ساميا

.. وأن اصنع التاريخ . » ولكنه تتحول ساعة الامتحان الى مجرد « جعجاع » لا طائل وراءه .. مثل هؤلاء الناس يريدون « أن يصنعوا التاريخ » غير أن التاريخ لا يصـــنعه أفراد متوحدون .

وبعد أن ينطـق « فلاديمير ايفانتش » بهذه العبـــارة : « ليست النافذة هي المصدر الوحيد للضـوء .. بل هناك كثيرون غيرى » تتوســـل اليه « زنيدا فيودوروفنا ». وقد عاودها الامل من جديد أن يدلها على هؤلاء الناس ، وأن يعرفها بهم ، غـير أن « فلاديمير ايفانتش » يعرض فى صـمت عن توسلها الاخير اليه ، ويغير مجرى الحديث .. ذلك أنه لم يكن يعرف أحدا يمكن أن يدلها عليه ، وكل من كان يعرفهم ليسوا أفضل منه ..

ويتضمن العرض الذى قدمه « باتيوشكوف » « لقصـــة رجل مجهول » نقدا جديرا بالاهتمام ، اذ يقول :

« أن المأساة التى تتمخض عن موقف « أورلوف » (يخطىء الناقد هنا لانه يقصد فلاديمير ايفانتش ــ المؤلف) هى أنه يشك فى جدوى الفعل الذى يريد الاقدام عليه (فعل الارهاب ــ المؤلف) عندما تتكشف له هوة تفاهة الانسانية ، ويدرك أن له غريما جديدا أفظع وأضخم ، هذا العدو الذى يناصره النظام القائم للاشياء .. ويعلم أن المطلوب ليس عملا ارهابيـــا مفردا ، وانما احتجاج جماعى ، وموقف موحـــد من الشر المشترك .. ».

وقد أخطأ « باتيوشكوف » عندما رد هذه النتائج المتضمنة فى قصة « رجل مجهـول » الى بطل القصـــة الذى تخلى عن الصراع ولم يكن مهتما أقل اهتمام بذلك « الموقف الموحد ضد الشر المشترك » . ولو أنه كان متمسكا بعقائده ، لما خرجت « زنيدا فيودوروفنا » من حياته على الاطلاق . بيد أن تلك الحقيقة التى جعلت من الممكن لمثقف عادى مثل «باتيوشكوف» أبعد ما يكون عن الماركسية أن يتحدث عن « الضربة القادمة ».

وعن « الاعمال المفـردة » التى لاغناء فيهـا ، وعن ضرورة الاحتجاج الجماعى ، والموقف الموحد ضد الشرالمشترك ، هذه الحقيقة التى جعلت تفسير أعمال « تشيكوف » أمرا ممكنا على هذا النحو ، هي فى الواقع سمة من سمات ذلك العصر ، لقد بدأت الجماهير تخطو الى حلبة العمل التاريخى الواعى ، وبدأت تصنع التاريخ صنعا واعيا ، وكان الناس جميعا الذين لم يسدوا آذانهم بنتف من القطن ـ كما كان يفعل « الرجـل فى القوقعة» ـ يسمعون وقع خطوات الجماهير، ويستطيعون أن يدركوا أن شيئا جديدا أخذ يزحف على الحياة .

وفى قصة «الراهب الاسود» (١٨٩٤) وصف «تشيكوف» فى دقة بالغة مرض جنون العظمة الذى أصاب عالما بسيطا بعد أن أرهق أعصابه بكثرة العمل . وعندما سئل « تشيكوف » لماذا كتب هذه القصة . قال فى بساطة مشيرا الى الخطوط الرئيسية فى القصـة انه قد « عن له » أن يصف حالة من حالات جنون العظمة . بيد أننا نجد فى هذه القصة فضلا عن الملاحظات الدقيقة للمرض العقلى ـ تيارا شاعريا ساريا فى الاعماق .

لم يعد « كوفرين » الحاصل على دكتـوراه الفلسفة يعيش فى الحاضر ، بل فى الرؤى والاحلام ، وكان فريسـة لحالات الهلوسة ، اذ خيل اليه ان شـبحا يزوره بين حين وآخـر ، وهذا الشبح يتخذ هيئة راهب أسود له ملامح تختلط فيها الطيبة بالمكر .. وهذا الراهب الاسـود متملق خبيث . ولو اننا اصغينا الى كلماته لرأينا أن « كوفرين » لم يكن وحـده الذى وقع فى حبائل هذا الروح .. ولكن بماذا كان يهمس اليه ذلك الراهب الاسود الذى سمى نفسه « انتاج خيـال كوفرين المحموم » ، وذلك الراهب الاسود الذى لم يتظاهر مطلقا بأنه اكثر من شبح ؟ ومن الحق أنه كان يستغل أساليب السفسطة التى برع فيها دكتور الفلسفة فيقول مثلا : « أنا

أوجد فى خيالك ، ولكن خيالك نفسه جزء من الطبيعة ، فأنا اذن أوجد فى الطبيعة . » وهكذا كان « كوفرين » يصدق حقيقة وهمه ويكذبها فى آن واحد .

ويقول الراهب الاسود : « أنت واحد من القلائل الذين يحق لهم أن يعتبروا أنفسهم ممن اصطفاهم الله .. وأنت تخدم الحقيقة الابدية .. بيد أن الانسانية كلها بالنسبة لمن هم على شاكلتك ممن يخدمون قضية الحقيقة ويعيشون فى وعى كامل وحرية مطلقة — لا تعد شيئا مذكورا . وربما تطورت هذه الانسانية وفقا لقوانين الطبيعة ، وانتظرت فى سلبية اللحظة التى تحين فيها نهاية التاريخ الارضى .. أما أنت .. فتقودها آلاف السنين مقدما الى ملكوت الحقيقة الابدية ، وفى هذا العمل تقوم خدماتك السامية . »

وتستبد الحيرة « بكوفرين » عندما يخطر له أن « الراهب الاسود » ما هو الا اختلاق من وحى خياله .

« وهل معنى ذلك أننى مريض مختل من الناحية العقلية ؟

« وماذا فى ذلك ؟ ولماذا تدع هذا الامر يزعجك ؟ انك مريض لانك أنهكت قواك ، وأرهقت نفسك ، ولكن هذا معناه أنك قد ضحيت بصحتك على مذبح الفكرة .. ولن يلبث أن يحين الوقت الذى تقدم فيه حياتك نفسها فى سبيل الفكرة .. وهذا ما تطمح اليه جميع الطبائع النبيلة الموهوبة ؟

« ولو كنت مجنونا ، فكيف أستطيع أن أصدق حواسى ؟

« ولكن من أدراك ان جميع العباقرة الذين يؤمن بهم العالم لا تلوح لهم الرؤى هم أيضا ؟ والعلماء يقولون الآن ان العبقرية وثيقة الصلة بالجنون ، والافراد العاديون ، مجرد الاعضاء فى القطيع ، هم الذين يتمتعون بالصحة والسوية يا صديقى .. أما تلك الافكار عن الارهاق ، والاضمحلال ، وتوتر الاعصاب وما شاكل ذلك ، فلا يمكن أن تزعج الا هؤلاء الذين لا يتجاوز هدفهم فى الحياة الحاضر الذى نعيش فيه ، أعنى هؤلاء الذين يتألف منهم القطيع ..

« ويقول الرومان القدماء : العقل السليم في الجسم السليم»

« ولكن ليس كل ما يقوله الرومان واليونان حقا .. ذلك ان النشوة والسورة والحماس ، وكل ما يميز الانبياء والشعراء والشهداء الذين قضوا فى سبيل مثلهم العليا ، كل ما يميز هؤلاء عن الاشخاص العاديين ، تنفر منه الغريزة الجسدية فى الانسان ، أعنى ذلك الجزء فيه الذى يهتم بسعادته المادية . واكرر لك : انك اذا أردت أن تكون صحيحا سويا ، فانضم الى القطيع .

« ويقول كوفرين : من الغريب أن تردد صدى الافكار التى تتوارد على خاطري فى اغلب الاحايين ، ويبدو أنك تشاهد ما يدور في ذهنى ، وتستمع الى اكثر أفكارى استسرارا ..

« وعاد الى المنزل منتشيا وفى روح معنوية عالية . وكانت الكلمات القلائل التى حدثه بها الراهب الاسود قد تملقت غروره .. بل روحه كلها ، ووجوده كله .. فان يكون من الصفوة المختارة ، وان يخدم الحقيقة الابدية ، وان ينتمى الى طبقة الافراد الذين يجعلون الانسانية جديرة بملكوت الله ، وتتقدم فى هذا السبيل آلاف السنين قبل الموعد المحدد، أو بعبارة أخرى أن يوفر على الطبيعة الانسانية آلاف الاعوام من الجهاد والخطيئة والعذاب ، وأن يضحى بشبابه وقوته وصحته ، وأن يكون متأهبا للموت من أجل الخير العام .. فيا لحظه السعيد الرائع ! وطفق يستعرض ماضيه ، فتذكر ما تعلمه ، وما علمه للآخرين ، وانتهى الى هذه النتيجة وهى أن الراهب الاسود لم يبالغ مطلقا فيما قال .. »

وعزز الاشخاص المحيطون ب « كوفرين » اعتقاده برسالته .. وعندما يخطب ود «تانيا» فتقول له : « اننا أناس تافهون، أما أنت فرجل عظيم . » وتعامل « تانيا » (وهى شديدة الشبه ب « سونيا » فى مسرحية « العم فانيا ») وكذلك أبوها

ـ وهو خبير فى زراعة الحدائق ، وقد زرع حديقة عجيبة نادرة ـ كان كل منهما يعامل « كوفرين » بحسبانه من أهل الصفوة المختارة . وكانا يخاطبانه بتلك اللهجة نفسها التى اصطنعتها « زنيدا فيودوروفنا » فى مخاطبة « فلايمير ايفانتش » (فى قصة « رجل مجهول ») عندما تقول : « انك واحد من هؤلاء الناس الذين يقفون بمعزل عن الجموع ، ولا يمكن أن تخضع لحكم المعايير المألوفة .. » ، كان الاب وابنته يقدسان « كوفرين » دكتور الفلسفة كما كانت « سونيا » و « العم فانيا » يقدسان ذلك الشخص الآخر المختار : « البروفسور سربرياكوف » وكما حطمت سونيا والعم فانيا حياتهما فى سبيل معبودهما ، فكذلك فعل الاب وابنته .

أقبل هذا الراهب الاسود من مكان ما فى سوريا أو بلاد العرب منذ آلاف السنين ، ولا بد للمرء أن يصغى بعناية الى كلماته لكى يدرك أنه يردد فى تفخيم ووقار ـ جميع الافكار التى تفشت بين المثقفين فى ذلك الحين ، والتى انتشرت انتشارا واسعا فى العقد الثامن بل التاسع أيضا ـ وهنا نلمح فكرة : « الانسان الاعلى والدهماء » وفكرة : « الرجل المختار والغوغاء » و « واستشهاد الرجل المختار » . ونلمح ايضا تصور المثقفين لانفسهم على أنهم طبقة خاصة « تخدم المبادىء العليا » وأن منهم الانبياء والحكماء والشعراء الذين اصطفاهم الله ـ كما اصطفى السيد المسيح ـ ليرشدوا قطيع الانسانية الى « ملكوت الحقيقة الابدية » ، وهنا أيضا نلمح تلك الفكرة الشائعة وقتئذ عن القرابة بين الجنون والعبقرية . وهلم جرا .. فلا عجب أن يظن « كوفرين » ان الراهب الاسود قد راى ما يدور فى عقله ، وسمع أشد افكاره استسرارا ، ولا عجب أيضا أن تتملق كلمات الراهب اعماق روحه ، وكيانه كله . والحقيقة أن « الراهب الاسود » كان يقرأ ما يدور فى نفوس المثقفين من الدرجة الثانية ، ويستمع الى أفكارهم الخفية ،

و « المثقفون من الدرجة الثانية » هو الاسم الذى أطلقه « جوركى » فيما بعد على « كليم ايفانوفتش سامجين » أحد أبطال قصصه .

كل ما يجرى على لسان الراهب الاسود عبارة عن خليط من الافكار والتصورات الشائعة فى ذلك العصر ، هذه الافكار والتصورات التى كانت سمة مشتركة بين المثقفين من طراز « كوفرين » الذين يعدون أنفسهم من « الصفوة المختارة » ، وقد اصطفاهم الله ليسعدوا « القطيع » بما أتيح لهم من حكمة الهية . فلا غرابة أن أعادت كلمات « الراهب الاسود » الى ذهن « كوفرين » كل ما تعلمه ، وما لقنه للآخرين ، وكل ما سطر فى الكتب والكتيبات ، والمقالات فى ذلك العصر ، وكل ما يصدر عن رجال العلم .

وتفضى تلك النشوة والسورة الشاذة التى يعيش فيها « كوفرين » المجنون الى خاتمة مفجعة مؤلمة . ويا لها من فكاهة كئيبة حادة ، تلك التى تنبعث من التقابل القائم بين حالة الالهام الزائف والنشوة التى تمجد حياته فى فترة آمن فيها بعظمته ، وبين الوجود « المنثور » لانسان عادى تماما ! انها ذروة مضادة للذروة التى بلغها فى أوج نشوته ! كان لا بد لـ « كوفرين » الآن من أن يحطم رسالته ويمزقها . وكذلك جميع المقالات التى كتبها فى فترة الالهام الزائف الاليم .. اذ « يستطيع أن يقرأ فى كل سطر كتبه مزاعم عجيبة لا أساس لها من الصحة ، وتحديا خطرا وقحا ، وجنونا بالعظمة ، وكأنه يقرأ قائمة بخطاياه . »

والحق أن هذه القصة « قائمة بالخطايا » فعلا ، وتشخيص لا لحالة « كوفرين » فحسب ، بل للشطر الاكبر من المثقفين فى ذلك العهد .

وفى خلال الفترة التى خضع فيها « كوفرين » لتلك السورة الجامحة وعندما كانت تطارده فكرة أنه ضحية للهلوسة ، وانه

شخص عليل ، كان يعزى نفسه قائلا : « ولكن هذه الحالة تجعلنى سعيدا ، رغم كل شيء ، كما اننى لا أسبب ضررا لانسان .. ومن ثم لا ضرر البتة من هذيانى .. » بيد أن الانسحاب من الواقع لا يمكن أن يخلو من ضرر ، ولا يمكن أن ينغمس فيه المرء دون أن يلحقه أذى . ف « كوفرين » اقترف شرا عظيما ، وتسبب فى أضرار بالغة الخطورة ، اذ حطم حياة شخصين طيبين شريفين .. شخصين كانا يعيشان حياة خلاقة — فى الواقع لا فى الاحلام — شخصين متواضعين محترمين يحبان الرسالة التى يؤديانها أكثر من حبهما لنفسيهما ، كما عبر عن ذلك والد « تانيا » ، هذا العاشق القديم للحدائق .. ولم يكن جنون «كوفرين» غير حالة مفرطة من « التركيز حول الذات» . وكان سببا فى مرض الرجل العجوز الذى يحبه ووفاته فيما بعد ، وكذلك تسبب فى موت « تانيا » .. لقد دمر حياة الشخصين الوحيدين فى العالم كله اللذين كانا يحبانه كأنه فرد فى أسرتهما ، وحطم حديقة بديعة .. وبالاختصار حطم الحب والصداقة وما فى الحياة من جمال .. ولهذا نجد فى القصة دلالة شاعرية عميقة .. ان جمال الاحلام الزائف الذى يبعد المرء عن الواقع ليس خاليا من الأذى ، كما أعتقد « كوفرين » ، ولكنه جمال اجرامى شائن ، لانه يقتل الجمال الحقيقى .. جمال الحياة ، وهو جمال حقيقى وليس شبه — حقيقى — ويموت « كوفرين » نفسه .. وفى أثناء احتضاره ينادى على « تانيا » التى أضاعها وعلى جمال الحياة الذى ذهب بذهابها .

« كان ينادى على « تانيا » ، وعلى الحديقة الرحبة بزهورها النادرة التى بللها الندى ، وعلى أشجار الصنوبر بجذورها الشعث ، وعلى حقول الحنطة ، وعلى العلم الذى أحبه ، وعلى شبابه وشجاعته ، ومرحه ، وعلى الحياة التى كانت طيبة . » .

ويعاوده جنونه ، ويعتقد مرة أخرى أنه المصطفى الذى خصه الله برسالته . ولما أوشك على الموت أهاب بحلمه وهو لا يدرى أن هذا الحلم هو الذى حطم كل شيء .. حطم تانيا ، والحديقة البديعة ذات الزهور التى بللها الندى ، والشباب الضائع ، والمرح والحياة .. الحياة المجيدة .. انه يهيب بكل ما قتله هو نفسه .

فلماذا جعل « تشيكوف » « كوفرين » يعود الى حالته المأفونة وهو على فراش الموت ، وجعله يستعيد مع علته الشعور بالسعادة ؟

« وكان كوفرين يرى بركة كبيرة من الدماء على الارض على مقربة من وجهه ولكنه كان من الضعف بدرجة لا يستطيع معها أن ينبس بكلمة واحدة ، ومع ذلك أفعم كيانه كله بالفرح .. وتحت شرفته كانت تعزف « سيريناد » ، وهمس « الراهب الاسود » فى اذنه بأنه كان عبقريا ، وانه يموت لان جسده الانسانى الضعيف قد فقد توازنه ، ولم يعد فى امكانه أن يظل وعاء لعبقريته ..

« وعندما استيقظت فارفارا نيكولانفيا ، وتسللت وراء الستار ، كان « كوفرين » قد قضى نحبه ، وعلت شفتيه الباردتين ابتسامة هانئة . »

ألا تعنى مثل هذه الخاتمة أن الكاتب نفسه لم يكن يدرى أيهما أفضل : حياة من الاحلام الجميلة الزائفة ، أو حياة واقعية رتيبة عادية مبتذلة تخلو من « الالهام والالوهية تلك الحياة التى بدأت بالنسبة الى « كوفرين » عندما شرع يتعاطى اللبن والبروميد ؟ ومع ذلك فليس « تشيكوف » هو الذى يثير هذه المشكلة ، وانما يثيرها « كوفرين » ويحلها فى صالح الاحلام الزائفة ، واذا كنا نرى من ناحية أن الحياة .. الحياة الواقعية ، الحياة كما هى بكل ما فيها من أحزان وآلام موجودة بالنسبة لتشيكوف ، وكذلك الحديقة ذات الازهار

الجميلة ، والحياة نفسها التى يمكن أن تصبح مثل هذه الحديقة ـ موجودة أيضا ـ فهناك من ناحية أخرى تلك الاحلام التى تنأى بالمرء عن الحياة الواقعية ، وبالتالى لا يمكن الا أن تحطم الجمال والحياة ، والسعادة التى استمتع بها « كوفرين » على فراش الموت ، والابتسامة الهانئة التى نجمدت فوق ملامحه الميتة تنتمى الى المرض والموت لا الى الحياة .

وثمة عمل آخر «لتشيكوف» هو الطائر البحرى (النورس) نجد فيه أن تصور احدى الشخصيات الرئيسية التى تبعدها الاحلام عن الحياة ، نجد أن هذا التصور مشبع بفكرة الموت ، اذ يناجى « قسطنطين تريبليف » نفسه قائلا : « يجب أن تظهر الحياة لا كما هى فى الواقع ، ولا كما ينبغى ان تكون ، ولكن كما تبدو فى الاحلام » ولهذا انسحب « تريبليف » الى عالم الاحلام بعيدا عن الحياة الواقعة . وكان ذلك سببا فى تحطيمه .. فالحياة تثأر لنفسها ونحن نجد أن أحلام كل من « كوفرين » و « تريبليف » وكلمات « الراهب الاسود » تتضمن أصداء واضحة لتلك النظريات الانحلالية التى تناولها « تشيكوف » بلاذع سخريته .. وما وفاة « كوفرين » و « وتريبليف » الا وفاة للامانى الزائفة .

وفى « الراهب الاسود » نرى أن « تشيكوف الطبيب » قد امتزج امتزاجا شاملا بتشيكوف الفنان ، والقصة كلها تنعى المرض ، وتؤكد جمال الحياة البسيط الصادق ، والصحة سواء الجسمية أو الاخلاقية أو العقلية أو الروحية .. انها تبرز القبح وما يسببه المرض من تشويه وانحراف فى نفسية المريض حتى ليخيل الى المريض أن مرضه ذاك علامة من علامات السمو والامتياز ، وسمة من سمات الجمال الزائف الذى يمجده فن الانحلال العليل .

وهكذا يقتفى « تشيكوف » تقاليد الواقعية فى الادب

الروسى ويطورها ، تلك التقاليد التى تتنافى تماما مع الاغراق فى الاحلام المريضة المزيفة .. فالواقعية تعنى الاخلاص للحياة وواقعية « تشيكوف » تضمر العداء للافكار الزائفة التى تنأى بالمرء عن الحياة ، وذلك لان « تشيكوف » كان مقتنعا بأن فكرة « المسيحية المخلصة » على يد الصفوة المختارة فكرة غير طبيعية مشوبة بالادعاء ، وكان مقتنعا بأن روسيا لا تحتاج الى الانبياء بقدر ما تحتاج الى « رجال العمل » الذين يدرسون الواقع كما هو فى أمانة واصرار، باحثين مع الانسانية كلها عن طريق لتغيير الواقع لكى يصبح ما « يجب » أن يكون .. أما فى نظريات الصفوة المختارة ، والافراد « المتازين » الذين يقفون بمعزل عن القطيع ، فقد كان «تشيكوف» لا يرى فيها — وهو يبتسم ابتسامته المتأملة الباكية — غير جنون العظمة .

ويتحدى « تشيكوف » قراءه من المثقفين الروس أن يجاهدوا فى سبيل اصلاح الاحوال الحاضرة ، وألا يقنعوا بها، وأن يبحثوا فى عزم عما هو جديد — دون محاباة لانفسهم — وأن يقدروا فى اعتدال طبيعة جهودهم المحدودة الناقصة ، وألا يخدعوا أنفسهم بالاحلام الزائفة ، ومن بينها ما يحلمون به من أنهم الصفوة المختارة ، وألا يستسلموا عندما يصيبهم الفشل ، وألا يتقاعسوا فى الطريق ويذعنون للارهاق ، وألا ينصرفوا مطلقا عن البحث ، ويتراجعون الى ما هو مبتذل . وقد كان وضعه كشاعر للرجل البسيط ، والجماهير العادية ، وطبقات الشعب ، من العوامل التى حددت موقفه الساخر من هؤلاء الذين يرفعون أنفسهم فوق الناس « العاديين » .. وكان يبدو له أن الامر كله محوط بالوقاحة والادعاء .

أما الميل الى التقاعس فى منتصف الطريق ، والخضوع للارهاق ، والرجوع الى السبل المبتذلة للحياة ، والافتقار الى الصلابة وقوة المراس ، فهذه كلها خصائص يؤكدها تشيكوف

كسمات للانماط المتعددة من الزعماء الذين آمن بهم المثقفون في ذلك العهد .

يتساءل الرجل المجهول في رسالة بعث بها الى «أورلوف» :
« لماذا نتعب بهذه السهولة ؟ ولماذا نكون في بداية أمرنا متلهفين جسورين ، كرماء ، ممتلئين بالايمان ، فاذا بلغنا الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من أعمارنا أصابنا الافلاس الروحي ؟ ولماذا يموت أحدنا بالسل ، ويطلق آخر رصاصة على رأسه ، ويبحث ثالث عن النسيان في القمار وكئوس الفودكا ، هذا بينما يطأ آخر بقدميه في استهتار بالغ صورة شبابه الجميل الطاهر .. كل هذا لكي يغرق مخاوفه وتعاساته ؟ لماذا لا نحاول ـ عندما نسقط مرة ـ أن ننهض مرة أخرى ، وعندما نفقد شيئا أن نبحث عن شيء آخر ؟ لماذا ؟ .. »

ان « الرجل المجهول » لا يعرف كيف يفسر السهولة التي يسقط بها فئة معينة من الابطال ، ولكنه يعتقد أنه يستطيع تفسير سقوطه هو .

« ليس من العسير أن إفسر لماذا تخاذلت وسقطت قبل الاوان .. لقد كنت أشبه بشمشون الذى حمل أبواب مدينة « غزة » فوق كتفيه حتى قمة الجبل ، ولم أدرك أن هذه الابواب أثقل من أن تحملها كتفى الا بعد ان ارهقنى التعب ، وتبددت صحتي وشبابي نهائيا .. عندئذ أدركت أننى خدعت نفسي .. وأن ذكرياتي نفسها أصبحت عبئا ثقيلا على نفسي ، ولهذا يحاول ضميري دائما أن يتحاشاها »

وفي مسرحية « ايفانوف » (١٨٨٧) يسيطر « تشيكوف » على هذه النغمة تماما .

فالخواطر المريرة التي تهجس في نفس « ايفانوف » ، وتلخص نشاطه الاجتماعي السابق تتطابق وخواطر « الرجل المجهول » . يقول « ايفانوف » مخاطبا ليبيديف والد خطيبته « ساشا » ، وذلك قبل انتحاره بلحظات معدودات :

« والآن .. استمع الى ايها الرجل العجوز .. أنني لا أنوي على الاطلاق أن أشرح لك ان كنت شريفا او منحطا ، سليما او مجنونا .. فانك لن تفهم عني شيئا .. وقد كنت ذات يوما شابا متلهفا مخلصـــا ذكيا .. أحببت وأبغضت وآمنت كمـا لم يؤمن الآخـرون ، وعملت وأملت ، وقاتلت طواحين الهواء ، ونطحت برأسي جدارا من الصـخر ، ولانني لم أقدر قواي حق قدرها ، ولانني لم أعن الفـــكر ، وكنت جاهلا بالحياة حملت فوق كتفي حملا أنقض ظهري ، وهـد كياني ، وسارعت الى انفاق كل ما أملك في زهـــرة العمر . فشربت الخمر ، وتحمست ، وكدحت .. كل ذلك بافراط . واني لاسألك .. كيف يمكن أن يكون الامر على خلاف هـذا النحو ؟ فهناك عدد ضئيل من أمثالنا ، وعمل كثير لا بد من انجازه . ويا له من عمل ! ولكن انظر الى الحياة القاسية ، الحياة التى جاهدتها ، كيف تثأر لنفسها مني ! لقد أرهقت نفسي الى الحد الاقصى .. ولهذا بلغت أرذل العمر وأنا في سن الثلاثين .. انني عجوز أتلفع بثياب الشيوخ ، وأدب بين الناس برأس ثقيلة مضناة محطمة .. بلا ايمان ، وبلا حب ، وبلا هدف كأنني الطيف ، ولست أدرى من أكون ، ولمـــاذا أعيش ، وماذا أبتغي ؟ بل يبدو لي احيانا ان الحب عبث ، وأن العناق شيء غث ، وأن العمل يخلو من المعنى ، وأن الاغاني والعبارات الحارة أمور خاوية معادة .. وحيثما اذهب احمل معي كآبتي ، وسآمتي الباردة ، واستيائي واشمئزازي من الحياة .. انني هالك بغير رجعة .. وها أنت ذا ترى أمامك شخصاً مرهقاً تبددت جميع أوهامه في سن الخامسة والثلاثين وحطمته أعماله الصغيرة نفسها ، واخذ يحترق من الخجل ، ويسخر من ضعفه .. »

ان كلا من « ايفانوف » ، و « فلاديمير ايفانتش » بطل قصة « الرجل المجهول » قد استنفذا قواهما بســـوراتها

اللامتناهية فى الصغر .. وهى لامتناهية فى الصغر لان الضوء المنبعث من نافذة واحدة صغيرة لا يمكن أن يضىء حديقـــة مترامية الاطراف . ويقـول « ايفانوف » للدكتور لفوف : « لقد تخرجت فى العام الماضى أيها الزميل العزيز ، وما زلت شابا نشطا ، أما أنا فقد بلغت الخامسة والثلاثين ، ولهــذا فانه من حقى أن أنصحك ـ بادر الى ترتيب حياتك وفقـا للانماط المتواضع عليها .. وكلما كان المهاد مملا سخيفا ، كان ذلك أفضل . لا تحاول أن تناضل بيديك المجردتين ضـد الآلاف .. أيها الرجل العجوز لا تحارب طواحين الهواء ، ولا تنطح رأسك فى جدار من الصخر .. انسحب الى قوقعتك ، وانجز العمل الصغير الذى أعطاه الله لك .. هذا هو الطريق الوحيد السوى المأمون الممهد . أما فيما يتعلق بالحياة التى كانت من نصيبى .. فأى شىء يمكن أن يكون أشـد ارهاقا ؟ وكم من أخطاء وهفوات وسخافات امتلأت بها هذه الحياة ! »

ونحن نلمس هنا تشـــابها بين « ايفانوف » و « فلاديمير ايفانتش » ، فكلاهما استهلك نفسه ، وكلاهما أحس بالعار والندم عندما أخذ يستعرض نشاطه الماضى ، ويعترف بتفاهة هذا النشـاط ، وكلاهما وصل الى نتيجة واحدة وان اختلفت الطرق ـ وهى أن التسليم بالهزيمة أمر محتوم .. وأيا كان الاختلاف فى موقفهما النظرى والسياسى ـ ذلك أن أحدهما ارهابى سابق ـ والآخر مثقف سابق ـ فانهما يتشـابهان فى ان كلا منهما واصـل نشـــاطه « على انفـراد » كما يقول « ايفانوف » ، ومن ثم انتهى بهما المآل الى الافلاس الروحى .. ويهتف ايفانوف قائلا : « قلة هؤلاء الذين على شاكلتنا ! » بيد أن هذا هو أصل المتاعب، فان العاملين فى الحقل الاجتماعى من أمثـــال « ايفانوف » و « فلاديمير ايفانتش » لم يكونوا قادرين على توجيه نشاطهم بحيث يجمعون حولهم عددا أكبر من المكافحين فى سبيل حياة جديدة ، كمـا أنهم لم يدركوا

الضرورة التى تدفعهم الى مثل هذا العمل .. لم يكن لدى أمثال هؤلاء أدنى معرفة أو فهم للشعب . بل ان اسم البطل (١) فى المسرحية يدل على رغبة الكاتب فى أن يخلق شخصا يمكن اعتباره نموذجا لطائفة معينة من المثقفين الذين اصطدم نشاطهم بالمقتضيات الواقعية .

أما كون « ايفانوف » هو الى حد ما حكم الكاتب بنفسه على طراز قديم من ممثلى الاتجاهين الحر والشعبى فى العقد الثامن ، فواضح من الرسالة الطريفة التى بعث بها « تشيكوف » الى « سوفورين » وحدثه فيها عن هذه المسرحية (٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨) ، وفى هذه الرسالة يمس « تشيكوف » نغمته المستديمة وهى « ذلك الانهاك » السريع ، والانتقال السريع الذى يعانيه المثقفون من الحماس الى تبدد الوهم ، وفتور الهمة :

« ... فى نوبة من نوبات الحماس ، يأخذ فرد ما قد انتهى لتوه من دراسته ، عبئا أثقل مما تحتمله قواه ، فيشرف على مدرسة بأكملها ويحاول أن يجد حلا لمشكلة الفلاحين ، والزراعة المنظمة .. كل ذلك فى نفس واحد ، فيلقى الخطب ، ويكتب الى الوزارة ، ويحارب الشر ، ويصفق للخير ، واذا أحب ، فلا بد أن يحب امرأة عصابية أو مسترجلة ، ان لم تكن عاهرة ينقذها من مهنتها .. وهكذا .. وهكذا . ولكنه ما أن يبلغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين حتى يشعر بالاجهاد والملاله .. ان شاربه لم يصل بعد الى تمام نموه ومع ذلك يعلن عن ثقة ناصحا : « لا تتزوج أيها الرجل العجوز .. وانتفع بخبرتى . » أو : « ما هو التحرر قبل كل شىء ؟ ان « كالتكوف » بينى وبينك كان على حق فى أغلب الاحيان ! »

---

(١) اسم « ايفانوف » يمكن أن يعد شبيها باسم جونسون ، أو جونز فى اللغة الانجليزية ، فهو واحد من الاسماء الشائعة فى روسيا .

ويجب أن نضع فى أذهاننا أن كلمة « تحرر » كانت تتسع لمعان كثيرة فى ذلك الوقت ، وكانت تستوعب الاضداد فى وقت واحد ، وفى الوقت الذى كان فيه « تشيكوف » يندد بالحجج التى اصطنعها أحرار الامس هؤلاء الاحرار الذين ينقدون اليوم مذهب الاحرار ، ويعترف بأن « كالتكوف » — ذلك الصحافى المرتد — كان فى أغلب الاحيان على صواب ، فى هذا الوقت نفسه يندد « تشــيكوف » بالاتجاهات المرتدة التى انتشرت انتشارا واسعا بين المثقفين فى العقد الثامن ، والرسالة التى اقتبسناها آنفــا تدل على أن « تشيكوف ، كان يفهم الافلاس الروحى الذى تعانيه الجماعات السياسية القديمة فى ذلك العصر ، وينتابه الاسى لانه لايعلم أين يتجه فى بحثه عن المثل العليا وعن الاشخاص الحقيقيين القادرين على انتشال بلاده من وهدتها .

كتب « تشيكوف » يقول : « خذ مثلا العهد الحاضر .. فالاشتراكية ليست غير صورة جديدة من صور الاثارة وأين نجد هذه فالاشتراكية ؟ فى الخطاب الذى بعث به تيخوميروف الى القيصر . ان الاشتراكيين قد حلوا مشاكلهم مع الزوجات وهم الآن ينتقدون « اتحاد الزمســتوف » وأين مذهب الاحرار ؟ ان ميخايلوفسكى نفسه يعترف بأن قطع الشطرنج قد اختلط بعضها بالبعض الآخر فى هذه الايام .. »

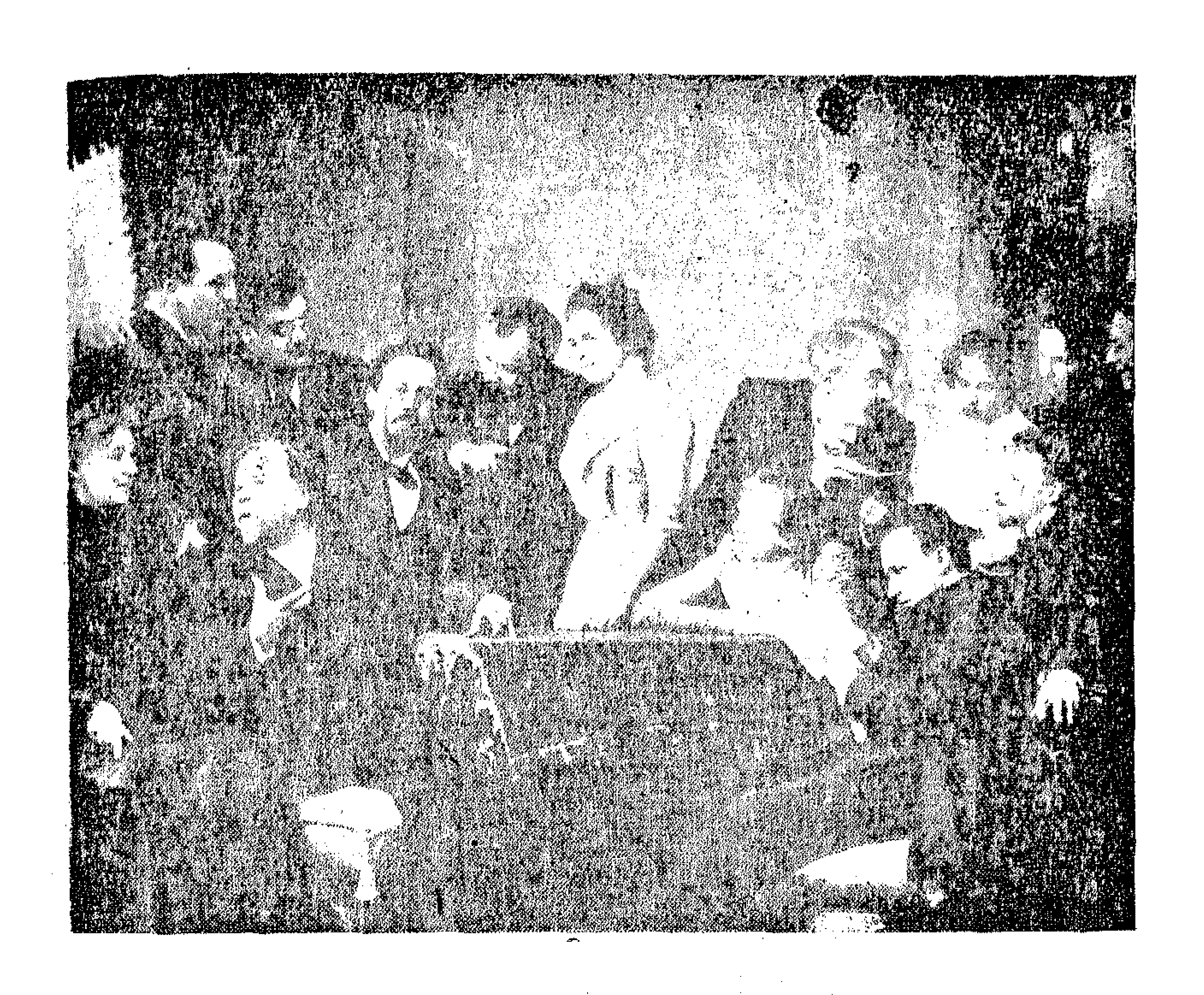
لم يكن تغيير « تيخوميروف » لمذهبه مجرد مصادفة ، أو عملا منعزلا من أعمال الخيانة ، وانما هــو جانب واحد من ســقوط الحــركة « النارودنية » القديمة من الناحيتين الايديولوجية (العقــائدية) والســياسية ... وذلك نتيجة لصراعها ضد القيصرية عن طريق المثقفين المنعــزلين الذين لا يتصلون أدنى اتصال بالشعب ، وأعمالها الفــردية للارهاب السياسى . ويتخذ مجرد اسم « ليف تيخوميروف » دلالة رمزية ساخرة ، فان كلمة « ليف » بالروسية معنــاها

« الأسد » ، وكلمة « تيخوميروف » مشتقة من كلمة «الهدوء والسلام »» وهـذا التركيب يعنى التعطش الى حيـاة هادئة مسالمة ، والى ذلك الصـلح مع الواقع الذى استولى على « فلاديمير ايفانتش » عقب انصرافه عن النشاط الارهابى .

« ان الاشتراكيين قد حلوا مشاكلهم مع الزوجات ، وهم الان ينتقدون « اتحاد الزمستوف » هذه الفقرة المأخـوذة من رسالة « تشيكوف » تشير الى النارودنيين فى العقد الثـامن الذين انقلبوا الآن الى مجـرد أفراد بورجـوازيين . وليس انتحار « ايفانوف » الا رمزا على افلاس اتجاهات الاحـرار المتعددة فى العقد الثامن .

وقد كان موقف « تشيكوف » من اتجاهات الاحـرار فى عصره ، وشكه السياسى هما السمتان الظاهرتان فى شخصيته أثناء العقد الثامن ، وقد بذل « سوفورين » أقصى جهـده لاستغلال هاتين السمتين ، محاولا أن يبعد « تشيكوف » عن البحث عن شيء جديد ، وعن دواعى قلقـه وتطلعاته .. لقد فسد الاحرار واختلط حابلهم بنابلهم ، فمن الافضل اذن أن يؤيد المرء المحافظين ، ذلك أنهم ليسوا على الاقل مهوشين! كان هذا هو منطق رئيس تحرير صحيفة « نوفوى فريميا » المنحلة . بيد أن هـذه المحاولة التى بذلها « سـوفورين » لاكتساب « تشيكوف » الى صفه من الناحية السـياسية ، لم يكتب لها النجاح أيضـا ، اذ كتب « تشـيكوف » الى سوفورين (١٨٨٩) قائلا : « تقول انه لا يمكن أن يوجد شيء أجدر بالاحتقار من موقف الاحرار .. حسن ، ولكن مـاذا تقول عن هؤلاء الذين لاينتمون الى المعارضة ؟ هل هم أفضل من هؤلاء . ان أصل الرذائل الروسية هو الجهل المطبق، وهذا الجهل سمة مشتركة بين جميع الاحزاب والاتجاهات . » وفى قصصه : « يوم التسـمية » و « فى الصنيعة » يرسم « تشيكوف » صورا لهؤلاء الذين لاينتمون الى المعارضة ..

وهم المحافظون وأصحاب الاراضى الرجعيون . ولقد كانت أكتابات « تشيكوف » جميعها صراعا ضـــد العنـــاصر « البريشيبيفية » (نسبة الى بريشيليف) و « البيليكوفية» نسبة الى بيليكوف وهو ينتقد الاشخاص الذين يشـــبهون « ايفــانوف » ، وأبطال « الحـكايات الملة » و « الرجال المجهولين » لضعفهم ، وافتقارهم الى الصلابة والحمــاس ، ولتراجعهم عن البحث عن الاهداف العظيمة والمثل العليــا ، ولهذا كانت تلك العقيدة الحرة الرجعية عن « الحيــاة من أجل الحياة » التى اختلطت فيها حقا قطع الشطرنج بحيث لم يعد المرء يستطيع التمييز بين الحر والرجعى ، مـــدعاة لسخطه واحتقاره ، ولهذا كان التفسير الذى قدمه سوفورين لمسرحية « ايفانوف » والذى يقول فيه أن كاتب المسرحية نفسه « يرى من الواجب أن نعيش فى بساطة كسائر الناس ، وان يضع المرء أفضل نواياه لتطور هــذه الحيــاة البسيطة العادية دون أن يبدد هذه النوايا فى نوبات مستحيلة ، وفى جهود لاغناء فيها لاشعال النار فى المحيط . » .. نقــدا لم يقبله « تشيكوف » على الاطلاق . ويوضح « سوفورين » فى نقده نظرية « الحياة من أجل الحياة » تلك النظرية التى أغلظ « تشيكوف » فى التنديد بها . ولكى يؤكد «تشيكوف» فكرته بأن كل من انصرف عن البحث عن الاهداف الروحية السامية لم يعد أمامه الا أن يأكل ويشرب وينام أو « أن ينطح براسه ركن احد الدواليب »، نراه يحمل « ايفانوف » على الانتحار . وهذا الانتحار هو ذروة الازمة الروحية التى وقع فيها « ايفانوف » « ولانه سـقط مرة » كما يقــول الرجل المجهول فى احدى رسائله ـ « لم يعد قادرا على النهــوض مرة أخرى ولانه فقد شيئا ، فانه لا يبحث عن شىء آخــر ، اذ لم يعد قادرا على ذلك . » و « الحياة من أجل الحياة » ليست كافية بالنسبة اليه .



تشيكوف مع ممثلي ومخرجي مسرح الفن بموسكو ٠٠!

من المحال أن نمضي على هذا النحو

تتبع الكتب العديدة التى الفت عن « تشسيكوف » خطا فكريا واحدا .. فهى تجمع على أن « تشيكوف » سافر ـ من الناحية الايديولوجية ـ من صحيفة « نوفوى فريميا » الى مذهب الاحرار كما تدافع عنه صحيفتي «رسكاياميسل» و « روسكيى فيدوموستى » والتخطيطات التى ترجمت لحياة « تشيكوف » ، والتى ظهرت عام ١٩٣٤ ، و ١٩٣٩ ، والمقدمة التى صدرت بها مجموعة أعماله المنشورة سنة ١٩٣١ تقوم جميعا على نظرية خاطئة عن « تطور وجهة نظر الكاتب » .. وقد غالى أصحاب هذه المؤلفات فى بعض المعتقدات المبتذلة التى التقطها «تشيكوف» الشاب أثناء حياته فى «تاجانروج»، ولكنها لم تؤثر على الاطلاق تأثيرا حقيقيا على أدبه ، وخلقوا منها أسطورة عن ميول « تشيكوف » المتأثرة بصحيفة : «نوفوى فريميا» هذه الميول التى افترضوا انه تخلص منها شيئا فشيئا حتى أصبح فى نهاية الامر عضوا صغيرا طيبا فى حزب الاحرار .

ومن العبث أن ننكر أن انفصاله عن صحيفة : « نوفوى فريميا » واقتصاره فى نشر أعماله على صحف الاحرار قد كان ذا تأثير ناجع على تطور وجهة نظر « تشيكوف » ، وفى الكشف عن صراعه الداخلى ضد النزعة الشكية فى السياسة، وضد ميوله التى تنأى به عن ميدان السياسة .

وكما أن نشر « تشيكوف » لقصصه فى صحيفة « نوفوى فريميا » لا يعنى على الاطلاق انه كان يشاطر هذه الصحيفة فى ميولها الايديولوجية (نشر تشيكوف فى هذه الصحيفة قصة جوسييف ... وهى مشحونة بروح الاحتجاج

ضد النظام الرجعي ، وهذا وحده كاف للتدليل على مانقول)، فكذلك لا يعد نشر قصصه فى مطبوعات الاحرار دليلا على أنه كان داعية لمذهب الاحرار فى كتاباته . ونحن نجد موقفه من مذهب الاحرار متمثلا فى عبارة كتبها فى مذكراته ، وهى عبارة أشبه فى قوة تعبيرها وايجازها بأمثال « شدرين » : « التحررية المعتدلة ـ ان الكلب يحتاج الى الحرية ، ولكن لابد من كبح جماحه بالسلاسل . » وهذه العبارة تلخيص كامل لجوهر هذا الحزب وأنصاره الذين أراد المترجمون لحياة « تشيكوف » أن يرتبط « تشيكوف » بهم .

« من المحال أن نمضى على هذا النحو ! » هذه هي العبارة التى تعبر عن مزاج « تشيكوف » فى أواخر العقد التاسع كما وردت على لسان « ايفان ايفانتش » الطبيب البيطرى الذى كان راويا لقصة « عنب الثعلب » (١٨٩٨) ، وكانت نظرية الاحرار عن الاصلاح التدريجى للاحوال بواسطة الاصلاحات الصغيرة المنعزلة تلقى من « تشيكوف » احتقارا متزايدا . وينفجر « ايفان ايفانتش » وهو يعرض آراءه الحرة السابقة عن الاصلاح التدريجى فيقول : « ... قلت ان الحرية نعمة ، ولا يستطيع الانسان أن يعيش بدونها ، كما لايستطيع أن يعيش بلا هواء .. ولكن يجب أن ننتظر .. أجل . هذا ماقلته ، ولكننى أتساءل الآن : ولحساب من هذا الانتظار ؟ وهنا نظر « ايفان ايفانتش » غاضبا الى بركين وانني أسألك .. لحساب من يجب أن ننتظر . ما هو هذا الشيء الذى يجب أن نحسب له حسابا ؟ يقولون لى : لاتكن متعجلا ، فكل فكرة تتجسم رويدا رويدا حتى تستوفى زمنها . ولكن من هم الذين يقولون ذلك ؟ وما هو الدليل على صدق كلامهم ؟ أنت ترجع الى النظام الطبيعى للاشياء ، والى منطق الوقائع ، ولكن وفقا لاى نظام أو منطق اقف أنا الفرد الحى المفكر على حافة الهاوية منتظرا أن تمتلىء شيئا

فشيئا ، أو أن تردمهـا الرمال فى الوقت الذى أستطيع ان اثب فوقها ، او ان اشيد جسرا لعبورها ؟ وأقول مرة اخرى لحساب من يجب ان ننتظر ؟ ننتظر .. بينما لا نملك القدرة على الحيـاة .. ومع ذلك يجب أن نعيش ، وأن نشـتهى الحياة ! »

وقد بدا « تشيكوف » يدنو من الفكرة ، لا عن طـريق التطور ـ وانما عن طريق تغيـير أساسى حاسم للظـروف الواقعة . هذه هى الدلالة الكامنة فى عبارة : « الوثوب فوق الهوة » .

وبوجدانه النفاذ يميط اللثام عن زيف مذهب الاحرار ، ويكشف عن النفاق المختفى وراء قناع حب الشعب،والتقدم، وما الى ذلك .

« انهم قوم محترمون مثقفون ، ولكن هناك شىء ما يكذبون فيه . » هذا هو الوصف الذى نجده فى مذكرات «تشيكوف» عن الاحرار . وكتب « أنطون بافلوفتش » فى يومياته سـنة ١٨٩٧ عن الاحرار مايلى :

« ١٩ فبراير ـ حفلة غداء فى الكونتيننتال احيـاء لذكرى الاصلاح الكبير (١) الحفلة مملة سخيفة .. فان يأكل المرء، ويحتسى الشمبـانيا ، ويثـرثر ، ويلقى الخطب عن الوعى الشعبى ، والضمير والحرية .. الخ ، بينما يحـوم حولنـا هؤلاء العبيد أنفسهم فى ثياب السهرة ، وينتظرنا الحوذية فى الخارج فى الصقيع .. هذا هو الكفر بعينه »

فأى احتقار من غفلة الاحرار فى هذه الكلمات !

ولم يكن « النارودنيين » فى العقدين الثامن والتاسـع الذين أصبحوا الان مجـرد بورجوازيين ، يسـتطيعون اجتذاب « تشيكوف » الى صفوفهم ، وهم الذين يحاولون

١ ـ هو يوم توقيع البيان الخاص لتحرير الفـلاحين من العبودية (١٨٦١) .

وقف مجرى التاريخ .. أما الزعماء الشعبيون فكانوابالنسبة اليه اشبه « بالرجل فى القوقعة » اذ يحاولون أن يختفوا فى جبن من الحياة الواقعية ، وأن يحجبوا فراغ نفوسهم وراء جلبة الافكار المنتشرة فى العقد السابع ، وأن يجعلوا من أنفسهم حفاظا على التقاليد العظيمة .

ويبدو أن « أنطون بافلوفتش » كان يحاول بسلسلة قصصه عن الفلاحين (الفلاحون ، وفى الحضيض ، والمنزل الريفى الجديد) أن يختبر النظريات النارودية فى قدرتها على أن تجنب روسيا سلوك الطريق الرأسمالى للتطور ، طالما أن أعمدة المجتمعات الريفية وطيدة فى القرية ، كما أن ضغط «الكولاك» (أصحاب الاراضى) يمكن تجنبه بمعونة المنظمات المهنية ، و « الظواهر المشجعة » الاخرى . فى هذه القصص الريفية يدلى « تشيكوف » بالحقيقة عن الريف فى تلك الايام . وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن تعد هذه القصص أبحاثا علمية ، لا غنى عنها لهؤلاء « الذين كرسوا أنفسهم لدراسة الحياة كما لا غنى لعلماء الفلك عن النجوم . » وقد رسم تشيكوف صورة خشنة لتعسف « الكولاك » ، وكشف عن الانهيار التام « لاعمدة » المجتمعات الريفية ، وأصبح الاسم الفكه « الفائدة الصغيرة » الذى كان يدعى به بطل قصة « حياتى » فى طفولته نوعا من النغمة الرئيسية الساخرة الموجهة ضد أنصار الاصلاحات الصغيرة الذين يكتفون بالتكيف مع الظروف دون محاولة لتغييرها .

وتروى هذه القصة على لسان المتكلم . وقد أراد البطل وزوجته أن يجريا تجربة فى تبسيط الحياة على طريقة تولستوى ، فيعودوا الى الارض ، والى الكدح الجثمانى ، رافضين منافع الحضارة المدنية ، وهلم جرا ، وهذا ماوصلت اليه الزوجة :

« الجهل والقذارة وادمان الخمر ، وارتفاع نسبة الوفيات

.. كل شيء مابرح على حاله ، ولم يتحسن شيء لانك تفلح الارض وأنا أنفق النقود وأشترى الكتب .. ومن الواضح أننا كنا نكدح لانفسنا ، ونفكر لانفسنا وفقا لخطوط عريضة .. ان وسائل أخرى للكفاح القوى الجرىء المباشر هى التى نحتاج اليها .. واذا أردت أن تكون نافعا ، فاخرج من الدائرة الضيقة التى تبذل فيها نشاطك العادى ، وحاول أن تؤثر مباشرة على الجماهير . »

ومن الحق أن الزوجة فى محاولاتها لتحديد أفكارها عن ضرورة « التأثير المباشر على الجماهير » لم تستطع أن تفكر فى وسيلة أخرى غير الفن ، بيد أننا نجد أمانى « تشيكوف » فى اكتشاف الوسائل الحاسمة السريعة لتغيير الظروف القائمة تغييرا أساسيا ظاهرة تمام الظهور فى تخميناتها الجريئة .

والى هذه العبارة التى بعث بها « تشيكوف » الى « بلتشييف » : « اننى لست من الاحرار أو المحافظين ، ولست من دعاة « التقدم التدريجى » ، ولست راهبا ، أو محايدا . » كان يستطيع أن يضيف : « ولست تولستويا أو نارودنيا » .

هذا الحكم الذاتى الذى نجده فى رسالته الى «بلتشييف» قد فسره المترجمون لحياة « تشيكوف » على أنه يؤكد ويعزز « تنصله من الاحزاب جميعا ، ومن السياسة كلها تنصلا مقصودا . » ويقيم هؤلاء المترجمون أحكامهم على أساس أن « تشيكوف » بعد أن نفى عن نفسه هذه الاتجاهات جميعا ، أضاف فى رسالته الى بلتشييف أنه لا يريد الا أن يكون فنانا حرا ولا شيء خلاف ذلك . وبهذا التفكير يدخل المترجمون فى نقاش مع « تشيكوف » نفسه الذى قال عن نفسه انه « ليس محايدا . »

فاذا وضعنا نصب أعيننا أن الخطاب المرسل الى « بلتشييف » مؤرخ فى عام ١٨٨٩ الذى كتبت فيه « حكاية

مملة » أى فى الوقت الذى بلغ فيه حنين « تشيكوف » الى نظرة اجتماعية واضحة أعلى درجاته ، فلن يكون من العسير علينا أن نفهم أن « أنطون بافلوفتش » لم يستخدم كلمة « الفنان الحر » بذلك المعنى الذى يوحى بالتحرر من المثل ـ الاجتماعية والسياسية ـ ذلك المعنى الذى يريد المترجمون فرضه على هذه العبارة .

وليس من الممكن اطلاقا أن يفهم « تشيكوف » حرية الفنان على أنها تحرر من كل نظرة للحياة . مثل هذه « الحرية » هى أسوأ أنواع العبودية بالنسبة « لانطون بافلوفتش » وأن يكون المرء « فنانا حرا » تعنى بالنسبة اليه التحرر من تقديس العقائد والمذاهب ، ومن التفكير المحافظ الجبان ، ومن كل ضروب القواقع ، ومن كل تحيز أو خوف من الحياة وحقيقة الحياة ، وهى تعنى فى نظره التحرر من الخوف ازاء كل جديد ، الحرية من الدين ، ومن ابتذال الطبقة المتوسطة ، ومن مشاعر الملكية ، ومن التفاهة ، وسطوة الماضى ، وتعنى التحرر من « الاصنام » و « المثل العليا » ، وان جميع الاعتبارات الثانوية التى تتطفل على الهدف الرئيسى للفنان . ولقد كان « تشيكوف » يقترب دائما من مثل هذه الحرية .

كان « تشيكوف » متحررا من الخطط الذاتية ، ومن الافكار « الطوباوية » الرجعية التى تهدد مجرى الحياة نفسها .. وكان عمله ارهاصا للمستقبل .

آمنت بالتقدم منذ طفولتي

كان القرن التاسع عشر هو قرن الاكتشافات والاختراعات العلمية العظيمة ، ومع ذلك لم يعن كاتب واحد من الكتاب العظام بوصف تقدم العلم وفن الصناعة فى المجتمع البورجوازى، ذلك أن ماينطوى عليه التقدم من شعر وجمال كان ضائعا بين الكتاب . . اذ أدرك بعضهم فى غموض ، وبعضهم الآخر فى شىء من الوضوح ، أن انتصارات المدنية البورجوازية لم تتحقق الا بثمن فادح من العذاب ، والتضحية بملايين الارواح البشرية ، وأن انتصارات العلم انما تستغل لاثراء « سادة العالم » وأن الاكتشافات والاختراعات العظيمة فى العالم البورجوازى قد أصبحت وسائل لاستغلال الكائنات البشرية وسحقها . . وانتهى الفنانون الى هذه النتيجة المحزنة وهى أن العلم أداة من أدوات الشيطان .

ويقول « كارل ماركس » ان المرحلة البورجوازية من التاريخ لازمة لخلق الاساس المادى للعالم الجديد . وحينما تسيطر الثورة الاشتراكية الكبرى على انتصارات العصر البورجوازى ، فى هذا الوقت فحسب لا يحق لنا أن نشبه التقدم الانسانى بذلك المعبود الوثنى الرهيب الذى لا يشرب الخمر الا فى جمجمة انسان صريع .

ولم تكن للفنانين أدنى رغبة فى احتساء خمر المدنية من جماجم الملايين الذين صرعتهم الرأسمالية ، ومن ثم كانوا عاجزين عن العثور على مصدر للشعر فى الثورات التقدمية التى تتم تحت أعينهم فى جميع فروع العلم وفن الصناعة . فاذا غامر أحد الكتاب بوصف انتصارات المدنية البورجوازية من زاوية متعاطفة ، فانه يتعرض للاتهام بأنه يعتذر أويدعو

للنظام البورجوازى ، ولذلك لم يكن يجرؤ على سلوك هـذا المسلك غير كتاب الدرجة الثالثة . ولم يكن أحد من الكتـاب العظام يحتمل فكرة أن يكون « نصيرا للشيطان » .. هـذا هو الموقف المفجع الذى يواجه الفنـان فى المجتمع البورجوازى .. وقد وصف « رالف فوكس » الكاتب الانجليزى الشيوعى فى كتابه عن مشكلة القصة الطويلة هذا الموقف وصفا صادقا عميقا .

وكان الفنانون والمفكرون الذين ارتبطوا بالحركات الثورية الكبرى ، أو على الاقل هؤلاء الذين تعاطفوا مع الامانى التقدمية المتقدمة فى عصرهم ، هم وحدهم الذين يستطيعون أن يتنبأوا ـ بقوة عبقريتهم فحسب ـ ان الجماهير هى التى ستنتفع فى المدى الطويل بثمار التقدم ، على الرغم من أن « سادة العالم » هم الذين يجنون فى الوقت الحاضر تلك الثمار . ولعل أقرب الناس الى هذا الفهم هم الديموقراطيون الثوريون اللامعون من الروس أمثـال : « بلسـكى » و « شرنيشفسكى » و « نكراسوف » و « شدرين » .

ولم يفهم تشيكوف الدور التاريخى للطبقة الكادحة ، كما أنه لم يكن بحال من الاحوال على اتصال بالحـركة الثـورية النامية فى عصره

ومع ذلك لم يكن من الممكن أن تثـير انتصـارات العلم ، وتقدم المدنية فى نفسـه غير التعـاطف والاعجـاب ، اذ كان تشيكوف ممثلا حقيقيا للمثقفين الديموقراطيين التقـدميين المبدعين . وقد كان انسلاله من تأثير التعاليم التولسـتوية راجعا فى أساسه الى عجزه عن الاقتناع باطراح المدنية جانبا ، هذا الاطراح الذى هو قوام تلك التعاليم . ويقول « تشيكوف » فى حديثه عن تلك الفترة التى كان واقعا فيها تحت تأثير أفكار تولستوى (١٨٩٤) :

« أن وعظ تولستوى الاخلاقى لم يعد يهزنى ، فأنا فى قرارة

نفسي أعادى هذا الوعظ ، اذ تجرى فى عروقى دماءالفلاحين، ولا يستطيع انسان أن ينبئنى بشىء عن فضائل الفلاحين . وقد آمنت بالتقدم منذ طفولتى .. ويدفعنى الانصاف والتفكير السليم أن أقول أن فى الكهرباء والقوة البخارية من الحب للانسانية اكثر مما فى الزهد والامتناع عن أكل اللحوم»

كان « أنطون بافلوفتش » يتابع فى شغف تقدم التفكير العلمى ، مؤمنا بكل ماهو تقدمى فى تطور هذا التفكير ، وقد درس داروين فى تلذذ (قال عن داروين مرة : « ياله من كاتب ممتع ! ») وكان يقابل كل حملة رجعية على العلم والتقدم بالتسفيه الشديد .

وتظهر غريزته الاجتماعية غير العادية فى هذه الحقيقة ، وهى أنه على الرغم من اعجابه بانتصارات المدنية فى عصره ، فقد كان يعادى كل رغبة فى التصالح مع الاحوال البورجوازية عداء عميقا ، وكان يحتقر النظريات البورجوازية فى التقدم .

وكان « التقدميون » البورجوازيون يرون أن قوة العلم وفن الصناعة سيعملان على خلق « الامكانية لحياة محتملة .. بل مريحة للجميع » . وهذا وفقا للاسس الموضوعة للمجتمع البورجوازى .

غير أن « تشيكوف » كان ينكر مثل هذه الامكانية . والشخصية الرئيسية فى قصته الطويلة : « حياتى » (وهذه القصة تروى على لسان المتكلم) تعبر عن وجهة نظر الكاتب فى حديث لها مع الدكتور « بلاجوفو » ، وهو نصير نموذجى للنظرية البورجوازية فى التقدم « التدريجى » .

« وتحولت المناقشة الى التقدم التدريجى ، فقلت ان للتطور التدريجى ناحيتين ، فالى جانب التطور التدريجى للافكار الانسانية ، يمكن أن نلاحظ تطورا تدريجيا لافكار من نوع مختلف كل الاختلاف .. فالعبودية قد مضى زمانها، ولكن الرأسمالية تنمو . وحتى الآن فى الوقت الذى وصل

فيه التهليل لفكرة العبودية الى عنان السماء ، فان الغـالبية العظمى ـ كما هى الحال فى أيام باتو ، مازالت تطعم الاقلية وتحيك ثيابها وتذود عنها بينما تظل الغالبية العظمى جائعة عارية لايذود عنها ذائد • مثل هذا النظام للاشـياء يمـكن أن يقوم الى جانب الاتجاهات والافكار من جميع الانواع ، لان فن الاضطهاد نفسه يتطور تطورا تدريجيا . »

لم يكن « تشيكوف » يثق بالمدنية البورجوازية أدنى ثقة، بل كان يرى ما يراه الجيل اللاحق فى وضوح لامزيد عليه ، اعنى تطور الافكار والظواهر فى العالم البورجوازى ، هـــذا التطور المعادى الى حد الموت لكل ماهو انسانى تقـدمى . وكان « تشيكوف » يفهم عبث الآمال التى تراود الناس عن « الوجود المحتمل للجميع » فى ظل الاحـوال الرأسـمالية حيث « تقوم الحياة على العبودية » كما يقول بطل قصـــة « حياتى » فى تقاشه مع « الدكتور بلاجوفو » « التقدمى ».

محاربة الشيطان

يذهب دكتور « كورولف » بطل قصة « من دفتر أحوال طبيب » (١٨٩٨) الى مصانع نسيج « لياليكوف » بالقرب من موسكو ، وذلك لزيارة ابنة صاحبة المصنع المريضة . ويقضى الليل هناك حيث يدور الحديث بينه وبين «كرستينا ديمتريفنا » المربية السابقة للآنسة « لياليكوف » الصغيرة . وتقول « كريستينا ديمتريفنا » للطبيب بشيء من الزهو أنها أصبحت « واحدة من أفراد الاسرة » منذ عهد بعيد، وهى تصنع تماما ماتشاء ، فتتناول الاطعمة الشهية ، وتشرب النبيذ الفاخر . أما العلة التى تشكو منها الفتاة الصغيرة فليست مرضا عضويا بقدر ماهى مرض اجتماعى شبيه بذلك المرض الذى يحب « تشيكوف » أن يظهره فى قصصه دائما على أنه المرض الذى تشكو منه أسر التجار الاغنياء علتها هى صوت الضمير الذى كتبته الاجيال السابقة عليها ، انهـا تعانى من آثام آبائها ، ولن يستطيع دواء أيا كان ابراءها كما يعتقد « كوردلف » . ويدرك « كوردولف » ــ وهو فى ذلك شبيه بتشيكوف نفسه ــ ان العلاج يجب أن ينصب على أسباب المرض لا على المرض نفسه .

وبهذه الطريقة نفسها يقارن « كوردولف » الاصلاحات التى تتناول حياة عمال المصنع بالمحاولات التى تبذل لعلاج الامراض المستعصية ، هذا في الوقت الذى يرى فيه أن هذه الاصلاحات لا تخلو من فائدة .

ويناجى الطبيب نفسه وهو يرنو ببصره أثناء الليل من نافذة حجرته المخصصة له ــ الى نوافذ المصنع القرمزية المواجهة له ، فيقول :

« أن ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل يكدحون فى هذا المصنع دون أن ينالوا نصيبهم من الراحة ، فى ظروف غير صحية لينتجوا أقمشة قطنية رخيصة ، ويعيشون فى حالةيشرفون فيها على الموت جوعا ، ولا يتخلصون من هذا الكابوس الابين جدران الحانة ، وثمة مائة شخص آخر يراقبون أعمالهم . وينفق هؤلاء المائة حياتهم كلها فى تسجيل الغرامات ، وصب اللعنات ، وارتكاب المظالم ، بينما يجنى اثنان أو ثلاثةفحسب، هم الملاك ، ثمار هذا كله رغم أنهم لا يعملون شيئا ، بل يحتقرون تلك الصناعة الرخيصة . ولكن ماذا تكون هذه الثمار ؟ أن أسرة « لياليكوف » التى تتألف من الام والابنة ـ فى منتهى التعاسة ، ومن المحزن حقا أن يراهما الانسان ، و « كرستينا دمتريفنا » تلك العانس الحمقاء التى تجاوزت ربيع العمر هى الوحيدة التى تستمتع بحياتها . والمسالة لا تخرج فى نهاية الامر عن هذا : العمل يسير فى مبانى المصنع الخمسة ، والاقمشة الرخيصة تباع فى الاسواق الشرقية.. كل هذا لكى تلتهم كريستينا ديمترفنا المحار وتشرب نبيذ ماديرا . »

هذه الكلمات ـ بما فيها من دقة ووضوح اتسم بهما تشيكوف ـ تصور لنا بطلان النظام الرأسمالى وخلوه من المعنى .

ويتخيل الطبيب وهو يستمع الى الحارس الليلى الذى يقرع لوحا من الصلب عدد دقات الساعة ـ أن هذا الصوت الذى يقتحم على الليل سكونه آت « من ذلك الوحش نفسه ذى العينين المحمرتين الساخنتين .. من الشيطان الذى هو سيد أصحاب المصنع والعمال على السواء ...

« وطفق يفكر فى ذلك الشيطان الذى لا يؤمن حقا بوجوده، وظل يحملق الى نافذتين انبعث منهما بصيص من النور .. وخيل اليه أن الشيطان نفسه ، تلك القوة الخفية التى تنبثق منها العلاقة بين الاقوياء والضعفاء ـ ينظر اليه بتلكما العينين

القرمزيتين .. » وظل يتأمل تلك القوة المتسلطة المجهولة المنعزلة عن الحياة والكائنات الانسانية .. وشيئا فشيئا استولى عليه الشعور بأن هذه القوة الخفية المجهولة تنظر اليه فعلا . وشحبت السماء ناحية الشرق ، ومضى الزمن سراعا ، وخلا المكان من الناس ، وكأنما سيطر الموت على كل شيء ، وبدت المباني الخمسة ظلالا سوداء في غبش الفجر الشاحب ، وكأنها شيء آخر غيرها في ضوء النهار . وينسى المرء أنها تمتلىء بالآلات البخارية والكهربائية والتليفونات ، ذلك أنها تبدو الآن أبنية من العصر الحجرى مسكونة بقوة بدائية معدومة الاحساس .. »

هذا هو التصور الثاقب الذى يعرضه علينا « تشيكوف » للعالم الرأسمالي .

وما كان يستطيع أن ينفذ الى أغوار الحياة الاجتماعية غير فنان ديموقراطي شفاف الرؤية بحيث يخلق صورا لها مثل هذه القوة ، وهذه الدلالة فى وقت واحد .

ان احساس « تشيكوف » المنصف جعله يرى أن هناك من الحب فى قوة الكهرباء والبخار » أكثر مما فى الاعراض عن المدنية البرجوازية . بيد أن هذا الاحساس المنصف نفسه جعله يرى شيئا آخر الا وهو أنه فى « الحياة القائمة بأكملها على العبودية » لا تخدم قوة البخار والكهرباء وفن الصناعة المعاصر كله ، وانتاج العبقرية الانسانية جميعا .. لا يخدم هذا كله غير قوة بدائية غاشمة عديمة الاحساس .

العبودية قائمة فى عصر الكهرباء والآلات التى تسير بقوة البخار ، والتليفونات ، كما كانت الحال فى العصر الحجرى البعيد ، كل ما فى الامر ان هذه العبودية تتخذ أشكالا متباينة .

وكان « تشيكوف » يشعر بالخصائص اللاشخصية اللاانسانية الآلية التى تميز تلك القوى العنصرية المسيطرة

على الانسان فى العالم البورجوازى وما تتصف به من غشومة صلبة متعسفة ، وكأنها تتحداه . وكان يرى نوعا من السخرية الشيطانية فى ذلك التقابل القائم بين الكهرباء والآلات البخارية والتليفونات من جهة وبين الطبيعة البدائية المحزنة للعلاقات الانسانية ، فهى حيوانية أكثر منها انسانية ... القوى يلتهم الضعيف ، والقوى عديمة الاحساس تتحكم فى النـاس كمـا كانت تتحكم فى الازمنة الغابرة رغم الانتصارات العظيمة الذى حققها العقل البشرى فى ميـادين العلم وفن الصـناعة .. وكان هذا التقابل يبدو فى نظر الدكتور كورولف جادا عنيفا لا سبيل الى تصديقه حتى جعـله ينسى أن هنـاك أشـياء كالآلات البخارية والتليفونات ، وأحس كانه مازال يعيش فى العصر الحجرى .

وتنتهى قصة : « من دفتر أحوال طبيب » نهاية مرحـة مشرقة بالحرية ، والايمان بالحياة المستنيرة الجميلة المتحررة من سطوة « الشيطان » .

ويخبر الدكتور « كورولف » وريثـة آل « ليااليـكوف » العليلة أن أرقها « خليق بالاحترام ، وأنه عرض صحى ، أيا كان قولك من اننا ننام نحن الجيل الحاضر نوما سيئا ، واننا نتشوف الى شيء ما ، واننا نتحدث كثيرا دون أن نقرر ماذا كنا على صواب أم على خطأ . بيـد أن مشـكلة الخطأ أو الصواب ستحل بالنسبة لابنائنا أو احفادنا ، وسوف يكونون قادرين على النظر الى أبعد مما كنا ننظر ، وستكون الحيـاة أفضل مما هى بعد خمسين سنة أو يزيد .. وحرام أن نكون حينذاك موجودين . »

وفى صباح اليوم التالى ، وكان صـباح صيف جميـل ، استقل الطبيب عربة الى المحطة مستمتعا بروعة المنـاظر ، ورقة النسيم ، وجعل يفكر فى الاجيال القادمة عندما تبـدو الحياة مشرقة مرحة كهذا الصباح الهادىء من أيام الآحاد .. »

لم تكن الاحلام التى تراود « تشيكوف » أوهاما بعيدة التحقيق ، ولكنه كان يحلم ويرحب باقتراب حياة جديدة جميلة رشيدة لا ينتفع فيها « الشيطان » بثمار المدنية ، وانتصارات العبقرية الانسانية ، وانما تستغل هذه الثمار وتلك الانتصارات فى سبيل اسعاد الجنس البشرى .

كانت هذه الاحلام هى التى تراود العناصر الفاضلة من المثقفين المتقدمين الذين لم يفقدوا اتصالهم بالشعب .

وكان « تشيكوف » قاضيا قاسيا على العالم البورجوازى

كتب عن رواية « عائلة بولانتسكى » من تأليف « سنكفتش » فقال : « ان هدف هذه الرواية هو هدهدة البورجوازية بالاحلام الذهبية . والبورجوازية شهيدة الشغف بتلك الانماط « الجيدة » والنهايات السعيدة ، لان مثل هذه الروايات تبعث فى نفوسهم ذلك الاطمئنان اللذيذ الى أن الانسان يستطيع أن يكدس الاموال وأن يحتفظ فى الوقت نفسه ببراءته ، وأن يكون حيوانا ضاريا وفى الوقت نفسه متمتعا بالسعادة . »

ونحن نجد فى احدى مذكرات تشيكوف هذه العبارة الموجزة :

« ركاب القطارات المفتخرة هم حثالة الانسانية . »

السعادة آتية في المستقبل

ان الطبيعة الديمقراطية العميقة التى اتسمت بها كتابات « تشيكوف » وخلو نظرته ومشاعره خلوا تاما من كل ما يمكن أن يرد الى الصور الرجعية للحياة الكامنة فى التاريخ وغريزته الاجتماعية التى مكنته من تأمل الاتجاهات المتنوعة التى انطبع بها العهد السابق على قيام الثورة الروسية الاولى وكذلك وطنيته المتبصرة ومعرفته بالقوى الخلاقة للشعب تلك المعرفة التى عززت ايمانه فى ازدهار بلاده المقبل ، وثقافته بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وكذلك جو الحماس الثورى العام الذى بدأ يظهر فى أرجاء البلاد جميعا ــ كل هذا قد ساعد « تشيكوف » على أن يأخذ مكانه مع العناصر التقدمية وعلى أن يقدر التقدم والمدنية حق قدرهما .

ولما كان « تشيكوف » يجهل الطريق الذى يجب أن تسلكه بلاده للوصول الى حياة عادلة هانئة ، ولما لم يكن يعلم القوى التى قدر لها أن تقود وطنه الى الرخاء ، والدور الذى كتب على الطبقة الكادحة أن تقوم به فى التاريخ ، لما كان تشيكوف يجهل هذ كله فانه لم يكن يستطيع أن يتجنب تلك النوبات من الكآبة والحزن التى حفلت بها كتاباته حتى تلك الكتابات التى كان لحن السعادة المقبلة يرن فيها رنينا قويا وعلى ذلك فقد كانت الصورة التى رسمها « تشيكوف » للحياة الروسية صورة ناقصة بالضرورة . وكان فى أوصافه لعمال المصانع أمينا على التقاليد ــ تلك التقاليد التى حطمها « جوركى » فيما بعد ــ التى دأبت على النظر الى هؤلاء العمال بوصفهم مجموعة من النساء والرجال البؤساء المستغلين المطحونين .

ولم يكن من حظ « تشيكوف » أن يستشف الروح الثورى

وأن يفهم أن الطبقة الكادحة سوف تصبح يوما ما سـيدة الموقف . ولذلك فانه لم يكن فى حالة تسمح له بخلق صورة لشخصية اجتماعية ايجابية ، صورة لفرد مناضل متكامل صلب العود .

وقد حدد ذلك كثيرا من السمات الرئيسـيـة فى كتابات « تشيكوف » وأسلوبه وسلوكه فلو أننا حاولنا أن نسـتمع « بعيون مغمضة » الى الموسيقى السارية فى كتاباته وكأننا نستمع الى صوت يتحدث الينا عن ضروب شتى من الناس والاشياء .. الى صوت وان يكن غنى النبرات متنوع الطبقات الا أنه صادق دائما بالنسبة الى نفسه ، ولو أننا سألنا أنفسنا أى تلك الطبقات يظهر ويتكرر ظهوره مرة بعد أخرى فاننا سوف نجد أن أكثر النبرات ظهورا فى ذلك الصوت الموسيقى العذب الذى يذكرنا بصوت « آستروف » الذى كان يصـل عذبا الى آذان « سونيا » ـ هى تلك النبرات التى تشيع فيها الكآبة والتأمل الشاعرى الحزين . وجدير بالاهمية القصوى أن نتذكر هذا عندما نحاول أن نكتشف النغمات الرئيسـية والافكار الاجتماعية العميقة التى قامت عليها كتابات تشيكوف ذلك أن غضبه واحتقاره وسخطه واحتجاجاته وسخريته بل ارهاصاته بالسـعادة المقبلة ، كل هـذا يظهر بدرجة أكثر أو أقل وضوحاً فى تلك النبرات . ونحن نجد مثلا أن «تولستوى» سواء أكان متمردا كمـا نراه فى «أنا كارنينا» و «البعث» أو موجها للاتهام كما نراه فى مقالاته ، فانه يتحدث دائما بصوت كأنه الرعد . وفى صوت « نيكراسوف » المفعم حزنا نستمع الى حنقه الخالى من الانفعال هذا الحنق الذى يطغى أحيانا على الحزن .

أما فى سخرية « شيدرين » فان نغمة السخط والبغضاء والاحتقار هى التى تسود سائر النغمات الاخرى . بيد أننا نجد فى كتابات « تشيكوف » جنبا الى جنب من احتقـاره

للابتذال نغمة حزن عميق تبتلع نغمات السخط والاحتقار والاحتجاج والسخرية الاخرى . ويجد المرء نفسه مدفوعا الى القول بأن كآبته ونبراته الغنائية تساعده على التعبير عن غضبه واحتقاره واحتجاجه . ونستطيع أن نضيف الى ذلك أن هذا الامر كان ولا يزال واحدا من الاسباب التى منعت القراء من ادراك أن الحنق والاستياء والبغضاء تلعب دورا قويا فى كتابات « تشيكوف » وانها مليئة بالحياة من الوجهة الاجتماعية وبهذا المعنى يمكن أن نشبهها بأعمال « شيدرين » و « نكراسوف » و « تولستوى » و « جوركى » .

فما هو اذن سبب هذه الصفة المميزة لتلك النغمة المكتئبة ؟

كان « تشيكوف » أبعد من أن يفهم الدور الثورى الذى يجب أن تقوم به الجماهير فهما حقيقيا . وفى الوقت الذى كان ينتقد فيه أبطال التاريخ ويجردهم من بطولتهم فانه لم يكن قادرا على خلق صورة بطل ، ونجم عن افتقاره الى المعرفة والى فهمه للعامل الثورى فى التاريخ كما قلنا آنفا نجم عن ذلك تصويره للحياة الروسية بصورة ناقصة ولم يكن من نتائج ذلك تصويره لحياة عمال المصانع من جانب واحد فحسب بل تصويره لحياة الفلاحين من جانب واحد أيضا .

وعلى الرغم من المزايا الفذة التى تمتاز بها سلسلة القصص التى كتبها « تشيكوف » عن الفلاحين ، تلك القصص التى تعكس فى صدق الحياة الفعلية فى القرية الروسية فى ذلك العهد ، والتعسف الاليم الذى كان يمارسه الكولاك (أصحاب الاراضى) ، واستبداد السلطات التى لم تكن ترعى قانونا وانتشار الفقر والجهل ، تلك القصص التى تحطم فى غير هوادة التصورات الرومانتيكية التى كان يعتز بها « الناروديين » فليس فيها اشارة واحدة الى التذمر المتزايد بين صفوف الفلاحين والى الروح المتمردة التى أخذت تتفشى بين رقيق الارض فى روسيا .

والصفة البارزة فى ملامح الفلاحين الذين رسمهم تشيكوف بقلمه هى مزيج من الجهل والانحطاط والخشونة مع انسانية عميقة وايمان وطيد بالعدالة واعتقاد بأن أهم ما فى الحياة هو الصدق . وقصص « تشيكوف » عن الفلاحين مشحونة بهذه الانسانية العميقة مع الحب القوى للشعب والايمان بهم وبقوتهم الاخلاقية العظيمة . وشخصية « ليبا » (فى الحضيض) من أكثر صور الفتيات القرويات سحرا فى الادب الروسى ، غير اننا لا نشعر فى اية قصة من قصصه عن الفلاحين بنمو روح التمرد . ونستطيع ان نميز نغمة التامل المكتئب والتعاطف العميق فى جميع هذه القصص ولكنها تخلو تماما من دعوة « نكراسوف » الى التمرد كما تخلو من أية محاولة لاكتشاف القوى القادرة على الكفاح فى القرية ، كل ما يستطيع أن يقدمه الكاتب هو اقتناعه المتين بأن تلك الاحوال المؤسفة لا يمكن أن تمضى على هذا النحو . لقد حملته غريزته التاريخية والاجتماعية العميقة الجذور على الإعتراف بالتقدم ، ولكن لم يتح له أن يعبر تعبيرا صريحا عن ايمانه بتطور التقدم منعته من ذلك تلك الحقيقة وهى انه لم يتعرف على القوى التى قدر لها أن تحرر المدينة من سطوة « الشيطان » .

ولكنه كان يدرك أنه فى تلك الحياة التى ينتظرها ويتوقعها فى لهفة والتى تسود فيها العدالة يمكن ان يصبح التقدم والمدنية مصدرين لسعادة الجميع .

وكأنه كان يريد أن ينبىء القارىء بأنه فى تلك الحياة المقبلة وحدها المتحررة من القوانين المستبدة الغاشمة يمكن بلوغ السعادة الانسانية الصادقة لا السعادة الحيوانية فحسب .

وليس من حق الانسان فى مجتمع تقوم فيه « السعادة » على الآلام وضطهاد الملايين ان يفكر فى سعادته الشخصية وهذه النغمة من النغمات المألوفة فى الادب الروسى ذلك الادب الذى كان ينطوى دائما على مستويات اخلاقية قاسية . فالسعادة الشخصية فى مجتمع تقوم فيه سعادة المرء

بالضرورة على شقاء الآخرين هى سعادة تتنافى مع الاخلاق وفى التصوير الذى كتب لرواية « وكر الاعيـــان » يلخص « لافرتسكى العجوز » تجربة حياته الطويلة فى نتيجة واحدة. هى أن الكائن البشرى الذى يحترم نفســه لا يمكن أن يكون سعيدا . وقد أصبحت هذه النغمة عند « تشيكوف » من أهم النغمات فى كتابته .

ويعرض « تشيكوف » بكل ما يملك من منطـــق وقوة شاعرية وعمق فكره الفنى الطبيعة الحقيرة الجـائرة للسعادة البدائية القائمة على الانانية .

وقصة « عنب الثعلب » من الامثلة الطريفة على ذلك . وفيها يروى « ايفان ايفانيتش » قصـــــة أخيه « نيكولاى ايفانيتش » الموظف المتقاعد .

كان « نيكولاى ايفانتيش » يحلم طيلة حياته بأن يمتلك ضيعة يستطيع أن يزرع فيها نبات « عنب الثعلب » .

« وكان شخصا ضعيفا طيب المعشر وكنت شديد الحب له ولكننى لم أكن أشعر بأى تعاطف مع رغبته فى الانعزال عن الحياة فى ضيعة يملكها . ويقولون ان الانسان يحتاج الى ستة أقدام من الارض فحسب ، والواقع أن الانسان لا يحتاج الى ستة أقدام من الارض ولا الى ضيعة بأكملها وانما يحتاج الى الكرة الارضية كلها والى الطبيعة كلها لكى يمارس صـــفاته وخصائص روحه الفردية »

هذا هو تصور « تشيكوف » للسعادة الانسانية الحقيقية : أن يتمتع الانسان بحرية لا محدودة وأن يعيش فى مكان غير محدود وأن يمارس عمله الخلاق بأقصى ما يملك من جرأة وجســـارة ! ويتحقــق الحلم الذى كان يراود « نيكولاى ايفانيتش » ويذهب « ايفان ايفانيتش » لزيارة أخيه وهنا نجد أن وصف الضيعة يصبح وصفا رمزيا ويستحيل كل سطر فيه الى عرض لبغضه للملكية .

« عندما اقتربت تصدى لمقابلتى كلب أحمر سمين أشبه بالخنزير ، وكان يبدو على ملامحه كأنه يريد ان ينبح لولا أن كسله يمنعه . وخرجت الطاهية من المطبخ حافية القدمين وكانت هي أيضا سمينة أشبه بالخنزير وقالت ان سيدها ذهب لينال قسطه من الراحة المألوفة بعد الغداء . وشققت طريقى الى حجرة أخى فألفيته جالسا فى سريره وقد غطى ركبتيه بغطاء من الصوف . كانت الشيخوخة قد دبت اليه وأصابته البدانة والترهل وتضخمت وجنتاه وأنفه وشفتاه وكدت أتوقع أن يقبع كما يقبع الخنزير فى فراشه » .. والآن جاء دور « عنب الثعلب » ـ لا عنب الثعلب الذى يشتريه بالنقود وانما عنب الثعلب الذى ينمو فى حديقته الخاصة وكان أول الثمار التى زرعها فيها . وظهر عنب الثعلب على مائدته وكان نيكولاى ايفانيتش يلتهم حباته فى شراهة ولا يكف عن ترديد هذه العبارة : « انها لذيذة جدا! حاول أن تجربها بنفسك !

« وكانت حبات العنب فجة جامدة غير أن الكذبة التى تبعث فى نفوسنا النشوة اعز علينا من الف حقيقة ثابتة . كما يقول بوشكين »

يا لها من سعادة فجة بغيضة تغنى لها النفس ، تلك السعادة التى تتولد عن الشعور بالملكية !

« لقد كان تصورى للسعادة الانسانية يصطبغ دائما بصبغة من الكآبة ، والآن وأنا أقف وجها لوجه ازاء رجل سعيد طغى على شعور من الحزن الذى أوشك أن يكون قنوطا وقلت لنفسى ما أكثر السعداء القانعين من الناس فى هذه الدنيا ! ويا لها من قوة طاغية ! فلنتأمل هذه الحياة وما يتصف به القوى من تبلد وصفاقه وما يتصف به الضعيف من جهل وحيوانية ولن تجد حولك الا فقرا مدقعا ومنازل شوهاء .. لن تجد حولك غير الانحطاط والسكر والرياء والكذب ومع

ذلك يبدو لمن يأخذ الامور بظواهرها أن السلام والنظام يسودان هذه المنازل وتلك الطرقات جميعا ولن تجد فى الخمسين ألف من السكان الذين يقطنون احدى المدن شخصا واحدا يصيح بأعلى صوته ويعلن عن سخطه جهارا ... بل كل شيء هادىء ساكن والاحصاءات وحدها ، الاحصاءات الخرساء هى التى تجأر بالاحتجاج : فكثيرون قد أصابهم الجنون وبراميل كثيرة من الخمر قد استهلكت وعدد كبير جـــدا من الاطفال قد احتضرهم الموت بسبب سوء التغـــذية .. أما من الظاهر فكل شيء كما ينبغى أن يكون ومن الظاهر فحسب لا يستطيع الا السعداء وحدهم أن يمنعوا أنفسهم لان التعســـاء يحملون أثقالهم فى صمت وبسبب هذا الصمت فان السعادة مستحيلة

« وقد تركت أخى مبكرا فى صباح اليوم التالى ومنـــذ تلك اللحظة وانا لا أطيق لحياتى المدنية احتمالا وأصبح السلام والنظام يجثمان فوق انفاسى واننى لأخشى أن أنظر الى النوافذ فليس أشق على نفسى الآن وليس أبعث على حزنها من منظر أسرة سعيدة تجلس حول مائدة الشاى .. ليس هناك شيء اسمه السعادة ولن توجد هذه السعادة ولكن اذا كان لا بد للحياة من معنى أو هدف فينبغى ألا نلتمس هذا المعنى أو هذا الهدف فى سعادتنا الماضية . ولـــكن فى شيء أعظم من ذلك وأكثر رشدا ولذلك أنصحك أن تصنع الخير ! » .

لم يستطع « ايفان ايفانيتش » أن يفصح عما ينبغى ان يفعل لكى نقضى على تلك « السعادة » المبتذلة ونحطمها ، تلك السعادة التى تصرخ الاحصاءات الصامتة بوضاعتها . ولـــكنه يرى فى وضوح أن الكفاح ضد نظام الحياة كله أمر ضرورى .

هذا الشعور الحاد بأن من المحال أن يمضى الناس فى الحياة على هذه الوتيرة التى يعيشون عليهـــا الآن والاقتنـــاع بأن السعادة التى تقوم على الانانية وآلام الغالبيـــة العظمى من الناس يجب أن تزول .. هـــذا كله من الســـمات المميزة لتشيكوف فى المرحلة السابقة على الثورة .

وهنا نستطيع أن ننصت فى وضوح الى النغمة الرئيسية للفترة السابقة على حياة جديدة وعلى الارهاص بتغييرات اساسية . وهنا أيضا نتبين نغمة التحدى للانتقاض على القناعة والغرور اللذين اطمأن اليهما بعض الناس . ونحن نرى أمام أعيننا كيف تنمو تلك الحبات الصغيرة البريئة من عنب الثعلب ثم تنتفخ وتتضخم حتى تصل الى حجم هائل يخسف كوكبنا الارضى وتصبح رمزا مضحكا . ان قوة الشعور بالملكية تضع قبضة ضخمة على الاشياء جميعا وتجعل كل ما يتصل بها فجا صلبا تعافه النفس ويسلب الحياة بكل ما فيها من سرور . وقد تناول « تشيكوف » موضوع « السعادة » الانانية البذيئة الوضيعة ، تناولا قويا منذ عام ١٨٩٤ فى قصته « مدرس الادب » . وملخص القصة أن « نيكيتين » ، وهو شاب يدرس الادب فى مدرسة من مدارس الاقاليم يتزوج فتاة من عائلة طيبة تملك ثروة محترمة وفى الشهور الاولى من حياته الزوجية كان قلبه يفيض سعادة وهناء .

« قال اننى سعيد الى غير حد معك ياحبيبتى ، وربت على أناملها وأخذ يعبث بخصلات شعرها ، ومع ذلك فأنا لا أنظر الى سعادتى كشىء أتى الى عن طريق المصادفة ، انها ظاهرة طبيعية ومعقولة تماما ، وأنا أؤمن أن الانسان هو خالق سعادته وأنا الان أتناول ما خلقته بيدى الاثنتين . أجل اننى اقولها صريحة اننى صنعت سعادتى بنفسى وانا الآن أستمتع بها لانها من حقى . وانت تعلمين كل شىء عن حياتى الماضية وتعلمين أن طفولتى اليتيمة المعدمة الشقية وأن شبابى القاحل الكئيب .. كل ذلك كان كفاحى وكان طريقى الى السعادة التى وضعت دعائمها »

فما أشد هذا اللون من التفكير تمييزا لهؤلاء « الاشخاص المحظوظين » فى المجتمع الذى يقوم على الملكية الفردية !

ولانه من أبطال تشيكوف فانه لا يمكن أن يرضى بهذه

السعادة والرفاهية لشخصية (مثل زرستنياك الذى ينجح فى حياته ويكدس ثروة طائلة فى رواية«الملهاة الانسانية»لبلزاك) .

ويأتى اليوم الذى يستيقظ فيه « نيكتين » ـ شأنه فى ذلك شأن جميع شخصيات تشيكوف التى تتمتع باحترام الكاتب ، ويتأمل الحياة التى يحياها فى خجل واشـمئزاز وبعينين جديرتين بكائن انسانى ويدرك ما يحيط به من ابتذال ويرى كل شىء فى ضوء جلى صاف خال من الاحلام الوردية .

« .. وأحس بعاطفة قوية .. بالحنين الى شىء يمكن أن يحمله بعيداً وان يجعله ينسى نفسه ويشعر بعدم المبالاة نحو سعادته الشخصية بما تنطوى عليه من احساسات رتيبة .. ويرى فى جلاء أن سلام نفسه قد تحطم الى الابد وان اوهامه قد تلاشت وان حياة جديدة واعية متجاوبة تتنافى مع سعادته وراحته الشخصيتين قد لاحت فى الافق . حياة أمينة وواعية تتنافى مع السعادة الشخصية الراضية عن نفسها!

« ان السعادة ومتعة الحياة ليست فى المـال وليست فى الحب بل فى الحقيقة ، وحتى لو سعيت الى السعادة الحيوانية فالحياة لن تسمح لك بأن تنتشى منها وتشعر بالسعادة بل سوف تصب عليك الضربات المفاجئـة بلا انقطاع » (من مذكرات تشيكوف) .

ان شخصيات تشيكوف تنقسم الى نوعين : النوع الاول مثل « نيكيتين » يسعى الى أن ينفض عن كاهله الابتذال الذى يحيط به ، والثانى مثل « يونينيش » يغوص فى مستنقع ذلك الابتذال حتى الاعماق . وفى هاتين القصتين : قصـة مدرس الادب وقصة يونيتش تسود قوة الابتـذال . فان أفضل تجربة واكثرها شاعرية فى حياة « يونيتش » وهى حبه لكيتين ، تظهر لنا فى نهاية الامـر على أنهـا لم تكن على مثل تلك الشاعرية لان « ليكتن » نفسـها لم تنأ كثيرا عمـا فى فى أسرتها وبيئتها من ابتذال .

والقصة تتابع عملية تدهور فرد وسقوطه اذ تستغرقه شيئا فشيئا شهوته الى تكديس الاموال والعقار ويستحيل فى نهاية الامر الى نموذج للاغلبية المثقفة فى ذلك العهد .

ويلاحظ « جوركى » فى نقده لقصة « فى الحضيض » ملاحظة تنفذ الى أعمق أعماق عمل « تشيكوف » الخلاق وهى أن « تشيكوف » يكشف كما لا يستطيع أحد غيره فى صفاء باهر الصراع القائم بين الانسان فى سعيه أن يكون شيئا افضل وسعيه الى شق طريقه فى هذا العالم . وفى المجتمع الذى تقوم أسسه على الاستغلال تتناقض هاتان المحاولتان اللتان يقوم بهما الانسان . ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يشق طريقه فى هذا العالم الا على حساب الآخرين وبالتالى فان هؤلاء الذين يشقون طريقهم « أفضل » من غيرهم هم أنفسهم « أسوأ » الناس وابعدهم عن الانسانية .

وكأن «تشيكوف» يحلم بطريقة فى الحياة يزول منها هذا الصراع الابدى الاليم ، بحياة تتوحد فيها مطامع الانسان الطبيعية الى مطمح واحد بحيث يكون الانسان الذى يريد أن يكون أفضل مما هو حقا هو أفضل الناس حقيقة . ولكن حتى يحين هذا الوقت فلن توجد السعادة الا فى التطلع الى حياة عادلة فى المستقبل وفى الكفاح المتواصل من أجل هذا المستقبل . أما أى ضرب آخر من السعادة فيتنافى مع الاخلاق ويمعن فى الوحشية ، والاحساسات التى تصاحبها ستكون مملة تعسة مجدبة .

هذه النتائج الواضحة التى وصل اليها تشيكوف هى كلها نتيجة لشعوره المتزايد بالمسئولية حيال الشعب .

وفى قصته « فى مهمة رسمية » (١٨٩٩) يصل قاضى التحقيق الشاب « ليزهين » برفقة أحد الاطباء الى احدى القرى للتحقيق فى حادث انتحار ويلتقى هذا المحقق الشاب فى تلك القرية بأحوال تثير فى نفسه حزنا عميقا اذ يشاهد

بعينيه الفقر المدقع والتعاسة الصارخة التى يعيش فيها الفلاحون ، ويرى كوخاً مظلماً يستخدم مكتباً للحكومة ويباشر التحقيق فى حادث انتحار وكيل تعس سيء الحظ لاحدى شركات التأمين ويصادف كاتبا عجوزا من الكتبة العموميين ظل يؤدى عمله ويقوم بدورته اليومية ثلاثين عاما فى الصقيع والرياح يسلم الخطابات لاصحابها والاخطارات والتنبيهات وأوراق الضرائب التى يحملها فى حقيبته فيا لها من حياة باردة قاسية شقية !..

وعلى عكس هذه الحياة نجد الحياة دافئة مريحة بهجة فى منزل صاحب الارض حيث يدعى الطبيب والمحقق ، هذا المنزل الذى يموج بسيدات الطبقة الراقية الرشيقات .. وبالابهة والموسيقى والضحكات المرحة وكأنه حلم فى أرض خرافية .

وقد بدا هذا التحول الصارخ فى عين « ليزهين » شيئا خياليا وكان من العسير عليه أن يصدق أن مثل هذا التحول يمكن أن يقع على بعد ميلين أو ثلاثة اميال تقطعها العربة فى ساعة واحدة . وقد منعته تأملاته الحزينة أن يشارك فى ذلك المرح ولم يتمالك نفسه من أن يعتقد أن ما رآه حوله لم يكن حياة وانما كان شذرات من الحياة : مجرد فتات وان كل هذا قد حدث عرضا وبمحض المصادفة وانه لا يمكن استخلاص أية نتائج منها .. »

وقضى ليلة مسهدة فى فراشه الناعم الوثير فى منزل ذلك السيد وظل يحلم بأنه ليس فى مكانه بل ما زال فى كوخ « الزمستوف » والى جانبه جثة وكيل التأمين . ورأى فى منامه حلما رهيبا : رأى أن المنتحر والكاتب العجوز يسيران جنبا الى جنب فوق الثلوج وقد استند أحدهما على الآخر بينما أخذت الزوبعة تزأر حولهما والريح تضرب ظهريهما وهما يترنمان دون انقطاع بهذه العبارة :

« نحن نمضى الى الامام الى الامام الى الامام » .

وكان الرجل العجوز أشبه بساحرة من ساحرات الاوبرا وكان

غناؤهما أشبه بغناء الاوبرا ايضا : « فلنمض الى الأمام الى الامام الى الامام . انت تشعر بالدفء ولديك النور وكل شيء حولك ناعم ، أما نحن فنمضى فى الصقيع والزوابع فوق الجليد المتراكم لا نعرف سلاما ولا فرحا .. نحمل عبء هذه الحياة .. حياتنا وحياة الآخرين . أواه ! نحن نمضى الى الامام الى الامام الى الامام ..

« واستيقظ ليزهين من نومه وجلس فى فراشه . ياله من حلم مفزع غريب ! »

وأخذ يتأمل هذا الحلم وفى «تلك الفكرة التى ظلت تطارده فى غموض » وفجأة « اتخذت شكلا واضحا تمام الوضوح فى شعوره » هذه الفكرة هى أن الحياة ليست مصنوعة من « جذاذات » وشذرات مستقلة ولكنها ملتحمة فيما بينها التحاما وثيقا ـ ويشعر ان ذلك البائس المسكين الذى وضع حدا لحياته وذلك « الفلاح العجوز الذى يقضى حياته كلها متنقلا من شخص الى آخر » وما كان يموج به منزل صاحب الارض من مرح ـ يشعر بهذا كله جاثما فوق ضميره ويشعر أنه مسئول شخصيا عن هذا كله .

« ويحس أن حادث الانتحار وحياة الفلاحين الشاقة تجثم فوق ضميره . أليس من الجرم أن يسكت على الحقيقة الا وهى أن هؤلاء الناس الذين يتحملون نصيبهم فى الحياة منصاعين ، عليهم أن يتحملوا كل ما هو جائر شاق فى هذه الحياة ؟ أن يسكت الانسان على هذا كله وأن يطمع الى أن يعيش حياة مشرقة مرحة بين رجال ونساء راضين بحياتهم وأن يحلم باستمرار بمثل هذه الحياة معناه أن يحلم دائما بمزيد من حوادث الانتحار يرتكبها أناس طحنتهم الهموم والارهاق فى العمل ..

« ويعود الغناء مرة أخرى : « نحن نمضى الى الامام الى الامام الى الامام ..

« وكان يشعر كأن شخصا ما يهوى بمطرقة فوق رأسه »

هذا هو ضمير تشيكوف الروسى الصـــميم ، انه يدق بالمطرقة دقات متواصلة ولا يمنحه شيئا من الراحـــة ولا يستطيع منه فرارا انه شيء محتوم « لا يعرف شفقة ولا رحمة مثل « نيكيتا » (عنبر رقم ٦) ان الضمير يحرم عليـه السعادة ويقول هذا الضمير ان السعادة فى مجتمع يقوم على الملكية الفردية ، هذه السعادة مبنية على القتل المســـتمر للرجال والنساء الذين حطمهم الارهاق والهموم . ويشعر البطل الذى خلقه « تشيكوف » بمسئوليته عن كل ما يجرى فى هذا العالم ، انه لا يريد أن يغسل يديه مما يجرى . وأن يضع مسئوليته على عاتق شخص آخر ، ان خيوط الحياة المعقدة قد تشابكت جميعا فى ضميره ويشعر انه مجبر على تسليكها الواحد عن الآخر ولا مجال هناك للفرار من حيـاة الآخرين فى جحور صغيرة ضيقة لانها سوف تتبعك حيثمـا ذهبت !

« كان «ليزهين » ينام فى حجرة دافئة على فـراش ناعم ويتغطى بغطاء من الصوف على ملاءة نظيفة من قماش فاخر ولكنه مع هذا كله لم يكن مرتاحا ، ربمـا لان « الطبيب » و « فون تونيتر » كانا يتجاذبان أطراف حـــديث طويل فى الحجرة المجاورة ، بينما كانت العاصـفة ترسل أصـــواتها المزمجرة خلال المدفأة القائمة فوق رأسه كما كانت تزمجر فى المكتب « أو أو أو وو ! »

اجل كانت العاصفة تعوى لا حول أكواخ « الزمستوف » التى خيم عليها الفقر والحزن اليائس من الحياة فحسب ، وانما كانت تعوى أيضا حول ذلك القصر الريفى الذى تشع منه الراحة والدفء : انها ليست عاصفة « خاصة جزئية » وانما عاصفة « عامة » لا مجال للفرار منها ! والحاجة تدعو الى « مبدأ سائد » يربط الاشياء جميعا فى كل واحد ويفسر

الارتباطات بين جميع مظاهر الحياة بما فيها من احتدامات عنيفة ، ويعلل الاشياء جميعا عن طريق علاقة شاملة واحدة بين الناس كافة .. عن طريق فكرة واحدة . ويحس بطل « تشيكوف » بدنو العالم من هذه الفكرة السائدة – انها تكاد تكون فى متناول يده وعندما يمسك بها فلن تبـدو له الحياة بعد ذلك كما كانت تبدو لبطل « قصـة مملة » .. عبارة عن شيء مقسم الى أجزاء صغيرة وصور وجذاذات منفصلة .

وثمة صلة بين هاتين القصتين قصة « مهمة رسمية » و «حكاية مملة» وإن فصلت بينهما فترة من الزمن تبلغ حوالى عشر سنوات . واذا عقدنا بينهما المقارنة استطعنا أن نرى المسافة الطويلة التى قطعها « تشيكوف » وبطله فى هـــذه الفترة . فى القصة الاولى نلمس حنين البطـل الى « فكرة سائدة » ، وفى القصة الثانية نحس بآلام المخاض التى تصاحب مولد هذه الفكرة ، وهذا هو الوصف الذى ينطبق تماما على العملية التى كانت تجرى فى عقل « ليزهين » .

ان « تشيكوف » شاعر السعادة والشباب والحب يشيح الآن بوجهه هو وأبطاله عن السعادة ولكنه يربط بين هـــذه الفكرة – فكرة السعادة – بالحياة الجميـلة التى يدخـرها المستقبل للانسانية . وفى المستقبل وحده ستكون العواطف الانسانية جميعا – ومن بينها الحب – جديرة بأسمائها !

كان « تشيكوف » يجاهد لرؤية الحياة المعاصرة بعيـون المستقبل . ومن هذه الناحية نجد أن قصة «زيارة الاصدقاء» (١٨٩٨) على أكبر جانب من الدلالة ، ولا جدال فى أن طرافة الافكار والمشاعر التى صورها « تشيكوف » لاول مرة فى الادب سوف تبعث على دهشة القارىء .

وملخص القصة أن المحامى « يود جورين » يغادر موسكو فى زيارة تستغرق ثلاثة أيام لضيعة يملكها أصدقاؤه أصدقاء

شبابه القدامى تلبية لدعوة عاجلة تلقاها منهم . وهذه الضيعة يتهددها خطر الافلاس نظرا لسوء الادارة التى خضعت لها ، وتتطلع الاسرة الى « بود جورين » لانقاذها من ورطتها . كما تتوقع هذه الاسرة فيما تتوقعه من أمورأخرى أن يتزوج « بود جورين » من الاخت الصغرى لربة المنزل وهى فتاه لطيفة تدعى « ناديا » ، وحينئذ قد يكون فى الامكان انقاذ الضيعة من الخراب . وتنتظر « ناديا » كلمة حاسمة من « بود جورين » وتحلم بأن تربط مصيرها بمصيره . وهى فتاة صافية الخاطر رشيقة الجسم تصبو الى حياة من الكدح الشريف . وكان « بود جورين » قد تعرف عليها منذ عهد بعيد عندما كانت فى سن المراهقة ، فلا غرو كان الجميع ينظرون اليهما باعتبارهما مخطوبين . ويدرك « بود جورين » تمام الادراك أنها ليست « آنسة صغيرة » تبحث عن زوج ، وانما فتاة ذكية متسامية التفكير طيبة القلب بدرجة غير مألوفة وأن روحها وديعة رقيقة لينة العريكة بحيث يمكن أن تتشكل بأية صورة ، فاذ عاشت فى البيئة الصالحة أصبحت امرأة رائعة .

وتساءل بود جورين : « لماذا لا يتزوجها على أية حال ؟ » ولم تلبث هذه الفكرة أن أفزعته بعد أن طرح على نفسه ذلك السؤال . فماذا أفزعه فيها الى الحد الذى دفعه الى التسلل من الضيعة صباح اليوم التالى على وصوله مع انه كان ينوى البقاء ثلاثة أيام ؟

لقد فزع « بود جورين » من ذلك الشيء نفسه الذى أفزع « نيكيتين » فى قصة « مدرس الادب » والذى أفزع « ايفان ايفانيتش » شقيق بطل قصة « عنب الثعلب » وغيرهما من شخصيات « تشيكوف » :

... انه كان يخاف السعادة . ويقول له صديقه القديم مشيرا الى علاقته بناديا : « لا تهرب من سعادتك يا « ميشا »

وانما تمسك بها وهى فى متناول يدك ، لانك اذا تخليت عنها اليوم فسوف تجرى وراءها غدا ، وسيكون الوقت متأخـرا ولن تستطيع اللحاق بها » . غير أن « بود جورين » يهرب ـ بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ـ من السعادة ولا يحاول اللحاق بها . ويتحدث الى « تاتيانا » صاحبة الضيعة ويستعرض حياتها . و « تاتيانا » سيدة أنيقة ذكية تعيش ولا هدف لها فى الحياة غير ابنتيها الصغيرتين وزوجها « سرجى سرجيتش»

« ويبتسم بود جورين لها ولفتاتيها الصغير تين ولـكنه لا يتمالك نفسه من الدهشة لان هذه السيدة الشابة السليمة الجسم المتوسطة الذكاء تنفق طاقاتها وجهودها جميعا على مثل هذا العمل البدائى التافه الا وهو ترتيب هذا « العش » الذى تم ترتيبه منذ عهد بعيد .

« ويحدث نفسه قائلا : ربما كانت على حق فى ذلك ولكن ما أبعد الامر كله عن الطرافة والذكاء » . ويقول لنفســه وهو ينظر الى « ناديا » شقيقتها الصغرى : « وان ما دار مرة فى نفس شقيقتها « تاتيانا » يدور الآن فى نفسها هى ، أى أنها لا تفكر فى شىء آخر غير الحب والزواج بأسرع ما يمكن وأن يكون لها زوج وأطفال ومسكن خاص بها » . ويرى فى وضوح أن سعادة « ناديا » اذا عاشت معه ، ستكون مجرد نسـخة متنوعة من السعادة التى تتمتع بها « تاتيانا » فى كنف زوجها « سرجى سرجيتش » . نفس المتع المليئة بالاثرة هذه هى الحياة وهذه قوانينها ! انه لا يعرف ماذا يضع مكان هـذه القوانين بيد أنه يثور بكل كيانه على هـــذه الهناءة المبتذلة الرتيبة الانانية .

أما أصحاب الضيعة فكانوا يحاولون طيلة الوقت اقناع أنفسهم بأن كل شىء بينه وبين « ناديا » يسير على ما يرام .

« ويرتفع القمر الى كبد السماء بينما تنتظر « ناديا » أن يسعى اليها « بود جورين » فى الحديقة دون أن يساورها ادنى

شك فى قدومه ، ويخرج بود جورين ليتجول قليلا ويرتقى سلما يفضى الى برج داخل المنزل ، ومن هناك يرى وجـه « ناديا » بوضوح فى ضوء القمر من حيث لا تراه هى وتحس « ناديا » بغريزتها انه فى مكان ما قريب منها وتقول لكلبها : « هناك شخص ما يحوم حولنا » ..

« ووقفت فى مكانها تنتظـر أن ينزل اليها أو أن يدعوها اليه وذلك لكى يصارحها أخيرا برأيه وسوف يشعران معـا بالسعادة فى هذا الليل الساجى الجميل . وقفت هناك بقامتها النحيلة وقد ارتدت ثوبا ابيض وشحب وجهها الفاتن فى ضوء القمر .. وقفت هناك تنتظر أن يعلن اليها حبه .. بينما كان هو يشعر بالخجل وقد انطوى على نفسه والتزم الهدوء ، بدون أن يدرى ايهما أفضل : أن يتحدث ويحول كل شيء الى دعابة كما هى العادة ! ام يظل صامتا ؟ .. وأحس بالحنق على نفسه . وكان كل ما يستطيع التفكير فيه أنه يقف بلا مبالاة هنا فى الحديقة وفى ضوء القمر وعلى مقربة منه فتـاة صغيرة جميلة عاشقة حالمة .. ربما كان ذلك لان هذا النوع من الشعر لم يعد له وجود بالنسبة اليه ، ولم تعد تؤثر فيه مقابلات العشاق فى ضوء القمر والاطياف البيض والظلال الغامضـة والابراج والحقـول وأنماط الناس التى تشـبه « سرجى سـرجيتش » بل التى تشبهه هو أيضا لما يعتمل فى نفسه من ملل وسخط متصل وشهوة ملحة مرهقـة الى ما لا وجود له وما لا يمكن أن يوجد فى هــذا العالم الذى نعيش فيه . وكان يؤثر وهو يجلس الآن فى ذلك البرج أن يشاهد مجموعة من الصواريخ أو موكبا فى ضـوء القمر أو امرأة أخرى تقف على الرابيـة حيث وقفت ناديا .. امـرأة تستطيع أن تقول له شيئا مسليا طريفا لا يمت بصلة الى الحب والسعادة أو اذا تحدثت عن الحب فليكن هذا الحب بمثابة تحد له أن يبتكر صورا جديدة من الحياة ، الحيـاة

عليها ، والتي نشعر أحيانا بنسائمها تهب علينا .

قالت « ناديا » : « لا أحد هناك »

« وبعد أن انتظرت دقيقة أخرى أو دقيقتين اتجهت صوب الغابة منكسة الرأس وكان الكلب يعدو امامها وظل « بود جورين » يراقب هذه البقعة البيضاء وقتا طويلا ..

« كم يبدو هذا كله محرجا ! وجعل يردد هذه العبارة بينه وبين نفسه أثناءعودته الى حجرته في الجناح الملحق بالدار » .

ان كل سطر وكل كلمة في هذه القصة دليل ماثل على عبقرية تتطلع في بصيرة ملهمة بل تكاد تشعر بحضور حياة أخرى على مستوى أعلى ، في مكان ما بالقرب منها بل الى جانبها تماما وكأنما هبت ريح عاتية من المستقبل حتى بلغت الشاعر فرفعته الى طبقة هوائية أخرى ، وأخذ الشاعر يطل من ذروة المستقبل على الحياة المعاصرة فيرى الحاضر وكأنه ماض ممل عتيق تافه ! وأي شيء أبعث على الضجر أو أشد رتابة من أن يدعي المرء لمساعدة أصحاب ضيعة يتشبثون برفاهيتهم ويتمسكون بسعادتهم بحسبانهم ملاكا للأرض ! !

ان صورة هذه الحياة جميعا بل طريقة وجودها وما تزخر به من أنماط بشرية وحب وشاعرية وما لها من جمال قديم قد استحالت الى أشياء تنتسب الى الماضي ، وينبغي الآن أن يتغير كل شيء وقد ازدحمت مخيلة « بود جورين » بمناظر لجمال جديد ما زال مجهولا . انه يحلم بشعر الغد المجهول الذي سيحل محل شعر « تورجنيف » عن الضياع الريفية والظلال الغامضة والاطياف البيض ذات الخصور النحيلة ومواعيد اللقاء في ضوء لقمر وكل ما تعج به رواية « وكر الاعيان » من شاعرية كانت في وقت من الاوقات أخاذة ولكنها فقدت الآن ما فيها من جاذبية .

واننا لنجد أن شيئا صغيرا كأحلام تشيكوف وبطله عن

المواكب والصواريخ وعن عطلة عامة عظيمة أمــر خليق بشيء من الاهتمام . فهذا جمال جديد يغزو الحيــاة .. جمال يشارك فيه الجميع هو جمال الحرية ، جمال يكسو آفاقا جديدة لم يسبق لها مثيل من الحيــاة · شيء طريف حقــا ، تلك القدرة التي يملكها « البطل » في أن يلقى نظرة على نفسه من أعلى وكأنه ينظر من قمة المستقبل فيرى نفسه نمطا من انماط الماضي ومن عهد ينحدر في ضباب الامس وكانما يصغي الشاعر الى أصوات تأتي اليه من المســـتقبل وكأنه يبصر الكائنات البشرية الجديدة التي تعرف ما ينبغي أن تفعــل وكيف ينبغي أن تفعله ، كائنات انسانية قد كسبت حقها في الفرح والحب .

ان شخصيات « تشيكوف » « تؤجل » الحب والســعادة حتى يحين المستقبل ، الى الاجيال القادمة لان الحب والسعادة لن يكونا جديرين باسميهما الا في المستقبل فحسب وعندما يتطهران من شوائب السوقية والقذارة .

ولسنا نعرف عددا كبيرا من الفنانين استطاعوا أن يعالجوا موضوع الحب بأفراحه واتراحه بمثل هذه الدقة البالغــة البصيرة الثاقبة كما فعل مؤلف قصة « السيدة صــاحبة الكلب » و « عن الحب » وغيرهما من القصص . ومن سخف الرأى ان نفترض أن « تشيكوف » حرم على نفسه أو على شخصياته الحب ومسرات الحياة الزوجية .

والواقع أن شخصا مثله كان ينظر الى الحاضر في ضــوء المستقبل لا يمكن أن ينظر الى حياة تهب فيها المرأة كل عقلها وكل مواهبها وكل طاقتها للعناية بعشها الصغير .. لا يمكن أن ينظر الى مثل هذه الحياة الا باعتبارها شيئا مضــــحكا مشوها وما أخصب الحياة لو أن هذه القوى الخلاقة كرست للبحث عن المسرات العظمى : الوطن والشعب والانســـانية جمعاء ! وكم تكون مسرات الحياة العائلية حينئذ أنبل وأسمى وأصدق شاعرية !

ونستطيع أن ندرك الى أى مدى كان « تشيكوف » على وعى حاد بأنه يعمل للمستقبل من رسالة كتبها الى « س . دياجيليف » رئيس تحرير المجلة البورجوازية « ميرايسكو ستفا » (دنيا الفن) وكان هذا الاخير قد قرظ مسرحيته « الطائر البحرى » على أمل أن يغرى تشيكوف بالانضمام الى احدى الحركات الدينية . يقول تشيكوف فى هذه الرسالة : « ان ثقافة اليوم هى بداية العمل لحساب مستقبل عظيم ، والحركة الدينية التى كانت موضع نقاشنا ــ أنا وأنت ــ هى من مخلفات أو بالاحرى نهاية ما أصبح ــ أو ما هو فى طريقه الى أن يصبح ــ اثرا من آثار الماضى » .

وكانت الريح التى تحمل حــرية الغد لارض الوطن تهب فى قوة وجرأة متزايدة خلال كتاباته .

وتتميز قصة « الرجل الذى عاش فى قوقعة » (١٨٩٨) بجوها الشاعرى وبارهاص الحرية الذى يشيع فيها . وسلسلة القصص التى تتألف من « الرجل الذى عاش فى قوقعة » « عنب الثعلب » و « الحب » تفيض كلها بموجة جديدة من الاماني التى تصبو الى الحرية التى تشمل الحيــاة كلهــا والعلاقات الانسانية كافة تواكبهــا موجة جديدة من البغض لصلابة « القواقع » من كل الانواع ولكل ما يكبل الحياة من قيود وانحلال .

وشخصية «الرجل الذى عاش فى قوقعة» شخصية كئيبة قاتمة فما برحت تلك القوى المظلمة التى أوجدت مثل هؤلاء الرجال وناصرتهم خطرا داهما . وليس « بليكوف » شخصية كئيبة فحسب ولكنه مضحك أيضا فى محاولاته السـخيفة العاجزة التى بذلها لوقف مجرى الحياة ، وحبسها داخـل « قوقعة » . انه شـخصية قمينة بالرثاء حقا لخوفه من الحياة ومن كل ما هو جديد ومن كل ما يختلف عن أشـياء الامس . وفى ثنايا هذه القصة نشعر بنسمة نقية من الحياة نسمة لا تلائم الاشخاص الذين هم على شاكلة « بليكوف »

لان الحياة التى توجد حول «الرجل الذى يعيش فى القوقعة» وكل ما يحيط به فى حالة صراع معه والاشياء جميعا تناصبه العداء .

وفى مجرد وضع « فارنكا كوفلنكو » بنضارتها وتلقائيتها جنبا الى جنب مع هـذا الشـخص العليـل التافه المدعـو « بليكوفـ » يؤكد هذه الحقيقة ألا وهى أن « بليكوف » وأمثاله لم يخلقوا لهذا العالم كما يقول المثل . ان « بليكوف » جثة تعيش فى تابوت والناس جميعا يعتبرون موته الفعلى نوعا من الخلاص وكأنه الحالة الطبيعية الوحيدة « للرجـل الذى يعيش فى القوقعة » .

وما برح الحاضر الذى قوامه أشـخاص يعيشـون فى قواقع ما برح هذا الحاضر قويا ، بيد أنه لا يبدو ضـعيفا متهالكا الا عند مقارنته بالحياة الحرة الصادقة المقبلة ، فـلا عجب أن يهلع « بليكوف » من الحياة كل هذا الهلع !

وقد شجرت مناقشات لا نهاية لها عما اذا كان«تشيكوف» متفائلا أو متشائما . فاذا أدخلنا فى اعتبارنا وجهة النظر التى صدرت عنها هذه المناقشات بدت لنا جـوفاء مدرسـية ، ذلك أن « تشيكوف » لا يمكن أن يوضع داخل اطار يضم هـذا الضرب من النقاش . وقد اتهمه بالتشاؤم أولئك النقاد الذين يطالبون الكتاب أن يهدهدوهم بالاحلام الذهبية سـواء أكانت هذه الاحلام عن التطور السلمى والتدريجى للتقدم البورجوازى أو عن عجائب الصناعة ومصانع الجبن أو « أحلام الحياة من أجل الحياة » وهؤلاء النقاد ينتمون اساسا الى ذلك الطراز من الرجال الذين يطمحون الى السـعادة التى ترفضـها شخصيات « تشيكوف » فى احتقار بالغ ، تلك السـعادة التى لم تكن تقتضى بالضرورة أى تغيير أساسى فى « الحيـاة القائمة على العبودية » . والسـعادة التى كان يحلم بها تشيكوف » لم تكن مما يتلاءم مع مثل هذه الحياة . انها تفيض على شاطئيها فتحطم التقسيمات التعسة والجحور

الصغيرة وخمائل السعادة الرخيصة التي يتمتع بها أصحاب الاملاك وتكتسحها . أن تفاؤل « تشيكوف » من النوع الصلب القاسي الذى لا يقبل المهادنة .

وهو يعبر فى كتاباته عن ايمانه بالمستقبل الجميل الذى ينتظر وطنه ، بل ان المناظر التى يصورها فى هذه الكتابات مصطبغة بذلك اللون من الايمان .

« ما أجمل الاشجار ! وما كان أحرى بالحياة أن تكون جميلة حولها ! » (الشقيقات الثلاث) وفى هـذه العبارة تظهـر الموسيقى الخفية منبعثة من المناظر التى يصورها تشيكوف .

لكأنما تتشوف المناظر الروسية الى السعادة والى حياة جديرة بجمالها القوى !

ويقول « تشيكوف » على لسان « لوباخين » فى مسرحية « بستان الكرز » : « أحيانا عندما لا أستطيع النـوم أبدأ فى التفكير ، فأناجى نفسى قائلا : أوه يا الهى لقد وهبتنا غابات مترامية الاطراف وحقولا فسيحة وآفاقا بعيدة وكان يجب أن نكون نحن الذين نعيش هنا عمالقة ! .. » وارتبط الجمـال التقليـدى الذى تميزت به الليالى المقمـرة ، ارتبط لدى تشيكوف بحلمه عن انتصار العدالة : » .. وكان كل شيء على الارض ينتظر اندماجه بالعدالة كما يندمج ضـوء القمر بظلمة الليل » (فى الحضيض) .

أن اللحن القوى المتكرر عن اتحاد الحقيقة بالجمـال يتردد صداه بقوة عجيبة من خـلال التيار الشاعرى الكـامن فى كتابات « تشيكوف » .

وان كل شيء فى التربة الروسية ليتوق الى الاندماج بالحقيقة وكان « تشيكوف » شاعر هذه الاشواق وشاعر الايمان الذى لايقهر ... ايمان الشعب الروسى بانتصار الحقيقة .

ويقص علينا جوركي في مذكراته ان « لف تولستوى » الذى كان يحب « تشيكوف » لدرجة العبادة قال لتشيكوف ذات مرة : « انك روسى الآن ، أجل انك روسى جدا جدا » ويستطرد جوركي قائلا : « ابتسم تولستوى ابتسامة عذبة جدا وأحاط بذراعه كتفى أنطون بافلوفتش » .

ويقول الكاتب «ب . سرجينكو» أحد معاصرى تشيكوف : « لا تستطيع أن تتمالك نفسك من الشعور فى كل مايفعله تشيكوف ، وبالاخص فى كل ما يكتبه بالروح الفتية التى يتميز بها الشعب الروسى وما فيها من شاعرية ودعابة . بل لقد كان تشيكوف يبدو فى مظهر الشخص نفسه وكأنه فلاح روسى صميم فى قرية وليس غريبا أن تلتقى فى قرية روسية بفلاح يشبه تشيكوف وله نفس ملامحه وابتسامته أو بعبارة أخرى ما من قرية روسية يمكن الا تجد فيها « تشيكوف » . ان تشيكوف ابن حميم للشعب بحيث لو أنك غضضت الطرف عن جنسيته فلن تستطيع مطلقا أن تفهمه فهما كاملا سواء باعتباره انسانا أو كاتبا » .

« كانت أذواق تشيكوف روسية صميمة لا تختلف عن أذواق أى فلاح روسى وكان يحب البسطاء من الناس والبساطة فى الفن »

ومهما اختلف الناس الذين كانوا يعرفون « تشيكوف » فيما بينهم فان صورة « تشيكوف » باعتباره نمطا قوميا عميقا منقوشة فى عقولهم . »

ويقول « أ . ى . كوبرين » : « كان ثمة شيء يكاد يكون غريرا متواضعا فى ملامحه ، شيء روسى قوى عميق فى وجهه ونبراته ولهجته فى الحديث . »

ويستطيع « تشيكوف » أن يقول عن نفسه ما قالته احدى شخصياته فى قصة « فى الطريق » : « انني أحب الشعب الروسى حبا مبرحا .. أحب لغته وفنه . » وعندما تهتف

احدى شخصياته وقد بدهها ما فى أرض الوطن من جمال : « ما أعظم هـــذه الارض وأجملها ! » (عنب الثعلب) . أو تصيح كما صاحت بطلة قصة « مكتب للميت » : « يا الهى ما أروع هذه البلاد ! » .. فانهم جميعا يعبرون عن أعمق أفكار ومشاعر الكاتب نفسه . فقد كانت روحه الروسـية هي التى تتجاوب مع بلاده : تلك الام الجميلة الصارمة .

الطائر البحرى
(النورس)

بدأ « تشيكوف » العمل فى مسرحية « الطائر البحرى » عـام ١٨٩٥ . وفى أكتـوبر عـام ١٨٩٨ مثلت على مسرح « الكسندرينسكى » ببطرسـبرج . وقد كان كل ما كتبـه « تشيكوف » للمسرح قبل « الطائر البحرى » طريفا موهوبا الى أبعد حد ومع ذلك كانت مسرحياته حتى ذلك الحين أدنى مرتبة من قصصه بشـكل ظاهر . أما مسرحية « الطائر البحرى » فتعد بداية مرحلة أكد فيها « تشيكوف » نفسه باعتباره كاتبا مسرحيا من العباقرة .

ويمكن أن تعد مسرحية « الطائر البحرى » من أكثر أعماله انطباعا بشخصيته » ، كما انها العمل الطويل الوحيد الذى كرسه لموضوع الفن . وفى هذه المسرحية يفصح الكاتب عن أعز الافكار الى نفسـه . . الافكار التى تدور حول الطريق الوعر الذى يجب أن يسلكه الفنان وما يؤلف جوهر الموهبة الفنية وما تتكون منه السعادة الانسانية .

ومسرحية « الطائر البحرى » من ألطف ما أنتجته عبقرية « تشيكوف » المسرحية ، وهى بسيطة ومعقـدة كالحياة نفسها ، واللحن الداخلى الحقيقى فيها لا يتكشف للمرء من أول وهلة كما أننا لا نستطيع أن نفسر فى التو واللحظة المواقف المعقدة والمتاهة المحيرة من الملابسات التى تتركنا الحياة بين منعطفاتها . وكأن الـكاتب يدع لنا أن نختـار ما نراه من تفسيرات لهذه المسرحية . والموضوع الرئيسى فى مسرحيـة « الطائر البحرى » هو العمل البطولى . ذلك أن الانسـان القادر على القيام بمثل هذه الاعمال هو وحده الذى يستطيع

أن ينتصر فى عالم الفن .. بيد ان المسرحية تبدو للوهلة الاولى أشد فقرا من الموضوع الذى تتناوله .

« تعيش فتاة جميلة هى « نينا زارخنايا » على ضفاف بحيرة ساحرة المنظر ، وهذه الفتاة تحلم بالمسرح وبالمجد .. ويقع فى حبها جار لها هو « قسطنطين تريليف »: الكاتب الشاب ، وتبادله « نينا عواطفه . ولهذا الشاب أيضا أحلامه عن المجد وعن ابتداع صور جديدة من الفن .. وأى شيء لا يحلم به الشباب .

وقد كتب هذا الشاب مسرحية غريبة ، شاذة وبأسلوب انحلالى ، ويقوم باخراجها فى مناظر لم يألفها المسرح ، اذ يتخذ من البحيرة الحقيقية ظهارة للمسرح الذى أقيم فى الحديقة .

وتقوم « نينا » بالدور الرئيسى فى المسرحية . بيد ان والدة « تريليف » وهى امرأة مستبدة قوية الارادة قد أفسدتها شهرتها كممثلة تدعى « أركادينا »، تهزأ صراحة من مسرحية ابنها ويأمر « تريليف » المرهف الحس باسدال الستار ويتوقف التمثيل فى منتصف العرض وتفشل المسرحية .

بيد أن هذه الكارثة ليست أسوأ ما نزل « بتريليف » الذى لازمه سوء الطالع ـ فقد طرد من الجامعة « لظروف خارجة عن ارادته تماما »: وترغمه هذه الظروف على أن يحيا حياة بلادة وخمول متسكعا فى ضيعة عمه ، ويلقى نفسه فى وضع تعس لا استقرار فيه اذ يعيش عالة على أمه . ولكى تتم سلسلة الكوارث يفقد ايضا حبيبته .

حدث ذلك عندما أقبلت « أركادينا » لزيارة أخيها فى ضيعته وقد اصطحبت معها رفيقها الدائم الكاتب المعروف « تريجورين » وتقع « نينا »فى حب « تريجورين » بكل مافى الحب الاول من جموح وتكتشف أن عاطفتها لتريليف لم تكن

غير حلم من أحلام الشباب وأن عاطفتها لتريجورين هى حبها الاول والاوحد .

وتخاصم نينا أسرتها لكى تذهب الى المسرح فى موسكو حيث يعيش تريجورين غير أن علاقتها بتريجورين تنتهى بمأساة اذ يتسرب الفتور الى غرامه بها فيعود الى حبهالقديم .. الى اركادينا .. والحقيقة ــ كما يقول تريليف ــ أنه لم ينقطع مطلقا عن هذا الحب القديم ولكنه حاول أن يجمع بين المرأتين من فرط الكسل .. وتحمل نينا طفلا من تريجورين ويموت هذا الطفل فيما بعد .

وتتحطم حياة تريليف فيقدم على الانتحار بعد أن هجرته نينا غير أنه يواصل الكتابة وتصادف قصصه شيئا منالنجاح فىالمجلات الكبرى بيد أن حياته تخلو من كل سعادته لانه يشعر بعجزه عن التغلب على حبه ل « نينا »

وتصبح « نينا زارخنايا » ممثلة من ممثلات الاقاليموتزور مسقط رأسها بعد غياب طويل وهناك تلتقى بتريليففيتجدد فى نفسه الامل لحظة فى أن تعود علاقاتهما الى سابق عهدها ولكنها ما برحت تحب تريجورين بل لقد تضاعف حبها لهعما كان من قبل . وتختم المسرحية بانتحار تريليف وبذلكتنقطع حياته من منتصفها كما انقطعت مسرحيته .

كتب « تشيكوف » عن هذه المسرحية أثناء عمله فيها فقال : « انها تتضمن كثيرا من الكلام عن الادب وقليلا من الحركة وأطنانا من الحب .

وليس من شك أن فى المسرحية قدرا كبيرا من الحب ــ حب تريليف لنينا وحب نينا للكاتب تريجورين وحب أركادينا لتريجورين وحب ماشا شامراييننا ابنة المحضر لتريليف وحب المدرس مدفونكو لماشا وحب يولينا اندريفنا زوجة شمرايينا للدكتور دورن وليس فيها جميعا حب واحد سعيد . وربما أمكن اعتبار الحب الشقى الموضوع الرئيسى فى هذه المسرحية

ويبدو أن المؤلف نفسه قد وافق الى حد ما على هذا التفسير، فنجد أن الكاتب نفسه يشير الى معالجة المسرحية فى مذكرات تريجورين الذى يسجل ملاحظاته دائما عن الموضوعات التى تسترعى انتباهه ، ويكتب فى مذكراته : « موضوع لقصة قصيرة » هذا الموضوع يستوحيه من اصطياد تريليف للطائر البحرى ووضعه عند قدمى نينا ، ويعرض تريجورين على نينا تخطيطا اجماليا لموضوع القصة : « ... فتاة شابة مثلك عاشت حياتها كلها على ضفاف احدى البحيرات وهى تحب هذه البحيرة كما يحبها الطائر البحرى ، وهى حرة وسعيدة أيضا كهذا الطائر ثم يأتى رجل فيراها ويحطمها لمجرد التسلية كما حطم هذا الطائر البحرى »

ومن الممكن أن يكون هذا ملخصا للمسرحية أيضا فذلك الرجل الذى يحطم تلك الفتاة الوديعة لمجرد التسلية يظهر فيما بعد أنه « تريجورين » نفسه والعذراء التى تحطمت هى « نينا » ولهذا السبب يمكن أن نستنتج السبب فى تسمية المسرحية باسم « الطائر البحرى » . وهذا التفسير للمسرحية هو التفسير الذائع لسوء الحظ ، والحقيقة أنه ليس أكثر من « موضوع لقصة قصيرة » كان تريجورين يريد كتابتها وليس بحال من الاحوال موضوع المسرحية العظيمة التى الفها « تشيكوف » ولا وجود لهذا الموضوع الا فى مسرحية « الطائر البحرى » كامكانية يناقضها تماما مجرى الحوادث فى المسرحية فهو لمحة كان من الممكن أن تتجسم ولكن لم يتح لها هذا التجسيم .

أجل ... ان عذراء جميلة تعيش على ضفاف بحيرة « مسحورة » فى عالم ساج من العواطف والاحلام الرقيقة ، وفى هذا العالم أيضا يعيش « قسطنطين تريليف » وقد حان الوقت الذى ينبغى على كل منهما أن يواجه فيه الحياة كما هى حقا . والحياة كما هى فى الحقيقة يمكن أن تكون خشنة الى أبعد حد كما يمكن أن تكون رقيقة وتقول « نينا » فى

الفصل الرابع : « الحياة خشنة ! » وكل شيء فى الحياة الواقعية أصعب كثيرا عما يبدو فى أحلام الشباب .

كانت نينا ترى الفن طريقا مفروشا بالورود يفضى بها الى المجد .. انه يبدو لعينيها حلم جميل ، فاذا نزلت الى خضم الحياة ، اعترضت سبيلها العقبات والعراقيل وألقت الحياة فوق كتفيها الرقيقين أعباء ثقالا .. لقد هجرها الشخص الذى شغفت به حبا ومات طفلها ، وسرعان ما اكتشفت انها ينبغى ألا تتوقع المعونة من أحد ، ولم تلق موهبتها الفضل تشجيعا من أى انسان وكان من الممكن أن تكون خطواتها الاولى هى خطواتها الاخيرة ، فعشيقها لا يؤمن بالمسرح وهو يضحك دائما من أحلامها ، وشيئا فشيئا فقدت الثقةبنفسها وحل بها اليأس . وتقول « نينا » « لتريليف » فى لقائهما الاخير : « .. ثم كانت متاعب الحب والغيرة والقلق المستمر على الطفل ، وأصبحت تافهة التفكير قليلة الشأن ، وأضحى تمثيلى ضعيفا ولم أكن أدرى ماذا افعل بيدى او كيف اقف على خشبة المسرح أو اتحكم فى صوتى ، ولن تستطيع ان تتصور مدى الفظاعة التى يشعر بها المرء عندما يدرك أنه يمثل تمثيلا سخيفا . » كان لابد للفتاة الحالمة أن تلتقى بالتجار السكارى وبكل ما يعج به عالم المسرح فى الاقاليم آنذاك من ابتذال وسوقية ، وعلى الرغم من ضعفها الانثوى ورقة روحها فقد استطاعت أن تحتفظ برأسها مرفوعةعندما اصطدمت أحلامها بالحياة الواقعية . ودفعت ثمنا باهظا من العذاب حتى توصلت الى هذه الحقيقة وهى « أن الشيء المهم بالنسبة الينا سواء أكنا ممثلين أو كتابا ليس هو الشهرة أو التألق ، وليس هو تحقيق أحلامنا ، وانما هو القدرة على الاحتمال . فتعلم كيف تحمل صليبك وتحتفظ بايمانك . وكنت مؤمنة ولهذا لم يطل عذابى كثيرا وحينما افكر فى رسالتى لا أفزع من الحياة . »

هذه كلمات تنضح بالزهو ، تعلمتها « نينا » بعد أن دفعت

شبابها ثمنا لها ، وبعد أن عانت تجربة مريرة وقاست الاما لا يعرفها سوى الفنان الذى يكلف بأعمال يحتقرها فيحتقر نفسه ويحتقر خوفه من المسرح أو ما يتسم به أسلوبه الادبى من فقر . ولتقدير التطور الذى طرأ على « نينا » نحتاج الى مقارنة تلك الكلمات التى صدرت عنها بأوهامها الصبيانية السابقة عن الموهبة والمجد ، فقد قالت « لتريجورين » يومئذ : « لو أننى كنت كاتبة مثلك اذن لوهبت حياتى كلها للجماهير وربما أدركت عندئذ أن سعادة الجماهير الوحيدة هى أن ترتفع الى مستواى ثم تجرنى بعد ذلك فى عربة . . « تريجورين : فى عربة .. حسن جدا .. اذن فأنا أجاممنون أليس كذلك ؟ (ويبتسم الاثنان)

وهنا أيضا نلتقى بموقف « تشيكوف » الساخر من فكرة البطل الذى يرتفع عاليا فوق « الجماهير » ، هذه الفكرة التى أولع بها المثقفون فى ذلك العهد أشد الولع . وتطورت « نينا » حتى فهمت سخافة هذه الفكرة . ان مانحتاج اليه هو العمل والعمل بلا انقطاع وأن نتحمل وأن نصبر على جميع المصاعب وان يحتفظ المرء بأيمانه متغاضيا عن ذاته وعن « فردينه » وعن طبيعته « الاستثنائية » .. الموهبة هى الصبر والايمان والتواضع . ونحن القراء الذين اجتزنا مع « نينا » خلال المسرحية ذلك الطريق الحزين الذى لا يخلو من مرح ... الطريق الذى يسلكه الفنان الظافر ، نحن القراء نشعر نحوها بالفخر ونحس بكل مافى كلماتها التى نطقت بها فى المنظر الاخير من دلالة عندما تقول : « .. لست كذلك الآن .. فأنا ممثلة حقيقية أستمتع بتمثيلى ، وأمثل فى حماس ، وأصل الى حالة من حالات النشوة على المسرح ، وأشعر اننى جميلة .. والآن — وأنا أعيش فى هذا المكان — أتجول كثيرا وافكر طويلا واحس أن قواى الروحية تزداد قوة يوما بعد يوم ... »

ان « نينا » تملك الايمان والقوة والعزيمة لقد أصبحت الآن على معرفة بالحياة واستطاعت أن تبلغ ماتصبو اليه من

سعادة خاصة بها . ذلك ان الجمال الجميل حقا هو الذي يعرف كل شيء ومع ذلك يظل محتفظا بايمانه ، أما جمال الاحـلام الاولى فهو جمال الجهل ، جمال بالامكان فحسب . وهكذا نصل عن طريق كآبة الحياة واحزانها التى تغلبت عليها البطلة الى اللحن الرئيسى فى مسرحية « الطائر البحرى » انه لحن التحليق فى الآفاق البعيدة .. لحن الانتصار . ان « نينا » مثل حى على تناقض التفسير الذى يجعل منها طائرا بحريا هوى الى الارض ، انها لاتنظر الى عذاباتها ومطامعها ومكاسبها والى حياتها كلها لاتنظر الى هذا كله باعتباره « مجرد موضوع لقصة قصيرة » وهى تردد هذا القول فى محادثتها ... « تريليف » : « أنا الطائر البحرى ؟ كلا لست كذلك ... هل تتذكر اصطيادك للطائر البحرى ؟ ان رجلا مر فى طريقه فلمحه ثم قتله لمجرد التسلية .. انه موضوع قصة قصيرة ، ولكن ليس الامر على هذا النحو .. » بلى .. ان الامر لم يكن على هذا النحو ، انه ليس سقوط الطائر البحرى الى الارض وانما هو تحليق الكائن الرقيق الجميل الحر عاليا صـــوب الشمس .. هذا هو الموضوع الشاعرى للمسرحية .

لماذا يقدم تريليف الذى أقدم من قبل على محاولة انتحار فاشلة عندما هجرته « نينا » ـ على محاولة أخرى ناجحة هذه المرة ، مع انه قد تقبل فقدانه لنينا على أنه قضاء محتوم ، وأكد لامه بعد تفكير ناضج وسبر عميق لاغوار نفسه أنه لن يشرع مرة أخرى فى الانتحار ؟

ألم يكن ذلك لانه رأى فى وضوح لا مزيد عليه ان « نينا » قد سبقته وتفوقت عليه ؟ لقد نزلت الى خضم الحيـــــاة الواقعية .. الحياة الخشنة الشاقة بمفردها وأخذت تقترب من الفن الحقيقى بينما ظل هو فى عالم العواطف الحالمة الفجة ، هذا العالم الذى كانا يقطنان فيه سويا ، وفى فرع الفن الذى تخصص فيه لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة « ماذا يفعل بيديه ولا كيف يستطيع التحكم فى صوته » .. كان هــــذا

تماما ماسومه العذاب قبل أن تعود « نينا » الى الظهورمرة أخرى على مسرح حياته .

« طالما تحدثت عن القوالب الجديدة ولكننى أشعر الآن أننى أغوص رويدا رويدا فى حفرة عميقة . (يقرأ) "وكشفت اللوحة المعلقة على السور على وجه شاحب تحيط به هالة من الشعر الاسود » كشفت .. تحيط .. فظيع . (يشطب ماكتبه) ان « تريجورين » استطاع أن يبتكر تعبيرات خاصة به وهو يكتب فى يسر . أما أنا فلا أستطيع ان اتخلص من الضوء المرتعش وتألق النجوم الهادىء وأصوات البيانوالمنبعثة من بعيد والتى تتلاشى فى الهواء المعطر ... انها عبارات لا أستطيع منها فكاكا . »

ان قلق « تريليف » لايختلف أقل اختلاف عن القلق الذى احتملته نينا فى الطريق الذى سلكته ، انها كالطائر البحرى قد طارت بعيدا .. بعيدا جدا عنه وفى الفصل الاخير تظهر « نينا » أمامنا بعد أن هزتها نوائب الحياة هزا عنيفا فما برحت تتألم آلاما قاسية لانها مازالت تحب « تريجورين » ولن تنفك عن حبه . وكيف يمكن ألا تتغير بعد كل هذه التجارب التى خاضتها ؟ ولكن على الرغم من آلامها جميعا فان ضوءا يومض من بعيد — انه ضوء الانتصار . هذا الضوء هو الذى أثر على « تريليف » كل هذا التأثير فقد كان شعوره بانه لم يبلغ بعد شيئا ينفذ الى نفسه فى قوة قاسية ، ويتبين الآن سبب هذا كله فيقول « لنينا » : لقد وجدت طريقك وأنت تعرفين الآن الى أين تذهبين أما أنا فما زلت اتخبط فى فوضى التهويمات واحلام اليقظة دون ان ادرى مآل هذا كله، أو من الذى يحتاج الى هذا كله . اننى لا أومن برسالتى بل لا أدرى ماهى هذه الرسالة . ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا بموهبته لانه يفتقر الى الهدف والايمان والمعرفة بالحياة والشجاعة والقوة ، ورغم حديثه عن التجديد لم يستطع أن

يحقق منه شيئا . ذلك أن التجديد لا يمكن أن يوجد فى فراغ، ولا وجود له الا باعتباره نتيجة مستمدة من المعرفة الجريئة بالحياة فى جو من الثراء الروحى والعقلى . ولكن ماذا فعل « تريليف » لكى يثرى حياته الباطنية ؟ ان « نينا » استطاعت أن تحول آلامها الى انتصار. أما هو فقد ظل العذاب بالنسبة اليه عذابا كما هو لاغناء منه بل غاضت معه كل ينابيع روحه.
وعندما نتامل « تربليف » ومصيره ، فلا مناص من الوصول الى هذه النتيجة : « الموهبة ! ما أقل شأنها ! » وعندما تفكر فى « نينا » ومصيرها نهتف قائلين : « الموهبة ! ما أعظم شأنها ! » وعندما يجاهد تريليف للتخلص من سطوة التفاهة والسوقية فى الحياة يشعر أن هذه السوقية قد استولت عليه فينتابه الفزع ، ويبدو أن مسرحيته كتبت بأسلوب رفيع بعيد كل البعد عما فى الحياة اليومية من نثر مبتذل ، وكان يندد فى قصصه بكل مايتسم بالتفاهة والابتذال .
وليس فى مقدور المرء أن يهرب من السطحية بالالتجاء الى الاوهام والاحلام البعيدة عن الحياة ، فذلك فرار زائف ينتهى حتما بالسقوط والعودة الى سطحية أسوأ مما سلفت ، ونحن نعلم أن الرؤى الجميلة الشفافة العابرة قد أعادت «كوفرين» (الراهب الاسود) الى نقطة تحطم عندها جمال الحياة الواقعية فعاد بذلك الى القبح والتشويق والموت وكذلك أفضت أحلام « تريليف » الجميلة المجردة الى جمال بشع حقود والى انتهاك قوانين الحياة . . الى الانتحار . . فلا مفر من الابتذال ولا مهرب من أن يراه المرء فى وضوح وأن يواجهه وأن « يهاجمه » . وقد رأت « نينا » فى وضوح ما فى الحياة من نثر وضيع ، وكانت تعلم أن الحياة « خشنة » ولكنها لم تهرب من الابتذال والخشونة الى الاحلام الزائفة ، فكانت تجسيدا للفن الصادق ، والفن الصادق هو المعرفة بحقيقة الحياة كلها وهو طموح الى جمال الحياة فى ذاتها لا فى أحلامها فحسب .
وفكرة السوقية والرتابة الملة على أكبر جانب من الاهمية

فى مسرحية « الطائر البحرى » فهذه السوقية قد استولت على تريجورين وأركادينا فى قبضتها ، ولم يكن تريليف بعيدا عن الحقيقة عندما دمغهما بأنهما من « عبيد الروتين » بيد أنه هو نفسه لم يستطع أن يتحرر من سطوة هذه السوقية العنيدة نفسها . وهكذا نجد أن « تشيكوف » فى معالجته لميدان الفن فى هذه المرة يفكر باستمرار فى الوسائل التى يحارب بها مافى الحياة المحيطة به من ابتذال .

كتب « ا. ف. كونى » المحامى المشهور وأحد رواد المسرح الاذكياء فى ذلك العصر ، كتب الى تشيكوف عقب حفلات العرض الاولى لمسرحية « الطائر البحرى » قائلا : « ان المسرحية هى الحياة نفسها .. ومن النادر أن تجد شخصا واحدا قد فهم ما تنطوى عليه من تهكم لاذع . » ولا يخالجنا أدنى شك فيما « تنطوى عليه المسرحية من تهكم لاذع » ، فمصير كل من « نينا زارخنايا » و « قسطنطين تريليف » يتبع الى حد ما المسار نفسه ، وفى كلتا الحالتين تظهر تلك الآلام المتزايدة التى تشعر بها الموهبة عندما لا تبلغ أوج نضوجها ، وفى كلتا الحالتين حب شقى وفقدان للمحبوب وفى خالة نينا يشتد الالم الى غير حد نظرا لانها فقدت طفلها أيضا ومع ذلك فان هذه المرأة الشابة الرقيقة تتغلب على المحن جميعا فى الوقت الذى يتحطم « تريليف » تحت وطأتها ولذلك فان الصورة التى « ترمز » اليه ، كما تقول « نينا » وهى « الطائر البحرى » الذى وضعه عند قدميها تكتسب دلالتها الحقيقية . و « تريليف » يرى نفسه فى هذا الطائر الذبيح .

« نينا : ماذا يعنى ذلك ؟

« تريليف : لقد كنت من الوضاعة اليوم بحيث اصطدت هذا الطائر البحرى ، وها أنذا أضعه عند قدميك

« نينا : ماذا حدث لك ؟ (تلتقط الطائر البحرى وتنظر اليه)

« تريليف : (بعد وقفة قصيرة) : لن ألبث حتى أقتل نفسى بهذه الطريقة عينها . »

وهنا نتبين تلك الدلالة المعقدة المتعددة الوجوه والتى تتغلغل فى المسرحية كلها كأشعة الشمس ونعنى بها دلالة التشبيه بالطائر البحرى . اذ يتحول الطائر البحرى المذبوح بلفتة بارعة من التهكم اللاذع فلا يرمز الى الفتاة الضعيفة . بل الى الشاب الذى يعتبر نفسه مجددا جريئا قويا . ولسنا نشك فى تعاطف « تشيكوف » مع « تريليف » . ولكن لما كان تشيكوف نفسه قد صادف من الصعاب فى كفاحه من أجل انتصار ارادته الخلاقة مايفوق كثيرا المصاعب التى كانت من نصيب « تريليف » فانه لا يستطيع بحال من الاحوال أن يصفح عن الضعف ، وهو لا يغتفر هذا الضعف فى شخصياته المحببة اليه كما لم يغتفره فى شقيقيه « الاسكندر » و « نيكولاى » . فقد كان الفن بالنسبة اليه قضية مقدسة فى تأكيد الحقيقة والجمال والحرية ، وكانت الموهبة فى نظره سلاحا يجب ألا يلقيه على الاطلاق . »

ومسرحية الطائر البحرى ترتبط كما نرى ارتباطا وثيقا بتأملات « تشيكوف » عن ماهية الموهبة وعن نظرته للعالم وعن « المبدأ السائد » . ومصيبة « قسطنطين تربليف » الكبرى هى أنه لم يحدد له هدفا يمكن أن يكون مصدر الهام لموهبته ويقول الدكتور « دورن » الحكيم لتريليف : يجب أن تكون فى كل ما يكتب فكرة واضحة محددة ، ويجب أن تعرف لمن تكتب والا .. فانك لو اتبعت هذا السبيل الحافل بالمناظر الجميلة دون أن ترمى الى هدف محدد فسوف تضل طريقك وستكون موهبتك وبالا عليك .. ان الموهبة بغير نظرة الى العالم وبغير فكرة واضحة محددة هى زهرة سامة تحمل بين طياتها هلاك صاحبها وقد كان « قسطنطين تربليف » — شأنه فى ذلك شأن بطل « قصة مملة » — فى حالة من تجعله أقل صدمة يرى الحياة خلوا من المعنى .

وهذا الموضوع ألا وهو شقاء الحياة الاليم بالنسبة للفنان الذى يفتقد وجهة نظر محددة ـ أشد انطباقا على الصورة التى رسمها تشيكوف « لتريجورين » .

ذلك أن آلام « تريجورين » على مستوى أعلى من آلام « تربليف » . ولان تريجورين كاتب محنك فانه يئن تحت ثقل الموهبة التى لا تستلهم غاية عظيمة فى الحياة وموهبته تجثم ثقيلة على نفسه وكانها قذيفة مدفع . » وقد صفد بها كأنه محكوم عليه بالاشغال الشاقة .

ويضع تشيكوف شطرا غير ضئيل من نفسه وملابسات حياته فى شخصية « تريجورين » يتبدى ذلك بقوة خاصة فى الكلمات المفجعة التى يرد بها تريجورين على سورات «نينا» الصبيانية فى تقديسها لنجاحه وشهرته .

يرد تريجورين فى دهشة صادقة : « نجاح ؟ اننى لم أنجح مطلقا فى ارضاء نفسى ، وأنا لا اجد نفسى ككاتب . . اننى أحب هذه المياه وهذه الاشجار وهذه السماء وأشعر بالطبيعة وانها لتثير العاطفة فى نفسى وشهوة لا تقاوم الى الكتابة ولكننى على أية حال لست رساما للمناظر الطبيعية ، اننى مواطن أيضا وأنا أحب وطنى واخوانى المواطنين وأحس اننى ما دمت كاتبا فأنا ملزم بالكتابة عن الشعب وعن آلامه ومستقبله ، وعن العلم وعن حقوق الانسان وهلم جرا . . وأسارع بالكتابة عن هذه الموضوعات جميعا ، ويحثنى الناس ويعنفوننى فأتخبط من ناحية الى أخرى كالثعلب الذى تطارده كلاب الصيد وأرى أن الحياة والعلم يتقدمان بينما أتخلف أنا أكثر فأكثر كفلاح يريد اللحاق بالقطار حتى أشعر فى نهاية الامر أننى لا أستطيع شيئا غير وصف المناظر الطبيعية وأننى زائف تماما فيما يتعلق بسائر الاشياء الاخرى »

وتتمثل أمام أعيننا صورة الفنان الطلعة بهذه الكلمات المفعمة اخلاصا وعمقا ، هنا نسمع مرة بعد أخرى اللحن المميز

المعهود عن « تشيكوف » ان الفنان ينبغى أن يساعد وطنه ومواطنيه فى حل مشكلات الحياة الاساسية وأن يساير الحياة جنبا الى جنب وأن يتمشى مع الفكر الاجتماعى التقدمى ومع العلم دون أن يتخلف عنهما ، والفن لا يمكن أن يكون زائفا عندما يهدى الناس الى طريق المستقبل .

ويعبر « تريجورين » عن كثير من أفكار « تشيكوف » الخاصة وعواطفه .

بيد أن « تريجورين » ليس هو تشيكوف وفى صياغة صورة « تريجورين » قام تشيكوف بعملية اسقاط وتعميم لتلك الخصائص التى كان يشعر بأنها يمكن أن تهدد موهبته .

والخطر الذى يهدد « تريجورين » هو العمل الابداعى الذى يخلو من الشعور والالهام ، خطر الاقتصار على تجويد الصفة فحسب واخطار أخرى تنشأ عن افتقاره الى « المبدأ السائد » وقد أصبح الفن الى حد ما مسألة « روتين » وأوشكت كراسة مذكراته أن تصبح أشبه بدفتر الحسابات الجارية فهو يكتب لانه اعتاد أن يكتب ، لا تدفعه الى الكتابة شهوة عنيفة للتأثير على قلوب الناس عن طريق الالفاظ ، وهو يشتاق الى هذه الشهوة اذ يدرك أن فيها تكمن قوته وأنها وحدها التى تضمن ألا يلتهمه الروتين ، وعلى الفنان دائما أن يرحب بفنه كأنه غرامه الاول كما رحبت « نينا » بحبها « لتريجورين » . وينبغى ألا تكون مهارة الفنان وخبرته ما نعين له عن الشعور بفرحة اللقاء الاول مع فنه ، وأن يكون لكل لقاء لقاء أولا .. لقاء مرحا حارا مؤثرا .. وما البراعة الفنية غير القدرة على تطهير الروح من كل ما يعتم فرحة اللقاء الاول بالفن . ولم يكن « تريجورين » يعلم شيئا عن هذا الشعور بالفرحة الاولى والقلق الاول . وغنى عن البيان أن هناك أيضا صلة داخلية عميقة بين افتقار « تريجورين » الى هذا الشعور وبين عجزه التام عن الترحيب بالحب الاول لفتاة شابة بادرته بقولها : « تقبل حياتى »

أجل .. أن ما فى السوقية من قوة يصل فى نهاية الامر الى سطوة الابتذال أمر لا فكاك منه ولا تستطيع غير عاطفة سامية أو فكرة عظيمة أن تتخلص منه . فهل يجد «تريجورين» هذه الفكرة ؟ ألن ينتهى به المصير الى أن يصبح من طراز شاليموف .. تلك الشخصية التى ابتدعها « جوركى » فى قصته « زوار الصيف »

أما العلاقة بين « أركادينا » و « تريجورين » فليس فيها شىء خاص من العظمة أو الشاعرية ، فـ « أركادينا » عاجزة عن مساعدته فى كفاحه ضد السوقية وعاجزة عن الهامه ، وهى لاتحتفظ به الا بالتملق ، وهذا معناه انها لا تستطيع ان تكون عونا له على أن يحول سخطه على نفسه ككاتب الى سخط خلاق يقوده الى التطلع الجرىء العنيد الشاق المرح الى ما هو جديد وتدل الظروف جميعها على أن « أركادينا » لا تستطيع أن تدخل عنصرا خلاقا فى حياة « تريجورين » بل هى أميل الى تقوية ميوله نحو المحافظة والركود .

أن « أركادينا » مستغرقة الى حد بعيد فى نجاحها الخاص فى الزحام الذى يبعث على الدوار ، فى الجانب الخارجى من الفن ، ولهذا ليس عبثا أن تتجاذب أطراف الحديث فى شغف مع « شبامرايف » ذلك الشخص المبتذل الممعن فى الابتذال الذى لا يرى فى الفن غير تسلية ضحلة . وهى تستطيع أن تسرد عليه سردا متوهجا « الاستقبال » الذى لقيته فى « خاركوف » وان تعد له الهدايا التى انهمرت عليها من المعجبين بموهبتها . وهذا كله يدل على أن فن « أركادينا» قد انحدر نوعا ما الى السوقية ويلمس « تشيكوف » فى كل من « تريجورين » و « أركادينا » علامح مشتركة تشيع بين فئة معينة من الكتاب والممثلين فى العقدين الثامن والتاسع تلك الفئة لا تستلهم غايات مثالية عظيمة أو تستوحى عواطف سامية .. وبالتالى تسقط حتما ضحية للروتين والابتذال والنزعة المحافظة .

ان « نيثنا » وحدها هى التى ارتفعت فوق هذه السوقية وهذا لانها لم تلجأ كما فعل « تربليف » الى الاوهام هربا من السوقية .

لقد اصطدمت بقوة الابتذال التى تتشبث بالمرء ولكنها لم تذعن لها وهذه هى صورة الفن الصادق والفنان الصادق كما أبدعها « تشيكوف »

وثمة موضوع عظيم آخر من الموضوعات التى عذبت كثيرا من الفنانين ويرتبط هذا الموضوع بشخصين « تريجورين » و « أركادينا » . ان الفن قد استوعب تريجورين وابتلعه ابتلاعا تاما الى حد انعدمت معه ارادة القوة والقدرة على الاحساس بالمشاعر العارمة المخلصة ازاء الحياة اليومية العادية . وهذه هى المشكلة المألوفة التى تواجه المجتمع البورجوازى ذلك المجتمع الذى تكسب فيه انتصارات الفن كما أشار – ماركس – على حساب قدر معين من الانحراف الروحى . ويشكو تريجورين الى « نينا » قائلا :

« .. اشعر اننى التهم حياتى ، وأننى أقدم الى الناس شهدا فلابد لى من أن أنتزع بذور اللقاح من أجمل ازاهيرى بل اننى انتزع هذه الازاهير نفسها وادوس جذورها . لا شك أننى – بكل تأكيد – رجل مجنون ! » .

ويجب أن يكون الممثل الذى يؤدى دور « تريجورين » قادرا على أن ينقل الى المشاهد مزيجا مما تتسم به هذه الشخصية من جاذبية وانحراف روحى وما يتميز به من موهبة الفنان الخلاقة والآلام التى تكبل موهبته .. وأن يكون أداؤه مزيجا من القدرة على اندفاعات الحماس الوقتية والفتور والتردد فى مجال الحياة الشخصية . ولا ينبغى على المخرج أن يسمح لنفسه بأن ينسى لحظة واحدة أن كلا من « تريجورين » و « أركادينا » – على الرغم من نقائصه العظيمة – شخصية موهوبة شيقة . والملامح المتضاربة فى طبيعة « أركادينا » كقدرتها على الانتحاب حين تقرأ كتابا أو على أن تحفظ أشعار « نيكراسوف » كلها عن ظهر قلب وأن

ترعى المريض فى عناية مشبوبة وكشغفها بالعمل وأنانيتها فى الوقت نفسه والطريقة التى سقطت بها فى مستنقع المسرح مع الاحتفاظ بصفاتها .. كل ذلك يشهد لها بصفاتها الانسانية وطبيعتها الفنية كما يشهد لها فى الوقت نفسه بالتأثير المفسد الذى يتركه المجتمع البورجوازى على الفنان .

أما « تريجورين » فلا يشعر بأنه السيد المطلق المتصرف فى موهبته لانه لا يستشعر فى قرارة نفسه بحماس الانسان الذى يهتدى « بمبدأ سائد » فموهبته كالطوق حول عنقه كما كانت الحال بالنسبة لاركادينا .

بيد أن « تشيكوف » يعبر فى شخصية « نينا أرخنايا » عما فى التحليق الجسور الحار المتحرر من جمال . ف « نينا » لم تتفوق على « تربليف » وحده بل على « تريجورين » ، أيضـا .

وليس معنى هذا أن « تشيكوف » يقدم لنا فى صـورة « نينا زارخنايا » تاريخا واقعيا مضبوطا لتطور الفنان ونموه فبينما تحتفظ « نينا زاراخنايا » بطابع الفرد الحى ، نراها فى الوقت نفسه رمزا شاعريا .. انها روح الفن التى تقهر الكآبة والبرود والتى تتطلع دائما الى أعلى وتمضى قدما الى الإمام .

ولكن ما الذى جعل « تشيكوف » يضع مثل هذه الاطنان من الحب فى مسرحية « الطائر البحرى » ؟

هنا نلتقى مرة أخرى باللحن الدائم عند تشيكوف :
« لا توجد السعادة فى الحب وانما فى الحقيقة . » فلو أن كل ما تبتغيه هو السعادة لنفسك واذا امتلأت روحك بالرغبة فى الخير للجميع ولكنها مع ذلك لم تتجاوز جهود مشـاعرك الشخصية فان الحياة سوف تصب عليك جام غضبها ولن تمنحك ما تتوق اليه من سعادة .

خذ مثلا « ماشا شمرايبثا » التى كانت معاصرة « لنينا » فهى مخلوقة شاعرية وهى تحس بجمال الروح الانسانية غير

أن حياتها كحياة « كاتيا » ابنة الاستاذ بالتبني في « حكاية مملة » تخلو من الالهام ولا تهتدى بأية غاية . وتقدم « ماشا» نفسها لتريجورين بهذه العبارات المريرة : « ماشا التي تعيش في هذه الحياة بلا مبرر معروف . » وهي كغيرها من الفتيات العاديات في الجمال والسمو ولا يبقى لها غير مجال الحب الذي يزخر بأمور عرضية خالصة وقد يؤدي في سهولة الى الهلاك عندما لا تستند الروح على سند وطيد .

ويستحيل الحب الى شيء دميم ويفقد كل جمال اذا كان هو الشيء الوحيد في حياة الانسان .

هذا الحب الفارغ الذي يشبه المخدر يسلب من « ماشا » شخصيتها ويمحو من روحها شيئا فشيئا جمالها وشاعريتها لتصبح في نهاية الامر شخصية شاذة وما أصعب موقفها واشد جمودها من المدرس « مدفدنكو » بتواضعه وانكار ذاته . هذا المدرس الذي تتزوجه في حالة من حالات يأسها ، وما أبشع ما تظهره من عدم اكتراث تجاه طفلها ! انها جديرة بالرثاء في حبها لـ « لتربليف » كأمها « يولينا أنديفنفا » في حبها الغيور السخيف للدكتور « دورن » .

وهكذا ترى أن الحب تلك العاطفة المرحة التي تحمل في طياتها النشوة الالهية والتي تتفتح فيها أفضل قوانا الروحيه .. الحب لذي هو شعر الحياة القادر على أن يلهم الانسان ويجعله موهوبا ويفتح عينيه على جمال العالم .. الحب الذي يكشف عن ثراء الروح اللانهائي يصبح فقيرا معدما تملأ الغضون وجهه الجميل تماما كما أخذت « ماشا » تزداد شبها بأمها « يولينا انديفنا » . وعندما تتركز الحياة كلها حول الحب وحده ، وعندما ينعزل الحب عن تيار الحياة العام يصير كالعذراء الجميلة في القصة الخرافية التي انقلبت ضفدعة بفعل ساحر شرير وتبدل جمالها قبحا .

ولا يحدث هذا بحال من الاحوال « لماشا » لان حبها يائس فللحب اليائس جماله أيضا وحب « نينا » لتريجورين يائس

هو الآخر ولكن « نينا » لا تعيش بالحب وحده وانما تعيش للعالم الرحب اللانهائي الذى ينبسط أمام العمل المبدع كما تعيش لخدمة الانسانية فى طموحها نحو الجمال . فحتى الحب اليائس يمكن أن يمد « نينا » بالثراء وأن يساعدها على فهم الحياة والانسان فى مزيد من العمق ، وبالتالي يعينهما على أن تعمل من أجله عملا أفضل . بينما لا يستطيع حب « ماشا » الا أن يسلبها شخصيتها .

قال النافد الثورى الديموقراطى « بلنسكى » : « اذا كانت غاية حياتنا كلها تتألف من بلوغ السعادة الشخصية واذا كانت سعادتنا الشخصية تتألف من الحب وحده فان الحياة تصبح صحراء كئيبة تنتثر على رمالها الاكفان والقلوب المحطمة ، انها تصبح جحيما بحيث تبدو جميع الصور الشاعرية التى ابتدعتها عبقرية « دانتى » باهتة اذا قورنت به . ولكن بفضل العقل الابدى والقدرة الالهية الرحيمة ثمة عالم آخر عظيم ينبسط أمام الحياة الانسانية ، فضلا عن العالم الداخلى للقلب عالم التأمل التاريخى والنشاط العام ذلك العالم العظيم الذى تتحول فيه الافكار الى أفعال والعواطف السامية الى أعمال بطولية .. هذا هو عالم الكدح المتصل والنشاط الذى لا حد له والتطور الفلسفى ، عالم الصراع المستمر بين الماضى والمستقبل » .

فالحياة عند تشيكوف هى أولا وقبل كل شيء أن يقوم المرء بعمل خلاق ، ولا وجود لحياة حقيقية بغير العمل الذى يعشقه الانسان . وكانت « أركادينا » تزعم انها أصغر من « ماشا » وتفسر ذلك بأنها كانت تقوم بعمل ما ، أما « ماشا » فلم تعش على الاطلاق ، و « أركادينا » تشعر بأنها شابة ، اما « ماشا » فترى نفسها امرأة عجوزا . فهى تقول : « لدى احساس بأننى ولدت منذ عهد بعيد جدا جدا . »

ويقول « تربليف » هذا الشيء تقريبا نفسه : « يبدو أن شبابى قد انتزع فجأة منى كما أشعر بأننى قد عشت تسعين عاما » .

وعندما لا يؤمن الانسان برسالته ولا يشعر بحافز قوى الى العمل الخلاق ولا يجد فى نفسه هدفا أو أفكارا عندئذ تنعدم الحياة ويولى الشباب . وتهرم الروح كما تعترف « ماشا » بقولها : « ولا توجد فى أغلب الاحيان أقل رغبة فى الحياة » .
وهكذا تتكشف أمامنا تلك القرابة الداخلية بين « ماشا » و « تربليف » ولعل شعور « تربليف » بهذه القرابة شعورا غامضا هو الذى دفعه الى الحنق على حب « ماشا » له فلم يكن أى منهما من القوة بحيث يحتمل العاطفة التى تلتهمه كما لم يكن لاحدهما هدف اجتماعى عظيم متسام فى الحياة ، ولهذا انتهى بهما الحال فى آخر الامر الى الافلاس الروحى .

وهذا هو معنى نغمة الحب فى المسرحية .

ومهما يكن من أمر فربما كان هناك سبب آخر لطغيان عنصر الحب فى مسرحية « الطائر البحرى » .. وهو أن الحب كان على وشك أن يدخل حياة « تشيكوف » نفسه .

ان الكاتبة « ت . ل . تشبكينا كوبرنيك » تذكر « ليكا » فى مذكراتها عن « تشيكوف » . وقد كانت « ليديا ستاخيفنا فيرونوفا » فتاة ذات جمال غير عادى ، كانت أشبه بالاميرة البجعة فى احدى « الحواديت » الروسية وكانت شديدة الجاذبية بشعرها الاشقر المتموج وعينيها الرماديتين الصافيتين تحت حاجبيها القاتمين وبلطافتها غير المألوفة الممتزجة بالبساطة المفرطة والبعد عن التكتيك . ولم يكن « أنطون بافلوفيتش » غير مكترث بها بحال من الاحوال . وكانت صداقتهما تحوم على اعتاب حب رقيق ، غير أن تشيكوف لم يقدم اطلاقا على اتخاذ الخطوة الحاسمة وكانت «ليكا» تعرف كيف تسايره فى لهجة السخرية التى يتناول بها علاقتهما ، وفى الرسائل المتبادلة بينهما كان كل منهما يمزح باستمرار . غير أن هذه اللهجة لم تكن ترضيها وأصبح من العسير عليها أن تسيطر على مشاعرها حتى طلبت منه فى احدى رسائلها أن يعينها فى جهادها مع نفسها .

« أنت تعرف جيدا موقفي منك ، ولهذا لا اشعر بالخجل في الكتابة عن هذا الموضوع وانا اعرف ايضا موقفك مني فهو واحد من اثنين : اما أن يكون تساهلا او لا مبالاة مطلقة ، ولعل احر رغباتي هو أن أشفي نفسي من هذه الحالة المحزنة التي ألفيت فيها نفسي ، ولكن هذا العمل أصعب من أن أقوم به وحدي ، فأتوسل اليك ان تساعدني فلا توجه الى أية دعوة ولا تواصل رؤيتك لي ـ واعتقد أن هذا ليس بالشيء الكثير عليك ولكنه ربما ساعدني أنا على نسيانك .. »

لم يكن من شك أن أحدهما يميل الى الآخر ميلا قويا ولكن في اللحظة التي أوشكت فيه علاقتهما التي تعد نصف صداقة ونصف حب أن تتحول الى شيء أكثر جدية أحال تشيكوف الامر كله مثل بطل قصته « زيارة الاصدقاء » الى دعابة كما هي العادة . وكان أن ساعد « ليكا » لا كما طلبت منه بأن كف عن رؤيتها ولكن بمواصلة المزاح ! وبذلك أعانها على النسيان بأن جعل يتفكه بمشاعرها أمام عينيها فحملها على الاعتقاد بأن ما بينهما لا يمكن أن يكون جديا بحال من الاحوال . وبعد فترة من الزمن كانت « ليكا » قادرة على أن تتذكر في هدوء ــ أو في غير هدوء ــ ان تشيكوف قد « أعرض عنها مرتين » .

أما بالنسبة « لتشيكوف » فلا بد أنه اجتاز التجربة نفسها التي اجتازها أبطاله عندما كانوا يعزفون عن السعادة .

ولم تكن المسألة أن رأيه قد استقر مرة والى الابد على الهرب من عاطفة عظيمة . بل على العكس من ذلك تماما . ففي الوقت الذي عقد فيه أواصر الصداقة بينه وبين « ليكا » نراه يعترف مثل هذا الاعتراف في رسائله : « الحياة سخيفة بغير عاطفة عظيمة » . ويشير الى أن الوقت قد حان لزواجه . فمن الواضح اذن أنه لا يعترض على امكان شعوره بعاطفة عظيمة تدفعه الى الزواج . ومع ذلك فقد اختار أن « يحول الامر كله الى نكتة »

وسلكت الحوادث مسلكا آخر بحيث زودت « تشيكوف » بمادة لمسرحيته « الطائر البحرى » كما فطن الى ذلك « ى . سوبوليف » وهو أول من نشر رسائل « ليكا ميزونوفا » الى تشيكوف . ذلك أن « ليكا » الذى « رفضت مرتين » قد ألقت بنفسها فى مغامرة غرامية أخرى . فقد كان الكاتب « بوتابنكو » ضيفا كثير التردد على « ملكوفو » حيث كانت تقام الحفلات الموسيقية والغنائية ، وكانت « ليكا » التى تدرس الغناء فى الاوبرا تعزف على البيانو بينما يغنى « بوتابنكو » الذى وهب صوتا جيدا .. وكانت « ملكوفو » فى ذلك الحين زاخرة بالموسيقي والشعر — ووقعت ليكا فى غرام « بوتابنكو » وكتبت تقول الى تشيكوف : « أما أنا فقد وقعت أخيرا فى غرام « بوتابنكو » وهذا أمر لا أستطيع له دفعا ! أليس كذلك ؟ وقد كنت كما تعلم جيدا تحاول التخلص منى وتدفعنى فى طريق شخص آخر .. »

وكانت زوجة « بوتابنكو » فى وضع يشابه تماما وضع « أركادينا » فى مسرحية « الطائر البحرى » كما كان سلوك « بوتابنكو » شبيها بسلوك « تريجورين » . فعنده فتاة تعشق المسرح وكاتب متزوج لا يستطيع أن ينصرف عن حب الفتاة كما لا يستطيع أن يستجيب لحبها استجابة جدية .

هذا هو موضوع مسرحية « الطائر البحرى » مأخوذا كما هو من الدراما الواقعية التى دارت حوادثها فى « ملكوفو » .

وواجهت « ليكا » المحنة التى كتبت عليها ، ولدينا كل المبررات التى تجعلنا نفترض أنه حتى فى الفترة التى كانت تحب فيها « بوتابنكو » حبا عنيفا . فقد كانت صورته تخفى صورة أخرى استقرت فى فؤادها — صورة شخص اقدر على الشعور بفتنتها ، شخص كان شعوره نحوها أقوى الى غير حد ولكنه رفض أن تتحول مشاعره الى غرام عابر صغير .

وتفسر لنا قصة « ليكا ميزونوفا » وحبها التعس المصدر الذى استقى منه « تشيكوف » موضوع مسرحية « الطائر

البحرى » وكذلك المصادر الخفية للشخصيات الرئيسية في المسرحية وخاصة شخصية « تريجورين » . وكما أن صورتى « تشيكوف » و « بوتابنكو » قد امتزجتا عند « لينا » فى صورة واحدة فكذلك صورة تريجورين فى مسرحية « الطائر البحرى » يمتزج فيها « تشيكوف » ببوتابنكو على الرغم مما فى هذا المزج بين شخصيتين متناقضتين من غرابة بيد أن هذا المزج كان يبدو طبيعيا جدا بالنسبة لتشيكوف لانه كان ينظر الى الحوادث المتطورة فى مسرحية « الطائر البحرى » من خلال عينى « نينا زخنايا » أو بالاحرى « ليكا ميزونوفا » وأفكار « تريجورين » عن الادب وسخطه على نفسه بحسبانه كاتبا ومواطنا ووطنيا هى أفكار « تشيكوف » نفسه وسلوكه نحو « نينا » و « أركادينا » هو نفسه سلوك « بوتابنكو » . ولكن من الخطأ أن نشطر « تريجورين » آليا الى شطرين : الانسان والكاتب ، أو أن نشتق صورته من هذين النمطين . لان تريجورين لم يكن بحال من الاحوال « مجرد مجموع شطرين » وانما هو شىء مستقل تمام الاستقلال عن هذين النمطين .

كل شئ عن الإنسان
يجب أن يكون جميلا

النغمـــة الاساسية فى مسرحية « العم فانيا » هى حيـــاة « صغار الناس » بما فيها من آلام خفية وكدح ينكرون فيـــه ذواتهم لاسعاد الآخرين • والواقع أنه موضوع الجمـــال الذى يبدد عبثا • ونحن نعـلم من مذكرات « ناديدا كوتستنتينوفنا كرويسكايا » زوجة «لينين» أن زوجها كان يقدر هذه المسرحية تقديرا كبيرا •

وقد كتب جوركى الى « تشيكوف » بعد أن شاهد مسرحية « العم فانيا » على مسرح الفن فى أكتوبر سنة ١٨٩٩ بعـــد جولة ناجحة فى الاقاليم •• كتب جوركى :

« ما دمت تقول أنك لا تريد أن تكتب للمسرح أجد لزاما على أن أحيطك علما برأى أصـــحاب الذوق فى مسرحياتك • انهم يقولون فيما يقولون ان «العم فانيا» و «الطائر البحرى» تمثلان نوعا جديدا من الفن المسرحى ترتفع فيه الواقعية الى مستوى الرمزية العميقة الملهمة المحبوكة ، وفى رأيى أن هـــذا الكلام صادق تماما ، وكنت أفكر أثناء مشاهدتى لمسرحيتك عن الحياة التى تقدم قربانا لتمثال معبود وعن الجمال الذى يغزو حياة الانسان البائســـة وعن أشـــياء أخرى كثيرة وأساسية • والمسرحيات الاخرى لا تقود الإنسان بعيدا عن مجـــال الواقع اليومى الى مجال الفلسفة كما تفعل مسرحياتك •• »

ويشير « تشيكوف » بعنوان المسرحية نفســـه الى البساطة والى ما جرت عليه شخصياته وآلامهم معا من مألوف الحيـــاة اليومية •

وملخص المسرحية أن « العم فانيا » وابنة أخته « سونيا » قد أفنيا حياتهما كلها فى كدح متصل من أجل اسعاد شخص آخـــر : كانا يجتهدان لتوفير أســـباب الرخاء المادى لوالد « سونيا » وهو الاستاذ « سربر ياكوف » الذى تعود على النظر اليه بوصفه أستاذا عظيما موهوبا متقدما فى فكره · وقد تزوج الاستاذ سربر ياكوف بعد احالته الى المعاش للمرة الثانية من امرأة شابة جميلة · وكانت زوجته الاولى أم « سونيا » وشقيقة « العم فانيا » قد توفيت منذ عهد بعيد ·

وكانت الضيعة التى يديرها العم « فانيا » و « سونيا » ملكا لأم « ســـونيا » وبذلك كانت « سونيـــا » هى الوارثة الوحيدة لها ، وذلك بعد أن تنازل « العم فانيا » عن جزء كبير من نصيبه فى الميراث لأخته المحبوبة · وبفضل هذه التضحية استطاع والدها أن يشترى أملاكا عقارية ، ولكنه لم يدفع ثمن الأرض كلها ، فكانت هذه الأرض مثقلة بالديون وأرهق « العم فانيا » نفسه لتسديد هذه الديون ولتنظيم هذه الضياع ، وظل يعمل خمسة وعشرين عاما فى ادارة هذه الأرض نظير مرتب تافه يتقاضاه من « سربر ياكوف » ، وكان يبعث الى هذا الاخير بالايراد كله الذى تنتجه الضيعة حتى يستطيع « الاستاذ » أن يكتب أبحاثه العلمية ويلقى محاضراته فى الجامعـــة دون أن يشغله شاغل · وقلما كان العم « فانيا » و « سونيا » يبرحان الضيعة وكثيرا ما اكتفى كل منهما بطعام هزيل متناسيا كل شىء الا ولاءه للاستاذ · ولم يخطر على بالهما مطلقا أن «الضيعة» ملك لهمـــا أدبيا وقانونيا ، وليست ملكا « لسربر ياكوف » ، انهما اختارا طوعا وبمحض ارادتهما أن يقوما بدور الخـــدم الصامتين المضحين بكل شىء لمعبودهما · وكان ما فى المشاغل اليومية من رتابة والليالى التى تضيع فى نسخ الاوراق أو ترجمة الكتب للاستاذ وعزوفهما التام عن كل متعة شخصية والمرتب التعس الذى يتقاضاه العم فانيا من سربر ياكوف كان هذا كله

أمرا مشروعا في نظر العم فانيا وسونيا ، واستمد ذلك مشروعيته من الغاية السامية التى كرسا لها حياتهما . وكانا يعتقدان أنهما بخدمة رجل من رجال العلم انما يخدمان العلم والمدنية والتقدم أو بعبارة واحدة « المبدأ السائد » اذ كان الاستاذ في أعينهما كائنا من جنس أرقى . وعندما بلغ « العم فانيا » السابعة والاربعين من عمره كان شحاذا ولم يكن قد عرف قط معنى الراحة أو المتعة .

والآن بعد أن ضاعت أفضل سني حياته تفتحت عيناه على الحقيقة الرهيبة فرأى أنه قد وهب أفضل سنى عمره وشبابه ونفسه كلها لخدمة مخلوق حقير وأدرك أن معبوده السابق لا يزيد عن شخص مغرور منتفخ بالادعاءات عن أهميته الذاتية ، وأنه ليس أكثر من « حفرية متفقهة » .

و ضح هذا وضوحاً خاصا عندما تقاعد « سربر ياكوف » « فما من أحد سمع عنه شيئا .. انه شخص مغمور تماما ، وهذا معناه أنه كان يشغل في الاعوام الخمسة والعشرين الاخيرة مكان شخص آخر »

ظل يحاضر خمسة وعشرين عاما عن الفن دون أن يفقه حرفا واحدا عن الفن ، بل كان يتشدق بأفكار الآخرين . وظل العم « فانيا » يكدح خمسة وعشرين عاما لكى يبقى الاستاذ « سربر ياكوف » في مكان شخص آخر وكان « سربر ياكوف » الذي أفسده نجاحه اليسير فى عمله وولع النساء به وعلمه بأن العم « فانيا » و « سونيا » يعملان من أجله كان قاسيا أنانيا فلم يفكر مرة واحدة طيلة تلك الاعوام الخمسة والعشرين أن يشكر العم فانيا أو أن يفكر في زيادة مرتبه التافه درهما واحدا .

والآن أقبل مع زوجته الجميلة ليستقر في الضيعة الى الابد فما كان يستطيع بعد أن تقاعد أن يتحمل نفقات المعيشة في العاصمة .

ويحطم وصوله الروتين المألوف للعمل فى الضيعة فهو يعذب كل شخص بنزواته وبمرضه (فقد كان مصابا بداء النقرس) وبأنانيته القاسية • ولم يكن مسموحا لأحد ممن حوله أن يفكر في شيء غير راحته •

ويجد العم فانيا نفسه فى موقف أليم : موقف الشخص الذى يحمل على الاعتراف بعد أن بلغ عتبة الشيخوخة بأن حياته انقضت عبثا • فلو أنه لم يضح بكل قوته ومواهبه لخدمة هذا الصنم المعبود لكان من الممكن أن يؤدى عملا نافعا وأن يكتسب لنفسه عرفان الناس بجميله وربما أمكن أن يكون سعيدا وأن يحب وأن يكون محبوبا •• !

وهكذا يبدأ « تمرد » العم فانيا المفجع الذى تأجل طويلا • ويبدو أنه يصرخ لاسترجاع ما فات من حياته المحطمة ، ويقع في حب زوجة الاستاذ ولأول مرة في حياته يبدأ فى احتساء الخمر وتضطهده هذه الفكرة وهو أن كل شيء قد ضاع وأن حياته قد تحطمت •

ووضع الاستاذ « القشة الاخيرة التى قصمت ظهر البعير » اذ يستدعى سكان المنزل جميعا لحديث هام ويعرض عليهم آخر مشروعاته ألا وهو أن يبيع الضيعة حتى يستطيع بالمبلغ الذى يحصل عليه من هذا البيع أن يعيش فى العاصمة لأنه لم يعد يستطيع احتمال الحياة فى الريف بعد أن اعتاد على ضجة المدينة •

ويصاب العم فانيا بذهول ، اذ يتضح له أن تضحيته بأمواله وحياته كلها لسربر ياكوف لم تكن كافية ، والآن بعد أن دبت اليه الشيخوخة يطرد هو وسونيا من منزلهما اعترافا بكل ما صنعاه من أجل الاستاذ •

ويبلغ تمرد العم فانيا ذروته •

ويصيح في وجه سربر ياكوف : « لقد حطمت حياتى ! اننى لم أحي على الاطلاق ! على الاطلاق ! وبفضلك دمرت أفضل

أعوام حياتى وبددتها ! انك ألد أعدائى ! »

ولا يجيب الاستاذ الا بهذه الكلمة التي يقذفها فى وجه العم فانيا : « هراء ! »

ويصرخ العم فانيا يائسا : « لقد تبددت حياتى ! ٠٠ اننى شخص موهوب ذكى جرىء ولو عشت حياة سوية لأصبحت الآن شسوبنهاور أو دوستويفسكى ٠٠ أواه ! لست ادرى ما أقول ٠٠ لقد جننت ٠٠ »

ولا تثير كلمات العم فانيا عن امكانياته فى أن يصبح رجلا عظيما ابتسامة ارتياب ٠ ففى خلال الفصول الثلاثة التى تعرفنا فيها عليه نلمس ذكاءه وقدرته على بذل التضحيات فى سبيل ما يعتبره المبدأ السائد باسم العلم والتقدم والعقل ، لأنه كان ينظر الى سربر ياكوف على أنه حامل شعلة لتلك المثل العليا ٠ ولا تصيبنا أية دهشة – بعد أن ألفنا شخصيات « تشيكوف » – من أن نكتشف مرة أخرى رجلا عظيما من صغار الناس ٠٠

وينتهى تمرد «العم فانيا» باطلاق الرصاص على «سربرياكوف» ويفكر العم فانيا – بعد أن وصل الامر الى هذه الذروة – فى الانتحار ، ولكنه يعود تحت تأثير سونيا الوديعة المخلصة الى عمله ، ذلك العمل الذى ينتفع منه سربرياكوف ٠

ولا يستطيع الاستاذ وزوجته بعد كل ما حدث أن يواصلا الحياة فى الضيعة فيغادرا المكان متجهين لا الى العاصمة وإنما الى مدينة « خاركوف » ٠ ويتم نوع من الصلح ؛ ويخبر العم فانيا سربر ياكوف بأنه سيمضى فى العمل كسابق عهده ، وأن الاستاذ سيتسلم الارباح بتمامها كما جرت بذلك العادة ٠

هذه قصة حياة كرست «لصنم» معبود ٠ وقد كان «جوركى» مصيبا عندما اكتشف معنى رمزيا وراء هذه القصة ٠٠ فما أكثر هؤلاء الاشخاص المكافحين الذين يتوارون دائما فى المؤخرة من أمثال العم فانيا والذين قدموا أفضل ما لديهم

لكي يسعدوا شخصاً لا هو في العير ولا هو في النفير . وفي سبيل خدمة معبود زائف وهم مقتنعون بأنهم يخدمون مبدأ سائداً ، فخدعتهم الحياة ! وما أضيع الجمال الروحي والايمان ونقاء السريرة الذي تبدد عبثاً ! وقد عبر صديق قديم لتشيكوف هو « ب . ى . كوركين » الطبيب باتحاد الزمستوف (وهو الشخص الذي رسم خريطة لمنطقة « سربوخوف » كتلك الخريطة التي رسمها « آستروف » لمنطقته) عبر عن هذا تعبيرا صحيحا في رسالة بعث بها الى تشيكوف وكتبها عقب العرض الأول لمسرحية العم فانيا على مسرح الفن :

« ان موهبتك قد ألقت الاضواء على حياة كثير من الاشخاص العاديين البسطاء وعلى أرواحهم . ان الشوارع مكتظة بمثل هؤلاء الناس وكل واحد منهم يحمل شطرا من الوجود الذي وصفته .. »

هذه الكلمات عظيمة القيمة لنا سواء باعتبارها تقديرا منصفا للمسرحية أو شاهدا على أن المترددين المعاصرين على المسرح كانوا يرون في مسرحية العم فانيا مسرحية عن جموع البشر و « جماهير » الناس .

وتعرض علينا في مسرحيات « تشيكوف » قصص حياة بأكملها ويقدم حيالنا الماضي والحاضر والمستقبل لشخصيته و . . مصائرها وخصائصها الفردية وكأننا نقرأ رواية ، ونستطيع أن نؤلف في خيالنا صورة فنية واضحة تمام الوضوح عن فانيا فوانيتسكي عندما كان شابا متحمسا مستقيما جادا حالما ، وعندما كان « مثاليا » كما كانوا يقولون في تلك الايام ، وقد كانت جميع أماني الشباب الرومانتيكية وأشواق هذا الشباب وتضحياته من أجل المثل العليا قد تركزت على الاستاذ « سربرياكوف » وكان ينظر اليه خلال عيني شقيقته ، وهي فتاة شاعرية التفكير كرست شبابها وطهارتها لسربرياكوف . وقد خلقت الاسرة دينا جديدا يقدس « سربرياكوف » وتمر الاعوام

على الضيعة الهادئة ، أعوام تدرت كلها لهذه العبادة .. عبادة « العالم العظيم » حتى تنفرج المسرحية عن التطــور السريع للحوادث . وبالوضوح نفسه الذى نرى به ماضى «فوانيتسكى» وحاضره نستطيع أن نتخيل مستقبله التعس وشيخوخته التى لا توشيها الاحلام أو الاوهام أو أى شيء آخر .

وقد لاحظ ناقد معاصر أننا نجد في العم فانيا رمزا للاقليم كله الذي وضع جميع آماله في الاستاذ سربرياكوف ويتكشف الامر عن أن هذا الاستاذ « حفرية متفقهة » وشخص أجــوف يدعى في غـــرور أنه زعيم الاقليم الروحى وفخره وذخــره والضمان الوحيد لحياة أفضل يدخرها المستقبل لهذا الاقليم .

وشخصية الاستاذ « سربر ياكوف » تقـــدم لنا مادة وفيرة للتعميم . ففيه تتمثل الاصنام التى كان يعبدها المثقفون فى ذلك العصر وزعمــاء الفكر الاحرار والعلماء المحنطون المنعزلون عن الحيـــاة الروسية الحقيقية المغرورون بأنفسهم المحتقــرون للاشخاص العاديين من أمثال « آستروف » و « فوانيتسكى » . وهم قطعا قانعون بمركزهم الممتاز باعتبارهم رجال « الصفوة » وبوصفهم شخصيات لامعة تقف بمعزل عن « الغوغاء » .

ويعالج « تشيكوف » في مسرحية « العم فانيـــا » فى قوة وبصيرة ثاقبة هذا الموضوع الاثير لديه وهو بيان ما فى خدمة الصفوة من عبث . بل ان تمرد « العم فانيا » عبث لا غناء فيه أيضا لأنه موجه ضد فرد واحد هو نفسه الذي يبدد في خدمته طاقاته كلها . أما اللحن المتكرر فى المسرحية فهو جمال الحيـــاة الذى يذوى ويتـــلاشى . والشخصيات الرئيسية فى المسرحية تشترك جميعا فى هذه النغمة .

فما هو الجمال الحقيقي وما هو الجمال الزائف ؟

نحن نعلم أن العمل فى رأى « تشيكوف » — كما يعبر عن ذلك خلال شخصياته — العمل وحده .. العمل الخلاق هو الشىء الوحيد القادر على ابداع الجمال الانسانى .

وليس في تاريخ الادب العـالمي كله كاتب واحـد سبق جوركي حيث كان الشاعر الملهم الذى مجد العمل غير تشيكوف ذلك أن جميع كتاباته تؤلف أغنية واحدة تترنم بالعمل في مرح تارة وحزن تارة أخرى . وقد كان العمل بالنسبة اليه أساسا لكل ما هو انساني وأساسا للأخلاق والجمال جميعا . وكانت نغمة العمل ترتبط دائما لديه ولدى شخصياته بحلمه عن العمل الحر المبدع . ونستطيع أن نتذكر هنا كيف كانت « ايرينا » أصغر الشقيقات الثلاث تتشوق الى مثل هذا العمل وكيف أن الحياة حطمت حلمها وكانت تشكو قائلة : « عمل بغير شـعر .. عمل بلا أفكار » ففى شعر العمل وفى الاشتياق الى مثل هـذا الشعر يكمن ذلك السحر الخفى فى أبطـال تشيكوف وبطلاته ..

فالشخصيات التى تشبه « أبوجين » و « الاميرة » تفتقر الى الجمال الداخلى الحقيقى لأنها غريبة عن العمل ومعادية لفكرة العمل وهذا ما يقوله دكتور « آستروف » صديق العم فانيا عن « الينا أندريفنا » زوجـة « سربر ياكوف » : « كل شىء عن الانسان يجب أن يكون جميلا : محياه وثيابه وروحه وعقله .. انها جميلة لا يمارى فى ذلك أحد ولكنها لا تفعل شيئا سوى أن تأكل وتنام وتتجول وتفتننا جميعا بجمالها وليست عليها أية واجبات ، بل ان الآخرين يعملون من أجلها .. وأنت تعلم أن هذا صحيح وأن حياة الخمول لا يمكن أن تكون حياة طاهرة »

والذى يقول هذا الكلام هو « آستروف » نفسه ، آستروف الذى فتنته « الينا أندريفنا » .. انه آستروف نفسه كغيره من شخصيات تشيكوف العديدة الذى يخلع على الجمال مثل هذه القيمة العالية ويقول فى تفسير شعوره نحو « الينا اندريفنا » : « لم يبق غير شىء واحد يستطيع أن يهزنى وهـذا الشىء هو الجمال فأنا لا أستطيع ألا أكترث به » ، ومع ذلك فانه يحس أن فى جمالها شيئا ما يتنافى مع تصوره للجمال إنه يرى فيه

شيئا غير نقي : « انني أشعر أن الينا تستطيع لو أرادت أن تدير رأسي في يوم واحد •• ولكنك تعلم أن هـــذا ليس هو الحب الحقيقي وليس ارتباطا مستديما •• »

ان الجمال الزائف المشوب لا يستطيع أن يلهم المرء مشاعر انسانية عميقة •

ان ما يخـــدم المجهود الخلاق هو وحده الجميل • ويقـــول آستروف ذلك الشخص المتيم بجمال بلاده وغاباتها وكرومها ، والذي أحزنته الطريقة الوحشية التي يزيلون بها الغابات :

« أستطيع أن أفهم ذلك لو أنهم مهدوا الطرقات ومدوا خطوط السكك الحديدية وشيدوا المصانع والمدارس في مكان هـــذه الغابات فحينئذ يكتسب الناس الصحة والثروة والمعـــرفة ، ولكننا لا نرى شيئا من ذلك • ففي كل مكان تنتشر المستنقعات والبعـوض والطرقات الوعرة والامـــلاق والتيفوس والدفتريا والحرائق •• وكاد كل شيء أن يتحطم دون أن يحل شيء آخر محله • »

ان « آستروف » حزين لما أصاب جمال العالم وجمال الكائنات البشرية من تدمير • ويتوقف في منتصف حـــديث حار كان يحاول فيه التعبير عن أفكاره الى الينا أندريفنا ليقول بجفاء : « ولكنني ألمح من وجهك أنني أبعث الملل الى نفسك •. »

ولأنها امـــرأة جميلة فقد كانت عاجـــزة عن الشعور بأي اهتمام نحو أحب الموضوعات الى آستروف ألا وهو ما في الحياة من جمال • فما هو جمالها اذن ؟ انه ليس ذلك الجمال المتطفل الذي تتمتع به شخصيات « تشيكوف » من أمثـــال أبوجين والاميرة فالينا أندريفنا شقية هي نفسها شـقاء عميقا لانهـــا أخطأت عندما وهبت شبابها للاستاذ سربر ياكوف لا يدفعها الى ذلك حب تلقائي أو عاطفة ما وانما متـــأثرة بدافع عقلي خالص نحو شخص كانت تعتقد أنه عالم عظيم موهوب • وقد ابتلعت خدمة هذا المعبود حياتها هي أيضا ومهما يكن من أمر فانهـــا

تموت موتا بطيئا من الضجر والخواء الروحي . ولما لم تكن تستطيع أن تخلق شيئا فانها لا تملك غير التدمير ، ويمسى جمالها نفسه نقيضا لجمال الانسان الحقيقى ، ولهذا نلمس شيئا من السخرية والاستهتار فى أسلوب آستروف الذى اصطنعه لمغازلتها ولو أنها لم ترحل هى وزوجها لقامت بينهما وبين آستروف بلا أدنى شك علاقة غرامية . وكان من الممكن ألا تترك هذه العلاقة فى نفس آستروف غير احساس بالعبث والفراغ . يقول لها : « أجل اذهبى » ثم يقول متفكرا : « يبدو أنك طراز طيب من الناس ومع ذلك فهناك شيء لا يمكن تفسيره فى وجودك كله فقد أقبلت الى هنا أنت وزوجك واضطر جميع الذين كانوا يعملون وينجزون واجباتهم أن ينصرفوا عن نشاطهم وأن يكرسوا أنفسهم طيلة الصيف لمرض النقرس الذى يتألم منه زوجك وأن يكرسوا أنفسهم لك أيضا . ويبدو أنكما أنتما الاثنان قد نقلتما الينا جميعا عدوى كسلكما وقد استسلمت أنا نفسى الى هذه العدوى ولم أفعل شيئا طوال شهر بأكمله ، وأصيب الناس جميعا بالعدوى وترك الفلاحون ماشيتهم تعيث فسادا فى غاباتى وأحراشى .. وهكذا حيثما حللتما أنت وزوجك جلبتما الخراب فى أعقابكما ، وأنا على يقين من أنكما لو مكثتما الى الابد لكان الخراب أعظم » .. وهكذا لأن « الينا » كانت غريبة على العمل والمجهود الخلاق فقد أصبحت بالتالى غريبة شيئا فشيئا عن الحياة نفسها ، وصارت هى حطاما وسببا فى خراب الآخرين وأخذت تحطم ـ دون وعى منها كل ما يعترض سبيلها مما هو جميل وعظيم وانسانى . انها طير جارح دون أن تدرى .. فهى التى حطمت الصداقة التى كان يمكن أن تتفتح الى حب بين آستروف وسونيا .

وآستروف شخص خالق على نطاق واسع وتصفه لنا اندريفنا عندما تتحدث عنه الى سونيا فتقول : « ولكن يا عزيزتى انه عبقرى ! .. هل تعلمين ماذا يعنى هذا القول ؟ .. انه يعنى

الشجاعة والعقل الحر والأفق الرحب .. فاذا أنبت شجيرة بدأ يفكر فيما سيئول اليه أمرها بعد ألف عام ومن الحق أنه يشرب الخمر ويبدو فظا في بعض الاحيان ولكن ماذا في ذلك ؟ حسبك أن تتصوري الحياة التي يحياها هذا الطبيب ! .. وتصوري الاوحال المتراكمة على الطرقات والصقيع والعواصف والمسافات الشاسعة والناس الغلاظ نصف المتوحشين والفقر والمرض في كل مكان . ان رجلا يعمل ويكافح كل يوم من حياته في مثل هذه الظروف لا يمكن أن نتوقع منه دائما أن يكون نظيفا متزنا بعد أن بلغ سن الاربعين .. »

ان آستروف يحب الحياة وهو ككل شخصيات « تشيكوف » المفضلة لديه يتطلع نحو المستقبل ويشتاق الى أن يظفر بلمحة من محياه ، وأن يتنبأ بما يمكن أن تكون عليه بلاده والانسانية جمعاء تحت أشعة السعادة المنبعثة من الغد . ويقول لسونيا : « أما حياتي أنا الخاصة فأقسم لك أنها تخلو من كل شيء طيب يمكن الحديث عنه ، وعندما تجتازين الغابات في ليلة ظلماء وتلمحين بصيصا بعيدا من النور فانك لن تشعري بالتعب ولن تنتبهي الى الظلمة ولن تشعري بأغصان اللبلاب وهي تخدش وجهك .. انني أعمل كما لا يعمل أحد في هذه المنطقة وما فتئت الحياة تنزل بي ضربات متصلة وأحيانا تكون آلامي أكثر مما أطيق ولا ضوء يلمع من بعيد .. انني لا أنتظر شيئا لنفسي .. »

ومع ذلك كانت هناك نقطة مشرقة في حياته وهي صداقته لسونيا وللعم فانيا . ان سونيا تحب آستروف ..

ولولا اقتحام الينا اندريفنا لحياتهما لكان من الممكن أن يتزوج سونيا أو على الأقل لما تخلى عن صداقتها .

غير أن الينا مدفوعة بتعاطفها تقدم على مساعدة سونيا الخجول وتأخذ على عاتقها أن تفاتح آستروف لتكتشف ان كان يحب سونيا ؟ فاذا لم يكن يحبها فلينقطع عن زياراته وعلى هذا

النحو كانت تفكر الينا أندريفنا ، بينما تتردد سونيا متسائلة :
« هل هذه المقابلة ضرورية ؟ ‥ لأنه لو قال لا فمعني ذلك نهاية آمالها ونهاية صداقتهما أيضا ٠ أليس من الأفضل أن يترك لها على الأقل هذا الأمل ؟ ‥ ان آستروف هو النقطة اللامعة فى حياتها المليئة بالكدح والهموم ‥ انه النور الذى يلوح لها من بعيد فى الغابة المظلمة الحالكة ‥

وتوافق بعد لأى تحت تأثير الينا أندريفنا وتسمح لها بأن تتحدث اليه ٠ والآن لماذا تريد الينا هذه المحادثة ؟ السبب واضح تماما وان لم تشعر به الينا شعورا كاملا وهى أنهـا تميل الى آستروف ميـلا شديدا ٠ ويخمن آستروف الذكى الأريب هذا السبب ‥

آستروف : هناك شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه وهو لماذا أقدمت على هذا الاستجواب ؟ (ينظر مباشرة الى عينيها ويلوح بأصبعه نحوها) أنت عميقة ‥ عميقة جدا ، هل تعلمين ذلك ؟

الينا اندريفنا : وماذا تقصد ؟

آستروف (يضحك) : أوه أنت عميقة جدا ، قولى ان سونيا تتألم فأصدقك على الفور ، ولكن علام هذا الاستجواب ؟ والآن لا تنظرى الى هكذا أيتها الطائر الجارح ‥

أجل ‥ انها طائر جارح ، فقد اغتصبت من سونيا سعادتها عندما أرغمت آستروف على الاعتراف بأنه لا يحب سونيا ٠

فقد كان جوهر العلاقات بين آستروف وسونيا مما لا يمكن أن يحدد ولا ينبغى أن يحدد بعد ، وأدركت الينا ذلك وبلغت بما أرادته من « وضوح » وبذلك أفسدت كل شيء ٠

ولكن على الرغم من أنها حطمت سعادة انسان آخر فانها لم تكن بمستطيعة أن تحقق السعادة لها أو لآستروف ، انهـا تحطم حياة الآخرين بلا احساس ولا هدف كما تسحب خلفها جمالها الاجوف ، ذلك الجمـال العاجز عن خلق السعادة عن طريق الحياة ، انه جمال يخلو من الروح والالهام والحب ! ‥

والنغمة الدالة فى المسرحية ـ وهى ما يفضى اليه الجمال من تدمير ، هذه النغمة تظهر فى تنوعات متعددة ، وآستروف الذى يحزن على تحطيم جمال الحياة هو نفسه صورة للجمال المبدد .

تتوسل اليه سونيا أن يقلع عن شرب الفودكا فتقول له : « انها لا تناسبك على الاطلاق فأنت وسيم وصوتك لطيف .. وأستطيع أن أقول أكثر من ذلك وهو أنك أكثر الناس الذين عرفتهم امتيـــازا ، فلماذا تريد أن تكون كالاشخاص العاديين الذين يحتسون الخمر ويلعبون الورق ؟ أتوسل اليك ألا تكون مثلهم ! .. انك تردد دائما أن الناس لا يخلقون شيئا وانمـا يحطمون ما منحهم الله ، لماذا .. لماذا يجب أن تحطم نفسك ؟ »

غير أن الحياة نفسها هى التى تسحق جمال آستروف وما يمتاز به من انسجام ظاهرى وباطنى ويقول للعم فانيا فى المنظـــر الأخير : « اننا أنا وأنت فى مأزق لا مخرج منه .. وان هؤلاء الذين سيعيشون مائة عام أو مائتين بعدنا والذين ســـوف يحتقروننا لاننا عشنا حياتنـا بمثل هذا الغبـاء وبمثل هذا الافتقار الى الذوق ربما وجدوا سبيلا لاسعاد أنفسهم .. ولكننا نحن .. هذه هى المسألة يا صديقى .. وقد كان يوجد اثنان من المثقفين فى منطقتنا هما أنت وأنا غير أنه فى فترة وجيزة لم تستغرق عشرة أعوام جرفتنا حياة حقيرة دنيئة وسممت دماءنا بأبخرتها القذرة فصرنا مبتذلين كسائر الناس . »

انها عبارة ممعنة فى القسوة ، فما صار آستروف أو العم فانيا شخصين مبتذلين يعيشان حياة قانعة محتقرة . كل ما فى الأمر أنهما لا يجدان مرفأ يلوذان به . ونحن نميز مــــلامح الانحلال فى آستروف وثمة أعراض اضمحلال نتبينها فيه ونجد للاسف أن آستروف لم يكن مخطئا فى تشخيص حالته وهى حالة لا أمل فيها .وما كان من الممكن أن يختلف الأمر عن ذلك مع شخص يحتقر أنصاف الحلول والسطحية ومع ذلك كان بعيدا عن الحركة الثورية للطبقة العاملة التى أخذت تتطور وتنمو شيئا فشيئا فى الحلقــة التاسعة . وكان آســتروف كصديقـــه

« فوانيتسكي » غير قادر عن أن يعزى نفسه بفكرة « منقذة » تافهة أو « بالاصلاحات الصغيرة » والاوهام الوردية ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يضع نصب عينيه هدفا ساميا في الحياة اذ كان منعزلا كل الانعزال عن هؤلاء الذين يجاهدون في سبيل غاية عزيزة على نفسه وهي أن يجد طريقا معقولا نقيا عادلا في الحياة • وقد عمقت مأساة هذه الشخصية التشيكوفية بسبب عدم اكتراثها السياسي والحدود التي فرضتها على نفسها كشخصية مثقفة •

ومما لا ريب فيه أن آستروف كان يستطيع الاحتفاظ بشخصيته وحلمه وأن يواجه تقلبات الحياة اذا سرى الى نفسه الدفء لشعوره بأن عمله المتواضع هو جزء من خطة عامة لاعادة تنظيم الحياة وخلقها من جديد ولكنه كان يفتقد مثل هذا الشعور •

ويرحل « سربر ياكوف » و « الينا اندريفنا » ، ويخرج « آستروف » من حياة « سونيا » الى الأبد ، ويعود العم فانيا وسونيا الى وحدتهما مرة أخرى ، غير أن تغييرا جوهريا طرأ على حياتهما وهو أن الأمل قد اختفى منهما الى الأبد •

وتقول سونيا : « حسن ••• لا مفر من ذلك ولا بد أن نعيش •• وسنواصل حياتنا أيها العم فانيا وأمامنا موكب من الأيام والامسيات الطويلة •• الطويلة التي لا تنتهي وسنحتمل صابرين كل ما يبلونا به القدر ، وسنعمل للآخرين سواء أكان ذلك الآن أو عندما تدب الينا الشيخوخة دون أن نظفر بشيء من الراحة وعندما تحين ساعتنا سنموت دون همسة وهناك في العالم الآخر سنخبرهم بأننا تألمنا وبكينا وأننا كابدنا كثيرا من المرارة وسيرحمنا الله وحينئذ سأعرف أنا وأنت يا عمي العزيز حياة أخرى جميلة مشرقة رشيقة وسنعرف طعم الراحة ! وسنسمع الملائكة تغني ونرى السماء مرصعة بالجواهر الكريمة وسنرى كل ما في العالم من شر وكل آلامنا وقد غمرتها الرحمة التي تملأ الكون بأسره •• (تمسح عينيه بمنديلها) أنت تبكي

أيها العم المسكين فانيا (تتكلم وقد انهمرت دموعها) أنت لم تعرف الفرح أبدا. ولكن انتظر ٠٠ انتظر يا عمى فانيا ما عليك الا أن تنتظر وسوف نستريح ٠٠ (تطوقه بذراعيها) سوف نستريح ! »

وقد أراد « تشيكوف » فى المنظر الاخير من مسرحية « العم فانيا » التعبير عن جمال الحزن الانسانى الذى يقول عنه ان « الناس لن يفهمونه سريعا وان قدرتهم على وصفه أقل من قدرتهم على فهمه ، ولا يمكن نقله الا بالموسيقى وحدها » ٠

ومن الخطأ حقا الاعتقاد بأن « تشيكوف » بما أثر عنه من عداء للعواطف الدينية أيا كان نوعها كان يبحث فى الدين عن عزاء لأبطاله ٠ غير أنه لم يكن هناك شيء آخر تستطيع أن تتشبث به « سونيا » أو تحاول أن تبعث به الاطمئنان الى نفس العم فانيا وهذا ما يجعل يأسها من تحقيق حلم السلام والفرح لها وللعم « فانيا » أشد توقدا ٠ والحكمة فى مثل هذه الخاتمة تكمن فى أن الحياة المشرقة الجميلة الرشيقة التى أشار اليها « تشيكوف » هى بعينها الحياة التى تستحقها سونيا والعم فانيا و « صغار الناس » جميعا والكادحون الذين يكرسون حياتهم كلها لاسعاد الآخرين ٠٠٠

وفوق هذه الحياة اليائسة التي يحياها هؤلاء الناس البسطاء العادبون وفوق قوى التخريب القاسية المظلمة يحلق عاليا حلم « تشيكوف » بحياة المستقبل عندما يصبح كل شيء عن الانسان جميلا ! وكما هى الحال دائما عند تشيكوف يمتزج تصور الجمال بتصور الحقيقة ويندمج الجهد الخلاق والمبدأ الجمالى بالمبدأ الاخلاقى ٠٠ الحقيقة والعمل : هذان هما أساس الجمال وينبوعه المتدفق ، وينبغى أن تكون الحياة بحيث لا تحطم هذه الخصائص الفردية الضئيلة العظيمة فى الوقت نفسه وبحيث لا تسمح للقوة الروحية وللتضحية بالذات وللكدح المنزه عن الانانية أن تتبدد فى خدمة أرباب مزيفين ، حياة لا يعد فيها أمثال سربر ياكوف نماذج للانسان ، بل يسير الناس على نهج « آستروف »

و « سونيا » و « العم فانيا » الذين يملئون بلادهم عملا حرا مبدعا .

وقد وجدت هذه العبارة التى يقول فيها « آستروف » يجب أن يكون كل شىء فى الانسان جميلا : مخياه وثيابه وروحه وعقله » : هذه العبارة عن الوحدة التى لا انقسام فيها بين الحق والجمال .. وجدت هذه العبارة فى كراسة الفتاة البطلة « زويا كوسمو دميانيسكايا التى عذبها الالمان الفاشيون وشنقوها فى وحشية بالغة ، وكانت تدون فى تلك الكراسة أعز الحكم الى نفسها .

سقوط "الطائر البحرى"؟

عرضت مسرحية الطائر البحرى على مسرح الكزندرنيسكى فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦ فأخفقت اخفاقا ذريعا على الرغم من أن أفضل ممثلى الفرقة اشتركوا فى تمثيل أدوارها ، وقامت الممثلة ف. ف. كوميسار « زفسكايا » بدور « نينازرخنايا » ، غير أن فشل المسرحية يرجع الى أسباب عرضية بحتة . وكانت الممثلة الهزلية الشهيرة « ليفكييفا » التى يحبها التجار وصغار الموظفين قد اختارت مسرحية « الطائر البحرى » كى تمثل لحسابها ، وعندما وزعت الأدوار ظهر أن المسرحية لا تحتوى على دور مناسب للممثلة « ليفكييفا » نفسها . وكان المعجبون يجهلون أن ممثلتهم المحبوبة لا تقوم بدور فى المسرحية فاكتظ بهم المسرح ، وكانوا قد أتوا ليستمتعوا بملهاة خفيفة كتبها مؤلف مرح وتمثلها ممثلة هزلية ذائعة الصيت . وفى مستهل العرض كان الجمهور يتصرف كما لو كان يشاهد ملهاة صاخبة فيضج بالضحك فى مواقف غير مناسبة وغير متوقعة ولأقل اثارة ممكنة ، وفطن الناس شيئا فشيئا الى أن ما يمثل على المسرح ليس ملهاة مضحكة وانما شىء غريب غامض غير مألوف. وظلت الممثلة الأولى تتحدث عن «الروح الشاملة» وعن «الشيطان الذى هو أبو المادة الابدية » ولم تظهر « ليفكييفا » على خشبة المسرح . واعتبر الجمهور المسألة تحديا لهم ، وبدأ التوتر يشيع فى الجو وانطلقت صيحات الاستهجان يعقبها الصفير . وكان « تشيكوف » يجلس فى بداية الامر ممتقع الوجه فى الصالة ولم يلبث أن ذهب وراء الكواليس ولكنه لم ينتظر حتى نهاية العرض .. وكان من الواضح جدا أن المسرحية سقطت سقوطا تاما ، بل ان الممثلين أنفسهم أصابهم الارتباك والذهول وازداد تمثيلهم سوء كلما مضت السهرة ، وحتى « كوميسار زيفسكايا » التى علق تشيكوف عليها كل آماله أدت دورها أداء سيئا وواصلت

تمثيلها في امتعاض وتأفف ، وكانت تكتم دموعها فى صعوبة ، وبدا أن الظروف جميعها قد تآمرت على اسقاط المسرحية وكأنما كان النظارة قد اختيروا خصيصا من العناصر المحافظة ذات الاذواق الرجعية المتزمتة المبتذلة .

ومع ذلك فان السبب الحقيقى أعمق من هذا كثيرا .

فقد كان المسرح حينذاك أبعد من أن يفهم التجديدات التى أدخلها تشيكوف فى مسرحياته ، وكان أقصى ما يستطيعه المسرح هو أن يبرز الافعال الظاهرة ، وان يدع للمتفرج تخمين المعنى الخفى المستتر وراء هذه الافعال ، وقد اعتاد تشيكوف أن يقول فى حديثه عن مسرحياته ان على المتفرج أن يظهر الحياة كما هى والناس كما هم على خشبة المسرح .. « وفى الحياة الواقعة لا يطلق الناس الرصاص على أنفسهم ولا ينتحرون شنقا ولا يعترفون بالحب فى كل لحظة كما أنهم لا ينطقون بالحكمة دائما بل ينفقون معظم وقتهم فى الاكل والشراب والغزل والكلام الفارغ . وهذا كله يجب أن يظهر على المسرح وفى المسرحية .. ويجب أن تكتب المسرحية حيثما يذهب الناس ويروحون ويأكلون ويتحدثون عن الطقس ويلعبون الورق .. فلتكن الاشياء اذن على المسرح معقدة وبسيطة فى الوقت ذاته كما هى فى الحياة والناس يجلسون لتناول غدائهم ولا يفعلون شيئا غير ذلك ، هذا بينما تصنع فى الوقت نفسه سعادتهم أو تتحطم حياتهم .... » .

والحقيقة أن هذا هو ما يحدث تماما فى الفصل الاول من مسرحية « الشقيقات الثلاث » حيث نرى أشخاص المسرحية يتناولون أفطارهم فى الوقت الذى كانت حياتهم يتهددها الخطر على يد حيوان مفترس يتسلل الى منزلهم متمثلا فى شخص « ناتاشا » التى لعبت دورا مؤلما فى حياة الشقيقات الثلاث .

.. ان لكل ما تقوله الشخصيات فى مسرحية «تشيكوف» دلالة داخلية ودلالة خارجية . ففى الظاهر أو على السطح يبدو أن الناس يتبادلون أطراف حديث عادى من الامور اليومية ومع

ذلك فكل كلمة ينطقون بها تنطوى على لحن موسيقى خفى هو العلاقات العميقة بينهم . تلك العلاقات التى لا يشعرون بها فى بعض الاحيان . واخراج مسرحيات « تشيكوف » على المسرح دون فهم لهذه الخصيصة الهامة فيها معناه اما القضاء عليها بالفشل أو سلبها ما فيها من ثراء باظهار جانبها السطحى وحده.

وقد تأثر « أنطون بافلوفيتش » بهذا الاخفاق تأثرا عظيما .. وبعد أن غادر المسرح أخذ يجوب شوارع (بطرسبرج) بقية الليلة . وفي اليوم التالى دهش أصدقاؤه جميعا عندما قفل عائدا الى ضيعته « فى ملكو فو » دون أن يودع منهم أحدا ..

وكتب الى ف.ى. « نيمورفيتش دانشنكو » يقول إن المسرحية سقطت « سقوطا شنيعا » . وقال : « يبدو أن المسرح يتنفس خبثا وكان الجو مثقلا بالبغضاء وخضوعا لحكم قوانين الطبيعة انفجرت راحلا عن بطرسبرج كالقذيفة » .

وقال : « لو عشت سبعمائة عام أخرى فلن أكتب مسرحية واحدة للمسرح وحسبى ما لقيت ، فقد أخفقت فى هذا المضمار »

وقد كان فى سقوط هذه المسرحية سخرية قاسية خفية من « تشيكوف » لأنه وصف فيها سقوط مسرحية كتبها مجدد لم يجد من يفهمه ، وكأنما كان « تشيكوف » يتنبأ بمصيره هو نفسه كمؤلف مسرحى .

ومما أساء الى تشيكوف أكثر من اخفاقه الفعلى ما أبداه أصدقاؤه المزعومون من سرور خبيث لوقوع هذا الفشل .

كتب يقول : « ..... إن معظم مسرحياتى قد أخفقت ولم يكن لذلك أدنى تأثير على . ولكن فى اليوم السابع عشر من أكتوبر لم تكن مسرحيتى هى التى فشلت بل انها شخصيتى التى لحق بها الفشل . ومنذ مستهل الفصل الاول أصابتنى الدهشة عندما لاحظت ظاهرة غريبة ... فان هؤلاء الذين كانوا حتى يوم ١٧ أكتوبر يظهرون لى الود والاخلاص هؤلاء الذين اشتركت معهم فى مآدب مرحة وخضت من أجلهم معارك عديدة ، هؤلاء الناس قد ارتسم على وجوههم تعبير مضحك ... مضحك جدا

وباختصار كان سلوكهم خليقا بأن يدفع شخصا مثل «لايكين» أن يعزينى على قلة أصدقائى وأن يدفع « نيديليا » على أن تسأل: « ماذا صنع تشيكوف لهم ؟ • » ومهما يكن من أمر فقد ثاب الى هدوئى وتمالكت أعصابى ، ولكننى لا أستطيع أن أنسى ما حدث لى كما لا أستطيع أن أنسى مثـــلا أن شخصا آراد أن يضربنى » •

وأكد سقوط مسرحية « الطائر البحرى » هذه الحقيقة وهى أن «تشيكوف» كان يعمل دائما فى جو يضمر له العداء وأن رجال المسرح من الأدباء المتحذلقين كانوا يمقتونه دائما « فماذا صنع تشيكوف لهم ؟ » •

لقد كان شوكة فى جنوبهم بسبب مؤلفاته جميعـا ، وهم الآن يثأرون لأنفسهم بالمماحكات المبتـــذلة الفظة وبالافتراء والتشهير •

وسرعان ما امتلك تشيكوف زمام نفسه كمألوف عادته وعاد مرة أخرى الى نظام العمل الذى التزم به •

ونحن نعلم أن تشيكوف بلغ فى تلك الأعوام أوج نشاطه الابداعى فلم يمض وقت طويل بعد سقوط الطائر البحرى حتى خرج للناس بهذه الروائع : « الفلاحون » ، « فى العربة » ، « زيارة الاصدقاء » • وأخذت عبقريته تحلق عاليـــا دون أن يستسلم مطلقا للحزن أو يخضع للكوارث •

غير أن اخفاق « الطائر البحرى » كان له تأثير قاتل على صحته وهنا يقول ميخائيل تشيكوف : « ومنذ تلك اللحظة أخذت علته تزداد سوءا » •

وقد كان من الممكن حتى هذه اللحظة أن يتغاضى عن صحته المعتلة وأن يطرحها جانبا ، غير أن العلة فرضت نفسهـــا على حياة « تشيكوف » بلا رحمة أو شفقة ، وأصبح منذ تلك اللحظة حتى نهاية حياته عليلا حقيقيا ، وكانت الاعوام الثمانية الاخيرة

من حياته قد غشيها الظلام بسبب ذلك التناقض المفجع بين حالته الجسمانية وحالته العقليـــة ، بين وعيه الروحي والاجتماعي والسياسي واحساسه بالحياة وتحليق عمله الخلاق في آفاق عالية وبين المسرى القاتل الذي تسـلكه علته . وذات يوم من أيام مارس سنة ١٨٩٧ بينما كان « تشيكوف » يتناول غداءه في مطعم « الارميتاج » مع « سوفورين » الذي وصل من توه الى موسكو أصيب « أنطون بافلوفيتش » بنزيف مفاجيء فحمل عندئذ الى الحجرة التي نزل بها « سوفورين » في أحد الفنادق . وظل « تشسكوف » راقدا هناك زهاء يومين وقد لاحظ « أن الدم كان ينزف من رئته اليمنى كما كانت الحال بالنسبة لأخيـه واحدى قريباته التي ماتت هي الاخرى بداء الصدر » .

وأعقب ذلك نزيف آخر أرغم « تشســيكوف » على أن يمضي إسبوعين في عيادة البروفسور « أوستروموف » .

وظهر أن الالتهاب مستقر في الجزء الأعلى من الرئة ونصحه الاطباء بأن يغير نظام حياته تغييرا أساسيا وأن يمتنع امتناعا تاما عن العمل الذي يتطلب التركيز وأشاروا عليه أن يذهب الى « نيس » في الريفيرا وهناك في جنوب فرنسا عاش من خريف سنة ١٨٩٧ الى ربيع سنة ١٨٩٨ .



من اليمين الى اليسار أ٠ب تشيكوف٠ زوجته٠ شقيقته٠ أمه

قضية دريفوس

كان الموضوع المتأجج الذى يشغل بال فرنسا يوم ذاك بل والعالم كله فيما بعد هو القضية المشهورة بقضية «دريفوس» ، فقد اتهم الكابتن اليهودى « ألفريد دريفوس » أحد ضباط المدفعية الملحق بهيئة أركان حرب الجيش الفرنسى بالاشتراك فى أعمال التجسس ، وكانت القضية كلها ملفقة على يد الضباط الرجعيين ولم يكن للاتهام أى أساس من الصحة ، ومع ذلك فقد جردته المحكمة العسكرية من رتبته وقضت عليه بالنفى مدى الحياة ولم تقدم وزارة الحربية الأسانيد التى كان المفروض أنها تدين « دريفوس » الى المتهم ولا الى دفاعه . وكان الميجور « أستر هازى » هو الذى اقترف جريمة الخيانة العظمى ، وليس « دريفوس » وكان الاستهتار الذى اتسمت به اجراءات المحكمة والحكم على شخص برىء سببا فى موجة من السخط عمت أوربا كلها وتحول الخلاف الذى تركز حول قضية «دريفوس» الى صراع حاد بين معسكرين متميزين : معسكر الرجعية الدينيه والمعسكر التقدمى . ولم يلبث «زولا» أن نشر مقالته المشهورة بعنوان « انى أتهم » دفاعا عن « دريفوس » وكانت هذه المقالة هجوما عنيفا على الحزب الحاكم فى فرنسا وعلى قوى الرجعية جميعا . وقد أثبت « زولا » أن هيئة أركان الحرب الفرنسية ووزارة الحرب والمحكمة قد أقترفت جريمة التلفيق والافتراء المدبر .

ووجهت تهمة اهانة المحكمة الى « زولا » وقدم للمحاكمة . بيد أن محاكمته لم تكن فى صالح الحزب الرجعى وتجلى أثناء المحاكمة أن الوثائق التى بنى عليها اتهام « دريفوس » كانت

مزورة وأمكن الاستدلال على مرتكبي هذا التزوير ٠

وكان لا بد أن تنظر قضية « دريفوس » مرة أخرى واستدعى « دريفوس » من منفاه وحوكم مرة أخرى في أواخر سنة ١٨٩٩ وألح المعسكر الرجعي حفظاً لماء وجهه على أن يدان « دريفوس» مرة أخرى وأن تكن المحكمة قد أوصت هذه المرة باستعمال الرأفة فما كان من رئيس الجمهورية الا أن أصدر عنه عفوا شاملا ولم يستطع « أنطون باقلوفيتش » أن يتمالك نفسه عن متابعة مجرى الحوادث في انتباه فأخذ يدرس محاضر المحاكمة بدقته ومثابرته المعهودتين حتى تأدى منها في النهاية الى أن « دريفوس » برىء وكان سلوك المعسكر الرجعي سواء في فرنسا أو في روسيا – ذلك المعسكر الذى لم يضطهد دريفوس فحسب بل اضطهد « زولا » أيضا خليقا بازدراء تشيكوف ٠

وقد بذلت الصحافة الرجعية بما فيها صحيفة «سوفورين» « نوفوى فريميا » كل ما في وسعها لتشويه سمعة « زولا » واتهمت صحيفة « نوفوى فريميا » كل من ناصر « دريفوس » بأنه مرتش من « الاتحاد اليهودى » وكانت شجاعة « زولا » ونزاهته مبعثا لسرور تشيكوف وكتب « تشيكوف » يقول من نيس « لقد أضاف زولا عدة بوصات الى علو مقامه ، وخطابات احتجاجه أشبه بنسمة منعشة ، وينبغى على كل فرنسى أن يشعر بأن العدالة ما زالت موجودة على هذه الارض وأن يحمد الله لانه في حالة اتهام رجل برىء هناك من النـــاس من يهب لمناصرته » ٠

وكان « تشيكوف » قد قطع صلته بصحيفة « سوفورين » منذ عام ١٨٩٣ ، وحان الوقت الآن لانهاء علاقتـــه الودية « بسوفورين » فقد أصبح من المستحيل الآن على «سوفورين» أن يتظاهر بأنه لا دخل له في اضطهاد « زولا » و « دريفوس » على صفحات جريدته كما أن تشيكوف تخلى منذ زمن بعيـــد عن براءته السياسية التى جعلته يفصل في ذهنه بين سوفورين وصحيفة « نوفوى فريميا » ، ولم يعد ينظر الى « سوفورين »

باعتباره رجل أدب فحسب وبدأ يراه أخيرا كما هو فى الواقع مجرد متآمر رجعى لا مبدأ له • وهكذا رغم أعوام الصداقة التى كانت بينهما قرر تشيكوف أن يقطع علاقته تماما «بسوفورين»

وكتب اليه رسالة طويلة يؤكد فيها انفصاله عن « الرجـــل العجوز » وكتب يقول أن قضية « دريفوس » قد «طبخت » على تربة معادية للنزعة السامية تربة تفوح منها رائحة المذابح •

وألمع الى شيخوخة « سوفورين » المعذبة فى مقابل ما يتمتع به «زولا» من صفاء الضمير ، وقال : «ومهما يكن الحكم فان «زولا» سيشعر بالفرح عندما تنتهى المحاكمة وسيقضى شـــيخوخة سعيدة وسيموت مرتاح الضمير أو على الاقل بضمير خالص »

وكانت هذه ضربة قاضية وجهت الى « سوفورين » الذى لم يعرف ضميره مطلقا معنى الراحة •

وكتب «تشيكوف» فى رسالة بعث بها الى أخيه «الإسكندر» يعرب فيها عن سخطه على المعلومات الكاذبة التى تزود بهـــا صحيفة « نيفوى فريميا » عن طريق مراسليها : « بالغا ما بلغ قولك فان « نوفوى فريميا » تثير الاشمئزاز ولا يمكن أن تقرأ البرقيات الواردة من باريس دون أن يصاب المرء بالغثيان •• انها ليست برقيات بل تزوير واحتيـــال •• ولا أحدثك عن مقالات ذلك «الايفانوف» الذى لا يكف عن تهنئة نفسه وناهيك بتلك الاقوال التى تصدر عن ذلك الرجل البغيض « رجل من بطرسبرج » • انهـــا ليست جريدة بل هى معرض للوحوش وشرذمة من الذئاب الجائعة التى ينهش بعضها ذيول البعض الآخر ــ والله وحده يعلم ما هى هذه الصحيفة » •

أما « سوفورين » الذى أدرك الآن تمام الادراك أن صداقته « لتشيكوف » قد انتهت فقد أخذ يتظاهر مع ذلك بأن ما بينهما مازال على سالف عهده ، وعلى الرغم من أن المراسلة قد اتصلت بينهما الا أنها لم تكن تحمل أثرا لعلاقتهما القديمة •

وليس من الممكن أن ننظر الى انفصـــال تشيكوف عن «سوفورين» باعتباره مجرد حادثة عرضية فى حياة «تشيكوف»

وذلك لأن الطريق كان قد مهد لها شيئا فشيئا وأدرك «أنطون بافلوفيتش » أن « سوفورين » لا يمكن أن يؤخذ بمعزل عن صحيفته غير أن هذا القرار وهذا التقدير السياسي الواضح هما من سمات « تشيكوف » في هذه المرحلة ٠

فقد أخذ «تشيكوف» يتابع في انتباه متزايد واهتمام واضح مجرى الحياة السياسية الروسية مسجلا في لهفة كل ما يسرى فيها من تيارات تقدمية ٠



تشيكوف مع كلابه

لقاء مع مسرح الفن

من العلامات الدالة على الحركات الاجتماعية التى مهدت للثورة الروسية انشاء مسرح الفن الشعبى فى موسكو عام ١٨٩٨ .. أنشأه رجلان ممتازان من رجال المسرح هما « ك. س. ستانسلافسكى » ، ف.ى. نيميروفيتش دنشنكو » وقد قدر لهذا المسرح الجديد أن يشعل الثورة فى المسرح الروسى وفى العالم كله وأن يصير مفخرة من مفاخر الشعب الروسى .

وقد أضيفت كلمة « شعبى » لتؤكد الاتجاه الديمقراطى للمسرح .. هذا الاتجاه الذى ظهر أولا وأخيرا فى أسلوب الاخراج المسرحى وفى المنهج الخاص بتصوير الحياة على المسرح، وكان من المحتم أن يتقاطع السبيل الذى سلكه « تشيكوف » مع الطريق الذى سلكه مسرح الفن . فها نحن أولاء ازاء مسرح تقدمى روسى زاخر بالطاقة الخلاقة والشجاعة والجرأة على التجديد .. ومن جهة أخرى نرى كاتبا روسيا ديموقراطيا عظيما ، مجددا فى روحه وأسلوب أعماله فكان كل من الكاتب والمسرح يعبر عن القوى الخلاقة الناهضة فى الامة الروسية . ومن النتائج الناجحة السعيدة لهذا التقارب التاريخى بين « تشيكوف » ومسرح الفن أن هذا المسرح استطاع أن يحيط بأهم ما فى أسلوب تشيكوف وأن يفهم مذهبه الجمالى ، وأن يستشف أكثر مبادئه حيوية بما فى ذلك نظرية الجمال الخفى الذى يكمن وراء الاشياء العادية وطبق «ك.س.ستانسلافسكى» و « ف.ى. نيموروفيتش دانشنكو » مبدأ تشيكوف على المسرح وأدخلا بذلك تصورا جديدا أطلقا عليه اسم « التيار الداخلى » أو التيار الكامن ومعناه القدرة على اكتشاف جمال الاشياء العادية وابراز الجمال الخفى المحتجب فى كل كلمة وحركة

وأشارة وأدرك مسرح الفن أنه لكى يخرج مسرحيات تشيكوف فلا بد من أن يظهر الحياة المستترة المحتجبة والدراما الكامنة وراء الافعال العادية والاحاديث التى تدور حول أحداث الحياة اليومية وهكذا استطاعت الدراما والمسرح الروسى تعميق واثراء التصوير الفنى للحياة الواقعية الى حد لم يسبق له مثيل واندمج مبدأ تشيكوف القائل بأننا يجب أن نشعر فى كل شخصية بمجموع الانسانية كلها . هذا المبدأ الذى تحدث عنه فى خطاب بعث به الى جوركى - اندمج هذا المبدأ بمبدأ من أهم المبادىء الفنية التى اعتنقها المسرح الفنى والتى كرس لهـا ستانسلافسكى و « نيموروفيتش دنشنكو » الكثير من طاقاتهما الا وهو مبدأ « الكل الشـامل » فكل جـزء فى المسرحيـة حتى ولو كان متألفا من كلمات قلائل فلابد من أن يكون صـورة فنيـة حقيقية لما تنطوى عليه من « تيار كامن » وحتى لو كان الممثل لا ينطق بأكثر من ثلاث أو أربع كلمات فلا بد أن يضع فى هذه الكلمات القلائل من العمق والدلالة والكمال ما يسمح للمتفرج بتصور حياة الشخصية بأسرها وأن يتصور وضعها وعاداتها وموقفها من كل ما يدور على خشبة المسرح .

وفى هذه المحاولات الخلاقة للمسرح الجديد كانت تظهـر الاتجاهات الديموقراطية نفسها والتغلغل الوجدانى نفسه فى حياة صغار الناس وفى الدلالة الداخلية للحياة اليومية العادية ولم تكن قدرة الممثل على الانصات الى الآخرين والشعور بما يشعرون به وتركيز كل انتباهه بأقل أهمية فى نظر مسرح الفن من قدرته على أداء دوره الفردى الخاص أو على وجه الدقة كان من المستحيل خلق دور دون هذه القدرة على ادماجه فى الحركة العامة للمسرحية كلها . وكان مسرح الفن يجاهد فى اصرار للوصول الى نقطة يتم فيها الشعور باندماج الممثلين فى المسرحية وفى كل تفاصيلها وذلك حتى تؤثر كل كلمة وكل اشارة تقوم بها شخصية من الشخصيات بشكل أو بآخر على بقية الادوار . وقد ساعد مبدأ « المجموع » والكل الشامل هذا المسرح على

اظهار الحركة فى الحياة الفعلية لا على مجرد خلق صور حية منعزلة • وكان مسرح الفن يطمع فى أن ينقل الى المتفرجين إحساسا بمجرى الحياة نفسها التى لا تكون فيها الشخصيات الفردية غير مجرد جزئيات •

وليس معنى هذا بالطبع أنه لم يكن ثمة اختلاف فى الرأى بين « تشيكوف » ومسرح الفن •

غير أن مسرح الفن حفز « تشيكوف » الى الكتابة للمسرح ، كما ساعد على اثارة الحماس المتزايد المطرد الذى كان يعانيه الكاتب وقتئذ • وقد بدأت الوشائج الوثيقة بين « تشيكوف » ومسرح الفن نتيجة للقرار الذى اتخذه المسرح باحياء مسرحية « الطائر البحرى » بعد سقوطها الشنيع • وقد تردد تشيكوف طويلا قبل أن يذعن لطلبات « دانشنكو » الملحة وأذن للمسرح باخراج المسرحية • ولم يكن المسرح نفسه مرتاحا كل الارتياح الى هذا العمل • وفى ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٨ أفتتح مسرح الفن بعرض لمسرحية القيصر فيودور بوإنوفيتش •

وفى ١٧ ديسمبر من العام نفسه قدم العرض الاول لمسرحية « الطائر البحرى » وكان هذا العرض هو الذى سيحدد مصير المسرح • فقد لقيت «القيصر فيدو، يو انوفيتش» نجاحا لا بأس به غير أن المسرحيات التى عرضت بعدها لقيت استقبالا فاترا، وكان المسرح مازال يتحسس طريقه ، وكانت مسرحية «الطائر البحرى » أشبه ببيان « منفستو » يسجل فيه المسرح أمانيه لأول مرة ويحدد وجهة نظره الفنية •

وثمة سبب آخر خطير لعدم الارتياح ذلك أن فشل المسرحية هذه المرة معناه توجيه ضربة الى « تشيكوف » قد يكون لها أسوأ العواقب على صحته •

غير أن نجاح العرض فاق كل ما كان متوقعا ولم يعد هناك مجال للشك فى هذا النجاح عند نهاية الفصل الاول للمسرحية والواقع أن الممثلين عقب الفصل الأول ظنوا لحظة أن أسوأ ما ينتظرونه قد تحقق اذ لبث المتفرجون صامتين ••

وفيما يلي وصف ستانسلافسكي لهذا الموقف ، قال :

« اتجهنا في صمت نحو حجراتنا وفي هذه اللحظة انفجر المتفرجون في عاصفة من التصفيق وسارعنا الى اسدال الستار بينما كان الجمهور في حالة من الهياج وأخذ كل من على المسرح يقبل بعضهم بعضا بل ويقبلون المتفرجين الذين اندفعوا الى ما وراء الكواليس » .

وهكذا بعد طول العذاب انتصرت مسرحية «الطائر البحرى» وتكشفت الرمزية التي تتضمنها المسرحية بصورة مختلفة تماما . ان هذه المسرحية التي تتحدث عن انتصار المجهود الخلاق قد جلبت النصر للجهود الخلاقة التي بذلها المجددون وأخرجت مسرحاً جديدا الى الوجود ، مسرحاً للأفكار الجديدة والاشكال المسرحية الجديدة . وفي كل مرة نلمح فيها شعار « الطائر البحرى » على الستار المتواضع لمسرح الفن لم نكن نتمالك أنفسنا من التأثر . وهذه المسرحية التي ارتبطت منذ البداية بحياة « تشيكوف » الشخصية قد امتزجت بحادثة على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة اليه ففي سبتمبر سنة ١٨٩٨ وأثناء احدى بروفات « الطائر البحرى » تعرف « أنطون بافلوفيتش » على زوجته المقبلة « و . ل كنيبر » وكتب يقول في رسالة له عقب مشاهدته لاحدى بروفات مسرحية « القيصر فيدور بوانيفتنش » : « لقد تأثرت حقاً باللهجة المهذبة التي سادت البروفة وأحسست بأنفاس الفن الصادق تهب على من المسرح على الرغم من أن الممثلين أنفسهم لم يكونوا عباقرة وأعتقد أن « ايرينا » كانت ممتازة فان صوتها ونبلها واخلاصها كانت من الروعة بحيث تدفعك الى البكاء ... ولو أنني مكثت في موسكو لكان من المؤكد أن أقع في غرام « ايرينا » هذه »

« وايرينا هذه » هي التي قامت بدورها « الجاليونار ذوفنا كنيبر » .

وتسلل حب عظيم فى حياة « أنطون بافلوفيتش » فى جو من الجمال واللهفة على انتصار الفن •

وفى هذه اللحظة بالذات اضطر الى مغادرة موسكو قاصدا « ملكوفو » فقد ألح الاطباء على انتقاله •• الى الجنوب •• الى شبه جزيرة القرم •

يالتا

كان لابد من بيع « مكلوفو » •• وظلت أسرة « تشيكوف » مترددة حينا من الزمن لأن كثيرا من ذكرياتها قد ارتبط بهذه الضيعة ، ولكن ما أن توفى رب الاسرة « بافيل بيجوروفيتش » فى أكتوبر سنة ١٨٩٨ حتى بدت « ميكلوفو » خاوية بدونه •

ولم تكن فكرة الاقامة فى « يالتا » من الافكار التى تناسب « تشيكوف » اذ لم يكن هذا المكان يستهويه على الاطلاق • وقد كتب لاخته عام ١٨٨٨ عند وصوله الى ذلك المكان قائلا :

« ان « يالتا » خليط من أماكن الاستشفاء الاوروبية التى تذكر المرء « بنيس » أو بغيرها من المدن الصغيرة ، ذلك أن الفنادق الضيقة التى يسترخى فيها المصابون البؤساء بالسل وسحن المتسكعين الاثرياء الذين يجرون وراء المغامرات الرخيصة وثمة رائحة غريبة تطغى على رائحة البحر وأشجار الليمون ، ومرفا قذر تعس ترسو عنده السفن وأضواء كئيبة تنبعث بعيداً فى عرض البحر وثرثرة السيدات وعشــــاقهن الذين أتوا للاستمتاع بالطبيعة تلك الطبيعة التى لا يفقهون عنها شيئا •

كل هذا يترك فى النفس انطباعا موحشا •:• »

ولم تكن المناظر الطبيعية فى شبه جزيرة القرم هى التى تثير النفور فى نفس « تشيكوف » بل كان ابتذال الطبقــة البورجوازية فى « يالتا » مبعث اشمئزازه • وحتى الطبيعـة لم يكن من الممكن أن يستمتع بها المرء أكثر من شهر أو شهرين• هذا بينما كان « تشيكوف » يهفو الى الحياة بين مناظر روسيا الوسطى وهى المنطقة التى يحس بأنه ينتمى اليها • ولم يستطع

« تشيكوف » أن يحتمل الحياة فى «يالتا» اذ كان جوها يبعث على التقزز لا سيما جموع البورجوازيين وما تتصف به من وقاحة وفساد فى الذوق وتصنع وملل · هذا فضلا عن حنينه الى المرأة التى يحبها ، تلك المرأة التى كان يلتقى بها فى فترات قصيرة حتى بعد أن تم زواجها ، ويكون هذا اللقاء عندما تأتى الى « يالتا » أو عندما يسمح له التحسن الطفيف فى صحتــه بالذهاب الى موسكو ، ونضيف الى هذا كله أشواقه الى المسرح الذى يحبه والى موسكو وبطرسبورج وشعوره بالعزلة والوحشة وخاصة فى وقت كانت الحركات الاجتماعية قد أخذت فى الظهور ، وهى الحركات التى كان « تشيكوف » يحب أن يسهم فيها وأن يعرف كل شيء عنها ولهذا كله كان تشيكوف يسمى « يالتا » « بسيبيريا الدافئة » أو « بجزيرة الشيطان » وكم كان سروره بالغا عندما أتى مسرح الفن الى شبه جزيرة القرم ! ·· وكان تشيكوف قد اكتسب معرفته بالمسرح قبل هــذه الزيارة من حضوره لعدد قليل من البروفات وكذلك حفلة خاصة عرضت فيها مسرحية الطائر البحرى لحسابه الخــاص فى مبنى مسرح آخر ، وذلك عندما انتهى المــــوسم وذهب الى موسكو لاقامة قصيرة · أما فى هذه المرة فقد أقبل المسرح وفى جعبته عدد كبير من المسرحيات ومنها « العم فانيا »

وكتب « ستانسلافسكى » يقول :

« كان هذا هو فصل الربيع بالنسبة لمسرحنا وأنضر فترة فى حياته القصيرة وأمتعها · وقد صح عزمنا بعد أن رأينــا تشيكوف لا يستطيع أن يأتى الينا بسبب مرضه ، أن نذهب اليه لأننا أصحاء · واذا لم يستطع محمد أن يذهب الى الجبل فليذهب الجبل الى محمد ·· »

وكانت فترة من أنضر أيام الربيع فى حيــــاة « أنطون بافلوفيتش » وأمتعها أيضا · فقد أقبل اليه فجــأة وهو فى مرضه ووحدته « بجزيرة الشيطان » ·· المسرح الذى عرض مسرحيتى « العم فانيا » و « الطائر البحرى » عرضا رائعا ··

المسرح الزاخر بالطاقة الفتية والايمان بالمستقبل ! وفي هذا الربيع ربط تشيكوف حياته بحياة « ا . ل . كنيبر » .

وكان رجال الأدب مجتمعين فى « يالتا » حينذاك ونذكر منهم جوركي ومامين سيبرياك ، وكوبرين ، وبونين ، وستانيـــو كوفيتش ، ويلباتيافسكى ، وتشيريكوف .

ويقول « ستانسلافسكى » : « كان المثلون والأدباء يجتمعون كل يوم وفي ساعة معينة بمنزل تشيكوف الذى كان يدعـــو ضيوفه الى الغداء وكانت شقيقته « ماريا بافلوفنا » تقوم بدور المضيفة بينما كانت أمه وهى سيدة عجوز جذابة نحبها جميعا تتصدر المائدة .. »

وقد شيد تشـيكوف منزله فى أودكا وهى ضـــاحية من ضواحى يالتا وكان الاهالى يسمونه الـكوخ الابيض واحاطه بحديقة صغيرة وابتاع بالاضافة الى ذلك ضيعة صغيرة اسمها « كوتشوك كوى » وهى على بعد خمسة وعشرين ميــــلا من المدينة .

ولعل من الاسباب التى جعلت تشيكوف لا يحتمل الحياة فى « يالتا » نفسها هو ذلك التناقض المحزن بين ترف الاغنيـــاء الخاملين المبتذلين وبين الفقر المدقع الذى يعيش فيه المعدمون من مرضى السل وقد حاول أن يمد يد المساعدة الى كثير من الكادحين الشرفاء الذين سعوا الى هذا المكان على أمل استرداد صحتهم .

كتب جوركي يقول : « طالما سمعته يقول : (فى هذا المكان مدرس مريض ومتزوج فهل تظن أنك تستطيع مساعدته على أى وجه من الوجوه ؟ لقد رتبت له الأمور مؤقتا ..)

« وذات مرة دعاني الى منزله الريفى فى « كوتشوك كوى » حيث كأن يملك قطعة صغيرة من الأرض ومنزلا أبيض اللون ذا طابقين وقد أخذ يطلعنى على « العـــزبة) وهو يتحدث الى فى لهفة : (لو كنت أملك مبلغا كبيرا من المال لبنيت مصحة لمدرسى القرى المصابين بالسل ولشيدت منزلا تملؤه الشمس والضياء ذا نوافذ واسعة وسقوف مرتفعة ولألحقت بهذا المنزل مكتبة

كبيرة وجميع أنواع الآلات الموسيقية وخلايا النحل وحديقة للخضروات وبستانا للفواكه • ومن الممكن تنظيم محاضرات عن الزراعة وعن الارصاد الجوية فالمدرس يجب أن يلم بكل شيء •• بكل شيء أيها الصديق العجوز ! »

وكان « الكوخ الأبيض » في يالتا يجتذب الناس من جميع أنحاء روسيا ومن بينهم كثير من صغار الناس الذين كانوا يدخلون منزل « تشيكوف » في تبجيل واحترام • وكان « أنطون بافلوفيتش » يمتلك ذلك الفن الذى يجعل الناس يشعرون بالاطمئنان ويستعيدون بسرعة بساطتهم الطبيعية ، فاذا تركوه أحسوا بأنهم كانوا مع شخص « يفهمهم » •

وبينما كانت روسيا وغيرها من البلاد تردد أصداء شهرته ، كان شعوره بعدم الرضا عن عمله يزداد حدة • وقد أجاب عن شكوى زوجته من أنه لا يتحدث اليها مطلقا عما يكتب بقوله : « ان ما أكتبه لا يحتوى على شيء طريف أو شيق وأنا اكتب وأقرأ ما أكتب فأجد أن ما كتبته قد قيل من قبل وأنه كلام معاد وأشعر أن المطلوب حقا هو شيء جديد شيق •• »

وفي هذا ما يفوق سخطه المعهود على نفسه ككاتب ، فهو هنا شعور بأن بلاده مقبلة على مرحلة جديدة من الحياة وشعور بالرغبة فى أن يدلى بكلمته عن التطورات العظيمة الجديدة التى أحس بنضوجها داخل بلاده • كتب يقول لجوركى : « انني أعرف القليل الذى يكاد لا يكون شيئا وكأنني روسي أعيش بين التتار ، ولكنني أحس بارهاصات عظيمة • » ويقول فى خطاب بعث به الى الممثلة الروسية المشهورة « كوميسار زيفسكايا » : « بأى سرور أحب أن أعود الآن الى المناطق المتمدنة •• الى » بطرسبرج « مثلا لكي أعيش فترة أستطلع فيها الامور ، فأنا أحس هنا وكأنني لا أعيش ، بل أنام وأطفو على السطح دون توقف وكأنني » بالونة « لا حول لها ولا قوة » •

وبلغ به الأمر الى الاعتقاد بأن الجو فى منطقة موسكو أكثر ملاءمة له من جو القرم وكان بعض أطبائه ومنهم البروفسور

« استروموف » الذى أمضى « تشيكوف » فترة في عيادته سنة ١٨٩٧ يشاطرونه هذا الرأى نفسه ٠

بيد أن علته كانت تنأى به عن الحياة شيئا فشيئا رغم حماسة للحياة الذى أصبح الآن أقوى مما كان فى أى وقت مضى ٠

وقد أشرقت أعوامه الأخيرة بصداقته لكل من « ليف تولوستوى » و «جوركى» ففي خريف عام ١٩٠١ وصل تولوستوى الى « جاسبرا » ليمضى فترة النقاهة من نزلة شعبية كانت قد أصابته فكان « تشيكوف » كثير التردد عليه ، ووفقا لما يقوله جوركى « كان ليف تولوستوى مغرما بتشيكوف وكان كلما نظر اليه ومضت عيناه بالرقة وكأنما كانت نظراته تلثم وجه تشيكوف ٠٠ وذات مرة كان تشيكوف يسير فى احدى ممرات الحديقة وكان تولوستوى ما زال عليلا يجلس فى مقعد بالشرفة وبدا وكأنه يميل نحوه وقال بصوت خفيض : « يا له من شخص جذاب ، وديع ، انه متواضع رقيق كالبنت بل انه يمشى كما تمشى البنات : انه رائع حقا ! »

وكانت مشاعر « جوركى » نحو « تشيكوف » مشبعة بهذه الرقة وبالاعجاب بكل ما يدور في نفس تشيكوف وبالسرور الحار لكل ما يكتشفه في شخصيته ٠٠ هذه المشاعر التى لا يمكن أن توصف الا بأنها تبجيل وعرفان لوجود مثل هذه الشخصية الرائعة ٠ أما « تشيكوف » فكان مغرما هو أيضا بجوركى ، ومن أوائل من حملوا له التقدير ، كما تنبأ بأن « جوركى » سيكون يوما ما « كاتبا جبارا » ٠ وكانت تجمعهما صفات كثيرة مشتركة أهمها احترام كل منهما للعمل والعقل والثقافة ٠

وقال « جوركى » انه لم يقابل فى حياته « رجلا » يشعر ـ بدلالة العمل فى جميع مظاهره وباعتباره أساسا للثقافة ـ بمثل هذا العمق الذى كان يشعر به تشيكوف ٠

ويذكر أن هذا الموقف كان يتجلى فى كل دقائق حياة « تشيكوف » المنزلية وفى جميع الاشياء المحيطة به كاختياره

لأثاث منزله وفي حبه لهذا كله ذلك الحب النبيل الذي لم يكن يشبه في شيء الشهوة الى تكديس التحف بقدر ما كان تعبيرا عن الاعجاب بالمجهود الانساني الخلاق الذي أبدعه • وكان يحب العمل البناء كزراعة الحدائق وتجميل الأرض •• وكان يشعر بما في العمل من شاعرية ولشد ما كان يعتني بنمو أشجار الفاكهة والنباتات التي يزرعها بيديه ! •• وعندما كان يشيد منزله في « أودكا » قال : « لو أن كل انسان صنع ما في وسعه على رقعة الأرض التي يملكها لأصبح كوكبنا الذي نعيش عليه فتنة للأنظار ! »

وقد استطاع كل من « جوركي » و « تشيكوف » أن يجدا المشارب الخفية المقدسة التي تفضي الى روح الآخر • وليس في تاريخ الأدب كله من أحس بما في العمل من شاعرية بذلك العمق الذي أحس به كل من جوركي وتشيكوف • وفي كل منهما يتمثل ما أثر عن الشعب الروسي من تسامح غير مألوف • وكان اعتقادهما بأن هذا الشعب يستطيع أن يخلق حياة جديرة بعظمته من الاسباب التي قربت بينهما • وقد استطاع جوركي أن يدرك أهم الملامح الاساسية في تشيكوف كانسان وكاتب • وكان على صواب في فهمه لقوة تشيكوف الداخلية وعزيمته القوية •

كتب جوركي يقول : « كانت تلمع في عينيه الرماديتين المتأملتين سخرية رقيقة بارعة وكانت هاتان العينان ترتسم عليهما أحيانا سيماء الجفاء والحدة والقسوة • وفي مثل تلك اللحظات كانت تشيع في صوته المعبر الحنون نبرة غليظة وكنت أدهش كيف يستطيع مثل هذا الرجل الرقيق المتواضع أن يصمد اذا اقتضت الضرورة في وجه الاشياء المعادية له دون أن تهتز الأرض تحت قدميه • »

وجدير بالذكر أن نذكر في هذا المقام كيف كان فنان آخر مرهف الوجدان هو الرسام « ريبين » يرى في تشيكوف شخصية قوية فحلة :

« كانت قوة روسية خالصة من القدرة على التحليل الدقيق الذى لا يرحم تشع من عينيه وكانت هى التعبير السائد على وجهه ، وكان عدوا للاغراق فى العاطفة والمبالغة فى الحماس ، ولهذا كان يصطنع نوعا من السخرية الباردة ليكبح جماح نفسه ولكى يستمتع بشعوره بذلك الدرع من القسوة الذى فرضه على نفسه .

« وكان يبدو لى برجا عاليا من القوة الجثمانية والاخلاقية » .

وكانت الأفكار التى باح بهـا تشيكوف لجوركى تدل على موقف تشيكوف من شخصياته وهو موقف يجمع فى الوقت نفسه بين التعاطف والكآبة والسخرية . قال لجوركى : « اننا نأمل جميعا أن تتحسن الحياة بعد قرنين من الزمان ، بيد أن أحدا منا لا يزعج نفسه بالتفكير فى اصلاحها غدا » .

وكان أنطون بافلوفيتش يتعاطف مع أبطاله الذين يحلمون بمستقبل مجيد وفى الوقت نفسه كان يعاملهم فى تهكم وهو يبتسم ابتسامته اللطيفة الحكيمة على السلبية التى تتصف بها أحلامهم وعلى عجزهم عن الجهاد فى سبيل تحقيقها .

ويقترن اسم « جوركى » بحادث خطير ذى طبيعة سياسية قام به تشيكوف وهو احتجاجه على طرد جوركى من هيئة الاكاديميين المحترمين . ذلك أن جوركى انتخب فى فبراير سنة ١٩٠٢ هو والكاتب المسرحى المشهور سوكوفو كوبيلين (مؤلف مسرحيات « زواج كريشنسكى » و « القضية » و « وفاة تارلكين » ..) عضوى شرف فى قسم الآداب بالاكاديمية وكان « ليف تولوستوى » و « تشيكوف » و « كورولينكو » والشاعر « زمشوز نيكوف » قد انتخبوا أعضاء شرف فى ابريل ١٨٩٩ على أثر انشاء قسم للآداب الحق بأكاديمية العلوم بمناسبة مرور مائة عام على مولد « بوشكين » .

وكان انتخاب جوركى وهو من طليعة رجال الثورة سببا فى اثارة الدهشة والتذمر فى الاوساط الحاكمة وكتب القيصر

نيقولاى الثانى فوق الاعلان الخاص بانتخاب جوركى : « مسألة طريفة كل الطرافة » .

وصدرت الأوامر الى « الدوق قسطنطين » رئيس الاكاديمية أن يلفق بيانا رسميا على لسان الاكاديمية لكى يبطل انتخاب « جوركى » على أساس أنها لم تكن تعرف أن جوركى من المتهمين فى قضية سياسية .

وهكذا أجبرت الاكاديمية على سحب قرارها على رءوس الاشهاد . بيد أن عضوين من أعضائها لم يلتزما الصمت المهين .. وغنى عن القول أن هذين العضوين هما « تشيكوف » و « كورولنكو » .. فقد بعث كل منهما باستقالته الى الاكاديمية احتجاجا على هذه الفعلة الشنعاء . وأوضح تشيكوف فى استقالته الموجهة الى رئيس الاكاديمية بأنه لا يعتبر تهمة عدم الولاء السياسى سببا كافيا لبطلان الانتخاب .

وأخذ اسم « تشيكوف » يزداد ارتباطا فى عقول جمهور التقدميين فى روسيا كلما ازداد الاتجاه التقدمى الاجتماعى نموا حتى أصبح اسمه رمزا على هذا الاتجاه ذاته .. وبدأ تشيكوف يشعر أن هؤلاء الذين يعمل من أجلهم يضمرون له الحب وقد تأثر تأثرا عميقا بالبرقيات التى أرسلها إليه أطباء مؤتمر « بيروجوف » المساهمين فى الخدمات الاجتماعية . وقد أسهم مسرح الفن بحفلة خاصة تمثل فيها مسرحية العم فانيا (وهى مسرحية ألفها طبيب وكان أحد شخصياتها الرئيسية طبيبا أيضا) لصالح هذا المؤتمر . وكان انفعال تشيكوف شديدا بهذا الامر فكتب يقول لزوجته : «يجب أن تخبرينى كيف كانت هذه الحفلة التى أقيمت من أجل الاطباء ، وقد قرأت فى مكان أن الاطباء يعتزمون اقامة وليمة اعترافا بجميل الفرقة التمثيلية فهل هذا صحيح ؟ أرجو أن تؤدى دورك على أفضل وجه .. »

وأثرت هذه المسرحية تأثيرا هائلا على هؤلاء الاطباء وكان من بين مندوبى المؤتمر أشخاص تعرفوا على أنفسهم فى «أستروف»

«طبيب الزمستوف» ووجدوا أن مصيره المفجع شبيه بمصائرهم وكانت أصوات الانتحاب تسمع بين جنبـــات المسرح وتلقى تشيكوف عدة برقيات من المؤتمر جاء في احداها : « ان أطبـاء الزمستوف من بقاع روسيا النائية بعد أن شاهدوا عمل طبيب وفنان يمثل على المسرح يحيون زميلهم ويؤكدون أنهم لن ينسوا اليوم الحادى عشر من يناير » .

وبعث تشيكوف برد الى أحد المندوبين قال فيه : « أحسسبت أثناء انعقاد المؤتمر انني ملك متوج وقد رفعتني هذه البرقيات الى ذروة لم أحلم بها بتاتا . »

وقال لمندوب آخر : « لم أكن أتوقع مطلقا مثل هذه التكريمات وما كان لى أن أتوقعها ولهذا فاني أتلقى الجزاء فرحا وان كنت أشعر أنه أكثر مما أستحق . »

قبل العاصفة

كانت مسرحية « الشقيقات الثلاث » (١٩٠١) تعبيرا عن مزاج تشيكوف السائد فى هذه الفترة وهى الفترة التى يمكن أن نجملها فى أنها توقع للثورة فى المستقبل القريب · وتنطق احدى الشخصيات فى المسرحية بهذه النبوءة : « لقـــد حان الوقت ·· وان شيئا عظيما يدنو منا ·· عاصفة قوية جارفة تقترب رويدا رويدا وســـتجتاح قريبـــا كل ضروب الكسل واللامبالاة والتحيز ضد العمل والســآمة المتعفنة من مجتمعنا ·· وحينئذ سيجد كل شخص عملا بعد خمســـة وعشرين أو ثلاثين عاما ·· كل شخص ! »

وكان تشيكوف يشعر بأشراط العاصفة القادمة ولم يكن عبثا أن حاول النقاد الرجعيون الذين أحنقتهم شعبية « تشيكوف » عقب موته تفسير هذه الشعبية بقولهم ان تشيكوف كان احد « طلائع العاصفة » ·

ويقــول الـــكاتب « يليـــاتيفسكى » عن تشيكوف فى الأعوام الأولى من القرن العشرين : « جاء وقت لم يبق فيـــه شىء من تشيكوف الاعوام السابقة ·· حدث ذلك فجـــأة ولم أكن مستعدا أقل استعداد لهذا التحول ، ذلك أن الموجة الجارفة للثورة الروسية رفعت تشيكوف وحملته عاليا · وألقى ذلك الشخص الذى كان يتجنب السياسة ·· ألقى بنفسه الآن فى خضم السياسة فكان يقرأ الصحف بصور مختلفة ويطالع فيها أمورا لم يألف مطالعتها ، وأمسى تشيكوف المتشائم أو المتشكك — على أحسن تقدير — من أصحاب الايمان · ولم يكن يؤمن بأن الحياة ستتحسن بعد مائتين من الاعوام كما تنبأت بذلك كثير من شخصياته ، ولكنه كان يؤمن بأن هذه الحياة الطيبة ، وأن

هذا المستقبل المشرق الذى ينتظر روسيا ، أصبح قريبا فى متنـــاول اليد ، كما كان يؤمن بأن البعث الذى سيجعل من روسيا بلادا جديدة متألقة سعيدة قد يبدأ فى أية لحظة ٠٠

« ويبدو أن شخصيته كلها قد تحولت تماما ، اذ أصبح منفعلا جم النشاط ، بل ان حركاته نفسها قد تغيرت • وشاعت فى صوته نبرة جديدة •

« وأذكر(١) عند عودتى ذات مرة من بطرسبرج ، وكانت تلك المـــدينة تغلى بالانفعال عشية ثورة ســـنة ١٩٠٥ ، أن طلبنى تشيكوف ذلك اليوم بالتليفون ، وألح على نافد الصبر أن أزوره بأسرع ما يمكن ، فى التو واللحظة لأنه يريد أن يحدثنى عن أمر هام عاجل ، وتبين لى أن هذا الأمر الهام العاجل لم يكن الا رغبته المتلهفة لمعرفة ما يجـــرى فى موسكو وبطرسبرج ، لا فى الاوساط الادبية فحسب — التى كانت تهمه قبل كل شىء آخر — بل فى عالم السياسة ، وما وصلت اليه الحـــركة الثورية النامية • وعندما أحس بلهجة الشك فى حـــديثى ، لأننى لم أكن أشاطره أوهامه فيما يتعلق بمجريات الامور فى ذلك الحين ، تملكه الانفعال ، وأخـــذ يفند مـلاحظاتى بأقوال عنيفة غليظة خرجت به عن مألوف أسلوبه •

« وكان يصيح غاضبا : « كيف يمكن أن تقول مثل هـــذه الاشياء ؟ ألا ترى أن كل شىء بدأ يتحرك من أعلاه الى أسفله ٠٠ المجتمع ٠٠ والعمال !

« وفجأة ٠٠ قدم الى مخطوطا رغم ما عرف عنه من تحفظ فيما يختص بكتاباته وقال : « لقـــد فرغت منـــه توا ، وأحب أن تقرأه ٠٠ »

« وقرأته ٠٠ وكان هذا المخطوط هو قصة « العروس » التى احتوت على نغمة جديدة تخلو من يأس تشيكوف المعهود • وكان

---

(١) المتحدث هنا هو الكاتب طيباتيفسكى وكان يقيم فى يالتا ويعمل فيها كطبيب •

من الواضح أن تغييرا عظيما طرأ على تشيكوف ، وعلى تصوراته الفنية ، وأن مرحلة جديدة قد بدأت فى كتاباته .

« ولم يقـدر لهذه الفترة أن تطـول ، فقد مات تشيكوف بعدها بقليل . »

ويشهد كاتب معاصر آخر هو « ف . فيريسايف » على هذا التحول نفسه ، فيقول :

« أدهشنى الاهتمام الحاد الذى أظهـره تشيكوف بالمسائل الاجتماعية والسياسية ، فقد قيل لى ان تشيكوف لا يكترث أدنى اكتراث بالسياسة . ولعل أبلغ دليل عـلى ذلك هـو صـداقته الوطيدة برجل مثل « سوفورين » رئيس تحـرير صحيفة « نوفوى فريميا » . بيد أن تشيكوف أصبح شخصا مختلفا ، ويبدو أن كهرباء الثورة التى شحن بها الجو حين ذاك ، قد سرت اليه أيضا . »

ونستطيع أن نستدل على الاطار الذهنى الذى عاش فيـه « تشيكوف » أثنـاء تلك الفترة (من ١٩٠٠ الى ١٩٠١) من خطاب بعث به جوركى الى ف . بوسى ، ففى هـذا الخطاب يذكر جوركى أن تشيكوف قال له : « أشـعر أنه ينبغى على المرء أن يكتب بصـورة مختلفة عن أشـياء مختلفة لقارئ مختلف — قارئ يتميز بالقسوة والامانة . »

ونحن نعلم أن ادراك تشيكوف لضرورة الكفاح الايجابى ضد مساوئ الرجعية يرجع الى العقد التاسع ، وفى ارتباطه بهـذا المـوقف بدأ يشعر بالازدراء للضعف والتردد ، وبالحنين الى العمل ، والى الاشخاص القادرين على الكفاح .

وأخذت مثل هذه الافكار والميول تقوى وتشتد فى نفسه خلال الاعوام السابقة على الثورة مباشرة ، وما أحس من قبل بمثل هذا الشوق الى أناس يستطيعون المبادرة الى الكفاح ، ولم يسبق له أن كان بمثل هذه القسوة على التخاذل ، وعلى التفرقة بين

القول والعمل ، وعلى المثالب الاخـــرى التى لحقت بالمثقفين فى ذلك العصر •

وكلما ارتفع صوت الثورة عاليا فى كتاباته ، اشتد تهكمه على هؤلاء الذين يستغرقون فى الاحلام الجميلة عن « الحيــاة التى سينصلح حالها خلال مائتين من الاعوام » ذلك أنهم عاجزون عن الكفاح من أجل حياة أفضل تبدأ غدا » ، واختار للتعبير عن هذا التهكم اللاذع المؤلم أكثر الاشكال الفنية تنوعا وغرابة ، ومزج فى جـــرأة بين العنصر الدرامى والعنصر الهـــزلى فى مسرحياته ، وتمتاز آخر مسرحياته وهى « الشقيقات الثلاث » و « بســتان الكرز » بهذا المـــزج البارع بين عنصرى الدراما والهزل •

وقد نشأ هذا المزج عن شعور تشيكوف بأن الحياة القديمة شارفت نهايتها •• وأن العاصفة المطهرة التى سوف تجتاح لعنة الماضى من أرض الوطن ، قريبة ، آتية ! وفى هذه اللحظة يشعر الفنان بحقه من الناحيــة التاريخية ـ فى التهكم على مآسى الحياة البائدة •• ومع ذلك فأنهـا مآس •• غير أن تشيكوف ينظر اليهـــا الآن ـ كما فعل فى قصـــة « زيارة الاصدقاء » ـ من وجهة نظر المستقبل ، ولهذا يتجلى له ما حفلت به الاشكال القديمة للحيــاة ـ من عبث وتخـــاذل وتناقض تاريخى ••

ويشعر تشيكوف بالالم يحز فى نفسه من أجل أبطاله الذين لا يعملون شيئا ، وانما يكتفون بمجرد « الكلام » عن العاصفة المقبلة ، وعن الحياة الجميلة السعيدة التى يدخرها لهم المستقبل دون أن يهتدوا الى طريق الكفاح ، الطريق الذى يقـــودهم الى ذلك المستقبل ، فيهيب بهم تشيكوف للبحث عن هذا الطريق ، ويهزأ من ضعفهم •

وقال تشيكوف عن الشقيقات الثلاث » انها ملهاة خفيفـة • وينبئنا « ف • ى • نيميروفتش ـ دانشنكو » أن تشيكوف

كان يلح على هذا القول الحاحا شديدا ، عن أن «ستانسلافسكى» يقول : ان تشيكوف بعد أن قرأ مسرحيته على ممثلى « مسرح الفن » انتابته حيرة صادقة من جراء المناقشة التى تلت ذلك ، اذ وصفها بعض الممثلين بأنها « دراما » ، ووصفها بعضهم الآخر بأنها « مأساة » ، وفى نهاية الامر لم يستطع أن يتمالك أعصابه ، فغادر المسرح خفية .

ويقول ستانسلافسكى : « وبعد أن انتهت المناقشة ، هرعت الى تشيكوف ، فلم أجده منفعلا مستاء فحسب ، بل وجدته غاضبا ، وقلما كان يغضب .. اذ كان يعتقد أنه كتب ملهاة مرحة ، ولكن المستمعين اعتبروها « دراما » ، وذرفوا من أجلها الدموع » .

غير أن تشيكوف كتب هو نفسه كلمة « دراما » تحت عنوان « الشقيقات الثلاث » ، بينما عرف « بستان الكرز » بأنها « ملهاة » فعلا . فلابد من افتراض أن ما أساء تشيكوف هو أن مستمعيه رأوا الجانب الدرامى من المسرحية ولم يفطنوا الى عنصر الملهاة ، وأنهم لم يدركوا السمة الرئيسية الهامة فى المسرحية ألا وهى المزج بين الدراما والملهاة .

والموضوع الدرامى فى «الشقيقات الثلاث» هو نفسه موضوع « الاستبس » و « العم فانيا » ، وأعنى به الجمال الذى يبدد عبثا . فأى ثراء روحى ، وأية لهفة على العمل المنزه عن أنانية الذات ، وأى تجاوب مع كل ما فى الحياة والناس من خير ، وأية شفافية وحنان وألمعية ، وأية رغبة حارة فى حياة نقية انسانية رشيقة ، وأى تطلع نحو السعادة نجده فى هؤلاء النساء الرائعات .. الشقيقات الثلاث .. !

غير أن هذا كله لا يجد تجاوبا أو مجالا للممارسة .. لأن الحياة الواقعية المتبذلة الغليظة المنفرة تسد على الشقيقات الضعيفات كل طريق ، ويلتهم « العمل الذى يخلو من الشاعرية والفكر » شباب « ايرينا » و « أولجا » ، وتغيض من نفسيهما

بواعث السرور عندما لا تجدان من يبادلهما هذه الأحاسيس ، وتختنق الحياة ــ وكأنها عشب ضار ــ أنفاس الجمال ٠

وفى المسرحية فضلا عن ذلك نسيج من النغمات الساخرة « الهزلية » الأخرى ٠

وشـــخصيات مسرحية الشقيقات الثلاث يحلمــون كثيرا بالمستقبل وفى أحـلامهم جمـــال وتعقل ٠ ويمتاز فرشنين بالفصاحة فى هذه الناحية ، ولكن ما أشد التناقض بين أحلامه الجريئة الجارفة ، وبين سلبيته ، واستسلامه للحظ العاثر ! وهو يتحدث الى النـــاس جميعـــا عن زوجتـــه ــ وهى امرأة هستيرية مبتذلة توشك أن تتردى فى هاوية الإنتحار ــ وعن بناته التعسات ٠ وهذا التهافت والشذوذ يحرمه من العظمة ، ويصل به الى مستوى « الكوارث الواحدة بعـــد المائة » التى جعلت من « يبيبيكودوف » شخصية هزلية فى مسرحية « بستان الكرز » ٠

وينبع العنصر الهزلى المضـــحك فى مسرحية « الشقيقات الثلاث » من التقابل القائم بين جرأة الحلم ، وجبن الحالمين ٠ وتوحى الينا غزارة هذه الأحاديث الحالمة عن المستقبل دون أن يواكبها أى مجهود للكفاح من أجل تحقيقها ٠ » توحى الينا ايحاء شديدا بشخصيات مثل « أوبلوموف » (فى قصـــة أوبلوموف من تأليف جونشاروف) و « ماينلوف » جوجول : « الارواح الميتة ») ٠

وأحس « تشـــيكوف » بما له من ذهن صاف متزن ، وبما يمتاز به من حب للعمل ، وبغض لمجرد الكلام ، أحس احساسا حادا عشية العاصفة الكبرى ــ بالعزلة التى يقف فيها «فرشينين» واضرابه عن الكفاح الحقيقى من أجل المستقبل ، وبالسخرية الكئيبة التى انطبع بها موقفهم ٠

وكان حب « تشيكوف » لشخصياته المفضلة يمتزج بما يشبه الاعتذار عن ضعفهم ٠ سواء فى حالة الحب أو البغض ــ وعن عجزهم عن « بناء حياتهم بأنفسهم » كما عبر عن ذلك « ف ٠ ى ٠ نيميروفتش ــ دانشنكو » ٠ ولهذا يبدو أن « تشيكوف »

أراد تعديل عنصر المأساة في المسرحية بادخال العنصر الهزلي .
وكأنه يشك في أبطاله ، ويرتاب في صلاحيتهم للدراما .
ويتجلى حب « تشيكوف » الخجول لأبطاله ، واحساسه بالمسئولية حيال وطنه وشعبه – ذلك الاحساس الذي ازداد حدة « عشية العاصفة » . يتجلى هذا كله في تحفظه المتواضع الذي يعرب به عن « موافقته » على حق هذه الشخصيات في الاشتراك في الدراما . وبينما نراه لا يتساءل اطلاقا عن حق « آستروف » و « العم فانيا » في مثل هذا الاشتراك نراه في حالة « فيشينين » لا يستطيع الامتناع عن هذا التساؤل . واذا تغيرت العهود ، فلا بد من تغيير الأغاني أيضا ، والأشخاص من أمثال « فيشينين » لا يقعون دائما فريسة لذلك اليأس المفجع ، وكان « تشيكوف » يشعر أن هناك « مخرجا » وأن هذا المخرج يأتي عن طريق الكفاح . وعلى الرغم من أنه لم يكن يعلم – ولا كان أبطاله يعلمون – كيف يشرعون في الكفاح ، الا أنهم كانوا يدركون أن التقاعس والأحلام السلبية لا سبيل الى الصفح عنها ، بعد أن ظهر الآن شخص قوي شجاع يستعد لاثارة « عاصفة عنيفة عاتية » ولن يستطيع هؤلاء الذين لا يفطنون الى السخرية الكامنة في « الشقيقات الثلاث » أن يفهموا عمق النقد الذي وجهه « تشيكوف » الى نقائص المثقفين وتخاذلهم في ذلك العهد ، وما يمتاز به هذا النقد من بصيرة نافذة .

وهناك شخصيات يبدو فيها العنصر التهكمي أقوى من العنصر الدرامي مثل شخصية « تشبوتيكين » العجوز الذي يعمل جراحا بالجيش فهذا الرجل منفصل تماما عن الواقع حتى ليغدو صورة كاريكاتوريه بل يشعر هو نفسه أنه طيف وخيال غير واقعي سواء أكان مخمورا أم كان في كامل وعيه فان النغمة الدائمة التي يرددها هي : « اننا لا نوجد ولا شيء في هذا العالم يوجد ، اننا لاشيء ، كل ما في الأمر أننا نحسب أنفسنا موجودين » وهذا هو أحد

الموضوعات العميقة ذات الدلالة الكامنة فى المسرحية ، وفيه يعبر « تشيكوف » عن حنينه الى العمل والى الجهاد الصادق • فبغير النشاط الاجتماعى لا توجد غير أقوال وأحلام فحسب والأحلام وحدها لا تثبت أننا موجودون فى العصر الذى نعيش فيه •

وقد بدأت فى الظهور فى جميع جوانب الحياة قوة جديدة حاسمة هى الطبقة الكادحة في روسيا التى تأهبت لوضع مصير البلاد فى قبضتها • وظهر تأثير هذه القوة بطريق غير مباشر فى كتابات « تشيكوف » أيضا بحيث حدد موقفه النقدى ازاء ضعف الشرفاء الكادحين من الناس الذين يلوذون بالسلبية الاجتماعية وبالثقافة الس...
«تشبوتيكين» « اننا لا نوجد وانما نظن ذلك فحسب » على جميع هؤلاء الحالمين الذين كانوا عاجزين عن القيام بأى عمل لتحقيق أحلامهم • وثمة لمسة قوية من السخرية فى تصوير شخصية أندريه برزوروف أخو الشقيقات الثلاث وكانت شقيقاته على يقين من أنه سيصبح أستاذا عالما ولكنه انحدر سريعا وفى يسر أشبه بالهزل الى حضيض الابتذال وغدا « أستاذ المستقبل » سكرتيرا لمجلس « الزمستوف » الذى يرأسه عشيق زوجته • وكان يسمى العمل التافه الذى يؤديه فى فتور وفى غير حماس بأنه « خدمة » وأليس اعترافه بأن زوجته (التى يستسلم مع ذلك لابتذالها ممتهنا كرامته) ليست انسانة ، بل حيوان صغير أعمى غليظ القلب • أليس فى هذا الاعتراف ما يذكرنا بأن المسرحية عبارة عن ملهاة خفيفة ؟ وأى شىء يمكن أن يناسب المهزلة المسرحية من اعترافه بأنه بعد وفاة والده ــ الذى كان يضطهده هو وشقيقاته بالتعليم حتى جعلهم يتقنون ثلاث لغات ــ قد بدأ فى السمنة وأصبح يدينا فى ظرف عام واحد وكأنما أزيح عن جسمه حمل ثقيل ؟

ومن الواضح أنه كان خاضعا لارادة شخص آخر فلما زال هذا الضغط بدأ يترعرع جسمانيا ومعنويا ٠

أما فرشيبى وتوزنباخ فهما بالطبع طراز آخر يختلف عن « أندريه بروزوروف » ولكن سلبيتهما تنطوى على الاخطار نفسـها التى حطمت « بروزوروف » كما أن فى حنين الشـقيقات الثلاث ، ذلك الحنين اليائس الى تحقيق حلمهن بالذهاب الى موسكو شيئا كثيرا مايبعث على ابتسامة تشيكوف الماكرة ٠ ذلك أن الحلم وحده لا يؤلف الوجود فى عالم الواقع ٠

كانت هذه هى مشاعر تشيكوف التى حملها بين جنبيـه عندما ذهب ليلتقى بالعاصفة العنيفة القوية ، تلك العاصفة التى تحمل فى ثناياها السعادة لبلاده ٠



انطون تشيكوف و ل.ن. تولستوى فى كريميا ١٩٠٢

مرحبًا بالحياة الجديدة

ومسرحية « بستان الكرز » ـ وهى آخر ما أنتجته عبقرية تشيكوف ـ مزيج جرىء من الملهـاة ـ التى تتحـول بين حين وآخر الى مهزلة بقول تشيكوف ـ والشعر البارع الرقيق • ويتخلل الضحك والمرح المنطلق فى جميع مواقف المسرحية • غير أن العنصر الشـــاعرى ليس أقل من ذلك دلالة ويتميز تشيكوف بأنه مبتكر لأكثر الاشكال الدرامية الجديدة اصالة وهو شكل الملهاة الشاعرية أو المهزلة التى تتضمن لمحات اجتماعية • وقد عبر كارل ماركس عن فكرة عميقة عندما وصف الضحك بأنه طريقة « لتوديع » الاشكال العتيقة الباليـــة من الحياة •

ويمكن أن تعد مسرحية « بستان الكرز » نوعا من التوديع الذى تقوم به روسيا الجديدة الفتية للمـــاضى الذى استنفذ أغراضه والذى قضى عليه القضاء المبرم السريع •

ونهاية الحياة القديمة قريبة الى حد أنها تتخذ طابعا هزليا غير حقيقى وكأنه شبح يخلو من كل معنى • وهـذا هو مفتـــاح المسرحية •

والانماط المضمحلة التى تنتمى الى حياة ذلك الماضى هى أشبه بالاطياف وخاصة الشخصيتان الرئيسيتان فى المسرحية وهما رانفسكايا وشقيقها جايف وفى استطاعتهما أن يقـــولا عن أنفسهما دون أدنى مجانبة للصواب : « اننا لا نوجد وانما نظن ذلك فحسب • »

ويملك « جايف » و « رانفسكايا » أجمل ضيعة في هذا العالم » كما يقول لوباخين وهي ضيعة فاتنـــة وأفتن ما فيها هو « بستان الكرز » وقد وصلت الضيعة الى حالة يرثى لها نتيجة لاستهتار أصحابها واخفاقهم المطلق في فهم الحياة الواقعية وأصبح الحل الوحيد هو أن يعرض هذا البســتان للبيع في المزاد ويحذرهما التاجر لوباخين وهوابن فلاح استطاع أن يجمع ثروة كبيرة وهو الآن صديق الأسرة — يحذرهما من الكارثة وشيكة الوقوع ويقترح عليهما عدة مشروعات لانقاذ الضيعة ويتوسل اليهما أن يتدبرا تلك المصـيبة المعلقة فوق رءوسهما · بيد أن « رانفسكايا » و « جايف » يعيشان في عالم خيالي ويضع « جايف » مشروعات خيالية واحدا اثر الآخر ، ويذرف كل منهما دموعا غزيرة على بستان الكرز الضائع الذى لا يتصور الحياة بدونه · وفي الوقت نفسه تسير الاحداث في مجراها الطبيعي ويعقد المزاد ويبتاع لوباخين نفسه هـذه الضيعة ·فاذا نزلت بهما هذه المصيبة لم تبد كمأساة بالنسبة لرانفسكايا وجايف اذ تعود رانفسكايا الى باريس والى «حبها» السخيف الذى كان لا مناص من أن تعود اليه على أية حال رغم كل ما أعلنته عن عدم قدرتها على الحياة بعيدا عن وطنها وعن بستان الكرز.وكذلك سرعان ما يعقد جايف الصلح بينه وبين الموقف الجديد ونتبين أن المأساة الرهيبة ، ليست مأساة على الاطلاق بالنسبة لابطالها لسبب بسيط وهو انهما لا يستطيعان الشعور بأى شيء شعورا جديا أو مفجعا · هذا هو الجانب الهزلي من المسرحية ·

ويلعب « بستان الكرز » دورا بارزا متعـــدد الوجوه في المسرحية · فهو أولا وقبل كل شيء رمز على ما في الحياة القديمة من شعر ، ذلك الشعر الذى يتغنى « بضوء القمر وبالاطياف البيضاء ذات الخصور النحيلة وأوكار الطبقة الراقية »

هذه الاشياء التي وصف « تشيكوف » اضمحلالها وابتذالها المطلق وصفا قويا في قصة « زيارة الاصدقاء » وهذا اللون من

الشعر قد انحل الآن فأصبح مهزلة وملهاة خفيفة وانقضت ثقافة الطبقة الارستقراطية وأصبحت أشبه بخزانة كتب قديمة كما يقول « جايف » هذه الشخصية الهزلية التي تعد ضحية للثرثرة · كما تودع آنيا ابنة رانفسكايا ـ تلك المرأة التي يمكن أن تعد الوارثة الشرعية لـ « ليزاكاليتينا » كما صورها تورجنيف في كتابه « وكر الاعيان » الحافل بالشاعرية الذاوية أو الوريثة الشرعية «لتتيانا لارينا» في مسرحية يفجيني أونيجن لبوشكين ·· تودع « آنيا (هذا الجمال العتيق الخالي من الحياة وداعا أخيرا مرحا · ويعد الطالب بيتيا تروفيموف مسئولا الى حد ما عن تطورها الروحي اذ يساعدها على فهم موقفها من ماضي وطنها وحاضره ومستقبله · ويفتح عيني « آنيا » على القـوى الشريرة السوداء المستخفية وراء ما في أوكار الطبقةالراقيه من شر ·

ويقول للفتاة التي تنصت اليه في شغف :

« تصوري يا آنيا أن اباءك واجـدادك كانوا من أصـحاب الرقيق ، كانوا يملكون أرواحا حيـة ـ ألا تشعرين الان ان وجوه هؤلاء الرقيق تنظر اليك في كل حبة من حبات الكرز وفي كل ورقة وشجيرة من أوراق هذا البستان وأشجاره؟ ألا تسمعين أصواتهم ؟ ان « ملكية بني الانسان قد غيرتكم جميعا أنت وأجدادك حتى أصبحت عاجزة أنت ·· أو أمك أو خالتك عن ادراك الامر على حقيقته وهو أنكم تعيشون على حساب هؤلاء الذين لم تكونوا تسمحوا لهم بدخول المنزل · ومن الواضح أننا لو أردنا أن نعيش في الحاضر فيجب أولا أن نضع حـدا للماضي وأن نتخلص منه خلاصا تاما »

وفي هذه العبارة « أن نضع حدا للماضي » تتمثل الدلالة العاطفية في هذه المسرحية ·

ان « تروفيموف » يدعو « آنيا » للنظر الى جمال المستقبل ويقول : «انني أشعر باقتراب السعادة يا آنيا بل أوشك أن أراها مقبلة ··· أجل انها السعادة وهاهي تقترب وتدانو شيئاً

فشيئا وأكاد أسمع دبيب خطواتها . ولو أننا لم نعش لنراها ولم نعرفها مطلقا فما أهمية ذلك اذا كان غيرنا سيراها ! » .
وبالطبع ليس « بيتيا تروفيموف » ممن ينتمون الى المجاهدين التقدميين الاشداء الاكفاء الذين يناضلون من أجل سعادة المستقبل . وخلال هذه الشخصية تشعر بتلك المفارقة نفسها بين قوة الحلم واتساع مجاله وبين ضعف الشخص الحالم ، كما تلمس ذلك في « فريشينين » و « توزنباخ » والانماط التشيكوفية الاخرى . و « وبيتيا تروفيموف » ذلك « الطالب الأبدى » و « الجنلتمان الذى أكلته العتة » هو من الشخصيات ذات العقل الصافي ، ويتمتع بالجاذبية ، وغرابة الاطوار ، ولكنه ليس قويا القوة الكافية للكفاح .. العظيم . وبعبارة أخرى لا يصلح لشيء كباقي الشخصيات في المسرحية غير أن كل ما يقوله لـ « آنيا » يشعر به تشيكوف » نفسه شعورا وثيقا .
ونلتقى هنا مرة أخرى بالنغمة المعهودة عند « تشيكوف » ، وهي دنو السعادة . ومن الواضح أن مثل هذه السعادة لاتأتى على يد « لوباخين » العصامى صاحب الاعمال ! ومع ذلك نرى أن النقاد الذين وصفوا « تشيكوف » بأنه «بورجوازى » أو « راديكالى » أو شيء من هذا القبيل ، قد فسروا المسرحية على هذا الاساس .. وكأن من الممكن أن يقترن شخص من طراز « لوباخين » بالجمال على أى وجه من الوجوه ! ان كل ما يفكر فيه لوباخين هو أن يزيل « بستان الكرز » الجميل ليقيم مكانه منازل ريفية صغيرة يعرضها للايجار ، وأنه ليحمل معه الى الحياة « الشر البورجوازى المبتذل » الذى سيحطم ويقتلع كل ما هو جميل ! « ولوباخين » كما يصفه « بيتيا تروفيموف » بحق ــ عبارة عن « وحش مفترس يريد أن يلتهم كل ما يعترض سبيله .. وقد التهم «بستان الكرز» . و « لوباخين» ضرورى بالنسبة « لاقتصاد الطبيعة » ــ كما يقول تروفيموف ــ لأداء وظيفة اجتماعية قصيرة الاجل ، ألا وهى الاسراع بالتدمير ، و « التهام » كل ما استنفد أغراضه .

بيد أن المستقبل لم يجعل لأمثال لوباخين !

و « بستان الكرز » مسرحية تعالج ماضى بلادنا وحاضرها ومستقبلها ، والمستقبل ينهض أمام أبصارنا فى صورة بستان جميل رائع •

ويقو ل « تروفيموف » فى الفصل الثانى « ان روسيا كلها هى بستاننا » وتضرب « آنيا » على هذه الوتيرة نفسها عندما تقول فى المنظر الاخير :

« سنزرع بستانا جديدا أجمل من هذا البستان ••• »

كما تتمثل أمام أعيننا صورة لجمال « الوطن نفسه »

أما « جاييف » و «رانفسكايا» وأضرابهما فليسوا جديرين بما فى المستقبل من جمال ، بل انهم ليسوا خليقين بجمال الماضى الذاهب ، لأنهم السلالة المنحلة من ثقافة الماضى ، انهم مجرد أشباح لا يمثلون هذه الثقافة نفسها تمثيلا حقيقيا •

كتب جوركى يقول : « هناكرانفسكايا »الباكية ، وغيرها من أصحاب « بستان الكرز » السابقين •• الانانيين كالاطفال، الضعفاء كالشيوخ •• انهم يعيشون فىماضيهم ، ويتباكون، لانهم لا يرون شيئا ، ولا يفهمون شيئا مما يدور حولهم •• انهم طفيليات لا يجدون من أنفسهم القدرة على التشبث مرة أخرى » فلا هم بتفاهتهم ، ولا « لوباخين » بنثره ، ممن يمتون بأية صلة الى شعر الحياة أو الى ما فى بستان الكرز من حسن رقيق !

سيمضى هؤلاء ليخلفهم أناس جديرون بما فى بلادهم من جمال ، قادرون على تطهيرها ، والتكفير عن ماضيها كـــله ، وتحويلها الى حديقة ساحرة •• ويشعرنا الكاتب بأن « آنيا » من هؤلاء الناس •

هذا هو المعنى الشعرى الكامن فىالمسرحية التى تعد أكثر أعمال « تشيكوف » ، اشراقا ، وتفاؤلا •

وقد أراد « تشيكوف » أن يخرج « مسرح الفن » هـــذه المسرحية بالروح المتفائلة نفسها التى سيطرت عليه أثنـــاء

كتابتها ، وكان يريد أن يضج النظارة بالضحك على تفاهة العالم الذي يعيش فيه «جاييف» و «رانفسكايا » وبعده عن الواقع ، وطلب أن يعهد دور «رانفسكايا » الى ممثلة مشهورة كانت تؤدي دائما أدوار العجائز المضحكات ، وكان يريد أن تتجلى لأعين المشاهدين الطبيعة الهزلية لما يعانيه أبطال المسرحية من آلام ، وما يسكبونه من دموع • وعندما كتب اليه ف•ى• نيميروفتش ـ دانشنكو» قائلا : «ان هذه المسرحية تحتوى على عدد كبير من البكائين » ، كانت دهشة « تشيكوف » بالغة ، فكتب اليه يسأله : « لماذا تقول فى برقيتك ان المسرحية تحتوى على عدد كبـــير من البكائين ؟ وأين وجدتهم ؟ ان فاريا هى البكاءة الوحيدة •• وهى بكاءة بطبيعتها ، ومن ثم لا ينبغى أن يكتئب المتفرجون لدموعهـــا •• ومن الحق أننى أجعلهم يتحدثون فى كثير من الاحيان « خلال دموعهم » ، ولكننى لا أفعل ذلك الا لاظهار نفسيتهم •• والدموع نفسهـــا ليست ضرورية » •

ونحن لا نستطيع جادين أن نتوقع من المتفرج أن يتعاطف مع آلام هؤلاء الناس السطحيين الذين لا يتألمون حقا ، حتى ولو كانوا فى ظرف « جاييف » و « رانفسكايا » وخفة ظلهم •• فكل ما يحيط بهم عبث سخيف حتى ما نعلمه من أن زوج «رانفسكايا» الراحل « مات من الافراط فى احتساء الشمبانيا» ، فالموت نفسه يتخذ فى هذا الوضع صورة هزلية مضحكة ، اذ تتحدث « رانفسكايا » عن زوجها الراحل بوصفه رجلا لم يخلق فى حياته شيئا غير الديون !

والمنهج الذى اتبعه « تشيكوف » لإبراز تفاهة العالم الذى يعيش فيه « جاييف » و « رانفسكايا » وسطحيته وبعده عن الواقع ، منهج طريف كل الطرافة ، اذ أحاط الشخصيـــات الاساسية فى الملهاة ، بشخصيات أخرى هزلية صريحـــة مفخمة ، لتعكس التفاهة المضحكة فى تلك الشخصيـــات الرئيسية •

وقد أجرى « تشيكوف » تجربة لهذا المنهج « الانعكاسى» فى احدى مسرحيات الصبا المبكر وتدعى « اليتيم » وفى هذه المسرحية تتجلى طبيعة « السادة » الخانعة عن طريق تشابههم وخدمهم ٠٠ فالاسياد هنا ينعكسون فى خدمهم ، ويعرب أحد أشخاص المسرحية عن دهشته لهذا التشابه قائلا : « انهم يرتدون جميعا ثياب السهرة ! فياعجبى ! انك تشبه أسيادك!»

وهذا المنهج الهزلى الذى يستخدم انعكاس الشخصيات بعضها على البعض الآخر يتطور فى تنوعات عدة ، مبتدئا من أبسط الصور الى أشدها تعقيدا ٠

وتقول « دونياشا » الوصيفة لعشيقها « ياشا » الخادم : « لقد غدوت عصبية ٠٠ وأنا دائما مرتجفة الاعصاب وقد كنت فتاة صغيرة عندما أتوا بى الى منزل سيدتنا ومنذ ذلك الحين تغيرت عن أهل طبقتى وأصبحت يداى فى بياض أيدى السيدات ٠ وأنا شديدة الحساسية والرقة وأخاف كل شيء بل أنا خائفة دائما ولو أنك خدعتنى يا ياشا فلست أدرى ما سيحدث لاعصابى » ٠

« فدونياشا » هنا صورة هزلية من سيدات الطبقة الراقية ذوات الخصور النحيلة والاعصاب المرهفة ٠ و « دونياشا » تحلم بكل ما كانوا يحلمون به من أشعة القمر والمغامرات الغرامية ٠ وتقوم أيضا شخصية « شارلوت »السيدة ذات الاطوار الغريبة والكاتب يبيخودوف والخادم « ياشا » يقومون بأدوار هزلية عن طريق انعكاسهم على شخصيات أخرى فى المسرحية ففى هذه الصور الكاريكاتورية عن الطبقة الراقية تتضح لنا السطحية والنرق والبعد عن الواقع فى الحياة التى يحياها « جايف » و « رانفسكايا » ٠

وثمة شيء مشابه لذلك فى حياة « شارلوت ايفانوفنا » المضحكة المنعزلة التى لا يحتاج اليها أحد بل وكذلك حياة « رانفسكايا » نفسها ، وكل منهما تعتبر الاخرى مخلوقا غريبا

ملغزا وكلتاهما تنظر الى الحياة باعتبارها شيئا غامضا متحولا متلفعا بالضباب • وعلى هذا النحو تتحدث شارلوت عن نفسها•
« شارلوت (متفكرة) : ليس لدي جواز سفر خاص بى ولست أعلم كم أبلغ من العمر وأعتقد أننى مازلت شابة وقد اعتاد أبى وأمى عندما كنت فتاة صغيرة أن يتنقلا من بلد الى آخر ليمثلا فى الاستعراضات الجانبية وهى استعراضات لا بأس بها على الاطلاق كما اعتدت أنا أيضاً ان أقوم بكل أنواع الحيـــل •
فلما مات أبى وأمى تبنتنى سيدة ألمانية عجوز وتعهدتنى بالتعليم ••• كل ذلك حسن ، وعندما ترعرعت اشتغلت مربية ولكن من أكون ؟ ومن أين اتيت ؟ لست ادرى ••ومن هم ابواى؟ لست أدرى •• ومن المرجح أنهما لم يكونا زوجين على الاطلاق •• (تتناول خيارة من جيبها وتقضمها) لست أدرى شيئا على الاطلاق (فترة سكوت) أننى أتوق الى الكلام ولست أجد من أتحدث اليه فلا أصدقاء لى •• أما من أكون ولماذا أعيش فلا يعرف ذلك أحد •• »

وليست حكايتها بالحكاية المرحة غير أن الممثلة التى تجعل من شارلوت شخصية محزنة يخطئها التوفيــق ذلك أن اهم ما فى هذه الشخصية هو قدرتها على أن تنسى نفسها تماما فى غرامها بالشعوذة وأداء الحيل المختلفة • و « شارلوت » تنسحب من هذه الحياة المتقلبة التى يستعصى كل ما فيها على الفهم والتى « تبدو وكأنها تعيش فيها فحسب » الى حياة أكثر من ذلك تقلبا ، حياة تهزأ من المنطق فى عالم الحيل والشعوذة وفى هذا القرار من الواقع عزاؤها وحياتها كلها •

وليست « رانفسكايا » بأقدر على فهم معنى حياتهـــا من «شارلوت» وهى أيضا « لا تجد من تتحدث اليـــه » ولذلك تشكو الى « بيتيا تروفيموف » بنفس العبارات التى استخدمها شارلوت فتقول : « تستطيع أن تميز بين ما هو حقيقى وبين ماهو غير حقيقى • أما أنا فيبدو أننى فقدت بصرى ولست

أستطيع أن أبقى وحدى فان الصمت يفزعنى ٠٠» وهى لا تكف أيضا – شأنها شأن شارلوت – عن التفكير فى أنها ما زالت شابة وهى أيضا امرأة غريبة الاطوار تتشبث بالحياة دون أن تفهم عنها شيئاً •

أما يبيخودوف » فشخصية هزلية كل الهزل وهو بمصائبه « الواحدة بعد المائة » نوع من الكاريكاتير « لجايف » صاحب ضيعة « سيمينوف بيتشيك » كما يشبه الى حد ما شخصية لبيتيا تروفيموف » (وهنا نتذكر « فرشنين » احدى شخصيات الشقيقات الثلاث بأرزائه التافهة) و « يبيخودوف » شخص طيب لا يصلح لشىء وقد لاحظ بحق ناقد معاصر لتشيكوف فى بستان الكرز هى (مسرحية المخلوقات التى لا تصلح لشىء،

وهذا الجزء من موضوع المسرحية يتركز حول «يبيخودوف» فهو روح تلك الجماعة من المخلوقات اللاتى لم تنضج بعد ٠

و « جايف »يشبه (يبيخودوف) فى أن له هو الآخر « مائه مصيبة ومصيبة » ٠ ولا تتمخض نواياه الطيبة عن شىء بل ينتهى عند كل خطوة من خطواته بالفشل المضحك ٠ وتؤكد «شخصية «يبيخودوف» ما تتصف به هذه المصائب من سطحيته وما فيها من طبيعة هزلية مضحكة ٠

وكذلك المالك سيمينوف بتشك الذى يشرف دائمـا على هاوية الافلاس التام ويجرى لاهثا الى أصدقائه سعيا وراء القروض – يعد هو الآخر رمزا حيا على « المصائب الواحدة بعد المائة » ٠ وهو رجل « يعيش على الديون » ، كما يقول « بيتيا تروفيموف » عن كل من جاييف » و « رانفسكايا » ٠٠ ومثـــل هؤلاء الافراد يعيشون « عالة على الآخرين ، وعلى الشعب ، وحياتهم المضحكة المتقلبة قمينة بأن تنتهى سريعا ، وسريعا جدا ٠

ولكن ٠٠ من أين ينبع العنصر الغنائى فى مسرحية «بستان الكرز » ؟

ثمة نغمة دائمة من الحزن التشيكوفى على الجمال المبدد تتردد فى تضاعيف المسرحية ، وهو حزن على « بســـتان الكرز » الشاعرى ، وكأنه مرثية وداع •

بيد أن هذا حزن مشرق، كالحزن الشائع فى أشعار«بوشكين» والمسرحية كلها مشحونة بجو من الوداع الزاهر لحياة تمضى بكل ما فيها من خير وشر ، وبالترحيب الجـذلان لكل ما هو فتى جديد •

وينبغى ألا نعتبر الحزن فى مسرحية « بستان الكرز » حزنا على الآلام السطحية التى يعانيها الاشخاص من أمثال «جاييف» « رانفسكايا » ولو أنك اعتبرت التيارات الغنائية الداخلية فى المسرحيه ـ مثل اتخاذ « بستان الكرز » رمزا ـ شيئا واحدا وتلك الشخصيات الهزلية ، ولو أنك نظرت الى « جاييف » و « رانفسكايا » باعتبارهما ممثلين للجمال والشعر المضيعين ـ لو أنك نظرت هذه النظرة لكان عليك أن تاخذ جميع عواطفهما ودموعهما ماخذ الجد وهنالك يقع ما كان يخشاه تشـــيكوف اذ تتحول « بستان الكرز » من ملهاة شاعرية تصل فى بعض المواضع الى مهزلة ـ لتصبح دراما « تتقطع لها نياط القلوب » وتستخدم فيها الدموع الغزيرة لا للتعبير عن حالة الاشخاص فى المسرحية فحسب ، بل لاثارة الكآبة فى نفوس المشاهدين أيضا • وفى هذه الحالة لا مناص من أن يشعر النظارة ـ ولا سيما النظارة المحدثون السوفيت ـ بالحرج ، اذ يجدون أنفسهم مرغمين على « مشاطرة » أشخاص المسرحية آلامهم ، فى الوقت الذى يعجز فيه هؤلاء الاشخاص أنفسهم عن معاناة آلامهم معاناة جدية •

وينطبق تعريف « أرسطو » للملهـــاة على « جاييف » و « رانفسكايا » الى حد ما عندما يقول : « الملهاة ـ كما سبق لنا القول ـ هى تصوير لأسوأ أنواع الناس ، على ألا يظهر هذا التصوير جميع نقائصهم ، بل يتناول الجانب الفكه من شخصياتهم ، والشىء المضـــحك جزء مما هو بشع فهو بشع مشوه ولكنه لا يؤلم •• »

وقد أجرى « تشيكوف » سخريته من الارستقراطية الآفلة مجرى الهزل ، وانتقى موضوع سخريته لا من بين الرجعيين الاشرار وأصحاب الرقيق الجشعين ، من أمثال « راشفتش » في قصته : « الضيعة » ، وانما انتقى هذا الموضوع من طائفة مسلية فكهة لا ضرر منها البتة ، ولا يمكن أن تتسبب في الاذى لأى انسان على الاطلاق . وهكذا استطاع أن يعزز مرة أخرى في مزيد من التوفيق ذلك اللحن الذى يدور عن الخراب التام لأوكار الاعيان ، وما حل به من خواء ، وعن الطرق الطفيلية التى يسلكها أشخاص من أمثال « جاييف » و « رانفسكايا »

ويقول تورجينيف رداً على رسالة بعث بها ك.سلوشيفسكى معبرا عن الاثر السيء الذى تركته رواية الآباء والابناء » على الطلبة الروس في جامعة « هيدلبرج » :

«ان روايتى موجهة تماما ضد الارستقراطية باعتبارهاالطبقة المتزعمة .. وانظر الى سحنة كل من ن.ب ، ب.ب. أركادى فستجد الضعف والخمـــول والتفـــاهة مسطرة عليها ، ان أحاسيسى الجمالية حملتنى على اختيار عينات طيبة من الطبقة الارستقراطية ، حتى أثبت ما أريد على أفضـــل وجه .. فأذا كان هذا هو الزبد فما بالك باللبن ؟ وكان من الشـــطط أن أختار مجرد موظفين أو جنرالات أو لصوص .. الخ ، ولذلك انتقيت أفضل مافى الارستقراطيةمنتويا بهذا الانتقاء أن أثبت حقارة شأنها . أما تصوير المرتشين من ناحية ، والشباب الذى لا يلحقه لوم من ناحية أخرى ، فأتركه لغيرى .. أما أنا فقد أردت أكثر من ذلك » .

ومن المستحيل بالطبع أن نجد وجها مباشرا من الشبه بين موقف «تورجينيف» من الارستقراطية فى الآباء والابناء ، وبين موقف « تشيكوف » من هذه الطبقة في « بستان الكرز » اذ ينبغى ألا نغفل من اعتبارنا ان « تورجنيف » في رده عـــلى « ك . سلوشسفسكى » المذكور آنفا ـ يشرح موقفه النظرى والسياسى من الشباب ذوى الميول الثورية والراديكالية الذين

يعرفون عن « تورجنيف » أصله ونشأته الارستقراطية • أما « تشيكوف » الشعبى الذى نشأ فى أحضان الطبقات المتوسطة فلا يمكن أن تنطوى نفسه على شىء غير المشاعر المعـــادية للارستقراطية •• وفضلا عن ذلك لا يستطيع أن يدعى — على عكس تورجنيف — أنه اختار «عينات» طيبة لتمثيل الارستقراطية فى مسرحيته ، •• كل ما يستطيع أن يقوله هو أن « أحاسيسه الجمالية حملته على اختيار نماذج مفلسة من الارستقراطيـــة لا تستطيع أن تناضل فى سبيل بقائها ، وهذا الاختيار أدعى الى اثبات موضوعه الرئيسى ألا وهو تفاهة هذه الطبقة كلها وقلة شأنها ، وانهيارها ، وانتهاء الحياة التى ارتبطت بها •

والموضع الرئيسى للسخرية فى هذه المسرحية هو أن «مأساة» « جاييف و « رانفسكايا » الناشئة عن فقدانهما لبســتان الكرز — تتحول فى المدى البعيد الى أنها ليست على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لصاحبى المأساة نفسيهما — وهذا — على وجه الدقة — هو ما يبرز العناصر الهزليـــة فى مسرحيــة « بستان الكرز » ابرازا واضحا — وتتضمن نظرية « الملهاة » رأيا يقول ان الضحك يثار مما لا نتوقعه (يتوقع المرء أن يشاهد جبلا ضخما هو احد معجزات الطبيعة فلا يرى غير فأر صغير فى مكان الجبل الكبير) • وعلى مثل هذا النحو نتوقع أن نرى « جاييف » و « رانفسكايا » فى حالة من التأثر العميق الذى يهز النفس هزا ••• أن نرى مأساة حقيقية ، وبدلا من ذلك لا نرى هذين الشخصين وقد وطنا أنفسهما على الكارثة المحزنة التى حلت بهما فحسب ، بل نراهما مسرورين من جراء هذه الكارثة •

فالشخصيات فى مسرحية « بستان الكرز » مستوفاة لشروط الملهاة الكلاسيكية • ومن المعروف جيدا أن شخصيات الملهاة ينبغى ألا تتعرض للعذاب ، وأن الصراع فى الملهاة يقوم عادة بين الوسائل السخيفة المجيرة المخزية • (يمكن أن نتذكر هنا

المشروعات الجنونية التى اقترحها « جاييف » لانقاذ « بستان الكرز » مما دفع « رانفسكايا » الى اتهامه « بالهذيان » ٠) ٠ ومن المعروف جيدا أيضاً وفقاً لكثير من التعريفات الكلاسيكية أن الملهاة (أوبالاحرى الملهاة الهزلية ينبغى ألاتثير انفعال المتفرج بلا مناسبة ، كما ينبغي ألا تثير فى نفسه مشـــاعر التعاطف ٠

وشخصيات « بستان الكرز » تعود الى الوفاق مـــع نفسها في يسر تام وسرعة فائقة بعد أن فقدت ذلك الشيء الذى سكبت من أجله طوفانا من الدموع ، والتى أعلنت أنها لا تستطيع العيش بدونه ٠٠ ومن الطبيعى أن مثـــل هذه الفرصة الرائعة ما كانت لتفوتها لسكب الدموع بيد أن الدموع لا تعني شيئا كثيراً ٠

ومع كل ما تمتاز به المسرحية من رقة ولباقة فانها تظهر شيئا من القسوة « الدهمائية » في موقفها من الشخصيات الجذابة أمثال « جاييف » و « رانفسكايا » ٠ وقد كان « ياشا » الخادم هو روح التطفل نفسه ، والتجسيد الكامل لحقيقة هذه الشخصيات وموقفها من الآخرين ٠٠ ألم يكن الاتصال بحياة الطبقة الراقية هو الذى أفسد « ياشا » ؟ ان أفراد هذه الطبقة يمتازون بالعطف واللباقة ، وأرواحهم مهذبة ، قلقة ، مرهفة الاحساس ! وما أشد تأثرهم لو أنهم سمعوا تلك الكلمـــات الفظة التى وجهها ياشا الى الكهل « فيرز » : « أنت مزعج يا « فيرز » (يتثاءب) وقد آن الاوان لكى ترحـــل »٠ وكأن « جاييف » أو « رانفسكايا » يمكن أن يتفوها بهـذا القول الغليظ ! ومع ذلك فهذه الكلمات التى نطق بها « ياشا » تعبر عن حقيقة سلوكهما ، وعن جوهر حياتهما كله ، وعن موقفهما من الرجل العجوز الذى أفنى حياته فى خدمتهما ٠٠ انهما يتركانه وحيدا ٠٠ مريضا ٠٠ فى « الكرار » وكأنه نفاية غير مطلوبة ٠٠ انهما يتركانه لكى « يرحل » على حد تعبير « ياشـــا »

البغيض . وهما لا يفعلان ذلك عن قسوة بالطبع ، وانما نتيجة لعدم شعورهما المعتـــاد بالمسئولية ، وشرودهما ونزوقهما ، وبما يتصفان به من اهمال مأثور عن الطبقة الراقية .. غير أن الحقيقة هي الحقيقة ، والحكم على الناس لا يكون بما يصدر عنهم من أقوال بل بما ينجزونه من أفعال . والحقيقة أن هذين الشخصين لا يعتزان بشيء ، ولا يقدسان شـــيئا ؛ وكل ما يســتطيعان القيـــام به هو أن يتحدثا عن اعزازهما لفيرز وعن حبهما بستان الكرز .

وهذا يفضي بنا الى الاقتناع بما كان ينتويه « تشيكوف » من سخرية عميقة فهذه النهاية الرهيبة لذلك الكهل الضعيف الذى كانما وضع حيا فى كفنه ــ تتيح لنـــا أن ندرك دلالة اختيار « تشيكوف » لهؤلاء الاشخاص الذين يتصفون بالوداعة والجاذبية لتمثيل الطبقة الارستقراطية . وهنا أيضا تظهر موضوعية « تشيكوف » الحصيفة .. فسواء أكان أفراد الطبقة الارستقراطية قســاة القلوب مثـــل « سالتيشيكا » (١) أو طيبين مسليين مثل « رانفسكايا » فان جوهرهم واحد لا يتغير . وقد يكون العيب فى بعضهم هو الوحشـــية ، وفى بعضهم الآخر عدم الشعور بالمسئولية ، واستهتارهم الصبيانى ، ولكن من يدرى أى العيبين « أفضل » وأيهما « أفظع » ؟ مثل هذه النظرة تكشف لنا عن قيمة ما يقوله « بيتيا تروفيموف » عن « بستان الكرز » : « ألا تنظر اليكم الوجوه الانسانية من كل حبة كرز ، ومن كل ورقة وشجرة فى البستان ؟ ألا تسمعون أصواتهما ؟ » والمعنى الحرفى الذى يختفى وراء هذه الصورة : « من كل ورقة وشجرة فى هذا البستان البديع ، تنظر اليكم

---

(١) وتدعى ايضا سالتيكوفا وهى صاحبة الارض التى اشتهرت بتعذيب اتباعها من رقيق الارض ، وقد اهلكت ١٣٩ شخصا فى غضون ستة اعوام من جراء هذا التعذيب ، وذاع امر وحشيتها فلم تجـــد الحكومة بدا من تقديمها للمحاكمة سنة ١٧٦٢ .

وجوه انسانية ، وأرواح حية » يجب أن نشعر بهذا المعنى لكي ندرك أن هذا البستان شيء رهيب ٠٠ فاذا أتيح لنا ذلك رأينا أن هذا البستان كلما ازداد جاذبية وشاعرية ، ازداد وهبة وهذا أيضا ينطبق على « جاييف » و « رانفسكايا » ، فكلما ازداد جاذبية ، ووداعة ، ازداد تصيبهما من الفظاعة بمـــا يظهرانه من نزق واستهتار ٠

وقد وضع جوركى عبارة تنم عن العبقرية على لسان أحـــد أشخاص قصته : « حياة كليم سامجين » عندما قال : « ان الثورة ضد من لا يشعر بالمسئولية » ٠

وليس من قبيل المصادفة أن كلا من «جاييف» و «رانفسكايا» لا يفتأ يذكر طفولته ، فان آثار الطفولة ما زالت واضحة فيهما، وموقفهما من بستان الكرز يتسم بالصبيانية كموقفهما من الحياة بوجه عام ٠ وهذا ما يدعو « جاييف » أن يقول انه بلغ الواحدة والخمسين من عمره « وان بدا ذلك غريبا » ٠٠ والحق أن الأمر يبدو غريبا من حيث أن هذا الطفل الكبير قد تجاوز الخمسين من عمره ، ذلك أن سن الشخص السوى تبدو طبيعية وملائمة له فى جميع الاعمار ٠٠ بيد أن سن النضوج لا تلائم « جاييف » بحال من الاحوال ٠ أجـــل ٠٠ ان « جاييف » و « رانفسكايا » طفلان كبيران ، وليس من قبيل المصادفة أن أول ظهورهما يكون فى حجرة طفولتهما ٠ وتتساءل آنيا : «هل تذكرين يا أماه فيم أستخدمت هذه الحجرة ؟ » فتجيب انفسكايا متهللة من خلال دموعها : « أجل ٠٠ انها حجرة الطفـولة ! حجرتنا الجميلة يا عزيزتى ! وهنا كنت أرقد أثناء طفولتى (تبكى) وهاأنذا أعود طفلة صغيرة من أخرى ٠٠ » ويؤكـد « جاييف كلماتهــا قائلا : « ذات يوم كنت أنام أنا وأنت يا شقيقتى فى هذه الحجرة نفسها ٠٠ وأنا الآن فى الواحدة والخمسين من عمرى ، وان بدا ذلك غريبا » ٠ أجل ٠٠ انهما ما زالا طفلين « وان بدا ذلك غريبا » ، وقد بدأت معرفتنا بهما فى « حجرة الاطفال » وليس ذلك من الغرابة فى شيء فان الحياة

كلها كانت بالنسبة اليهما « حجرة أطفال » انهما طفلان مدللان. أفسدتهما الحياة والطبقة الراقية التى ينتميان اليها • وهذا الفساد الذى أصاب « رانفسكايا » جزء من طفولتها •• وكذلك تشعر « آنيا » بالطفولة المستقرة فى نفس أمها ولهذا تقترح عليهما أن يدخلا حديقة الغد المسحورة سويا •• وفى هذه الدعوة يتمثل ما فى الشباب من كرم •

وليس فى الحياة أعذب من الطفولة •• بيد أن هذه «الطفولة» تبدو سخيفة اذا ظهرت فى الكبار الذين جاوزوا مرحلة الشباب، وتغدو مضحكة فى سن معينة وهذا ما يحملنا مرة أخرى الى السبب الذى من أجله وصف « تشيكوف » بستان الكرز بأنها « مهزلة من أربعة فصول » •

• ويرتكب المسرح الذى يتجاهل ما فى شخصيتى « جاييف » و « رانفسكايا » من جاذبية ويسر وسحر ليقدم للجمهور الصورة الساخرة من هاتين الشخصيتين ، يرتكب مثل هذا المسرح خطأ شنيعا ، وكذلك يرتكب مثل هذا الخطأ نفسه من يتجاهل الصورة الساخرة لحساب ما فيها من جاذبية ، والشيء الوحيد المطلوب من المسرح بالنسبة لتشكيوف هو : « الدقة » وقد وجد المسرح السوفيتى ليعرض الحياة على المتفرجين •• والحياة معقدة لا تسير دائما فى خط مستقيم ، وهى حافلة بالمتناقضات ، ومن أهم الأمور أن نضع نصب أعيننا ان « الطفيلية » قد تظهر أحيانا فى أكثر الصور تهذيبا وبعدا عن الأذى •

شخصية واحدة فى المسرحية لا تتناقض مع ما فى «بستان الكرز » من جمال ، وكان من الممكن أن تندمج فيه بانسجام ، وهذه هي شخصية « آنيا » •• غير أن « آنيا » صورة للربيع •• وللمستقبل •• وهى تودع الحياة القديمة بأسرها • وآنيا صغرى شقيقاتها الثلاث (أولجا ، وماشا ، وايرينا) لاتختلف

عنهن فى شىء الا أنها قد وجدت قبلتها « موسكو » ، كما فعلت « ناديا » بطلة قصة « العروس » آخر ما كتب تشيكوف ٠

ولا نستطيع أن نفهم شخصية « آنيا » فهما كاملا الا اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شخصية « ناديا » ٠٠ وقد كتبت قصة العروس عام ١٩٠٣ وهو العام الذى كتبت فيه مسرحية «بستان الكرز» وهذه القصة تعد فى موضوع ونغمتها الأساسية « تنوعا » على « بستان الكرز » وشخصيتا « آنيا » و « بيتيا تروفيموف » أشبه بشخصيتى « ناديا » و « ساشا » فى قصة « العروس » والعلاقة بين « ناديا وساشا» هى نفسها العلاقة القائمة بين « آنيا » و « بيتيا » ٠ و «الطالب الأبدى » الذى أمضى خمسة عشر عاما فى احدى معاهد الفن ، هو نفسه « ساشا » الفاشل المنحل الذى لم يكن غير شخصية عابرة مؤقتة فى حياة « ناديا » أعانتها على فهم قلبها ، وتحت تأثيرها تخلصت من خطيبها الأحمق ولاذت بالفرار بعد أن كادت تصل الى المحراب المقدس وذهبت الى العاصمة هربا من أسرتها ، ومن جو الابتذال البغيض ، والسعادة الرخيصة ، ولكى تشارك فى الجهاد من أجل مستقبل جميل ٠ وعندما تنغمس فى هذا الجهاد يبدو « ساشا » لعينيها عذبا مخلصا نقيا كما كان من قبل ، ولكنه لا يعود ذلك الشخص التقدمى الحكيم الذى كانت تظنه ٠٠ وعندما يجمع بينهما اللقاء بعد انفصال طويل يتبدى لها « ساشا » شخصا « فاتر الهمة ، اقليمى النزعة » فاذا تعاقبت الاعوام بدت صداقتها لشاسا وكأنها تنتمى الى الماضى ٠٠ ورغم أنها عزيزة على نفسها ، الا أنها أصبحت الآن بعيدة جدا ٠ وبهذه الطريقة نفسها ستفكر « آنيا » فى صداقتها بـ بيتيا » وتمتاز شخصيات « بيتيا تروفيموف » و « ساشا » وغيرهما من الشخصيات المماثلة فى أعمال « تشيكوف » بشىء من « غرابة الاطوار » و « وعدم النضج » ٠٠ ودلالتها فى الحياة دلالة عرضية ليست مستقلة تماما بمعني أنه ليست هذه الشخصيات ، بل شخصيات أخرى

مختلفة عنها، هى التى تحقق ذلك الحلم الجميل فى حياة تسودها العدالة ..

ويظهر التشابه الداخلى بين « العروس »و« بستان الكرز » أشد ما يظهر فى الاحلام التى تشيع فى العملين عن « الازدهار المقبل » لأرض الوطن ، والشخصيات فى كلا العملين تتنبأ بدنو ذلك العهد الذى تندثر فيه القرى التعسة من أرض الوطن ، « وينقلب فيه كل شىء رأسا على عقب ، وتتحول الاشياء جميعها كأنما بسحر ساحر .. وتظهر المبانى الشاهقة الفخمة ، والحدائق البديعة ، والنافورات الرائعة..والناس الطيبون »..

وما أعظمه من تفاؤل ، وما أنضره من ربيع ذلك الذى تختتم به قصة « العروس » !

فبعد غيبة طويلة تعود « ناديا » الى مسقط رأسها فى زيارة تستغرق أياما قلائل ، « وتتجول فى الحديقة وتطوف بالشوارع وهى ترنو الى المنازل وأسوارها العتيقة ، وتبدو لها القرية وكأنما ركبتها الشيخوخة منذ أمد بعيد . واستنفدت قواها ، وأخذت تنتظر الآن : اما نهايتها ، أو بداية حياة ناضرة زاهرة وهذه الحياة الجديدة النقية تبدأ عندما يمضى المرء قدما الى الامام وهو ينظر الى مصيره وجها لوجه فى شجاعة ، واثقا أن الحق الى جانبه .. مثل هذه الحياة يمكن أن تكون مرحة حرة ! ولا بد أن تأتى ان عاجلا أو آجلا .. وكانت الحياة تنبسط أمامها جديدة رحبة فسيحة .. وعلى الرغم من غموضها واستسرارها فقد كانت تدعوها وتغريها بالتقدم فى سبيلها »

فما أشد الاختلاف بين الخاتمة المشرقة لكل من « بستان الكرز » و (العروس) اذ قيست بخاتمة كل من «العم فانيا» و « الشقيقات الثلاث » ! ان كلا من « آنيا » و « ناديا » قد وجدت الطريق الذى دعا اليه « تشيكوف » شخصياته . وتلك الموسيقى المرحة التى تدعم الحياة والكفاح تضفى جمالا خلابا على قصة (العروس) و (مسرحية بستان الكرز) ، وهما آخر أعمال «تشيكوف» وأكثرها نضارة واشراقا .

ويستطيع كل من القارىء والمتفرج أن يرى فى وضوح مالم يكن « تشيكوف » فى حل من قوله خشية الرقيب ، ألا وهو ان كلا من (ناديا) و «آنيا» قد نزلت الى ميـــدان الـكفاح الثورى من أجل حرية الوطن وسعادته . ويتذكر ف . ف فيريسايف أن مناقشة خفيفة ثارت أثناء قراءة قصة «العروس» فى منزل « جوركى » ، اذ أجاب « تشيكوف » على ملاحظـــة « لفيريسايف » مؤداها أن الفتيات لا يشتركن فى الثورة على هذا النحو » بقوله : « هناك أكثر من طريقة واحدة » .

ولن تغيب عن فهم القارىء هذه الصورة الرائعة للفتـــاة الروسية التى تقتحم طريق الجهاد « لتغيير الحياة تغييرا كليا » ولكى تحول وطنها كله الى حديقة مزهرة ، ويقول ساشا :«المهم هو أن تقلبى حياتك رأسا على عقب .. ولا يعنيك شىء خلاف ذلك . »

وقد شعر « تشيكوف » ـ كما شعر أبطاله ـ : « بأن الأشياء جميعا قد دب اليها الهرم ، وأنها عاشت أكثر مما ينبغى » وأن كل شىء ينتظر « بداية شىء جديد ناضر » وبحماس الشباب أخذ يودع الماضى الذى طالما أبغضه .. وترددت هذه العبارة « وداعا أيتها الحياة القديمة ! » فى ختام مسرحية بستان الكرز» بصوت « آنيا » القوى .. صوت روسيا الشابة .. صوت تشيكوف .

واندغمت صورة « آنيا » و « ناديا » فى صورة « عروس » .. هى صورة شباب الوطن .. وكانت هذه الكلمات : « مرحبا بالحياة الجديدة ! » التى ترددت فى « بستان الكرز » هى آخر كلمات « تشيكوف » .. كلمات مفعمة بالترحيب الحار لليوم الجديد الذى أشرق فجـــره على أرض الوطن .. يوم الحرية والمجد والسعادة .

فى عام ١٩٠٤

كتب ستانسلافسكى يقول : « لأول مرة منذ أن بدأنا فى اخراج مسرحيات « تشيكوف » تصادف أن وصل تشيكوف الى موسكو أثناء الاستعداد للعرض الاول لمسرحية « بستان الكرز » ، فأوحى ذلك الينا أن نقيم حفـــلا لتكريم شاعرنا المحبوب ٠٠ بيد أن « تشيكوف » عارض هذه الفكرة معارضة شديدة مهددا بالاقامة فى منزله والامتناع عن الحضـــور الى المسرح ٠٠ ومع ذلك كان اغراء هذه الفكرة عظيما ، فألححنـا عليه ٠٠ وتصادف أيضا أن كان موعد الحفلة الاولى وهو نفسه عيد ميلاد تشيكوف ١٧ يناير ١٩٠٤ ٠

« واقترب اليوم الموعود ، فكان لا بد من أن نفكر فى شكل هذا الاحتفال ، وفى الهدايا التى سنقدمها الى أنطون بافلوفتش ٠٠ ويا لها من مشكلة معقدة !. وقد طفت بجميع محلات التحف والهدايا آملا فى العثور على شىء مناسب ٠٠ ولكن دون جدوى اللهم الا اذا استثنيت قطعة من القماش المطرز النادر كانت غاية فى الابداع ، ولما يئسنا من العثور على شىء آخر قررنا أن نزين بها اكليلا من الزهر وأن نقدمها اليه على هذه الصورة ٠

« وبعد أن انتهى الحفل عاتبنى تشيكوف قائلا : « أنها بديعة ما فى ذلك شك ، ولكن كان أحرى بها أن توضع فى متحف ٠»

« فسألته : وماذا كان ينبغى أن نقدم اليك اذن يا أنطون بافلوفتش » ؟

فأجاب فى رزانة بعد هنيهة : « مصيدة للفئران فلا بد أن نتخلص من الفئران جميعا » وانطلق ضاحكا ثم قال : « ما أجمل الهدية التى قدمها الى الفنان كوروفين !. أنها هدية بديعة !»

« ونازعنى الفضول الى معرفتها فسألته : « وماذا أهداك ؟ »

« فأجابنى : (عود لصيد السمك) .. »

« ولم تعجبه هدية واحدة من الهدايا التى أهديت اليه، بل ان بعضها ضايقه بما فيها من ابتذال .

« قال : (انك لا تستطيع أن تهدى الكاتب ريشة من الفضة ومحبرة أثرية)

« اذن ، فماذا كان يجب أن يهدى اليك ؟ »

« حقنة شرجية » فأنا طبيب كما تعلم ، أو زوج من الجوارب .. لأن زوجتى لا تعنى بى ، لانها ممثلة ، ولهذا السبب ترانى أنتعل الجوارب الممزقة ؛ وقد قلت لها ذات مرة : (انظرى يا بطتى الى أصبعى الكبير فى قدمى كيف يطل من الجورب) ، فقالت : (ضعه فى قدمك اليسرى) ، وعقب أنطون بافلوفتش مازحا وهو يطلق ضحكته المرحة : (وهذا ليس حـــلا كما لا يخفى عليك » .

« بيد أنه كان مكتئبا طوال الحفلة وكأنه يتنبأ بدنو أجله . وانقبضت قلوبنا انقباضا مؤلما عندما رأيناه واقفا أمام الستار عقب انتهاء الفصل الثالث ممتقع الوجه ، نحيل الجسم عاجزا عن كتمان سعاله أثناء القاء الخطب وتقديم الهدايا .. وأخـــذ الحاضرون فى القاعـــة يهتفون مطالبين بجلوســه .. غير أن تشيكوف عبس وظل واقفا طوال فقرات هذا المهرجان الطويل وكأنه أحد المهرجانات التى طالما تفكه بها فى قصصه .. ولم يستطع أن يدارى ابتسامة راودته .. فقد بدأ أحـــد الكتاب الحاضرين كلمته بنفس الالفاظ التى خاطب بها « جاييف » « خزانة الكتب المبجلة » فى الفصل الاول من مسرحية بستان الكرز فقال :

« أيها العزيز المبجل أنطون بافلوفتش .. انى احييك .. الخ .. الخ »

« واختلس تشيكوف النظر الى لأننى قمت بدور « جاييف » وحامت على شفتيه ابتسامة ماكرة .

« وكان الاحتفال وقورا بيد أنه خلف وراءه شيئا من الحزن .. شيئا جنائزيا .. وأحسسنا جميعا بالانقباض .

« رأقبل ربيع عام ١٩٠٤ بينما كانت صحة تشيكوف تزداد سوءا يوما بعد يوم ، وظهرت على المعدة أعراض خطيرة تنذر بوصول السل الى الامعاء ٠٠ واجتمع الاطباء للتشاور ، وقرروا ارسال تشيكوف الى « بادنفايا » ٠ وتأهب تشيكوف للرحيل الى الخارج ، وانتابنا جميعا شعور واحد وهو أن نتردد على زيارته ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، بيد أن صحته لم تكن تسمح له دائماً باستقبالنا ، فاذا تمكن من ذلك لم يكن يفارقه مرحه على الاطلاق ٠٠ وكان يحلم بكتابة مسرحية جديدة من نوع لم يطرقه من قبل ٠

« وفى صيف عام ١٩٠٤ وافتنا من بادنفايلر الانباء المحزنة بوفاته ٠٠ وكان موته هادئا جميلا موسوما بالانتصار ! »

وقد أحس تشيكوف أنه ذاهب الى « بادنفايلر » ليلقى منيته وأفضى الى الكاتب « ن٠د٠ تلشوف بهذا الاحساس قبل رحيله، ومع ذلك فان الأمل لم يهجره تماما فوضع عدداً من المشروعات بل فكر فى الرحيل الى الشرق الاقصى للعمل طبيبا بالجيش ، إذ كانت الحرب سجالا بين روسيا واليابان ٠

وهــذا ما كتبته زوجته عن الساعات الاخيرة من حيـاته (٢ يوليو) :

« أضحكنى ـ قبل موته بساعات قلائل ـ عندما روى لى قصة يعتزم كتابتها ٠٠ كان ذلك فى مدينة « بادنفايلر » ٠ وكانت صحته قد تحسنت قليلا بعد ثلاثة أيام من الحزن والقلق ، فطلب منى أن أتنزه فى الحديقة ، اذ لازمته طيلة تلك الايام لا أبرح جانبه ٠ وعندما عدت أبدى قلقه لاننى لم أنزل لتناول العشاء ٠ فأجبته بأن جرس العشاء لم يدق بعد ، وتبين لى فيما بعد أن الجرس قد دق ولكننا لم نسمعه ٠ وهنا جعل أنطون بافلوفتش يتخيل قصة تدور حوادثها فى مصحة عصرية أنيقــة تكتظ بالامريكيين والانجليز ذوى الوجوه الموردة ، والكروش المنتفخة والشهية المفتوحة ٠٠ وكيف اجتمعوا جميعا قادمين من رحلاتهم

القصيرة ، أو نزهاتهم وهم يأملون فى الفوز بعشاء طيب دسم بعد المجهود الجثماني الذى بذلوه طوال يومهم،ولكنهم يكتشفون فجأة أن الطاهية قد هربت ، قبل أن تعد طعام العشـــاء ..
وكانت ضربة موجهة الى بطون هؤلاء الاشخاص المـــدللين ..
وكنت أجلس منكمشة فوق الوسادة بعد أيام حافلة بالقلق ، ولكنني ضحكت من أعماق نفسى .. ولم يكن يخطر على بالى مطلقا اننى سأقف بعد ساعات قلائل الى جوار جسده الهامد ..

« .. رحل أنطون بافلوفتش الى العالم الآخر في هـــدوء وسكينة وقد أيقظنى فى الهـــزيع الاول من الليل وطلب منى لأول مرة فى حياته أن أستدعى الطبيب .. وخيم على نفسى احساس بالرهبة من كل ما أفعله .. وهبطت على نفسى سكينة غير مألوفة ، وتحريت الدقة فى تصرفاتى وكأن يدا ثابتة تقودنى .. ولست أتذكر غير لحظة عابرة من الحيرة انتابتنى اذ احسست فى وقت واحد بوجود مئات من الاشخاص فى هـــذا الفندق العظيم النائم ، وبوحدتى المطلقة ، وعجزى التام ..

« حضر الطبيب ، وأمرنى أن أقدم اليه الشمبانيا . وجلس أنطون بافلوفتش وقال للطبيب بصوت مرتفع ولهجة ذات مغزى « اننى أحتضر » قالها بالالمانية التى لا أعرف منها غير القليل ، ثم تناول كأسه ، والتفت بوجهه ناحيتى ، وابتسم ابتسامته العجيبة قائلا : « اننى لم أشرب الشمبانيا منذ عهد بعيد » . وتجرع كأسه فى هدوء ، ورقد على جنبه الايسر ساكنا .. وكان سكونه الى الأبد . ولم يعكر هـــدوء الليل الرهيب غير فراشة كبـــيرة سوداء تحوم فى جنـــون فى أرجاء الحجرة وترتطم فى قســـوة بالمصابيح الكهربائية ، فيسمع لأجنحتها دفيف عنيف ..

« وانصرف الطبيب .. ولاحت طلائع النهار ، وتناهت الى سمعى أصوات الطبيعة المستيقظة ، واختلط شدو الطيـــور الرقيق بأنغام أرغن عذب يعزف فى كنيسه قريبة ، وكأنه يودع روح الميت التى صعدت الى بارئها .. ولم يشب هذه الاصوات

جميعا صوت آدمى ، ولم يمتزج بها شىء من جلبة الحياة اليومية .. بل كان الموت وجده فى جماله وجلاله وسكونه .. »

ونقل جثمان تشيكوف الى موسكو بعد ذلك بأيام قلائل .. وشيعت جنازته فى التاسع من يوليو . وفى مقبرة «نوفودفيشى التى لا تبعد كثيرا عن قبر أبيه ، هجع تشيكوف فى مثواه الأخـــير .

وهبت على بلادنا تلك العاصفة المطهــــرة ، واستحالت أرض الوطن الى حديقة فيحـــاء ، وأضحت القوانين التى تتحكم فى حياتها هى قوانين الحق والجمال .

وقديما كتب تشيكوف فى مذكراته هذه العبارة : « ما أسعد الانسان الذى يحترم الشعب ! »

ونحن الآن نعرف هذه السعادة ، وأصـــبحنا نستوحى فى كل ما شيدناه وما نشيده أعظم ما نكنه من احترام للكائنات الانسانية .

وكان « تشيكوف » يتوق توقانا شـــــديدا الى أن « يمتد به العمر ليساهم فى العمل الخلاق الذى تنبأ موقنا بانفساح مجاله الى غير حد » .

وقد عاش « تشيكوف » ، وعمل من أجل العصر الذى عاش فيه ، والمستقبل الذى نعيش نحن فيه ، لأنه كان يؤمن بنا ، وبقوانا المستبصرة وبارادتنا ، وسعادتنا ..

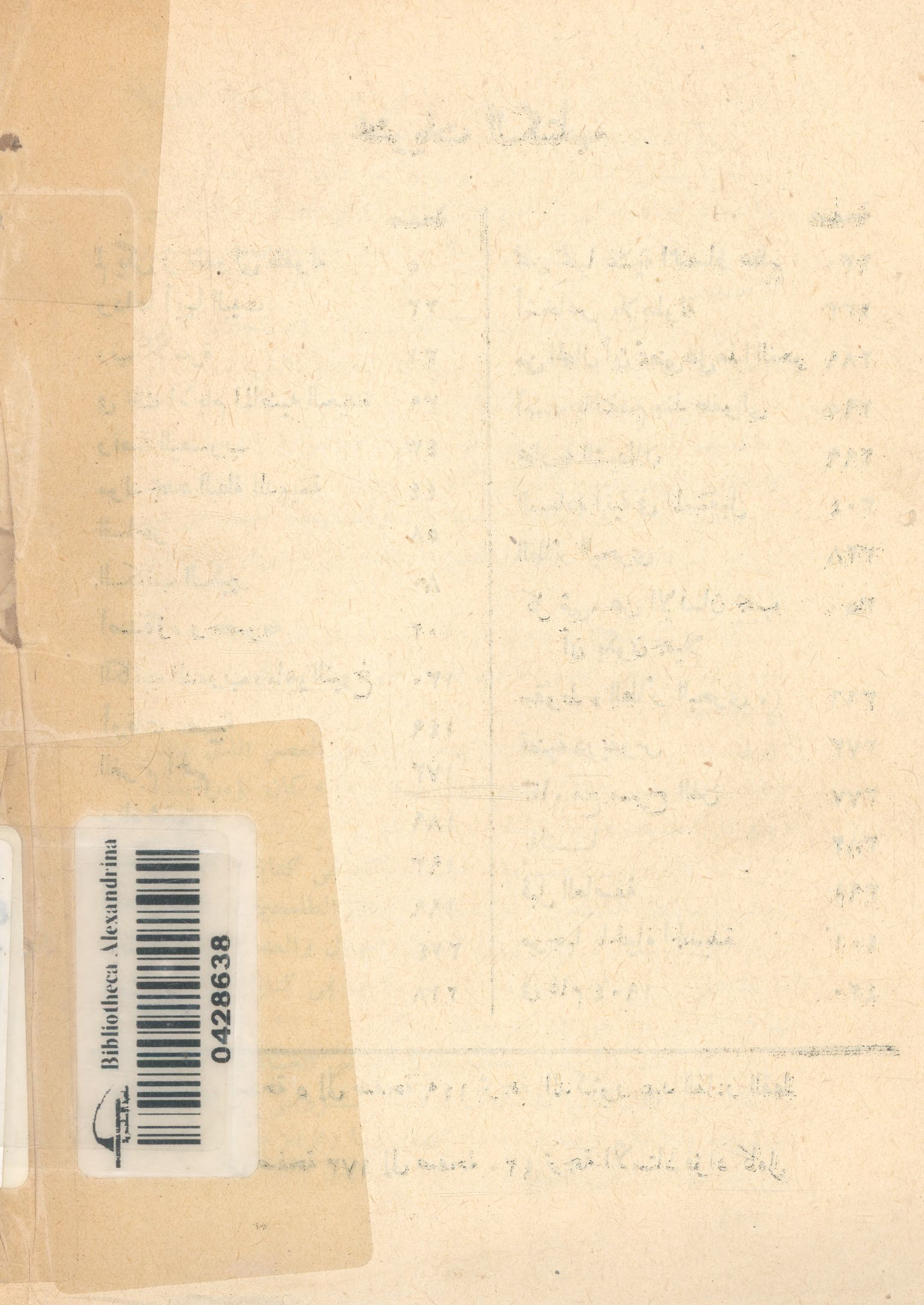
ولأنه كان روسيا صميما ، فقـــد أكد فى كتاباته كلها ما للناس العاديين الكادحين ، والعمال المبدعين الطامحين الى الحرية و « المبدأ السائد » ، المؤثرين للحق والجمال والعدالة على كل ما عداها من مسرات الحياة — أكد تشيكوف فى كتاباته كلها ما لهؤلاء الناس من حق فى السعادة .

وفى كل انتصار جديد يحققه هؤلاء الناس العـــاديون يسهم « أنطـــون بافلوفتش تشيكوف » ذلك الـــروسى البسيط — بعبقريته المتألقة ، وبما قدمه من أعمال وما راوده من أحـــلام وما أثر عنه من حب للحقيقة .

محتويات الكتاب

من صفحة ٥ إلى صفحة ١٤٩ ترجمة الدكتور عبد القادر القط

من صفحة ١٧٣ إلى صفحة ٤٢٠ ترجمة الأستاذ فؤاد كامل


Bibliotheca Alexandrina
0428638